نفحات الرحمن
في
رياض القرآن

تأليف الشيخ

محمد بن ابراهيم سعيد كعباش

الجزء الرابع

نشر جمعية النهضة
العطف - غرداية - الجزائر

نفحات الرّحمن

في رياض القرآن

تأليف الشيخ

محمد بن ابراهيم سعيد كعباش

الجزء الرابع

نشر جمعية النهضة

العطف–غرداية–الجزائر

طبع: المطبعة العربية 11 نهج طالبي أحمد غرداية

تخريج الأحاديث، الفهرسة والتنسيق الفني:

أ. قاسم بن عمر حاج امحمد

أ. عبد الله بن موسى ابن عيسى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

1427 هـ/ 2006م

طبع: المطبعة العربية 11 نهج طالبي أحمد غرداية
الهاتف / فاكس : 53 .36 .88 (029)
المنطقة الصناعية : 34 .34 .87 (029)
Imprimerie.El-Arabia@caramail.com

الإيداع القانوني رقم : 2006/112
ردمك 4 -71- 787-9961 I.S.B.N

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا
آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

(سورة ص: آية 29)

صدق الله العظيم

أول جريمة قتل بين البشر

في قصة قابيل وهابيل

أ)- النص:

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾: من تلا يتلو تلوا، أي تبعَ، و"التلو" كلّ ما يتبع غيره في شيء، والتلاوة: القراءة، وتستعمل في قراءة القرآن، لأن متعلّم قراءته يتبع ويقلّد معلمه في حسن الأداء. ﴿نَبَأَ﴾: الخبر العظيم الذي يجب الاهتمام به. ﴿قُرْبَانًا﴾: ما

يتقرب به إلى الله من أنواع العبادات ويغلب في الذّبائح. ﴿بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ﴾: أي مددت إلي يدك لتقتلني. ﴿تَبُوأَ﴾: من باءَ يبوء، رجع إلى المباءة -المنزل- أي رجوع الإنسان إلى الله للجزاء الأخرويّ. ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾: بمعنى سهّلت، وسوّلت له نفسه، أي بعد معاناة وتردّد. ﴿يُوَارِي﴾: يستر جثّة أخيه بالدّفن في الأرض. ﴿سَوْءَةَ﴾: ما تسوء رؤيته.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مِن أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾: قرأ الجمهور: ﴿مِن أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ بسكون نون "مِنْ" وإظهار همزة "أَجْلِ"، وقراءة ورش عن نافع بفتح النّون وحذف همزة "أَجْلِ" على طريقته. وقرأ أبو جعفر: ﴿مِن أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ بكسر نون "مِنْ"، وحذف همزة "أَجْلِ" بعد نقل حركتها إلى النّون، فصارت غير منطوق بها. ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾: قرأ الجمهور: ﴿رُسُلُنَا﴾ بضمّ السّين، وقرأه أبو عمرو ويعقوب بإسكان السّين ﴿رُسْلُنَا﴾.

د)- البيان والتّفسير:

جاءت قصة ابني آدم معطوفة على قصة بني إسرائيل مع سيدنا موسى عليه السلام في الدّخول إلى الأرض المقدسة، وهي في موقعها المناسب مما سبق وما لحق، لأن ما تقدّم من أحكام تتعلق ببعض الأطعمة وبالصّيد أو ما يتعلق بالطّهارة للصّلاة، وهي طبعا تندرج في الأمر الإلهي بالوفاء بالعقود بصفة عامّة، وتلك الأحكام تندرج في مسؤولية المؤمن على سلوكه اليوميّ، وهو يؤدي حق الله من العبادة، أو يؤدي حق نفسه وأهله في ما يطعمه مما أحلّ الله.

وعلى ذكر أهل الكتاب وحلّية طعامهم للمسلمين ونكاح نسائهم، استطرد السّياق إلى ذكر بعض جرائرهم ومواقفهم مع رسولهم، وتنكّرهم للدّعوة

الإسلامية غرورا وحسدا. وبما أن قصة ابني آدم كان مبعثها أيضا الغيرة والحسد، مهّد الله بها لبيان أحكام بعض الجرائم المضرّة بأمن المجتمع، كالسّرقة والقتل والحِرابة، وما قد يتسبّب فيهما من شرب الخمر ولعب الميسر، ممن ينكصون عن تحكيم شريعة الله في تدبير شؤونهم.

ويعجبني ملحظ الإمام ابن عاشور في ذكر المناسبة بين القصتين، إذ يقول في تفسيره: "والمناسبة بينها وبين القصة التي قبلها مناسبة تماثل ومناسبة تضادّ، فأما التّماثل فإن في كلتيهما عدم الرّضا بما حكم الله تعالى، فإن بني إسرائيل عصوا أمر رسولهم إياهم بالدّخول إلى الأرض المقدسة، وأحد ابني آدم عصى حكم الله تعالى بعدم قبول قربانه لأنه لم يكن من المتقين، وفي كلتيهما جرأة على الله بعد المعصية، فبنو إسرائيل قالوا: اذهب أنت وربك، وابن آدم قال: لأقتلنّ الذي تقبل الله منه.

وأما التّضادّ فإن في إحداهما إقداما مذموما من ابن آدم، وإحجاما مذموما من بني إسرائيل، وإن في إحداهما اتفاقا بين أخوين هما موسى وأخوه على امتثال أمر الله، وفي الأخرى اختلاف أخوين بالصّلاح والفساد".[1]

وابنا آدم في القصة هما ولداه من صلبه "قابيل" و"هابيل"، على ما ذهب إليه جمهور المفسرّين، وهي مفصّلة بأحداثها في نصوص العهد القديم "التوراة"، ولم يوردها النّصّ القرآني إلا بما فيه العبرة والموعظة، ونصّ على أن تلاوة الرّسول لها للنّاس بما فيهم أهل الكتاب تلاوة صادقة ثابتة كما جرت في الواقع، لا زيادة فيها من خيال أو حبكة فنية مما يألفه القصّاصون.

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾: والعجيب في القصة أن يكون دافع الغيرة والحسد قربة إلى الله قام بها الأخوان، مما يدلّ على أن

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير ٦/١٦٨.

باعث الحسد في النّفوس لا يقتصر على الحظوظ المادية العاجلة، بل لعل الحظوظ المعنوية قد تكون أشدّ إثارة للغيرة والحسد، ذلك لأنها مدعاة للحصول على الحظوظ المادية، سيما الوجاهة والحظوة عند النّاس، يقول المتنبي قريبا من هذا المعنى في قصيدته التي مطلعها:

عيد بأية حال عدت يا عيـــد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

إلى أن يقول:

ماذا لقيت من الدّنيا، وأعجبها أنّي لما أنا شاكٍ منه محســـود

والذي حمله على الحسد-أي قابيل لهابيل- هو القبول من الله لقربان هابيل. وجوابه لأخيه الذي توعّده بالقتل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ يشعر بأن سبب القبول هو التّقوى الذي يتميّز بها هابيل دون أخيه، إذ فيه تعريض بسلوك أخيه من سوء النّية والعصيان.

أمّا كيف عرف الأخوان بهذا القبول، فلم يتعرض إليه النّصّ، وجاء البناء للمجهول في فعل "تُقُبّل" مع الزّيادة في المبنى لإظهار العناية بالمقبول، وقبول الله أمر غيبي لا يمكن لأحد أن يجزم به مهما بلغ من التّقوى وخشية الله، بل هو بين الخوف والرّجاء، كما تقتضي آداب الإسلام. وتذكر الرّوايات أن العلم بذلك كان بوحي لأبينا آدم، والمؤمن الوفيّ قد يجد علامات في نفسه، أو من خلال التّيسير الذي يرافق أعماله، يكون مظنة لقبول الله لمبراته.

وفي جواب الأخ لأخيه المتوعّد نوع من الاعتذار والتّبرير بأنه ليس له دخل في هذا الأمر الإلهي، فليس في موقف الأخ المقبول منه ما يثير حفيظة أخيه المرفوض، وهو شبيه بجواب الرّسول للذي قال له: «**إن لي عشرا من الولد، ما قبلت أحدا منهم قط. فقال له الرّسول: أفأملك لك أن نزع الله من قلبك**

الرحمة ؟؟».[1]

ثم يتدرج الأخ المهدد في كسر حدّة الحسود الغشوم ببيان حق الأخوّة وما يتطلب ذلك من مجاهدة السّيئة بالحسنة، ومن اللّين في المعاملة حتى في أحرج المواقف من المهاترة والاستفزاز، لا عن ضعف وجبن، بل عن ضبط نفس وأناة وحلم تستمدّ قوتها من خشية الله وتقاه: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيَ أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهل القتل في حالة الدّفاع عن النّفس كان محرّما في الشّريعة الأولى؟ ثم نسخ بجواز ذلك في حالة الدّفاع عن النّفس كما في الإسلام ؟؛ لم يتعرض النّص إلى شيء من ذلك، بل كل ما يفهم من إجابة الأخ المظلوم أنه يستفظع أمر القتل أيّاً كانت أسبابه، لأن للدّفاع عن النّفس أساليب أخرى دون الانتهاء إلى القتل، منها هذا الأسلوب الوديع في الاستعطاف، وإثارة كوامن النّبل والشّهامة في نفس الجاني، وتهدئة دواعي الغضبية، سيما والأخ المتوعَّد ليس بالكافر الجحود بدليل تقربه إلى الله بالقربان، وعلى أسلوب التّرغيب والتّرهيب في الموعظة والتّذكير، أضاف الأخ المهدَّد قوله: ﴿إِنِّيَ أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَآؤُاْ الظَّالِمِينَ﴾:

فليست العلة -إذن- في امتناع المجني عليه المهدَّد بالقتل عن المجاهدة بالمثل، هو الضّعف والجبن كما سبق، بل هو الخوف من ربّ العالمين الذي جعل للنفس حرمة مقدسة، فلا تزهق إلا بحقها، والخوف من الله يقتضي الإيمان بجزائه العادل،

١- روى البخاري نحوه من حديث عائشة، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، حديث ٥٦٧٥، ولفظ "عشرة من الولد" ورد في أحاديث أخرى، منها ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، حديث ٥٦٧٤، وفي آخره قول رسول الله:«من لا يرحم لا يرحم».

وما جزاء الظّالم أزاء المظلوم إلا أخذه لحسناته، ثم طرح سيّئات المظلوم على الظّالم إن لم تكف حسناته في استيفاء حق مظلومه، كما ورد في الحديث الشّريف، وكما جاء في قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ (النحل:٢٥).

ورجوع الإنسان إلى ربّه بمثل هذه الأثقال من الآثام التي يجمع فيها بين آثامه وآثام غيره، لهو رجوع مشؤوم، يجعل صاحبه من أهل النّار مثوى الظّالمين البغاة.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: كيف كان تأثير ذلك الموقف الرّزين الهادئ من طرف "هابيل" في نفس الأخ الهائج المستوفز؟. إنه الاستسلام إلى فورة الغضبية والانصياع إلى هوس الإجرام، غير أن التّعبير بجملة: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ يوحي بأن الأخ المفتون تنازعته صراعات نفسية بين الإقدام والإحجام وهو يتأرجح بين العاطفة والواجب، بين النّفس الأمّارة بالسّوء والنّفس اللّوامة، ولكل منهما بواعث ودوافع في ذات الإنسان، وهو أمامها ذو كسب واختيار، يمتلك العقل المدبّر والإرادة المنفّذة، وأمام ذلك الصّراع النّفسيّ المتأجّج تنتهي المعركة الدّاخلية بغلبة أحد الطّرفين فيتحدّد بذلك موقف الإنسان من الحق والباطل ومن الصّلاح والفساد، وفي كل حالة تتدخل العوامل المؤثرة من ظروف البيئة، ومن أسلوب التّربية وموحيات المحيط بصفة عامة لتغليب أحد الجانبين عن الآخر .

يقول المتنبّي:

والظّلم من شيم النّفوس فإن تجد ذا عفّــة فلعلّــة لا يظلــم

فالعلة في امتناع "هابيل" عن مقابلة العدوان بمثله هي الخوف من الله: ﴿إِنِّيَ أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾. فهذا العنصر الفعال من أثر الإيمان في حياة الإنسان قد ضعف في نفس "قابيل"، وليس ثمة رادع آخر من وازع السّلطان يثنيه عن عزمه،

فلا مناص -إذن- من وقوع الجريمة: ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وهل يجني المجرمون غير الخسارة في نهاية المطاف؟؟، إنها خسارة مضاعفة، خسارة عاجلة بفقد السّند والنّصير من أخيه الصّالح البارّ، وخسارة الطّمأنينة وراحة البال باقتراف الجريمة، ثم الخسارة الآجلة في عذاب الجحيم.

وهذا الأخ المفتون قد سنّ الإجرام في الحياة البشرية، فقد سنّ سنة سيئة يتحمّل وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة -والعياذ بالله-. فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال في خصوص هذه الحادثة: «**ما من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ذلك، لأنه أول من سنّ القتل**».[1]

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾:

عجبا لمفارقات هذا الإنسان!. لقد انهارت النّفس الجبّارة الحقودة المنتقمة، عندما رأت جثة الأخ هامدة وساء منظرها بوحشة الموت وانبعاث النّتن منها كأيّ حيوان يصرع في فلاة؛ ومن بلاغة القرآن وإيحاءاته في هذا النّصّ أن يصوّر عجز الإنسان وضعفه على ذكائه وقدرته، وكيف أنه بتفاعله مع الكائنات الأخرى يستطيع تطويع بيئته والانتفاع بما سخّر الله له فيها وأنه في كل ذلك مشدود إلى رعاية الله وتوفيقه، مرهون بمدى جهده وكسبه، وأخذه بالوسائل المشروعة والمعقولة، فالغراب إذ يقوم بالبحث في الأرض مدفوع بالغريزة التي حباه الله بها، ولعلها أول ميتة لابن آدم على وجه الأرض، وقف أمامها الأخ الجاني مبهوتا لا

١- رواه البخاري من حديث مسروق عن عبد الله، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، حديث ٣١٨٢.

يدري كيف يتصرّف، ولا عجب في ذلك التّحيّر والعجز، لأن الإنسان الأول لم يهتد إلى الانطلاقة الحضارية في حياته إلا بجهد جهيد، وفي زمن غير قصير، لقد تعلّم الأخ المبهوت من الغراب كيف يدفن جثة أخيه في الأرض، تعلّم ذلك من رؤيته منظر الغراب وهو يبحث في الأرض، بقطع النّظر عن ما تذكره الرّوايات أن قابيل شاهد المنظر كاملا من الدّفن لجثة غراب آخر، أو دفن شيء خلافه، إذ علّل الله بحث الغراب في الأرض بقوله تعالى: ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾.

وفي مرجع الضّمير "ليريه" احتمالان: أنه راجع إلى الله الخالق الملهم، أو إلى الغراب المعلّم والمرشد، وعلى الاحتمال الثاني تكون اللاّم لمعنى الصّيرورة والعاقبة.

﴿قَالَ يَا وَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾: لقد تحسّر الأخ العاجز الحيران فَوَلْوَل لحلول الفضيحة، ثم أردفه بالاستفهام التّحسرّي، مُقرًّا بعجزه المتناهي، وهو يتعلّم من الغراب كيف يفعل بجثة أخيه.

وكم يتعلّم الإنسان مما حوله إذا أمعن النّظر وسخّر مواهبه في تدقيق الملاحظة والتّأمل، وديننا الحنيف يحث على ذلك ويعتبر الذين لا تحركهم مشاهد الكون وسعي الكائنات يعتبرهم من الصّمّ البكم العمي الذين لا يعقلون، ولعلّ هذه الحادثة هي التي جعلت النّاس يتطيّرون من منظر الغراب لسواد لونه ووقوعه على الجيف، فقالوا في المثل: "نعق فيهم غراب البين".

وهكذا يسدل السّتار على أحداث هذه الواقعة الإنسانية الأليمة، وهي ترسم في الحياة البشرية بذور الإحرام والفضيحة، غير أن الخالق الحكيم لم يجرّد النّفس البشرية من النّقد الذّاتي في مثل هذه المواقف التي تجرّ الإنسان إلى الحضيض -أحيانا- بل إن داعية الخير والصّلاح قد تتيقّظ أمام الحقيقة المفجعة، فيتولد عنها ذلك النّدم ووخز الضّمير، فإذا كان النّدم والأسف لا يردّ ما فات، ولا يغيّر من

الواقع شيئا، فحسبه أن يردع الإنسان مستقبلا، إن كان صادقا في ندمه، يقول تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

﴿مِن أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ، مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾.

﴿مِن أَجْلِ ذَلِكَ﴾: يعبّـــر به عن التعليل وهو بمعنى "من جرّاء ذلك" أي التّسبّب في شيء، وذلك إشارة إلى ما ذكر من جريمة القتل العدواني، شرع الله لبني إسرائيل القصاص كما سيأتي تفصيله، والقصاص ضرورة حياة ما دام في البشر نماذج لا يردعها الوازع الدّيني، ولا الموعظة والتّذكير، وما دام فيهم نماذج تميل إلى المسالمة والوداعة، فلا تجد -غالبا- أمنها وطمأنينتها إلا تحت ظل سلطة قوية رادعة، والحكمة تقول: "يزع الله بالسلطان ما لا يزعه بالقرآن".

ولتصوير فظاعة القتل العدواني ترسم الآية هذه الصورة البشعة بالقتل الجماعيّ لكل النّفوس البشرية، لأن الذي يجرؤ على قتل النّفس الواحدة ظلما وعدوانا لا يصعب عليه قتل غيرها من النّاس، لأن حق الحياة أمر مقدسّ لا يملكه إلا واهب الحياة، وبالتّالي هو وحده يملك أمر الموت، ألا ترى جريمة الانتحار كيف اعتبرتها الشّرائع جريمة شنعاء يعاقب عليها فاعلها وإن اعتدى على نفسه ؟؟

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾: بأن أنقذها من الموت فعلا أو عمل لما يوفّر الأمن والطّمأنينة لها فكأنما أحيا النّاس جميعا، لأن النّفس البشرية لا تتوفّر لها أسباب الأمن والطّمأنينة إلا في حضن المجتمع المسلم الفاضل الذي يقوم على تنفيذ شريعة الله.

إذا كان القصاص رادعا شرعيا وقانونيا عرفه البشر منذ أقدم العصور، فما فائدة تخصيص بني إسرائيل بالذّكر بعد قصة ابني آدم وبينهما قرون وأجيال وشرائع

خلت؟

لقد أحسن الإمام الفخر الرّازي الإجابة عن هذا السّؤال حين قال بعد وضع السّؤال هكذا: "إن وجوب القصاص حكم ثابت في جميع الأمم، فما فائدة تخصيصه ببني إسرائيل؟ قال: "الجواب على هذا السّؤال أن وجوب القصاص في حق القاتل وإن كان عامًا في جميع الأديان والملل، إلا أن التّشديد المذكور هاهنا في حق بني إسرائيل غير ثابت في جميع الأديان، لأنه تعالى حكم هاهنا بأن قتل النّفس الواحدة جار مجرى قتل جميع النّاس، ولا شك في أن المقصود منه المبالغة في شرح عقاب العمد والعدوان، والمقصود من شرح هذه المبالغة أن اليهود مع علمهم بهذه المبالغة العظيمة أقدموا على قتل الأنبياء والرّسل، وذلك يدلّ على غاية قساوة قلوبهم، ونهاية بعدهم عن طاعة الله تعالى، ولما كان الغرض من ذكر هذه القصص تسلية الرّسول ﷺ في الواقعة التي ذكرنا أنهم عزموا على الفتك برسول الله ﷺ وبأكابر أصحابه، كان تخصيص بني إسرائيل في هذه القصة بهذه المبالغة العظيمة مناسبا للكلام ومؤكدا للمقصود" اه.[1]

قلت: إن واقعة الفتك بالرّسول وبأكابر أصحابه هي التي ذكرها الرّواة أنها كانت سببا لنـــزول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ اَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ (المائدة:١١). مفادها أن الرّسول ذهب إلى بني النّضير مع كبار أصحابه يطلب منهم أن يعينوه في دية رجلين أصابهما أصحابه، وكان معهما أمان من الرّسول فلزمته بذلك ديتهما، وقد عاهده بنو النّضير على ترك القتال وعلى أن يعينوه في الدّيات، فتظاهروا بإعطائه ما يريد، إذ قالوا لرسول الله ﷺ: اجلس حتى نطعمك ونعطيك ما تريد، ثم هّموا بالفتك برسول الله ﷺ وبأصحابه، فنـــزل جبريل وأخبره بذلك فقام رسول الله

١- الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٢١١/١١.

في الحال مع أصحابه وخرجوا.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾:

الخطأ إذا ارتكبه الإنسان عن سهو أو جهل ربّما يجد النّاس له عذرا فيذكّرون السّاهي ويعلمّون الجاهل، أما أن يرتكبه عن علم وعن سبق إصرار، فذلك هو عين الشّرّ والفساد، وبنو إسرائيل قد شدّد الله عليهم في شأن القتل، إذ جاءهم رسلهم بالبيّنات في ذلك وهم يعرفون ما ينجرّ عن القتل من فساد في الوضع الاجتماعي، ولكنهم أعرضوا وتحدّوا أوامر الله وتجاوزوا كل حدّ في البغي والفساد في الأرض.

والعطف بـــ"ثم" وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ يشعر بالتّراخي، وأن هؤلاء القوم قد تكرّر مجيء الرّسل إليهم، وأن فسادهم إنما يظهر في طبقة منهم، وأن هذه تمثل الأكثرية في مجتمعهم، وذلك عندما يمتدّ بهم الأمد بعد مجيء الرّسل فتقسو قلوبهم، فينحرفون ويفسقون، ويعتدون على نصوص كتبهم بالتّحريف والتّبديل، أو بالتّزييف والتّأويل.

ولذا جاء التّحذير الإلهي للمسلمين من أن يتبعوا سننهم، فقال جلّ من قائل في سورة الحديد: ﴿أَلَمْ يَانِ لِلَّذِينَ آمَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُواْ كَالَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد:١٦). وفي هذا التّذييل تقريع وتوبيخ لبني إسرائيل يمهّد لأحكام الحرابة وقطع الطّرق.

والله أعلم

حكم الحرابة وقطع الطّرق

أ)- النص:

إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يُحَارِبُونَ﴾: محاربة ، ويقال في المصطلح الفقهي "حرابة"، وكلاهما من أصل الحرب ضدّ السِّلم، والحرب: التعدّي بحدّ السّلاح لسلب المال، ويقال: حربية الرّجل، للمال الذي يعيش به. ﴿فِي الأَرْضِ فَسَاداً﴾: الفساد في الأرض ضدّ صلاحها، و يكون بإثارة الفتنة وإزالة الأمن فلا يأمن النّاس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وبصفة عامة كل معارضة لتنفيذ حكم الله وشريعته. ﴿يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ﴾: المبالغة في القتل، وذلك بعدم تعطيله بأي مبّرر كان. والصّلب: هو شدّ الجاني على خشبة أو نحوها منتصب القامة ممدود اليدين، ثم قتله عليها بالطّعن ونحوه ليكون عبرة للمعتبر. ﴿مِنْ خِلاَفٍ﴾: تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف معناه أن يكون العضو المقطوع مخالفا أو على عكس الآخر، أي إذ قطعت اليد اليمنى تقطع الرّجل اليسرى. ﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ﴾: الإبعاد من المكان الأصلي للمجرم حتى يفصل عن جماعته وعصبته، ﴿خِزْيٌ﴾: الذّل والفضيحة. ﴿تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾: تتمكنوا من القبض عليهم لإنزال العقوبة بهم.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد تفظيع جريمة القتل للنّفس الواحدة بذلك التّشبيه البليغ، وذلك حين يكون القتل ظلما وعدوانا وإفسادا في الأرض، وقد جاءكم الحكم الشّرعيّ صارما لردع الجناة، ضمانا لأمن الأفراد الذي هو ضروريّ للاستقرار والسّلم الاجتماعي، ينتقل النّصّ إلى بيان حكم جريمة أخرى تمسّ بالأمن الجماعيّ وتهزّ أركانه وهي ما يسمىّ في المصطلح الفقهي بالحرابة أو المحاربة.

وأيّا كان سبب نزول هاتين الآيتين كما تذكره الرّوايات المختلفة في قصة العرنيين وبني عُكل مع رسول الله ﷺ، فإن هذه الظّاهرة من التّمرّد على السّلطة الشّرعية وتكوين عصابات خارجة عن القانون تنشر الرّعب بين المواطنين وتقطع الطّرق عنهم بحدّ السّلاح لتنهب الأموال وتهتك الحرمات وتسفك الدماء أحيانا.

قلت: هذه الظّاهرة معروفة في كل زمان ومكان، وبما أنها ظاهرة تقع في دار الإسلام، سواء من طرف مسلمين منحرفين أو من ذميين أو معاهدين، فإن لها أحكاما مفصّلة خاصة في الفقه الإسلامي، غير أحكام القتال والجهاد للكفار في دار الحرب.

﴿إِنَّمَا جَزَآؤُاْ الذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً﴾: والتّعبير بمحاربة الله ورسوله من طرف هؤلاء الجناة يعني خروجهم عن أحكام الله التي تلتزم بها الجماعة المسلمة، وهي تعيش في ظل حكم إسلامي صحيح، لا يقرّ بالحاكمية إلا لله، ويكون السّلطان الذي يبايعه المسلمون ظلّ الله في الأرض كما

ورد في الحديث الشّريف: «**السّلطان ظلّ الله في الأرض**»[1].

وبما أن هؤلاء المجرمين لا يقصدون برفع السّلاح إلا الفساد وتشويش الأمن العام، فقد عطف على جملة المحاربة لله ورسوله جملة : ﴿يَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً﴾. والسّعي بالفساد يأخذ أشكالا مختلفة، وله أساليبه المتعددة قديما وحديثا، والتّعبير بالسّعي يدلّ على القصد والعمد، لا يتحقق إلا بالتّخطيط والتّدبير الحازم من طرف هذه العصابات المجرمة، فكل ما يقرّه الشّرع والعقل وكذا العرف بأنه فساد في الأرض فهو يندرج في مفهوم هذه الجملة، أيا كان نوعه أو مجاله، برّا أو بحرا أو جوّا، مما تشمله دائرة السّلطة المسلمة الحقة.

والعقاب الصّارم المشرّع لحدّ الحرابة يقوم على قاعدة سدّ الذّريعة، ضمانا للأمن والاستقرار، على أن الإسلام قد حرّم المثلة بتشويه الأعضاء، فإن الصّلب وقطع الأعضاء من خلاف إنما يراد به ردع المجرمين بأن يكون هؤلاء عبرة لهم.

وقد اختلف العلماء في حقيقة الحرابة والشّروط التي يجب أن تتوفّر في المحاربين، وقد لخصّها الدّكتور وهبة الزّحيلي في تفسيره المنير، فقال: "ويشترط في المحاربين ثلاثة شروط:

أ)- أن يكون لهم قوة وشوكة ومنعة، ليمتازوا على السّراق، وأن يعتدوا على المارّة بسلاح أو غيره من العصا والحجر والخشب ونحوها، سواء أكانوا جماعة أو واحدا، وسواء أخذوا المال من مسلم أو من ذمّي.

ب)- أن يكون قطع الطّريق في دار الإسلام، وأن يكون في رأي أبي حنيفة

١- روي الحديث بألفاظ مختلفة عن عدد من الصحابة مرسلا ومتصلا، وقد ضعفه بعض العلماء كالعقيلي والألباني في ضعيفته، وممن رواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عمر، فصل في فضل الإمام العادل، حديث ٧١١٧، وضعفه.

خارج المصر بين حدود البلاد أو في الصّحراء، لأنه لا يمكن للمعتدى عليه في داخل المصر الاستغاثة بالآخرين، ولم يفرّق الجمهور بين داخل المصر وخارجه، فيمكن حدوث جريمة الحرابة فيهما على حدّ سواء، وقد أثبت الواقع صحة هذا الرأي، لأن عصابات المجرمين يتعرّضون للناس بعد منتصف اللّيل في الشّوارع العامّة وفي الأحياء السّكنية.

ج)- أن يأخذوا المالَ مجاهرة، فإن أخذوه خفية فهم سرّاق يعاقبون بحدّ السّرقة، وهو قطع اليد فقط، وإن اختطفوا شخصا وهربوا فهم منتهبون لا قطع عليهم، وإن استلبوا شيئا من قافلة أو اغتصبوه لا يحدّون حدّ السّرقة ولا حدّ الحرابة." اه[1]

وللمبالغة في التّشنيع بهذه الجريمة الشّنعاء، يذكر النّصّ الجزاء الدّنيويّ مفصّلا ويختار التّضعيف للأفعال: يقتّلوا، يصلّبوا، تقطّع، للمبالغة والتّشديد، حتى لا تراعى أيّة عاطفة كانت عند إقامة الحدّ الدّنيوي الذي يتمثل في أربعة أشياء:

أ)- القتل من غير صلب.

ب)- القتل مع الصّلب.

ج)- قطع الأيدي والأرجل من خلاف.

د)- النّفي من الأرض.

وقد اختلف العلماء في معنى "أو" أهي للتّنويع، فتكون العقوبة على حسب جناياتهم أم هي تدلّ على التّخيير بين الجزاءات، وللإمام أن يختار العقوبة التي يراها مناسبة للجريمة؟. ولكلّ من الرّأيين أدلته عند كل فريق، كما أنهم اختلفوا في معنى النّفي من الأرض، هل يتحقق بمجرّد حبسه، وإن بقي في أرض الجريمة، أم لابد من

١- وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ٦/١٦٥-١٦٦.

إخراجه إلى أرض غير التي أوقع فيها الجريمة، أم هو نفي من الأرض كلها، ولا يتحقق ذلك إلا بالموت؟

ولعلّ الأوفق لمعنى النّصّ -والله أعلم- هو أن يُنفى المجرم إلى أرض يحس فيها بالتّشريد والغربة بعيدا عن رهطه أو عصابته، فأين من هذه العقوبات الإلهية الرّادعة ما نسمّيه اليوم بمؤسسات إعادة التّربية، حيث يجد المجرم ما لا يجده -أحيانا- في منـــزله من أنواع المأكل والمشرب، وضروب من التّسلية، فلا يخرج من هذه المؤسسات إلا للعودة للجريمة وهكذا دواليك، فسبحان القويّ القاهر القائم بالقسط.

﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: "ذلك" إشارة إلى أنواع العقوبـــات المذكورة. ﴿لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾: أي ذلّ وفضيحة، عكس ما كانوا يرمون إليه من العزة والقوة، وطبيعة هذه العقوبات أن يعرفها النّاس، سيما الصّلب والنّفي، وبذلك يزدجر أمثالهم من السّفهاء والغاوين، ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى ما أصرّ هؤلاء على إجرامهم؛ أما إذا تابوا توبة نصوحا وهو ما يزالون على شوكتهم وقوّتهم مما يدلّ على النّدم والإقلاع عن الجريمة، فإن الله يغفر لهم، وهو معنى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿**الاَّ الذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

وفي كتب الفقه وتفسير الأحكام تفصيل لاختلاف العلماء في هؤلاء التّائبين، أهم المحاربون المفسدون من الكفار عندما يدخلون في الإسلام قبل القدرة عليهم أم هم المحاربون من المسلمين؟؟ وهذه التّوبة إن أسقطت ما هو من حقوق الله فلن تسقط ما هو من حقوق العباد في الأنفس والأموال، سيما إذا طالب بذلك أولياء المعتدى عليهم، والله أعلم.

التّقوى والجهاد أساس الفلاح،
ولا فدية للكفار من عذاب النار

أ)- النص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَا وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿الْوَسِيلَةَ﴾: كالوصيلة، يقول الرّاغب في تفسيرها:"الوسيلة: التّوصّل إلى الشّيء برغبة، وهي أخصّ من الوصيلة لتضمّنها معنى الرّغبة، قال تعالى: ﴿وَابْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾، وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى: مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحرّي مكارم الشّريعة، وهي كالقربة" اهـ. وللسلف تفاسير للكلمة لا تخرج عن نطاق هذا المعنى، كالحاجة والقربة والمحبّة والمسألة...إلخ، وقد وردت في الحديث الشّريف الذي ينصّ على صيغة الدّعاء بعد الأذان: «**اللّهم ربّ هذه الدّعوة التامّة والصّلاة القائمة، آت محمدا الفضيلة والوسيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته**»[1]، ويقول الرسول في معنى الوسيلة: «**ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منـــزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون هو، فمن سأل لي**

١- رواه البخاري من حديث جابر بن عبد الله، كتاب الأذان، باب الدعاء عند النداء، حديث ٥٩٧.

الوسيلة حلّت عليه الشّفاعة»[1]، ﴿لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ﴾: أي يكون لهم فداءً ينجون به من عذاب يوم القيامة، حسبما ألفوه في الدّنيا مع الملوك والكبراء. ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: أي ثابت مستقرّ ومستمرّ.

ب)- البيان والتّفسير:

هذا هو النّداء الخامس بصفة الإيمان، وتكتنفه نداءات مثلها تبلغ ستة عشر نداء في السّورة كلها، كل منها يتعلق بحكم من أحكام التّشريع، يقول عنها الإمام الشّيخ شلتوت: "وإذا قورن هذا النّداء بغيره من النّداءات التي وردت في هذه السّورة فإنه يظهر له مكانة خاصّة تأخذ به عن مستوى النّداءات كلها، وتجعل له شأنا جديرا بالعناية والتّقدير". وبعد ذكره لكل نداءات السّورة وما يتعلق بها من أحكام باختصار يقول عن هذا النّداء السّادس: "أما هذا النّداء فإنه يتعلق بملاك الأمر كله، وأساس الامتثال في جميع النّداءات، بل في جميع الأوامر والنّواهي، وهو تقوى الله وابتغاء الوسيلة إليه والجهاد في سبيله".[2]

قلت: إن المفسّرين حاولوا إيجاد المناسبة بين هذه الآية، وما يكتنفها من الأحكام الخاصة بالحرابة والسّرقة، ولكل منهم وجهة نظر واجتهاد لا نجد فيه تناقضا أو تباينا، بل هي في أغلبها متقاربة المعنى، والله أعلم بمراده. ويعجبني منها ما أورده سيد قطب في ظلاله، وهو يبني تحليله على مقولة: "يزع الله بالسّلطان ما لا يزعه بالقرآن"، بعد بيانه لحكم الحرابة السّابق لهذه الآية، يقول: "والمنهج الرّبّاني لا يأخذ النّاس بالقانون وحده، إنه يرفع سيف القانون ويصلته ليرتدع من لا يردعه

١- رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، كتاب الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن، حديث ٦١٢.

٢- محمود شلتوت، التفسير، ١/٣٤٣-٣٤٤.

إلا السّيف، فأما اعتماده الأول فعلى تربية القلب، وتقويم الطّبع، وهداية الرّوح، ذلك إلى جانب إقامة المجتمع الذي تنمو فيه بذرة الخير وتزكو، وتذبل فيه نبتة الشّرّ وتذوى، لذلك ما يكاد ينتهي السّياق القرآني من التّرويع بالعقوبة حتى يأخذ طريقه إلى القلوب والضّمائر والأرواح، يستجيش فيها مشاعر التّقوى، ويحثها على ابتغاء الوسيلة إلى الله والجهاد في سبيله رجاء الفلاح ويحذّرها عاقبة الكفر به، ويصوّر لها مصائر الكفار في الآخرة تصويرا موحيا بالخشية والاعتبار" اهـ.[1]

﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَابْتَغُواْ إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: يتوسط هذا النّداء الإلهي بين حكم الحرابة والسّرقة، وهما انحراف عن الفطرة السّليمة، وبالتّالي هما محادّة لله في مخالفة أحكام شريعته، وانتهاك لحقوق عباده، لأن الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أو الذين يسرقون، هم لا يقدمون على ذلك وفي قلوبهم أثارة من خشية الله والإيمان به، ذلك لأن البهيمية قد استحوذت على نفوسهم وحجبت عن قلوبهم أنوار الهداية، حتى لم يعد فيها ذكر لله ولا أثر لخشيته وقد قال رسول الله: **«لا يزني الزّاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السّارق حين يسرق وهو مؤمن»**.[2]

وحين تستقرّ تقوى الله في قلب المؤمن فإنها تعطيه مناعة كبرى، فلا تخترقها وساوس الشّيطان إلا لماما، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الذينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:٢٠١). ومن هنا جاء التّركيز في الآية الكريمة على صفة التّقوى، وهي صفة تنبع من داخل النّفس لا من خارجها، وهي مناط التّزكية والقبول عند الله، لأن مستودعها القلب. والقلب:**«مضغة إذا**

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/١٤٤-١٤٥.

٢- رواه البخاري من حديث ابن عباس، كتاب الحدود، باب السارق حين يسرق، حديث ٦٤٢٩.

صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله».[١] ويقول رسول الله ﷺ: «**التقوى هاهنا**» (مشيرا إلى قلبه).[٢]

ولما كان واقع النّاس تغلب عليه الرّغبات النّفسية والنّـزوات البهيمية حتى وهم متلبّسون بلباس الإيمان، وهم إذ تحيط بهم خطاياهم ويسرفون على أنفسهم -أحيانا إلى حدّ القنوط من رحمة الله-، فإنهم يقعون في ما وقع فيه مَن قبلهم من أهل الكتاب من الرّكون إلى الوسطاء والشّفعاء، ليقرّبوهم إلى الله زلفى كما قال المشركون.

وقد حارب الإسلام بدون هوادة تلك المظاهر التي يُعتمد فيها للوصول إلى الله على الكهنة أو غيرهم من الأولياء والصّلحاء، واعتبر كل ذلك من الشّرك الخفي الذي قد يمسّ العقيدة، وهذه الآية واضحة المعنى في بيان حقيقة التّوسّل، وأنه يرتكز على المعنى القلبيّ في اعتماده على تقوى الله واندفاعه بخشيته في امتثال الأوامر واجتناب النّواهي طلبا لمرضاته، وذلك يسير على من يسّره الله عليه، إذا ما سلك طريق الهدى، وتزوّد بالبرّ والتّقوى، وليس في ذلك أعظم ولا أنجع وسيلة مما افترضه الله على عبده أولا، وبالتّقرب إليه بأنواع النّوافل ثانيا، وقد جاء في الحديث الشّريف القدسي: «**ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه**»، وفيه: «**ما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه...**»[٣].

وبما أن الطّريق إلى الله محفوف بالمكاره وهو شاق طويل، جاء الأمر الإلهي

١- رواه البخاري من حديث النعمان بن بشير، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث ٥٢.

٢- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، حديث ٤٧٧٨.

٣- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب الرّقاق، باب التواضع، حديث ٦١٦٤.

بالجهاد في سبيله، والجهاد بمعناه الشّامل يعني الجهاد الأكبر، بمقاومة الأهواء، وحمل النّفس على التزام طريق الحق، ويعني الجهاد الأصغر في مقاومة الأعداء حين يصدّون عن سبيل الله يبغونها عوجا، فإذا فعلتم ذلك فقد يُرجى لكم الفلاح في معاشكم ومعادكم، أما الذين يعتمدون في طلب ذلك على الشّفعاء والوسطاء، أو يعتقدون بفدية المسيح، أو فدية المال مهما توفّر لديهم حتى يملأ الأرض مضاعفة، فإن الله تعالى لا يتقبل منهم ذلك، وليسوا بخارجين من النّار، لأن عذابها أليم ومقيم، فهم لا يرجونها وهي لا يخبو سعيرها: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (الإسراء:٩٧). نسأل الله تعالى أن تسلم قلوبنا يوم نلقاه، فلا يخزينا يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

وقد اختلف العلماء في معنى التّوسّل والوسيلة أمام ما تردّى فيه المسلمون أيام ضعفهم من اللّجوء إلى الأولياء والتّوسّل بهم، فمن أراد التّوسّع في الموضوع فليراجع في تفسير المنار ما كتبه الشّيخ رشيد رضا بعنوان: "فصل في التّوسّل والوسيلة عند عامة المتأخرين"[1]، والله أعلم.

حد السّرقة، ومشيئة الله في العذاب والمغفرة

أ)- النّص:

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٦/ ٣٧١-٣٧٩.

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَالسَّارِقُ﴾: أي الموصوف بالسّرقة، عرّفها الفقهاء بقولهم: أخذ أحد شيئا لا يملكه خفية عن مالكه، مخرجا إياه من موضع هو حرز مثله، لم يؤذن آخذه بالدّخول إليه، فأخرجوا من ذلك مثلا ما كان مشاعا بين الشّركاء والعبد، ﴿نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ﴾: النّكال هو العقاب الشّديد، مشتق من النّكول عن الشّيء لسوءه وشدته. والمسروق الذي يقطع به هو ما له منفعة لا يتسامح النّاس في إضاعته، أما قيمته فاشترط جمهور الفقهاء أن تكون ربع دينار لحديث سرقة ترس الجلد في عهد رسول الله ﷺ.[1]

ج)- البيان والتّفسير:

كلّ من الحرابة والسّرقة اعتداء على أموال الغير، وتكون الأولى جهرا وبالقوة والبطش، بينما السّرقة لا تكون إلا خفية لشيء يكون في حرز مثله، وهما متعاطفان توسّطهما النّداء السّادس في الحث على التّقوى والجهاد في سبيل الله للمعاني المتقدمة، وجاء التّعبير بالوصف المتضمن لمعنى الشّرط -عند بعض اللّغويين- لبيان علة الحكم، مع ذكر التّأنيث في الوصف معطوفا على صيغة التّذكير لزيادة التّوضيح والتّفصيل حتى لا يتوهم أن الحكم خاصّ بالرّجال، لأن هذه المعصية قد يرتكبها كل منهما، ولكن من عادة العرب في جاهليتهم أنهم كانوا لا يقيمون الحدّ على المرأة، ويدلّ على ذلك حديث المخزومية مرّة بنت سفيان، حين سرقت فأمر النّبيء ﷺ بقطع يدها، وعظم ذلك على قريش فاستشفعوا لها عند رسول الله بزيد بن حارثة، فغضب الرّسول ﷺ لذلك وقال: «**أتشفع في**

١- رواه النسائي من حديث عائشة موقوفا، كتاب قطع السارق، حديث ٤٨٩٢؛ ورواه أبو داود من حديثها مرفوعا، كتاب الحدود، باب ما يقطع فيه السارق، حديث ٣٨٧٢.

حدّ من حدود الله ؟ ثم خطب في النّاس وقال: «إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».[1]

﴿فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: الخطاب للمؤمنين ممثلين في شخص إمامهم، ويتحقق اسم اليد بالكفّ إلى الرّسغ، لأنها هي التي تباشر السّرقة، وبما أن أغلب النّاس أكثر استعمالا لليمنى في مباشرة أعمالهم، فإن أكثر الفقهاء يرون القطع لليمنى في التّحقق الشّرعي لمعنى السّرقة، إمّا بالإقرار أو ببيّنة تامّة، وفي زيادة قطع عضو آخر عند تكرار السّرقة وكونه اليد اليسرى أو الرّجل اليسرى خلاف بين الأئمة مفصّل في كتب الفقه.

وجاء التّعليل لهذا الحكم بمصدرين "جزاء" و"نكالا"، وفي إسناد كل منهما تأمّل وعبرة، فالجزاء متعلّق بكسب الإنسان، سيما إذا توفرت لديه أسباب الكسب الحلال، وليس له أيّ مبّرر من علّة أو مجاعة أو اضطرار، وهو مع ذلك مؤمن بحكم الإسلام في حرمة السّرقة...الخ، فلم يبق له من دافع إلا الشّره والطّمع، أو التّسلّط والبغي، فإن الزّاجر السّلطاني هو أفيد في منع هؤلاء، وصدّهم عن تحقيق أغراضهم الدّنيئة، وحتى يكونوا عبرة لغيرهم، وهم يحملون على أجسادهم ميسم الذلّ والخيانة، وكل عقوبة دون القطع مما جرّبه النّاس عبر تاريخهم الطّويل كالحبس والتّغريم والإبعاد، لا تكون لها الفعالية مثل حكم الله، هذا الذي يعتبره الكثير من المتفلسفين قديما وحديثا حكما قاسيا لا يليق بكرامة الإنسان المتحضّر، وقديما قال أحدهم في ذلك مستنكرا:

يد بخمس مئين عسجدا وُديت ما بالها قطعت في ربع دينار

١- رواه البخاري من حديث عائشة، كتاب الحدود، باب كراهة الشفاعة في الحد إذا رُفع إلى السلطان، حديث ٦٤٣٥.

فأجابه أحد العلماء الرّبانيين بقوله:

عزّ الأمانة أغلاها، وأرخصها ذلّ الخيانة، فافهم حكمة الباري

والله تعالى إذ شرّع هذه العقوبة يقول إنها نكالٌ منه لمثل هؤلاء العصاة عساهم يرتدعون، وهو العزيز ذو القوة المتين، الحكيم في تشريعاته وفق ما يعلمه من طبائع خلقه، وقديما قال المتنبيّ:

ووضع النّدى في موضع السّيف بالعلا مضرّ كوضع السّيف في موضع النّدى

ولله الحكمة البالغة، وهو بالتوابين غفور رحيم.

﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: والتّوبة المطلوبة هي التّوبة النّصوح بالرّجوع عن الظّلم، وهو موقف سلبيّ هو أدنى ما يطلب من النّاس في حق بعضهم بعض بالنّسبة لمن لا يقدر على سوى ذلك، وإلا فالواجب يقتضي من المؤمن أن لا يقصّر في مجالات البّر والإحسان، ليستكثر بذلك من الحسنات التي تذهب بسيئاته الكثيرة، فإصلاح النّفس بعد تدسيتها يقتضي من التّائب أن يجسّده برّا وإحسانا في معاملة غيره، أما كون هذه التّوبة لا تتمّ إلا بردّ المظالم لأصحابها أو التحلّل منها قدر الإمكان، أو أنها تسقط بحدّ القطع إن عفا المسروق ولم يصل أمر السّارق إلى الإمام، فتلك تفاصيل لها أحكامها في الفقه الإسلاميّ، وهي تأخذ بالتّشديد والتّضييق تارة، وبالسّماحة واليسر حسب ملابسات القضية والظّروف المحيطة بها يحدّدها الحاكم ويتصرف بما هو ثابت عنده، فهذا عمر ﷺ قد عطّل الحدّ في عام المجاعة، كما عطّله عن غلمان أبي بلتعة عندما علم أنه يرهقهم بالجوع، ثم غرّمه جزاء ظلمه، وقد جاء في الأثر: "ادرأوا الحدود بالشبهات".

أما تحديد هذه الشّبهة فلا يمكن فيها اعتماد وضع معيّن، إذ الأحوال تختلف

من مكان إلى آخر وتختلف في الزّمان وفق الأحداث والتطورات، ولذا اختلفت في ذلك آراء المجتهدين، وقال سيدنا عمر ﷺ وهو النّموذج الخيّر للحاكم العادل قال: "لأن أعطّل الحدود بالشّبهات أحبّ إلي أن أقيمها بالشّبهات".

وإجابة للذين يستعظمون هذا الحدّ الصّارم، يأتي هذا التّعقيب الإلهي المناسب لذكر تلك الجريمة والتّوبة منها، بأن الله تعالى هو مالك الملك، وبارئ الخلق، وهو أعلم بما يصلح بهم في تقرير جزاء أعمالهم دينا وأخرى، إن عذابا وعقابا، أو عفوا وغفرانا، كل ذلك مرهون بمشيئته العلية، لا ينازعه فيها أحد، لأنه العزيز الحكيم والغفور الرّحيم.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَّشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَّشَآءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: وقدّم الجزاء العقابي على الغفران مراعاة للترتيب الوارد في الآية السّابقة، ولا ينافي ذلك من أن رحمته تسبق غضبه، لأن العقوبة قد تكون رحمة بالجاني في مجالات التّربية والتّقويم ، والاستفهام تقرير استعمل فيه فعل "علم" لإزالة كل شكّ أو لبس في مجالات العقيدة الصّحيحة في علم الله تعالى وعدله في أحكامه، والله أعلم.

توافق المنافقين واليهود في المسارعة إلى الكفر، وموقف الرّسول منهم

أ)- النص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ

هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾: ويقال يسارعون إلى الكفر: والمسارعة في الشّيء الطّلب الجادّ لتحقيق آثاره وانتهاز أدنى مناسبة لذلك، والتّعبير "في الكفر" يدلّ على أنهم متلبّسون بالكفر داخلون فيه، ﴿فِتْنَتَهُ﴾: أي اختباره لتمحيصه كالنّار للذهب، ﴿لِلسُّحْتِ﴾: كل كسب حرام خبيث يجرّ العار والخزي لصاحبه مثل الرّشوة والرّبا والقمار ... الخ.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لِلسُّحْتِ﴾: قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر وخلف: ﴿سحْت﴾ بسكون الحاء. وقرأه الباقون بضم الحاء: ﴿سُحُت﴾ اتّباعا لضمّ السّين.

د)- البيان والتّفسير:

نداء تشريفي للرّسول بصفة الرّسالة تكرّر مرتين في هذه السّورة الكريمة وحدها، وكثيرا ما يرد النّداء بصفة النّبوءة في السّور الأخرى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ نهاه الله عن الحزن والأسى لتألّب المنافقين عليه وسوء معاملة اليهود له، وتذرّعهم

بالكذب ومسارعتهم في إظهار الكفر، والرّسول من طبعه الرّحمة والحنان والإشفاق، لأنه أعلم بمصير المنافق والكافر، فهو الحريص في دعوته للناس أن يكسب أكثرهم ويجتذبهم إلى حظيرة الإيمان، والحزن والسّرور ظواهر طبيعية في الإنسان، فما كان منهما بالقدر العاديّ المتزن فلا ضير فيه، لأن الإنسان لا يملك فيهما أمره، والله تعالى لا يؤاخذنا بما لا نملك، ولكن الشّرع الحنيف ينهانا عن الإفراط وتجاوز الحدّ فيهما، سيما إذا كانا في الحظوظ الدّنيوية العاجلة، أما الفرح أو الأسى في الحظوظ الرّوحية وفي مجال الصّالحات فذلك أمر مرغوب فيه لقول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس:٥٨).

وكم من آيات في القرآن الكريم تهوّن من شأن الكفار والمنافقين، وتوهّن من كيدهم لتثبيت الرّسول في دعوته وشرح صدره في مواجهة أعدائه، وقد روى المحدثون قصة لسبب النـــزول منها: أخرج أحمد والبخاري ومسلم عن عمر قال: «إن اليهود أتوا النبي ﷺ برجل منهم وامرأة زنيا، فقال: ما تجدون في كتابكم؟ قالوا: نسخّم وجوههما ويخزيان، قال: قد كذبتم، إن فيها الرّجم، ﴿فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران:٩٣). فجاءوا بالتّوراة وجاءوا بقارئ لهم أعور يقال له ابن صوريا، فقرأ حتى إذا أتى إلى موضع منها وضع يده عليه، فقيل له: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا هي تلوح (أي آية الرّجم) فقالوا: يا محمد إن فيها الرّجم، ولكنا كنا نتكاتمه بيننا، فأمر بهما الرّسول فرجما قال: فلقد رأيته يجانئ عليها، يقيها الحجارة بنفسه»[1].

قلت: إن هذه القصص المختلفة التي ذكرها الرّواة في سبب النـــزول

١- الحديث بهذا اللفظ رواه أحمد في المسند من حديث ابن عمر، مسند عبد الله بن عمر، حديث ٤٣٦٦.

نستطيع أن نستدلّ بها على مناسبة هذا النّصّ لما سبق، فقد ذكر الله قبل ذلك حدّ الحرابة والسّرقة، وهذا النّصّ يشير إلى تلاعب اليهود في محاولتهم كتمان نصّ الرّجم للزّاني المحصن، وهو الثّابت في كتابهم، وبما أن هذه الحادثة في سبب النّـــزول كانت بسبب تقاضي اليهود إلى رسول الله في ما اختلفوا فيه، فقد مهّد الله بها لمعالجة قضية الحكم والسّياسة والتّقاضي في المنهج الإسلامي بأن يكون وفق ما شرعه الله من الأحكام عن طريق الوحي، وأن ليس هناك تعارض في الدّيانات الثّلاث، حين يلتزم أتباعها بشريعة الله ويرتضونها دستورا ومنهاجا يحتكمون إليه.

وحين يختلف النّاس وتتصارع أهواؤهم بتعارض مصالحهم وقد ضعف فيهم الوازع الدّيني، فإن الأحكام الشّرعية لا تجد في نفوسهم الرّضى والقبول لها، فيحاولون التّملّص منها بمختلف الحيل والتّأويلات، وقد وقع اليهود في هذا المحذور كما وقع فيه مسلمو اليوم، فليس احتكام اليهود إلى رسول الله التماسا منهم لوجه الحق، ولا تصديقا برسالته، بل يندرج ذلك في مخطط مؤامراتهم الدّنيئة لاختبار الرّسول ﷺ في ما يدّعيه من الوحي، إمّا بتوجيه أسئلة معجزة يعرفون هم أجوبتها بما عندهم من أخبار التّوراة، وإمّا بإخفاء بعض الأحكام منها لا يعرفها إلا خاصّة أحبارهم، وبما أن المنافقين هم الأبواق التي تروّج الأكاذيب والإشاعات فقد اقترن ذكرهم مع اليهود، وسواء كانوا من العرب أو اليهود الذين أظهروا الإسلام نفاقا، فكلا الفريقين يسارعون في الكفر.

واستعمال "في" الظّرفية يدلّ على تلبسهم بالكفر وتوغّلهم فيه، كما أن "المفاعلة" تدلّ على إسناد بعضهم لبعض في ذلك إمعانا منهم في المكر وإذاية الرّسول، وصف الله الفريقين بأخبث الصّفات، وهي قبول الكذب وترويجه لأن الذي يسمع ويقبل الكذب يروّج للكذابين ويشجعهم فتكون اللاّم "للكذب" بمعنى التّقوية.

وقوله تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ اخَرِينَ﴾ أي يكونون لهم عيونا وجواسيس، وهؤلاء هم يهود "خيبر" أو "فدك"، يتخذون من يهود المدينة جواسيس ومخبرين، والجاسوس ملتزم بتوصيات رؤسائه في أداء مهمته، ولذا فهم يوصونهم بكيفية التعامل مع الرّسول، بأن يأخذوا عنه ما يوافق غرضهم من التلاعب بأحكام التوراة، ويحذروا إن حكم بينهم بما أنزل الله، فاللاّم في قوله تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ اخَرِينَ﴾ هي لمعنى التعليل.

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: ولما كان شأن هؤلاء اليهود التلاعب بنصوص كتابهم على الصّور المتقدمة، فهم بتقاضيهم إلى الرسول في بعض قضاياهم يخشون افتضاح أمرهم، ولذا يوصون كل من أرسلوه إليه ليحكم في قضية ما، يوصونه بالحذر فيما يحكم به الرّسول من الحق والعدل مخالفا لما يحبّونه ويسعون إليه من التلاعب أو الكتمان لأحكام شريعتهم، وحين يضعف الوازع الإيماني في القلوب بحبّ الدّنيا وشهواتها فإن التجافي عن أحكام الله يصبح هو الغرض الذي يتذرّع إليه بمختلف الوسائل، ذلك لأن الانتماء الإيماني لم يعد إلا غطاء زائفا، ولا يكون ادعاؤه إلا للاستهلاك المحلّي لدغدغة مشاعر الجماهير، وقد ابتلي المسلمون من ذلك بالشّيء الكثير، وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «**لتتبعنّ سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**».[1]

ولا أشدّ على الحاكم العادل من تسفيه حكمه وهو الحق الصّراح، فهؤلاء

١- رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، حديث ٤٩٥١.

المنافقون لا يرجى منهم تطهير من الدّنس الذي هم فيه، ولن يملك الرّسول هدايتهم وقد اختاروا لأنفسهم سبيل الضّلال، فالله تعالى هو الذي يتولّى أمرهم فيجازيهم بما يستحقون، خزيا وذلاً في الدّنيا، وعذابا عظيما في الأخرى، وحسبهم من الخزي والعار إغراقهم في الكذب يروّجون سوقه في معاملاتهم وبالتّالي لا يجنون من وراء كسبهم ذلك إلا السّحت من المال الحرام الذي لا بركة فيه، وكل من كسب السّحت واعتماد الكذب متلازمان في التّعامل، ولذلك حقت لعنة الله على الكاذبين، والرّسول ينفي عن المؤمن أن يتصف بالكذب لأنه يتعارض مع الإيمان الصّادق وذلك عندما سئل: «**أيكون المؤمن كذّابا، فقال: لا، بملء فيه**»[1]

وعلى ما يصيب الرسول ﷺ من الهمّ والحزن بمواقف هؤلاء اليهود فإن الله تعالى لم يمنع رسوله من الحكم في القضايا التي يرفعونها إليه، بل خيّره بين الحكم والإعراض عنهم وإحالتهم إلى رؤسائهم وفق ما يعتبره الأصلح للجماعة المسلمة، وتقتضيه السّياسة الحكيمة، والله يطمئن رسوله في حالة الإعراض عنهم بأنه تعالى يحفظه من مكايدهم فلا يضلون إليه بضرّ، بينما يأمره بالعدل في حالة الحكم، لأن العدل قيمة خلقية اجتماعية، بل هي مبدأ كوني قامت عليه الأرض والسّماوات، فالله تعالى عادل في حكمه وهو مع العادلين المقسطين بالعون والتّوفيق والعزة والتّمكين.

وقد اختلف العلماء -أيضا- في هذا الحكم، أهو خاصّ بالحادث الذي تذكره الرّوايات بأنه سبب للنّزول في حدّ الزّنا، أو دية القتيل في ما ترافع اليهود في شأنه إلى الرّسول، أم هو خاصّ بالمعاهدين دون أهل الذّمة، لأن هؤلاء ملزمون بأحكام الإسلام إلا ما يباح لهم من شريعتهم كامتلاك الخنزير وأكله وتملّك الخمر

١- رواه مالك في الموطأ من حديث صفوان بن سليم، كتاب الكلام، باب ما جاء في الصدق والكذب، حديث ١٨١٩.

وشربه؟، وهناك من يقول: إن الآية عامّة في جميع القضايا من جميع الكفار، وهؤلاء يقولون بأن الحكم منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ (المائدة:٤٩). كما ذهب إلى ذلك ابن عباس والحسن البصريّ و عكرمة، ويرجّح صاحب المنار أن ليس في الآية نسخ، قال: "ونقول: لا يعقل أن تنـــزل آيات في سياق واحد كما هو الظّاهر في هذه الآيات فيكون بعضها ناسخا لبعض، وإنما تلك الآية أمرٌ للنبي ﷺ بأن يحكم بينهم بما أنزل الله من القسط، وسيأتي بيان ذلك" اه.[1]

قلت: يشير بقوله: "تلك الآية" إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ (المائدة:٤٩)، والله أعلم.

التّوراة هدى ونور يجب الإذعان لحكم الله فيها

أ)- النص:

وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾: يتخذونك حكَما، أي قاضيا تفصل بينهم في ما اختلفوا

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٦/٣٩٤.

فيه. ﴿لِلذِينَ هَادُواْ﴾: أي الإسرائيليون، أو اليهود وهم أبناء يهوذا، ﴿الرَّبَّانِيُّونَ﴾: مفرده رباني نسبة إلى الرّبّ، بمعنى مالك الملك، أو بمعنى الرّعاية والتّربية، وهم بمثابة الأولياء عندنا -نحن المسلمين-. ﴿الأَحْبَارُ﴾: مفرده حَبر أو حِبر ، وهو العالم بأمور الشّريعة وقد سمّي بذلك عبد الله بن عباس، فقيل عنه: "حبر الأمة" لعلمه الواسع بالشّريعة. ﴿اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللهِ﴾: أي ائتمنوا في المحافظة عليه. ﴿وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾: "على" في هذا التّعبير لمعنى التّمكّن لا لمعنى التّعدية في الشّهادة بين المتحاكمين له أو عليه بحسب وجه الحق في كل منهما. ﴿قِصَاصٌ﴾: المماثلة في عقوبة الجاني، إذ كل من الجاني والمجني عليه يقطع بذلك التّبعة عن الآخر.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد حادثة التّحكيم يأتي هذا التّعقيب في صيغة الاستفهام التّعجّبي أو الإنكاريّ من الله وهو يخاطب رسوله، كيف يحكّمه هؤلاء اليهود في بعض قضاياهم ولهم حكم الله فيها بما عندهم من التّوراة، وهم لا يؤمنون بشريعة الرّسول، حتى إذا حكم لهم بما يتوافق مع شريعتهم التي يدّعون الإيمان بها وحدها، أعرضوا عن ذلك الحكم لأنه لم يوافق هواهم، والعجيب أن يرفضوا حكمك وهم قد طلبوه منك مختارين، ذلك لأن الرّسول لا يحكم إلا بما حكم الله، وما هذا التّناقض في مواقفهم إلا لكونهم لا يؤمنون إيمانا حقيقيا بما جاء في التّوراة بله أن يؤمنوا بما جئت به أيها الرّسول. وأساس الإيمان الصّحيح هو الإذعان لحكم الله متى قضى به الرّسول أو من يخلفه من أمراء المسلمين، أو من الرّبانيين والأحبار عند اليهودية والمسيحية، فكل احتكام إلى غير شرع الله مهما كانت الظّروف والأحوال هو احتكام إلى الطّاغوت، وقد شدّد الله الوعيد لذلك في سورة النّساء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن

قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء:٦٠).

كما أن رفض ذلك الحكم حين يصدر مؤسسا على حكم الشرع الحنيف، يخرج صاحبه من دائرة الإيمان، مهما ادّعى انتماءه باللّسان، لأن الله يقول في الموقف الأول: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾. والزّعم أو الظّن لا يغني من الله شيئا، ويقول في الموقف الثاني: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾. فقد نفى عنهم صفة الإيمان بالتأكيد، وقد جمع الله الموقفين في آية سورة النساء في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء:٦٥).

وعلى ذكر أحكام الله في التوراة وموقف بعض اليهود منها، يشيد الله بمنـــزلة التوراة وما فيها من الهداية والنّور وموقف أسلافهم الصّلحاء منها، فيقول تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ**﴾: فالتوراة هي وحي من الله بلّغه سيدنا موسى عليه السلام بكلّ نزاهة وأمانة، وأحكامها هداية ونور، تطهّر القلوب وتزكّي النّفوس، وقد التزم بتطبيقها جميع الأنبياء الذين جاؤوا من بعد موسى، ويمكن أن يدخل في عموم اللّفظ حتى سيّدنا محمد ﷺ، فلا يختصّ بأنبياء بني إسرائيل، ولعلّ الوصف المختار للنّبيين: ﴿الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ يؤيّد ذلك العموم، إذ فيه إشادة بالإسلام، وأنه الصّفة التي تميّز هؤلاء الأنبياء، لا كما يزعم اليهود بأن الهداية لا تكون إلا بوصف اليهودية أو النّصرانية: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ (البقرة:١٣٥).

واللاّم في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ بمعنى لأجل اليهود، وليست لمعنى التّعدية، أي يحكمون بها لأجل اليهود خاصّة، ويخلفهم في ذلك الرّبانيون والأحبار،

وهم علماء اليهود وحكماؤهم، و"الرّبّاني" نسبة إلى الرّبّ، وهو الرّجل الصّالح الذي لا يتصرّف في سلوكه وأخلاقه إلا وفق ما يرضى به الرّبّ، سواء في سياسة نفسه أو في سياسة النّاس وتدبير شؤونهم، وما التزموا بتطبيق أحكام التّوراة إلا بسبب ما اؤتمنوا عليه في حفظ كتاب الله من عهد موسى عليه السلام ضمانا ووفاء بميثاق الله.

﴿وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾: أي شهدوا على ما في التّوراة من حق وصدق، وحافظوا على نصوصها حتى لا يتطرق إليها تحريف ولا تبديل، وفي هذا الوصف تعريض بما فعله الخلف من التّلاعب بنصوص كتابهم أو كتمان بعضها، مجاراة لما يريده كبراؤهم وساداتهم.

﴿فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾: ينتقل النّصّ من ضمير الغيبة إلى أسلوب الخطاب، والمخاطبون إما جماعة اليهود عامّة، أي الأسلاف الأخيار والأخلاف الفجّار، أو هو للأخلاف الموجودين في وقت نزول الآية، وفيها تعريض بهم في الانحراف عن طريق السّلف، و"فاء التّفريع" على اعتبار أن الفريقين يكوّنون أمّة واحدة في دين الله، كما يجوز أن يكون الخطاب لعلماء اليهود الذين استحفظوا من كتاب الله، على اعتبار أن يجعلهم الخلف قدوة في خشية الله التي تثبتهم على الأمانة والوفاء، فلا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا بتملّق الكبراء والرّؤساء، طلبا للحظوة عندهم، أو باستغلال الدّهماء في مجاراة ميولهم وأهوائهم، أما من جعل الخطاب للجماعة الإسلامية، على وجه الالتفات، فيبدو أن سياق النّصّ لا يحتمله، والله أعلم.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾: يجيء هذا الحكم العام الذي يشمل كل من أعرض عن حكم الله من اليهود أو غيرهم، لأن الدّافع إلى ذلك الإعراض لا يكون إلا لغلبة الهوى، وطلبا لمنفعة عاجلة، وذلك يتنافى مع

الإيمان الصّحيح الذي يستلزم الإذعان والتّسليم لحكم الله مهما يكن متعارضا مع رغباتنا وأهوائنا، ويؤيده ما سبق من نفي الإيمان عنهم حسب البيان السّابق.

أحكام القصاص في التّوراة

وإلزام النصارى بالحكم بها

أ)- النص:

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾: فرضنا على اليهود في التوراة، ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾...الخ: يقدر متعلق الجار والمجرور في كل منهما بما يناسبها هكذا: النفس تقتل بالنفس، والعين تفقأ بالعين، والأنف يجدع بالأنف...الخ، ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾: أي بالمساواة والمماثلة قدر الإمكان، ﴿تَصَدَّقَ بِهِ﴾: أي عفا عن الجاني، ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾: مأخوذ من القفا وهو مؤخرة العنق، يقال: قفا يقفو أثره:

أي اتبعه وسار وراءه إما حسًا أو معنى، ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمْ بِعِيسَى﴾: أي جعل عيسى عليه السلام يقفو أثر النبيئين والربّانيين والأحبار، ﴿الظَّالِمُونَ﴾، ﴿الْفَاسِقُونَ﴾: أي المتجاوزون لأحكام الدّين، والكفر أو الشّرك هو أعظم الظّلم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣).

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾: اتفق القراء على فتح همزة "أَنَّ" هنا. لأن المفروض في التّوراة ليس هو عين هذه الجمل ولكن المعنى الحاصل منها وهو العوضية والمساواة فيها. ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾: قرأ الجمهور بالنّصب عطفا على اسم "أَنَّ"، وقرأه الكسائي بالرّفع. وذلك جائز إذا استكملت "أَنَّ" خبرها فيعتبر العطف على مجموع الجملة. ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾: قرأ نافع وحمزة وعاصم وأبو جعفر وخلف "أَنَّ" بالنّصب عطفا على اسم "أَنَّ". وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالرّفع على الاستئناف، لأنه إجمال لحكم الجراح بعدما فصّل حكم قطع الأعضاء. ﴿وَلْيَحْكُمَ أَهْلُ الإِنجِيلِ﴾: قرأ الجمهور: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ بسكون اللام وبجزم الفعل، على أن اللام لام الأمر. وقرأ حمزة بكسر لام ﴿وَلِيَحْكُمْ﴾ ونصب الميم على أن اللام لام "كي" للتعليل.

د)- البيان والتّفسير:

بعد أن أشاد الله تعالى بالتّوراة لما أنزل فيها من النّور والهداية، وكيف كان علماء اليهود وأحبارهم يطبّقون أحكامها ويلتزمون بحدود الله فيها، فكان ذلك الإخبار تعريضا بأولئك الذين أعرضوا وتولّوا عن حكم الرّسول الذي كان موافقا لما عندهم في التّوراة. بعد ذلك تجيء هذه الأمثلة من الأحكام النّاصعة كما نصّت

عليها التّوراة، وهي قائمة في القصاص على أساس العدل والمساواة خلافا لما تواطأ عليه بنو قريظة وبنو النّضير من اليهود زمن التّنـــزيل، حين عزّ بنو النّضير على قريظة في حرب "بعاث"، فجعلوا دية النّضيري ضعف دية القرظي، بل منعوا أن يقتصّ من النّضيري بالقرظي، و هذا ظلم و اعتداء على حقوق الغير، و تعطيل لحكم الله، فناسب أن ينعت فاعل ذلك بالظّلم.

و القصاص بالمساواة و المماثلة في الأعضاء المذكورة إنما يكون في حالة العمد، أما عند الخطأ فيحكم بالدّية أو بالتّعويض الذي يقدره القضاء حسبما هو مفصّل في كتب الفقه، غير أن الإمام يجب أن يلتزم في تنفيذ حكم القصاص بما يماثل فعل الجاني لا أكثر حتى قال بعض العلماء : لا تقطع اليد أو الرّجل اليسرى باليمنى، و تقاس الأعضاء غير المذكورة على الأعضاء التي نصت عليها الآية ما أمكن القصاص منها، و إلا ففيها التّقدير و التّعويض.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَءَاتَيْنَاهُ الانْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: أرسل الله عيسى بن مريم ليجدّد عهد بني إسرائيل، و لم تكن شريعته إلا التّوراة، جاء متمّما لها ببعض الأحكام و الآداب مركّزا على النّاحية الرّوحية، لأن اليهود أغرقوا في الماديات و كان منهم هذا التّبديل و التّحريف، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، فهو آخر أنبياء بني إسرائيل جاء ليقفو أثرهم بأمر من الله، و ما تلك الآثار التي يتبعها إلا الأحكام الصّحيحة في التّوراة كما أنزلها الله على موسى. و لئن سمّى الله الوحي المنـــزّل عليه بالإنجيل فما هو بناقض ما جاء في التّوراة، بل هما نور من مشكاة واحدة، تتكامل أشعّته لتشعّ عليهم رحمة و هدى.

و يلاحظ اتحاد الوصف الإلهي في كل من التّوراة و الإنجيل، بأن فيهما

الهدى و النّور، ليشمل بذلك الجانب العقائدي و الجانب السّلوكي، ثم ميّز الإنجيل بأنه موعظة للمتقين، و في بيان فائدة هذه الزّيادة يقول صاحب المنار: "و لعله ما انفرد به من المسائل الرّوحية و المواعظ الأدبية، و زلزال ذلك الجمود الإسرائيلي الماديّ و زعزعة ذلك الغرور اللذين كان الكتبة و الفرنسيون من اليهود مفتونين به، و خصّ هذا النّوع بالمتقين لأنهم هم الذين ينتفعون به إذ لا يفوقهم شيء من الكتاب لحرصهم عليه، و عنايتهم به".[1]

قلت: إن سبب الانتفاع ليس هو مجرّد الإطلاع على ما في الكتاب أو استيعاب معانيه، بل هو بصفة التّقوى التي هي الخشية لله و إجلال قدره في رغبة و محبة، و هذه الصّفة قد تتحقق لجهول لا يعرف من أمر الكتاب شيئا، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ ان نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ، سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ، وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى، الذي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾ (الأعلى:٩-١٠-١١-١٢).

﴿وَلْيَحْكُمَ اَهْلُ الاِنْجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ اللهُ فِيهِ﴾: و أهل الإنجيل هم النّصارى أتباع المسيح، يأمرهم الله تعالى بأن يحكموا بما أنزل عليهم في كتابهم، أي إن تلك الأحكام المنـــزّلة في التّوراة و الإنجيل إنما تخصّ أهلها في التّطبيق و ليست عامّة لجميع النّاس كالرّسالة الخاتمة، و ليس في الإنجيل إلا زيادات طفيفة، و التّوراة هي العمدة في تفاصيل الأحكام، و لذا تكررت جملة: ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي كل من الإنجيل ورسول الإنجيل يصدقان بما في التّوراة، و قد وجد غلاة النّصرانية في هذا الأمر القرآني مستندا لرفضهم القرآن في إتباع أحكامه، لأنه يأمرهم أن يحكموا بما في الإنجيل، و تلك مغالطة لأن الله يقول في آخر هذا السّياق مخاطبا رسوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللهُ﴾ (المائدة:٤٨).

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٦/٤٠٣.

وقد تساءل الفخر الرّازي: أيّ فائدة من ذكر الظّلم بعد الكفر، و الكفر أعظم من الظّلم، و الظّلم أخفّ منه؟ والجواب: أن الكفر تقصير في حق الخالق سبحانه والظّلم تقصير في حق النّفس.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ، وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾:

لقد كان عيسى عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل وكانت شريعة الإنجيل إكمالا لما جاء في العهد القديم من شريعة التّوراة، بل تجديدا لما يمكن أن يتجاوزه الزّمن من تلك الأحكام القديمة،كما قال عيسى نفسه لبني إسرائيل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (آل عمران:٥٠). فهو رسول الرّحمة تغلب على دعوته الرّوحانية لتوازن تلك اللّهفة المادية التي طغت على بني إسرائيل.

و قد أضفى الله على الإنجيل نفس الصّفات التي أضفاها على التّوراة، وبالتّالي فهو مصدّق لما بين يديه من التّوراة، كما أن عيسى مصدّق لما بين يديه من التّوراة، وقد تكررت العبارة: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تارة حالا لعيسى وتارة حالا للإنجيل، للتأكيد على معنى التّكامل بين الرّسولين موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام، وبين الكتابين التّوراة والإنجيل، ثم أمر الله أهل الإنجيل بالعمل بأحكامه، و المقصود بأهل الإنجيل بنو إسرائيل كلهم، و لا يختصّ ذلك بالنّصارى وحدهم، كما صرّح بذلك عيسى لقومه عندما قال لهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف:٦).

و اختير هنا وصف الفسق لمن غيّر أحكام الله في الإنجيل لزجرهم عن

التحريف و التبديل، ووصف الفسق أخفّ من وصف الظّلم لمن لم يحكم بما أنزل الله في التوراة، وذلك ينمّ عما في أحكام التوراة من ثقل التكاليف عقيدة وشريعة، والله أعلم.

القرآن مصدق للكتب السّابقة و مهيمن عليها

أ)- النص:

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿الْكِتَابَ﴾: تكرر في الآية مرتين، و"أل" في اللّفظ الأول للعهد، أي القرآن و "أل" في الثّاني للجنس ويشمل الكتب المتقدمة، ﴿مُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾: من فعل هيمن يهيمن، قيل: إنه مشتق من فعل "أمِنَ" فيكون بمعنى آمَنه عليه أي استحفظه ليكون قائما على شؤونه بالرّعاية والرّقابة، ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾: أي حائدا عما جاءك من الحق، ﴿شِرْعَةً﴾: والشّريعة في الأصل اللّغوي طريق مورد الماء من النّهر ونحوه، وسميت الدّيانة بالماء لأنه قوام الحياة المادية، والدّين قوام الحياة الرّوحية، ﴿مِنْهَاجاً﴾: الطّريق الواضح الواسع، ﴿لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: الجعل بمعنى التّقدير في علمه وحكمته، و أصل الأمة في اللّغة الجماعة التي ترجع إلى نسب واحد

وتتكلم لغة واحدة، ثم إن الإسلام وسّع من معناها، فجعل رابطة الدّين والمعتقد هي قوام الأمة الواحدة، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: ليختبركم في ما شرع لكم، ﴿فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ﴾: أي بادروا وسارعوا.

ج)- البيان و التّفسير:

تأكيدا لمعنى التّكامل بين الدّيانات السّماوية وإن تعددت شرائعها، يرد في هذه الآية الكريمة ذكر إنزال القرآن على رسول الله ﷺ إتماما لذكر نزول التّوراة والإنجيل وما فيهما من هداية ونور لأتباعهما، وبيانا لمنـــزلة القرآن العظيم من الكتب المتقدمة، وأن لا مطمع لليهود أن يحكم الرّسول لهم بغير ما أنزل الله، فقال جلّ من قائل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾.

الخطاب لسيدنا محمد ﷺ، يشهد فيه الله بحقية نزول القرآن وبمصدرية نزوله من قبل الرّبّ تعالى، كما أنزل التّوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السّماوية، ودليل مصداقية القرآن وحقيقته أنه يصدّق بما جاء في الكتب المتقدمة، ويؤمن برسالة موسى وعيسى، وأنهما لم يكذبا على الله، ثم هو يكشف ما وقع فيه اليهود والنّصارى من التّحريف والتّبديل، فكان بذلك هو المبيّن للدّين الأخير المرتضى من الله لخلقه أجمعين، وبالتّالي هو المرجع النّهائي في كل خلاف يقع بين أصحاب الدّيانات السّماوية كلها أو بين أتباع هذا الدّين الأخير، ومن ثمّ كان للقرآن معنى الهيمنة، أي المحافظة والمراقبة في بيان وجه الحق في الكتب المتقدمة، وفي كشف ما طرأ عليها من نسيان: ﴿وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾ (المائدة:١٣). أو تحريف وتبديل: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ (المائدة:٤١).

يقول الإمام ابن عاشور في تفسير هذه الآية الكريمة: "وقد أشارت الآية إلى

حاليّ القرآن بالنّسبة لما قبله من الكتب، فهو مؤيّد لبعض ما في الشّرائع مقرّر له من كل حكم كانت مصلحته كلية، لم تختلف مصلحته باختلاف الأمم والأزمان، وهو بهذا الوصف مصدق، أي محقق و مقرّر، وهو أيضا مبطل لبعض ما في الشّرائع السّالفة وناسخ لأحكام كثيرة من كل ما كانت مصالحه جزئية مؤقتة مراعى فيها أحوال أقوام خاصّة".[1]

﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾: أي إذا كان القرآن بالمنـــزلة التي شهدنا له بها فاحكم -أيها الرّسول- بين من جاءك من أهل الكتاب أو غيرهم من النّاس المتحاكمين إليك، احكم بما أنزل الله إليك في هذا القرآن، سواء وافق ما في الشّرائع السّابقة كالرّجم و القصاص، أو خالفها في بعض الأحكام الأخرى، إذ شريعتك جاءت مهيمنة على شريعتهم، فلا تعدل عنها قيد أنملة اتباعا لهواهم أو تملّقا لعواطفهم، فإن النّاس منذ وجدوا على ظهر الأرض كان بينهم حاكمون ومحكومون في تنظيم أحوال معيشتهم، قد درجوا على التّملّق و الزّلفى والإغضاء عن تطبيق بعض الأحكام أو القوانين، أو تأويل نصوصها وفق الرّغبات والشّهوات.

والرّسول في مسار دعوته كان الحريص على المؤمنين في معاملتهم بالحسنى حتى لا يفتنهم عن دينهم عرض من الدّنيا، وكان الحريص على الاستكثار من أتباعه، يألف قلوب أعدائه بمختلف الوسائل، ولكنه لا يساوم أحدا في دين الله.

فإذا عرفنا أن اليهود -حسبما تذكره بعض الرّوايات- قد عرضوا على الرّسول أن يؤمنوا به إن هو تسامح معهم في الأحكام وفق ما يشتهون، علمنا فائدة هذا الأسلوب من الإرشاد الإلهي لرسوله بصيغتي الأمر والنّهي: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾، فلا مساومة في دين

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٦/٢٢١.

الله ولا تملّق في تطبيق أحكام الله مهما كانت الملابسات والاعتبارات، لأن الحاكم في الإسلام يجب أن يأخذ كتاب الله بقوة وحزم حتى يقطع الطّريق عن الطّامعين والانتهازيين.

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَاكُمْ﴾: ما علة ذلك التّأكيد للرسول أن يحكم بما أنزل الله في شريعته؟ إنه تقدير الله الأزلي وحكمته البالغة أن يختلف النّاس في مشاربهم وتوجّهاتهم وفقا لاختلاف بيئاتهم وأحوالهم، فناسب أن يشرّع لكل أمّة ما يناسبها من الأحكام العملية التّطبيقية، وإذا كانت أصول الدّين في العقيدة ومكارم الأخلاق متفقة، فإن لكل رسول شرعته ومنهاجه التّطبيقي العملي في إصلاح أوضاع النّاس وإرشادهم حتى يتدرّجوا مع أقوامهم في سلّم الحضارة والتّمدّن على حسب استعداداتهم الفطرية.

ونضرب لذلك مثلا من الدّيانات المذكورة في هذا السّياق اليهودية والنّصرانية و الإسلام، فإن الأحكام في التّوراة يغلب عليها طابع الشّدّة والعزيمة، لأن اليهود طغت عليهم المادية فقست قلوبهم وشاقّوا رسلهم، ثم إن سيّدنا عيسى بعث بالرّحمة والسّماحة فغلب على شريعته طابع الرّوحانية والرّهبانية. وعندما تطوّرت أحوال النّاس وكمل استعدادهم الحضاريّ ونضجهم الفكريّ جاءت الشّريعة الإسلامية وسطا بين التّطرّف اليهودي الماديّ، والإفراط الرّوحاني المسيحي: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة:١٤٣).

وقد امتن الله على أهل الكتاب ببعثة رسول الله وكونه واضعا عنهم الإصر والأغلال فقال جلّ من قائل: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا

لِلذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤتُونَ الزَّكَاةَ وَالذِينَ هُم بِئَايَاتِنَا يُومِنُونَ، الذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيءَ الأُمِّيَّ الذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالانجِيلِ يَامُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالاَغْلاَلَ التِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف:١٥٦-١٥٧).

وتلك مشيئة الله في خلقه، أن يتدرّجوا في سلّم الارتقاء، وأن يختلفوا في المواهب الفطرية والظّروف المعيشية والأوضاع الاجتماعية، فيوضعون على محكّ الاختبار والابتلاء وهم يتنافسون ويتسابقون، ويركضون في كل المجالات وهم مختارون في ما يأخذون وما يدعون، غير أن طريق الخير واضح وميسّر لمن أراد منهم الهداية والرّشاد.

﴿فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾: فإذا كان أمر الله في خلقه جاريا على تلك السّنة، فإن الواجب على العاقل أن يبادر إلى الخيرات وينافس في مجال المبرات، لأنها الذّخر الباقي ليوم الجزاء. ومهما اختلف النّاس أو اقتتلوا بسبب اختلافهم فإن الفصل النّهائي بالحق والعدل لا يتمّ إلا في المحكمة الإلهية عندما يقوم النّاس لربّ العالمين، ويومئذ توضع الموازين وتكشف الحقائق، ويعلم الذين ظلموا أنفسهم، ويتبيّن المحق من المبطل، ولات حين مناص، والله أعلم.

الحكم بشريعة القرآن

أ)- النص:

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم﴾: "أن" في الإعراب إمّا تفسيرية فيكون العطف في الآية عطف جملة على جملة. ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾: فتدلّ "أن" التفسيرية على تقوية ارتباط التفسير بالمفسَّر فيكون تقدير المعنى هكذا:"وأنزلنا إليك الكتاب بالحق أن أحكم بينهم بما أنزل الله فاحكم بينهم به"، وإمّا مصدرية فيكون العطف هنا من عطف مفرد على مفرد، أي عطف المصدر المؤوّل: ﴿أَنِ احْكُم بَيْنَهُم﴾ على لفظ "الْكِتَابَ" في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾. ويكون التقدير هكذا: "وأنزلنا إليك الأمرَ بالحكم بما أنزل الله". ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: اللاّم ليست للتعدية بل هي للبيان أو بمعنى: "عند". ﴿الْجَاهِلِيَّةِ﴾: في المصطلح القرآني لا تعني الفترة الزّمنية لحياة العرب قبل الإسلام، بل تعني الأوضاع الفاسدة التي كانوا عليها مما خالف أحكام الإسلام، وتلك الأوضاع قد تتفشى في مجتمع ما وفي فترة ما.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾: قرأ الجمهور بياء الغائب: ﴿يَبْغُونَ﴾: والضّمير

عائد: لـ"من" في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ (المائدة:٤٧). وقرأ ابن عامر: ﴿تَبْغُونَ﴾ بتاء الخطاب على أنه خطاب لليهود على طريقة الالتفات.

د)- البيان والتفسير:

يؤكّد الله لرسوله أن يحكم بما أنزل الله، لأن التعطيل لأحكامه يكون كلّيا أو جزئيا، والدّافع في كل حالة إنما هو فتنة النّاس تحقيقا لمرواقم ورغباتهم، أو استمالة لقلوبهم، وكان الرّسول يستعيذ بالله من فتنة المحيا والممات، ويعجب المرء هذا التّأكيد الإلهي في أمره لرسوله أن يحكم بما أنزل الله إليه، وفي اعتقادنا أن الرّسول معصوم عن العمد في ارتكاب الخطايا، غير أنه قد ينتابه الخطأ والنّسيان كما قال بعض العلماء وأن ذلك جائز في حقه، ولذلك نجد ذلك الحشد الكبير من الآيات التي تثبت الرّسول في مواقفه الحازمة في تطبيق أحكام الله ولو على أخصّ أقربائه. يقول تعالى في حكمة نزول القرآن منجّما: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً،وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ الاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾(الفرقان:٣٢-٣٣)

وكان الرّسول يطلب من مولاه أن يثبّت قلبه على دينه-وهو المعصوم- فيقول: «**اللّهمّ يا مقلبَ القلوب ثبّت قلبي على دينك**».[1] فلا تعارض -إذن- بين هذه الآيات وبين عصمة الرّسول.

وتكرار التّحذير من الوقوع في فتنة أهواء النّاس يوحي بضخامة مسؤولية التّبليغ والإرشاد، كما يصوّر مدى مكر اليهود وكيدهم في مجال الدّعاية والإغواء، فهم بدعواهم الإيمان والعلم بنصوص الكتاب في أمّة فطرية جاهلة، وبتشابك مصالحهم بها، لا يألون جهدا في التّحايل والمراوغة، بل وحتى بالمساومة والمزايدة

١- رواه الترمذي من حديث شهر بن حوشب عن أم سلمة، كتاب الذبائح، أبواب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث ٣٨٩٥، وقال: هذا حديث حسن.

أحيانا في دين الله، وهم لا يقتصرون على القاعدة الشّعبية السّاذجة في كيدهم ومكرهم. بل يتطاولون -أحيانا- إلى مقام القيادة، يحاولون استمالتها إلى تحقيق رغباتهم، وقد وردت في أسباب النّزول روايات حاول فيها بعض أحبار اليهود أن يفتنوا رسول الله عن دينه، وحاشا للرّسول أن ينقاد إلى مطامعهم. ولذا ذهب بعض المفسّرين إلى أن قوله تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ المقصود منه افتضاح أمرهم وتيئيسهم مما يرجون، أو أنه إقرار النّبي على ما فعله من عدم الحكم لهم وتثبيته على الاستمرار في ذلك، وإلاّ فإن حذر النّبي ﷺ لا يحتاج فيه إلى الأمر لعصمته، وهو ملحظ دقيق.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾: الأصل عند المؤمنين الأوفياء أن يرضوا بحكم الله وإن عارض رغبتهم، لأن حكم الله أحق أن يتبع، والإنسان قد تغيب عنه حكمة التّشريع، فلا يتبيّن له وجه الخير والصّواب. أما غير الأوفياء بدينهم فيلحّ عليهم الشّكّ والارتياب في عدالة حكم الله وتكون مواقفهم تبعا لسوء ظنونهم، وفي نهاية المطاف يعرضون عن حكم الله طمعا في الحظوة عند النّاس، أو حفاظا على متاع من الدّنيا قليل، وهنا محكّ الاختبار والابتلاء، فإذا النّاس في فتنة من تصارع الأهواء وتصادم الرّغبات والمصالح. وسنة الله لا تتبدّل في تصريف شؤون خلقه، مما ينجرّ لهم من المصائب والمفاسد بما كسبت أيديهم.

وقد حلّت بيهود المدينة ومن شايعهم من المنافقين مصائب التّقتيل والإجلاء ومصادرة أموالهم جزاء خيانتهم وغدرهم، وهو جزاء غير واف على قدر ذنوبهم، بل هو لبعضها وفق إرادة الله ورحمته بعباده، لأن الجزاء الأوفى يكون في الحياة الأبدية.

وحتى يطمئن الرّسول إلى هذه الحقيقة الوجودية في واقع حياة النّاس، ولا

تأخذه لذلك لوعة ولا أسى يجيء هذا الحكم العام: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾: ينحرفون عن صراط الله السّويّ، أي صار الفسق والانحراف شأن الكثير منهم لا ينفكّون عنه ولو حرصت أنت على استقامتهم. وما أكثر النّاس -ولو حرصت- بمؤمنين.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنَ اَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: القراءة بضمير الغيبة: ﴿يَبْغُونَ﴾ حكاية عن اليهود المتحدث عنهم، أو بضمير المخاطب: ﴿تَبْغُونَ﴾ على طريقة الالتفات، والاستفهام للإنكار والتعجيب وهو يتضمّن التوبيخ لأهل الكتاب في اختيارهم لحكم الجاهلية وبين أيديهم التوراة فيها حكم الله، والحال أن حكمه هو العدل لما به من إنصاف لحق الضّعيف وتركيز للعدالة الاجتماعية، ومحاربة لكل أنواع الفساد الذي درجت عليه الجاهلية في كل زمان ومكان، والتي يقول عنها سيد قطب في ظلاله: "إن معنى الجاهلية يتحدّد بهذا النّصّ، فالجاهلية -كما يصفها الله ويحددّها قرآنه- هي حكم البشر للبشر، لأنها عبودية البشر للبشر، والخروج من عبودية الله، ورفض ألوهية الله، والاعتراف في مقابل هذا الرّفض بألوهية بعض البشر، وبالعبودية لهم من دون الله. إن الجاهلية في ضوء هذا النّصّ ليست فترة من الزّمان، ولكنها وضع من الأوضاع، هذا الوضع يوجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غدا، فيأخذ صفة الجاهلية المقابلة للإسلام والمناقضة للإسلام".[1]

قلت: إن النّاس أمام إدراك هذه الحقيقة من معنى الجاهلية قد تساورهم الشّكوك حتى وهم مؤمنون بها، إذ تلحّ عليهم ضغوط الواقع المعيش، وأغلبهم لصيق بذلك الواقع، منهزمون أمامه حين ينظرون من حولهم فلا يجدون إلا المماألة والنّفاق أو الخضوع التّامّ لسلطة الطّواغيت التي لا يمكن أن تتركّز إلا على حكم

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، ١٨٣/٦.

الجاهلية، لأن الركون إلى حكم الله يعني زحزحتهم من مراكزهم، ثم في نهاية المطاف يتعرضون للإدانة والمحاكمة عندما تنتصر قوى الخير ويسيطر حزب الله.

ولذا يجيء هذا التعقيب الإلهي في صيغة الاستفهام التقريري: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: فالإيمان اليقيني في ضمير المسلم هو الذي يقرّ بهذه الحقيقة، وهو الذي يدفع المتيقن بها إلى تجسيدها في واقع الحياة مهما تطلب ذلك من التضحيات، أما الإيمان الادعائي فلا تنهض عليه دعوة، ولا يقوم عليه بنيان.

والله أعلم

نهي المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى

أ)- النص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَوْلِيَآءُ﴾: من الولاية، أي النصرة والتأييد. ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾: أي يصير واحدا منهم، لأن ولايتهم معناها الدخول في ملّتهم. ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: أي

الشّك والنّفاق، أو الحسد والبغض. ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾: أي ليزيدوا تمكّنا وثباتا في موالاتهم أي هم يتوغلون في ذلك بمختلف الوسائل. ﴿تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾: أي ما يأتي به الدّهر من المصائب في تقلباته. ﴿بِالْفَتْحِ﴾: أي عندما يفصل الله تعالى بين المسلمين وأعدائهم بالنّصر والتّمكين. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: بطلت أعمالهم.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد أن بيّن الله نقط التّلاقي بين الدّيانات السّماوية الثلاث، وأشاد بشمولية الشّريعة الإسلامية وهيمنتها على ما سبقها من الشّرائع، ودعا رسوله إلى الحكم بما أنزل الله، أصبح المسلمون في مركز قويّ وقد تهيأت نفوسهم للمفاصلة التّامّة بينهم وبين مخالفيهم في الدّين، لأنهم عاشوا في المدينة المنورة تلك الأحداث التي كشفت حقيقة خصومهم من المنافقين واليهود، فلم يبق مجال للشّك والتّردّد والمداهنة، فجاء هذا النّداء الإلهي السّابع في استئناف ابتدائي بالنّهي الجازم عن موالاة اليهود والنّصارى موالاة مودّة ونصرة. وعلّل ذلك النّهي بكونهم أولياء لبعضهم بعض، أي كل فريق منهم يتولّى بعضهم بعضا، لما يكون بينهم من التّلاحم في الملة الواحدة، ومن التّشابه في الأخلاق والسّلوك، وعلى قدر ذلك التّقارب بينهم بالموالاة والنّصرة، فليس لكم أيها المؤمنون مطمع في موالاتهم لكم.

فإذا استحضرنا زمن نزول هذه السّورة الكريمة في أواخر حياة الرّسول، فإننا ندرك أسباب نزول مثل هذا التّشديد في موالاة المشركين وحلفائهم من أهل الكتاب، وكيف كان مصير بني قريظة وبني قينقاع وبني النّضير بعدما نقضوا عهود رسول الله ﷺ على أن لا يظاهروا عليه عدوّا وأن لا يحاربوه ويبقون على دين آبائهم كما هو مفصّل في السّيرة النّبوية.

ولم يكن نصارى الشّام من العرب والرّوم بأحسن موقفا من اليهود عندما

بدأ الرّسول يواجههم في تخوم الشّام عند غزوة تبوك وما قبلها من السّرايا.

ونجد في معنى هذه الآية الكريمة آيات أخرى تؤكد هذا المعنى وتحدّد ما نسميه اليوم العلاقات الدّيبلوماسية يراعي فيها إمام المسلمين ما يناسب كل صنف من هؤلاء الأعداء في مختلف الأحوال: حربا أو مصالحة، أو معاهدة، أو حيادا. وقد طبق رسول الله ﷺ كل ذلك تطبيقا محكما، وعاش مع أعدائه كل تلك الأوضاع ليكون بذلك قدوة لأمته. يقول تعالى:

أ)- ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ (الممتحنة: ١)

ب)- ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ (الممتحنة: ١٣)

ج)- ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾ (آل عمران:١١٨).

د)-﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُومِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُومِنِينَ﴾ (آل عمران:٢٨)

هـ)- ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَاتَّقُواْ اللهَ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ﴾ (المائدة: ٥٧).

ولعل الذي يرجّح ما ذهب إليه أغلب المفسّرين من أن ولاية بعضهم لبعض في قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ إنما تقع في الملّة الواحدة لا بين الملتين هو التّعبير باسم الملتين اليهود والنّصارى. ولم يقل: "لا تتخذوا أهل الكتاب أولياء"، والواقع التّاريخي يدلّ على أن أتباع الملتين لم تكن بينهم موالاة ومناصرة بل عاشوا في صراع وتطاحن: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ (الحشر:١٤).

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: توعّد الله تعالى من يتولّى من المسلمين هؤلاء اليهود والنّصارى بأنه منهم، ويقتضي ذلك

أن لا يحسب في عداد المسلمين الصّادقين، بل يكون واحدا منهم أي في ملّتهم، إذ لا يُعقل من مؤمن وفيّ لدينه أن يكون حربا على إخوانه بنصر أعدائهم عليهم أو بالإستنصار بهم من دون المؤمنين وقد أشكل على بعض العلماء مثل هذا الحكم الشّديد أهوَ على ظاهره أمّ لابد فيه من التّأويل؟.

وأوفق ما قيل في هذا التّأويل ما أورده الإمام ابن عاشور في تحريره وتنويره إذ يقول: "وقد اتفق علماء السّنة على أن ما دون الرّضا بالكفر وممالاتهم عليه من الولاية لا يوجب الخروج من الرّبقة الإسلامية ولكنه ضلال عظيم، وهو مراتب في القوة بحسب قوة الموالاة وباختلاف أحوال المسلمين".[1]

قلت: وهذه الإشكالية مطروحة قديما وحديثا في ما وقع بين المسلمين بين الدّويلات الإسلامية في الشّرق الأوسط وبين ملوك الطّوائف في الأندلس، ثم ما وقع حديثا في حرب الخليج. و﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ (الروم:٤). يقول الإمام ابن عاشور: "وأدنى درجات الموالاة المخالطة والملابسة في التّجارة ونحوها، ودون ذلك ما ليس بموالاة أصلا وهو المعاملة. وقد عامل النّبي ﷺ يهود خيبر مساقاة على نخل خيبر".[2]

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: وأي ظلم أعظم من قبول الهوان في الدّين، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون:٨). لأن موالاة الأعداء ينمّ عن ضعف الإيمان وعدم اليقين بنصر الله، ويتحقق الظّلم في كل من المتولّي من ضعاف المؤمنين والمتولّى من يهود ونصارى.

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٦/٢٣٠.

٢- المصدر نفسه، ٦/٢٣١.

﴿تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾: والذين في قلوبهم مرض هم المنافقون كما وصفهم الله في آية سورة البقرة وغيرها. والمنافق لا يعدم تأويلا لسوء مواقفه، فهم يتهلون الفرص لإثبات ولائهم وإن كانوا متلبّسين بهذه الصّفة في كل وقت، ولكن المنافق ينتابه الشّكّ والارتياب والخوف في كل حالة، كما وصفهم الله تعالى أبلغ وصف في ذلك فقال: ﴿وَإِنْ يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ (المنافقون:٤). ومن تعلاّقهم قولهم: ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾، أي أنّهم غير جازمين بانتصار المسلمين وظهورهم على أعدائهم، ولذا فهم يتخذون عند الكفار يدا وعند اليهود والنّصارى يدا حفاظا على مصالحهم، واستبقاء لمراكزهم، وهكذا شأن المنافقين في كل زمن ومكان. وكما جاء في الأثر: «**من حاول شيئا بمعصية الله كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى**».

وما أصيب به المسلمون اليوم من التّمزق والخذلان إلا بمثل هذه السّياسة المائعة مع أعدائهم حتى حقت عليهم الغثائية التي تنبّأ بها رسول الله أنها ستكون في أمته، أي أن كثرتهم كغثاء السّيل.

﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾:

جاء الرّدّ الإلهي على هذه المزاعم الباطلة في صيغة أفعال الرّجاء: "عَسَى" يقول الإمام الرّازي: "قال المفسّرون: "عَسَى" في الله واجب، لأن الكريم إذا أطمع في خير فعله فهو بمنـــزلة الوعد لتعلق النّفس بها ورجائها له".[1]

قلت: إن التّعبير بفعل الرّجاء في الإنباء بالأمور الغيبية هو الأنسب والأوفق في آداب العبد مع الله، إذ يلتمس منه التّوفيق والمعونة، ويطلب النّصر والتّمكين،

١- الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٦/١٩.

وحتى يبقى الله وحده معقد رجائه ومناط آماله، فهو وإن كان يحسن الظّن بربه في الاستجابة فلا ينبغي أن يخرج عن دائرة الرّجاء والانتظار، حتى لا يقع في خطأ التّعجّل والإستحسار. والفتح الموعود به في الآية الكريمة لا يقتصر على فتح مكة بالنّسبة للمشركين، ولا على فتح خيبر بالنّسبة لليهود، لأن ذلك يضيّق من معنى الآية، لأن الفتح في معناه اللّغوي أوسع وأشمل، إذ يعني الفصل النّهائي بين المتخاصمين كما قال تعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام في سورة الشعراء: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ، فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ﴾ (الشّعراء:١١٧-١١٨).

وقد تأخذ القضية شكلا آخر من الحلّ غير الفصل النّهائي، يكون بأمر من عند الله لم يكن في حسبان أحد من خلقه يقلب الأوضاع ويخالف كل التّوقعات: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (آل عمران:٥٤). وكما قال تعالى في شأن بني قريظة عندما عاقبهم الرّسول: ﴿وَظَنُّواْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللّهِ فَأَتَاهُمُ اللّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ (الحشر:٢). وكم ندم المنافقون الإمّعات، على ما أضمروه من التّوقعات والحسابات، عندما تخيب آمالهم في من يستندون إليهم.

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حـــمار؟

﴿وَيَقُولُ الذِينَ ءَامَنُواْ أَهَؤُلاَءِ الذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ اَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ﴾: أي عندما تنكشف حقيقة المنافقين يندهش المؤمنون من تلك الأحوال الخسيسة ماثلة في أشخاص تلك الفئة المنافقة، فيسائل بعضهم بعضا تعجبا واستغرابا كيف اختار هؤلاء ذلك السّلوك المعوّج؟ وقد يسائل المؤمنون اليهود عنهم تحقيرا وشماتة لأن الخائن العميل هو محلّ السّخط حتى ممن يسخّرونهم ويستغلّونهم.

﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾: وقد تقدّم معنى "الإحباط"، وبما أن الأعمال البرّيّة التي قاموا بها من صلاة وصدقة وغيرها تظاهرا بالإسلام، هي مرفوضة من الله أساسا لانعدام عنصر الإخلاص فيها لله، فإنهم محكوم عليهم بالخسارة في الدّنيا بانكشاف حقيقتهم وفي الآخرة بحرمانهم من الأجر والثّواب، والله أعلم.

المرتدّ لا يضرّ إلا نفسه، ولدين الله نصراؤه

أ)- النّص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿يَرْتَدَّ﴾: وقرئ "يرتدّ"، ارتدادا من الرّدّ: أي الرّجوع إلى مكان أو حالة. ويطلق الارتداد على الرّجوع إلى الكفر بعد الإسلام، أو الخروج من الإسلام مطلقا أو منع ركن من أركانه استحلالا كما نفى الزّكاة في عهد أبي بكر ﷺ. ﴿أَذِلَّةٍ﴾: مفرده ذليل. وأما ذلول فيجمع على ذُلٌّ، والتّعبير بـ"على" دون "إلى" ليدلّ على معنى العطف والتّواضع، لا على الإستكانة والهوان. ﴿أَعِزَّةٍ﴾: جمع

عزيز: أبيٌّ لا يقبل الضّيم من طرف الأعداء. ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾: يشمل كل نوع من أنواع اللّوم من أي شخص كان، أي أسقطوا وجود الخلق في ما بينهم وبين خالقهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مَنْ يَرْتَدِدْ﴾: قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر: ﴿مَنْ يَرْتَدد﴾ بدالين على فكّ الإدغام، وهو أحد وجهين في مثله، وهو لغة أهل الحجاز، وكذلك هو مرسوم في مصحف المدينة ومصحف الشّام. وقرأ الباقون بدال واحدة مشدّدة بالإدغام وهو لغة تميم وبفتح الدّال فتحة تخلّص من التقاء السّاكنين لخفة الفتح. وكذلك هو مرسوم في مصحف مكة ومصحف الكوفة، ومصحف البصرة.

د)- البيان والتّفسير:

بعد نهيه تعالى عن ولاية المؤمنين لأعدائهم من اليهود والنّصارى، ممّا قد يؤدّي -أحيانا- إلى الارتداد عن الإسلام إذا بلغت تلك الولاية إلى حدّ الرّضى بالكفر والنّفاق، جاء هذا النّداء الإلهي الثّامن ليُنبّه المؤمنين إلى أن الله تعالى غني عن عباده إن هم آثروا الكفر على الضّلال، وأن هذا الإرشاد إنما هو في صالحهم، لأن الدّعوات الصّالحة لا تقوم إلا على رجال يمتازون بالإخلاص والوفاء لتلك الدّعوة، وأنه تعالى يقيّض لكل دعوة مثل ذلك النّوع من الرّجال، وهم ليسوا حكرا على جنس أو رهط، لأن الصّفات المطلوبة منهم هي من فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده.

فما بين نهيه تعالى عن موالاة اليهود والنّصارى وبين قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾: يأتي ذكر هذه المواصفات لمن يحبّهم الله ويكونون مناط وعده بالنّصر والغلبة لدينه الحق، ومن بلاغة القرآن أن يختار لهذه المواصفات أسلوب الخبر

بـ"من" الشّرطية، ليكون الجواب هو الإتيان بالبديل المختار والممتاز من المؤمنين الصّادقين، لأن الصّراع بين الحق والباطل يقتضي هذا التّدافع بين النّاس وتمحيص معادنهم: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال:٤٢).

وقد حدث ما أنبأ الله به رسوله في هذه الآية الكريمة، إذ ارتدت فرق كثيرة عن الإسلام في حياة الرّسول وبعد مماته، ويعدّها رواة السّيرة إحدى عشرة فرقة: ثلاث منها في حياة الرّسول، وسبع في عهد أبي بكر. ونعتوها بأسمائها. قال ابن إسحاق في ما نقله الإمام الطّبريّ في تفسيره: "لما قبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب إلا ثلاثة مساجد: مسجد المدينة، ومسجد مكة، ومسجد جؤاثى"[1]، وهو اسم حصن بالبحرين.

وقد عالج أبو بكر هذا الموقف في قتال المرتدين بما يستحقه من الحزم والصّرامة اقتداء برسول الله فقال قولته المشهورة وهو يستشير الصّحابة في شرعية ذلك القتال: "لا والله لا أفرّق بين شيء جمع الله بينه، ولو منعوا عقالا مما فرض الله ورسوله لقاتلتهم عليه".

وصدق وعد الله، واستمرت مسيرة الدّعوة الإسلامية في عهد الخلفاء الرّاشدين رغم تلك النّكسة الأليمة في حروب الرّدة، وسخّر الله لدينه من رفع رايته حتى تخطى حدود الجزيرة إلى تخوم الصّين شرقا وجبال البرانيس غربا. وقد حاول المفسّرون أن يعيّنوا بعض الأشخاص أو الأقوام ممن تحققت فيهم تلك الصّفات السّتّ الواردة في الآية الكريمة، وذلك حسب بعض الرّوايات المذكورة في تفسير السّلف مثل أبي بكر وعلي ﷺ، ومثل الأشعريين رهط أبي موسى الأشعريّ أو هم من اليمن بصفة عامّة. غير أن الآية تصدق على كل من اتصف بمضمونها في كل زمان ومكان، وإن كان هؤلاء المذكورون في الرّوايات المختلفة لهم فضل

١- الطبري، جامع البيان، ١٨٢/٦.

الرّيادة والسّبق في هذه المكرمة فكم عزّ هذا الدّين بقوم كانوا لا خلاق لهم، بل كانوا حربا على الإسلام كالتّتار وبعض المسيحيين مصداقا لما تنبأ به رسول الله في قوله: «**ليؤيدنّ الله هذا الدّين بقوم لا خلاق لهم**».[1] والصّفات السّتّ لمن يأتي بهم الله لنصرة دينه هي:

أ)- أنهم يحبّهم الله: وحبّ الله لعبده يتمّ في وجداننا -نحن البشر- بالانفعالات النّفسية والعواطف القلبية، ويتمثل في منّ الله لعبده في التّيسير والعون في أعماله، والرّضى والطّمأنينة في نفسه مهما تقلبت عليه الأحوال. ويؤيّد ذلك ما رواه الرّسول في الحديث القدسيّ: «**ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنّوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها**».[2]

ب)- أنهم يحبّون الله تعالى: ولا يبلغ العبد هذا المستوى من حبّ الله إياه إلا إذا سلك إلى ذلك طريق الحبّ والطّاعة والإجلال لعظمة ربّه، والإيناس بذكره بحيث يتضاءل في تصوّره ومعتقده كل محبوب أزاء محبته لله كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة:١٦٥). وهذا الحبّ وإن كان ثمرة لعبادة الله بإخلاص ووفاء، غير أنه فوق ذلك حالة وجدانية لا تجسّده العبارات، ولا تنمّ عنه كثرة العبادات. وقد وصف الرّسول الصّديق أبا بكر بهذه الصّفة حين قال: «**ما فضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في صدره**».

ألا ترى إلى رسول الله كيف شهد على رجل أنّه من الجنة، وكيف أن عبد الله بن عمر كان يظن أنه بلغ هذه المنزلة بكثرة التّهجّد في اللّيل حين احتال أن

١- رواه ابن حبان في صحيحه من حديث أنس، كتاب السير، باب في الخلافة والإمارة، حديث ٤٦٠٠.

٢- تقدم تخريجه، ص ٢٤.

يبيت عنده، ولكن الرّجل نام ملء عينيه كالاً من عمل يديه طول النّهار فإذا بالسرّ يكمن في طهارة نفسه وصفاء قلبه بالمودّة والحبّ وهو لا يضمر حقدا على أحد، ولا ينطوي على حسد.

ج)- ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُومِنِينَ﴾: لينوا الجانب لإخوانهم المؤمنين متواضعون، ليونة رحمة وعطف، وتواضع حبّ ومودّة، والأرواح البشرية حين تتآلف فإن الحواجز المادية تسقط والممارسات الطّفيلية تغيب، فتتعانق على صفاء وطيبة، وتتجاوب في الحضور وفي الغيبة، وما هي بذلة الإستكانة والهوان. ولذا جاء التّعبير بـــ"على" لا بـــ"إلى".

د)- ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾: إنها العزة التي لا تقبل الضّيم، والإباء الذي لا يقبل الهوان، إنه الاستعلاء والاعتداد بالنّفس أمام العدوّ والمتجبّر، كيلا تحدثه نفسه بعدوان، وإن اعتدى فلا نكوص أمامه في الميدان. ونظير هاتين الصّفتين قوله تعالى في أصحاب محمد ﷺ: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح:٢٩).

هـــ)- ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ﴾: والجهاد في سبيل الله يعني بذل النّفس والمال، بما في ذلك من احتمال الجهد والمشقة، لإعلاء كلمة الله ونصرة الحق والعدل ونشر الخير والصّلاح، وفق ما أمر الله به وشرعه من أحكام، لا يثنيهم عن ذلك أن يصطدموا مع واقع النّاس ومألوفهم، لأنهم على منهج الله يسيرون ولأحكام شرعه يحتكمون، ومن ثمّ لا يبالون إذا لامهم النّاس وانتقدوا، ولا يعتبرون أية جهة صدر منها ذلك اللّوم. تلك هي المواصفات التي ميّز الله بها هؤلاء القوم، وتلك هي منزلتهم عند الله.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُوتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾: فليس كل النّاس بحائزين على هذا الفضل، وليسوا كلهم مؤهلين لهذا الاختيار الإلهي، بل هو علم الله وحكمته ومشيئته في منح ذلك الفضل لمستحقيه من عباده، وهو واسع الفضل

كامل العلم بمن خلق.

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَالذِينَ ءَامَنُواْ الذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾:

بعد النّهي الجازم عن موالاة اليهود والنّصارى، يحدّد الله تعالى في هذه الآية الكريمة للجماعة المسلمة جهة ولائها، يحدّدها بأداة الحصر "إنّما" ليكون ولاؤها خالصا لله ورسوله وللمؤمنين بالتّبع. فلا سبيل للميوعة والتّردّد، لأن كل دعوة لا يتمحّص فيها الولاء لمبادئها وقيمها عن رغبة وقناعة محكوم عليها بالفشل وهذه الدّعوة الإيمانية هي أصدق الدّعوات في الوجود الإنساني وأشدّها تأثيرا في مقوّمات حضارته، كما أرادها الخالق أن تكون: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالانسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦).

وهذا الخبر يتضمّن معنى الأمر بموالاة الله ورسوله والمؤمنين جاء ليؤكد النّهي المتقدم عن موالاة اليهود والنّصارى.

وموالاة المؤمنين بعضهم لبعض بعد موالاتهم لله ورسوله إنما تقوم على آصرة الدّين والأخوّة في الله تعالى لا على مجرّد الانتماء الملّي كما يفعل اليهود والنّصارى، ولذا وصف الله المؤمنين بما يعتبر من أركان الدّين في ما يجسّد حسن العلاقة بين العبد وربه، وبينه وبين بني جنسه من إقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة.

وجملة: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ هي في موقع الحال تدلّ على معنى الثّبات والاستمرار بصيغتها الاسمية وتوحي بمعنى الذّلة من التّواضع والخشوع لجلال الله وعظمته كما تقدم في مواصفات المؤمنين الذين يحبّهم الله ويحبّونه. وقد بيّن الله تعالى في سورة التّوبة الدّعائم التي تقوم عليها ولاية المؤمنين بعضهم لبعض فقال جلّ من قائل: ﴿وَالْمُومِنُونَ وَالْمُومِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ

سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:٧١). وكل ولاية لا تنبني على هذه الأسس تكون هشة مضطربة تنفصم عراها لأوّل اصطدام بين الرّغبات والأهواء، وتناقض بين المصالح والأغراض.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾: وما أروع هذا المبدأ القويّ الأصيل الذي تضمنته هذه الجملة الشّرطية بجزئيها المتلازمين، وهي تضع بذلك القاعدة العامّة التي لا تعني فئة بعينها ولا تتعلق بزمان ولا مكان، قاعدة أسباب النّصر والغلبة. ولا معنى لجعلها تخصّ أشخاصا معيّنين من الصّحابة ولا من غيرهم كما نجد ذلك في بعض التّفاسير، لأن هذه الآية لها ما يؤيدها من الآيات الأخرى بنفس المعنى العام الذي يستفاد منها، حتى ولو صحت الرّوايات المتعرّضة لأسباب النّزول، فإن العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب.

قال تعالى في سورة الصّافات: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ، وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (١٧١-١٧٢-١٧٣). وقال في سورة المجادلة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة:٢٢).

ويسترعي انتباهي في هذا المقام استعمال كلمة: "حِزْبَ" ومعناه اللّغوي كما ذكره الإمام الفخر الرّازي: "أصحاب الرّجل الذين يكونون معه على رأيه، وهم القوم الذين يجتمعون لأمر حزبهم". ومن استعمالات القرآن لمعنى كلمة "حِزْبَ" ألفاظ: جند الله، أولياء الله، أنصار الله، شيعته، الرّهط.

ومن المفارقات العجيبة في عصرنا هذا أن يأخذ لفظ الحزب ذلك المعنى

الشّائع في المجال السّياسي والإيديولوجي بمفهومه الغربي العاري عن الدّين والفضيلة، والمبني على القاعدة الميكيافيلية: الغاية تبرّر الوسيلة. فيتسلّل مفهومه هذا إلى عالمنا العربي والإسلامي، وهو ما يزال يرزح تحت وطأ التّقليد الأعمى لكل ما هو غربي، وإن كان لا يتلاءم مع أصول حضارتنا وقيمنا الدّينية، فأين هي الشّعارات التي ترفعها أحزاب اليوم، وأين هي مبادؤها ومرتكزاتها في العمل الجماهيريّ من هذه القاعدة التي وضعها المولى تبارك وتعالى لـ"حزب الله" ووعد أصحابها بالغلبة والنّصر وميّزها بالفلاح الحقيقي، حين يكون ولاؤهم لله وهو المنطلق والأصل، ثم ولاؤهم لرسول الله والمؤمنين بالتّبع؟؟.

والولاء لله لا يحدّه زمان ولا مكان، ولا ينحصر في شخص ولا رهط، وبالتّالي لا يمكن أن تقيّده الرّغبات الضّيقة، ولا تكبته الأهداف المتحجّرة المسفّة.

وأمام هذه القاعدة التي هي من شرع الله الحكيم الخبير، والتي تتماشى مع المنطلقات الواسعة للحضارة الإنسانية وتتجاوب مع شمولية الإسلام ودعوته العالمية، فلا يسعنا إلا أن نعتبر كل حزب يندّ عن هذه القاعدة الشّرعية الحكيمة، حين يريد أن يبعد الدّين والولاء لله ورسوله والمؤمنين عن نشاطه الحزبي، نعتبره في عداد حزب الشّيطان. فاقرأ -أيها الأخ المسلم- إن شئت تلك المواصفات لحزب الشّيطان في سورة المجادلة ثم حاول أن تسقطها على واقع أحزاب اليوم، فسوف تجد ذلك الحسم الإلهي في هذه القضية الحساسة بما لا يدع مجالا للشّك بأنها محكوم عليها بالخسران في صريح قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المجادلة:١٩).

والله أعلم

النهي عن موالاة الكفار لما بهم من نقمة على المسلمين

أ)- النص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿دِينَكُمْ هُزُوًا﴾: الهزء بالدين: السخرية والاحتقار، وهما صفتان خسيستان، وتعظم تلك الخساسة إذا توجهت تلك السخرية إلى ما هو مقدس عزيز عند الإنسان كدينه وشرفه. ﴿وَلَعِبًا﴾: والعطف باللعب على اعتبار أن هؤلاء الكفار والمنافقين لا يعتقدون في أعمال الصلاة نفعا وإن كان المنافقون يمارسونها شكليا. ﴿نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾: يراد به الأذان للصلاة بألفاظه المشروعة. ﴿تَنقِمُونَ مِنَّا﴾: يُقال: نقَمَ ينقِمُ -بكسر القاف وفتحها-، والنقمة إنكار شيء لكراهته وما يترتب عليه من عقاب، وهو يتعدى بنفسه فيقال: نقمت الشيء ونقمته، ويتعدّى بـ"من" و"على". ﴿مَثُوبَةً﴾: المثوبة من ثاب يثوب إذا رجع، ويراد بها الجزاء الذي يرجع إلى صاحبه، واستعماله في الجزاء الحسن أكثر. "اللّعن": واللّعنة هي

منتهى المؤاخذة لمن غضب الله عليه، فيطرده من رحمته.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَالْكُفَّارَ﴾: قرأ الجمهور ﴿وَالْكُفَّارَ﴾ بالنّصب عطفا على ﴿الذينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ﴾ المبيّن بقوله: ﴿مِنَ الذينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾. وقرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب: ﴿وَالْكُفَّارِ﴾ بالخفض عطفا على ﴿الذينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، ومآل القراءتين واحد.﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾: قرأ الجمهور ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ بصيغة الماضي في "عَبَدَ"، وبفتح التّاء من: ﴿الطَّاغُوتَ﴾ على أنه مفعول ﴿عَبَدَ﴾، وهو معطوف على الصّلة في قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللهُ﴾ أي ومن عبدوا الطّاغوت. وقرأ حمزة وحده بفتح العين وضمّ الموحّدة وفتح الدّال وبكسر الفوقية من كلمة ﴿الطَّاغُوتَ﴾ على أن "عبد" جمع عبد. وهو جمع سماعيّ قليل، وهو على هذه القراءة معطوف على القردة والخنازير.

د)- البيان والتّفسير:

بعد النّهي في الآية المتقدمة عن موالاة اليهود والنّصارى حتى يتميّز المسلمون عن غيرهم، جاء هذا الاستئناف لتأكيد المضمون السّابق بالنّسبة لأهل الكتاب، وتعميم النّهي عن موالاة جميع الكفار لاشتراكهم في الموقف الشّائن من دين المسلمين. وأسباب النّزول لهذه الآيات تبيّن طبيعة الجوّ السّائد في المدينة من تنطّع اليهود وخبث المنافقين في تظاهرهم بالإسلام واغترار بعض المسلمين بتلك المظاهر، فحذّرهم الله تعالى في هذه الآية من ذلك، فقد روي عن ابن عباس ﷺ أن قوما من المشركين واليهود ضحكوا من المسلمين وقت سجودهم وكانوا إذا نادى منادي رسول الله قالوا: صياح مثل صياح العير، وتضاحكوا فأنزل الله هذه الآية.

قلت: إن المراد بالموالاة هنا موالاة التّحالف والتّناصر وقد لزّ الله أهل

الكتاب والكفار في قرن واحد في هذه القضية الحسّاسة التي تنتهي عند حدودها الأساليب الدّيبلوماسية المأمور بها في معاملة أهل الكتاب بالخصوص، فالمعاملة بالحسنى سلوك حضاريّ مطلوب، ولكن أن يمسّ العقيدة فيهزأ بأعظم مقتضياتها في حق الخالق، سيما في أعظم ركن منها كالصّلاة، فذلك شيء يحذّر الله منه الجماعة المسلمة، ويعلّق ذلك بصدق الإيمان وثبات العقيدة: ﴿**وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ**﴾:

بيان لبعض ما يتخذونه من الدين هزؤا ولعبا، وليس في النّداء إلى الصّلاة بعباراته النّديّة المثيرة لحمية المؤمن في تعظيم خالقه ما هو مدعاة للسخرية، بل هو الأمر المقدّس، والصّوت الحق الذي يتجاوب مع الوجود تسبيحا بحمد الله كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء:٤٤).

وليس أدلّ على نقص العقل وسفاهته من السّخرية والاستهزاء من أي شيء كان، فكيف بما هو أشرف وأقدس، لأن السّاخر مدفوع بتصوّره الفاسد أو المغرض للذي يسخر منه. يقول الرّازي في معنى الآية: "معنى تلاعبهم بالدّين واستهزائهم إظهارهم ذلك باللّسان مع الإصرار على الكفر في القلب، ونظيره قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (البقرة:١٤). والمعنى أن القوم لمّا اتخذوا دينكم هزؤا وسخرية فلا تتخذوهم أولياء وأنصارا وأحبابا، فإن ذلك كالأمر الخارج عن العقل والمروءة".[1]

قلت: إن التّعميم المستفاد من الآية لهذه الظّاهرة يعكس الواقع التّاريخي عندما توسّعت الفتوحات الإسلامية إلى المشرق والمغرب، فأصبح النّصارى في الشّام وغيره من الأقطار لا يقلّون سخرية واستهزاء من طقوس المسلمين عن اليهود

١- الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٣٢/١٢.

والكفار في المدينة وقت التّنزيل. فمما يرويه الأدب العربي عن الأخطل الكبير -وهو عربيّ نصراني من الشّام- أنه أنشد بحضرة أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قوله:

ولست بصائم رمضان يوما و لست بآكل لحمَ الأضاحي
ولست بزاجر عنسا بكورا إلى بطحاء مكة للنّجـــاح
و لست بقائم كالعير أدعو قبيل الصّبح حيّ على الفلاح
ولكني سأشربها شمـــولا وأسجد عنـــد منبلج الصّباح

فهذه الدّالة التي حظي بها الأخطل على عبد الملك بن مروان الخليفة المسلم تؤيّد ما قلناه من الواقع التّاريخي المرّ، وليت الأمر في موقف أهل الكتاب قد اقتصر على الحرب الكلامية وما تدفع إليه من التّهافت والاستهتار، ولكن تعداه إلى الحديد والنّار والتّخريب والتّقتيل والدّمار، فهل يرعوي وينتبه المسلمون؟. وصدق الشّاعر المتنبي حين قال:

من يهن يسهل الهوان عليه مـــا لجـــرح بميّت إيـــلام

﴿قُلْ يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾:

إذا كان ما تقدم من واقع أهل الكتاب وموقفهم من دين المسلمين فما هي بواعث ذلك ودوافعه في نفوسهم؟. الخطاب موجّه للرسول والاستفهام للإنكار والتّوبيخ، وتوجيه النّداء إلى أهل الكتاب دون الكفار لزيادة تقريعهم لأنهم يدّعون الإيمان بما أنزل الله، ولكنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، بينما المسلمون يؤمنون بالكتاب كلّه، فهم لذلك محلّ نقمة وسخط لا يمكن أن تنطفئ جذوتهما على مدى الزّمان مهما حاول أهل الكتاب والمخدوعون بهم أن يلطفّوا

الأجواء بين الفريقين بدعوى محاربة الشّيوعية والإلحاد، أو بدعوى فصل الدّين عن السّياسة والاقتصاد، لأن السّلوكات لا يمكن أن تنفصل عن البواعث والدّوافع.

فالإيمان الكامل المقبول عند الله هو ما عليه رسول الله وأتباعه من الإيمان بالله وكتبه ورسله، وليس في ذلك ما يعاب وما ينقم منه، بينما أنتم أحق بالنّقمة لفسق أغلبكم بما حرّفوه وبدّلوه، ولتكذيبكم لرسول ظهرت معجزته وتبيّن لديكم صدقه. وللمفسرين تأويلات في هذا العطف، ولعل أصحّها -والله أعلم- أن يكون قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ معطوفا على قوله: ﴿أَنَ -امَنَّا بِاللهِ﴾ ليكون التّقابل بين ما ينقم منه حقيقة في عرف الأخلاق والدّين وما لا ينقم منه، وذلك أدعى للتهكّم. يقول الرّازي: "ومثل هذا حسن في الازدواج، يقول القائل: هل تنقم مني إلا أني عفيف وأنك فاجر، وأني غنيّ وأنت فقير".[1] وهل بغير زوال النّعمة عن المحسود يرضى الحسود. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة:١٢٠).

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ﴾:

ومجاراة لما يعتقده اليهود في المسلمين من الشّرّ في دينهم، وإمعانا في التّهكّم بهم ومن نقص عقولهم ذكّرهم الله بما هو شرّ من ذلك وأشدّ تبكيتا، بما حدث لهم في تاريخهم من غضب الله ولعنته إلى حدّ المسخ المعنويّ أو الماديّ كما فعل بأصحاب السّبت في رأي الجمهور أن مسخهم كان حقيقة ثم انقرض نسلهم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (الأعراف:١٦٦).

١- الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٣٥/١٢.

﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾: تشمل كل ما عُبد من دون الله كعبادتهم للعجل واتخاذهم الأحبار والرّهبان أربابا من دون الله، أو عبادتهم لنفوسهم. والمعنى أن هؤلاء المتصفين بهذه النّقائص والعيوب والمخازي هم شرّ مكانا وأوغل في الضّلال، فمكانهم جهنّم ساءت مستقرا ومقاما، وقد ضلّوا عن طريق الخير الموصل إلى الجنة. ولا يقصد بكلمتي: "شَرٌّ" و"أَضَلُّ" معنى المفاضلة، وإنما جيء بهما للمشاكلة والمجاراة كما تقدم، والله أعلم.

بعض المواقف المخزية في منافقي اليهود

أ)- النص:

وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿دَخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ﴾: "الباء" للملابسة، أي دخلوا متلبسين بالكفر وهو باق معهم في الدّخول والخروج. ﴿يُسَارِعُونَ﴾: يقبلون إلى الإثم بسرعة قال الفخر الرّازي: "لفظ المسارعة إنما يستعمل في أكثر الأمر في الخير. قال تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ (المومنون:٦١). وقال تعالى: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ (المومنون: ٥٦). فكان اللائق بهذا الموضع لفظ العجلة. إلا أنه تعالى ذكر لفظ المسارعة لفائدة،

وهي أنهم كانوا يقدمون على هذه المنكرات كأنهم محقون فيه".[1] ﴿الإِثْمَ﴾: كل المعاصي والمنهيات وأعظمها الكذب. ﴿الرَّبَّانِيُّونَ﴾: يقول ابن كثير في الفرق بينهم وبين الأحبار: "الرَّبَّانِيُّونَ هم العلماء العمّال أرباب الولايات عليهم، وَالأَحْبَارُ هم العلماء فقط عن تعاطي ذلك".[2] ﴿لَوْلاَ﴾: مع الماضي تفيد التّوبيخ، ومع المضارع تفيد التّحضيض. ﴿يَصْنَعُونَ﴾: الصّنع أقوى من العمل لأنه يستلزم الدّربة والمهارة.

ج)- البيان والتّفسير:

ما يزال الكلام في منافقي اليهود وذكر بعض مواقفهم من دعوة الرّسول والجماعة الإسلامية. والجملة: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ﴾. وتعداد صفاقم وأحوالهم المنكرة من شأنه أن يرسّخ اليقظة والحذر في نفوس المسلمين حتى لا يغتروا بمظاهرهم عندما يدّعون الإيمان أمام الرّسول، لأن النّفوس السّليمة مهما يكن تصلّبها وعنادها، فإنها قد تلين وتتأثر بموعظة رسول الله وبسماع القرآن، والأمثلة على ذلك كثيرة وأروعها ما حدث لعمر ﷺ وقد ذهب لقتل الرّسول. ولكن هؤلاء اليهود لا تتغيّر حالهم البتة، فهم هم في الدّخول والخروج تحقيقا وتأكيدا للمعنى بكلمتي: "قَدْ" و"هُمْ".

وما أروع استعمال الضّمير في حالة الخروج بالكفر يقول الرّازي: "للتأكيد في إضافة الكفر إليهم ونفي أن يكون من النّبي ﷺ في ذلك فعل".[3] وما يعلم حقيقة ما في قلوبهم إلا الله، فهم يظهرون الإيمان ولكنهم يكتمون الكفر ودوافعه إلى الدّسّ والمكر والكيد قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ الذِينَ ءَامَنُواْ قَالُواْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَواْ

١- الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٣٨/١٢.

٢- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٧٤/٢.

٣- الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٣٨/١٢.

إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (البقرة:١٤). ولا أدل على بقائهم في الكفر من المسارعة إلى الإثم والعدوان وأكل السّحت، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

والخطاب موجّه إلى الرّسول وإلى كل سامع، وحتى لا يعمّم الحكم جيء بكلمة: ﴿كَثِيراً مِّنْهُمْ﴾، مما يدلّ على أن الأغلبية منهم كانوا على الصّفات المذكورة في الآية، واستعمال فعل المسارعة في ما هو شرّ على غير موضع استعماله في الخير على الأكثر كما تقدم إنما هو لإفادة معتقدهم في الأميين من غير جنسهم، وأن معاملتهم بالمكر والدّسّ والكيد والعدوان على حقوقهم هو مبرّة وتقرّب إلى الرّبّ. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(آل عمران:٧٥).

والألفاظ المستعملة للمنكرات التي يرتكبونها يلاحظ فيها ترتيب دقيق في دلالتها العامّة والخاصة، فلفظ "الإثم" يتناول كل أنواع المعاصي قولا وعملا. خصّص منها العدوان على حقوق الغير وتجاوز الحدود في ذلك، وأخسّ أنواع العدوان أكل أموال النّاس بالباطل.

وإضافة الأكل إليهم -والله أعلم- ليفيد نوعا من الخصوصية لهم في هذا العدوان الشّنيع، وإنهم لكذلك في ماضيهم وحاضرهم بما ابتدعوه من أساليب مجحفة في التّعامل المالي والتّبادل الاقتصادي، يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ذمّ لأعمالهم الشّنيعة.

﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾:

يقول ابن عباس عن هذه الآية: "هي أشدّ آية في القرآن". وعن الضّحّاك:

"ما في القرآن آية أخوف عندي منها". ذلك لأن هؤلاء العلماء الأفذاذ من الأمة الإسلامية يدركون مسؤوليتهم أمام الله في نشر العلم وإرشاد النّاس، وفي القيام بأمانة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والدّعوة إلى الله بكل الوسائل التي توصل إلى الهدف غير متملّقين للعامّة ولا مدغدغين لعواطفها.

وعلماء اليهود بتركهم النّهي عن محارم الله لأتباعهم قد تركوا المجال للسّفهاء يقترفون الآثام وينشرون الفواحش، وقد روي أنهم كانوا يؤاكلونهم ويشاربونهم إلى درجة أن العامّة والأتباع اتخذوا هؤلاء الأحبار والرّهبان أربابا من دون الله.

وتلك مصيبة وقع فيها المسلمون عندما تملّقوا للحكّام والأمراء الفسقة، وقعدوا عن واجب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر جريا وراء زينة الدّنيا وفتنتها، وصدق رسول الله: «**لتتبعنّ سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه**».[1]

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾: فهؤلاء العلماء أكبر إثما من مرتكبي المنكرات بدافع الشّهوة والجهالة، لأن العالم هو عليم بما يفعل، خبير بما ينجرّ عن تقصيره من شرّ وفساد، ولهذا المعنى الدّقيق جيء بجملة: ﴿يَصْنَعُونَ﴾ لأن الصّنع يقتضي الإتقان والجودة في العمل.

والله أعلم

١- تقدم تخريجه، ص ٣٣

إلقاء العداوة بين اليهود جزاء افتياتهم على الله

أ)- النص:

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۙ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يَدُ﴾: تطلق على عدة معان في الحقيقة والمجاز والكناية، تطلق على الجارحة، وعلى النعمة والقدرة والملك والتصرّف، وعلى المنة ...الخ. ﴿مَغْلُولَةٌ﴾: غلّ اليد ربطها إلى الأعناق عند الأسر، وهو كناية عن البخل الشّديد، ضدّها بسط اليد. ويقال: قبض يده وأمسكها، وبسط يده وأطلقها، وذلك بالحركة الإرادية بينما غلّ اليد كناية عن البخل الشّديد إذ المغلول لا يستطيع بسط يده. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ﴾: سلطنا عليهم. ﴿أَوْقَدُوا نَاراً لِّلْحَرْبِ﴾: تمثيل لإعداد أسباب الحرب بتهييج الفتن والإغراء للاقتتال، وإطفاؤها كناية عن الإحجام عن الحرب بصلح أو بسبب آخر. ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾: كناية عن بسط

الأرزاق لهم بكثرة الغيث والنّبات. ﴿مُقْتَصِدَةٌ﴾: أي معتدلة في موقفها من الدّين لا تغلو ولا تقصّر.

ج)- البيان والتّفسير:

من مسارعة اليهود في الإثم والعدوان هذه المقولة الشّنعاء التي تنمّ عن خبث الطّوية قولهم: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وهي معطوفة على قولهم: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾. وغلّ اليد كنّاية عن البخل الشّديد. وقد عبّر الله تعالى في آية أخرى بلفظي القبض والبسط فقال: ﴿وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:٢٤٥). وبسط اليد كناية عن الجود والكرم. واستعارة: "غلّ اليد" للبخل والشّحّ تعبير عن الشّدة والمبالغة فيهما كما قال في سورة الإسراء: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ (٢٩). وسواء قالوها لفظا كما تنصّ عليها بعض الرّوايات في أسباب التّنزيل أو عبّروا عنها موقفا وحالا في معرض التّهكم بالمسلمين، فإن اليهود لا يستحون من الله أن يقولوها. كما حاول بعض المفسّرين أن يستشكل ما ذكر عنهم في هذه الآية بدعوى أن اليهود أهل إيمان ودين فلا يجوز لهم أن يصفوا الله بذلك. ومتى ثبت عنهم في تاريخهم أنهم وفّوا بعهد الله أو أنهم قدروا الله حق قدره؟ أوَلم يقولوا: ﴿إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾(آل عمران:١٨١)

يقول صاحب المنار في ردّ ذلك الإشكال: "وعبارة الآية لا تدلّ على أن هذا القول يقوله جميع اليهود في كل عصر، حتى يجعل إنكار بعضهم له في بعض العصور وجها للإشكال في الآية وإنما عزاه إلى جنسهم لما ذكرناه آنفا على أن النّاس في كل جنس يعزون إلى الأمة ما يسمعونه من بعض أفرادها إذا كان مثله لا ينكر فيهم، والقرآن يسند إلى المتأخرين ما قاله وفعله سلفهم منذ قرون بناء على قاعدة تكافل الأمة وكونها كالشّخص الواحد، ومثل هذا الأسلوب مألوف في

كلام النّاس أيضا" اه.[1]

قلت: إن المفروض في المؤمن هو تنـــزيه الله في كل حالة عما لا يليق بجلاله وقدرته، غير أن الغضبية والجهالة قد تجعل الإنسان يخرج عن طوره فتندّ عنه كلمات لا يلقى لها بالا تتعارض مع تصوّره الإيماني، حتى إذا سكت الغضب عنه ثاب إلى رشده واستغفر من ذنبه، وليس ذلك مما يخدش في أساس الإيمان.

وقد اكتنفت هذه المقولة الشّنعاء منهم في الله تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا قد اكتنفها وصف الله لأكثرهم بالفسق في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ (المائدة:٥٩). وقوله في الآية اللاحقة: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:٦٦). وقبل أن يبطل الله دعواهم الكاذبة الوقحة تجيء جملة: ﴿**غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ**﴾، تجيء معترضة في أسلوب بليغ يردّ عليهم تلك الصّفة بصيغة الدّعاء من لفظ سببه، دعاء عليهم بالبخل وذمّ لهم على تلك الجراءة على الله، ثم جزاء لهم باللّعنة والطّرد من رحمة الله: ﴿وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾.

وقد اشتهر اليهود بالبخل حتى في حالة يسرهم وغناهم، ومن العلماء السّلف من اعتبر غلّ الأيدي حقيقة، وذلك بتعذيبهم بالأسر وغلّ الأيدي في الدّنيا أو في النّار، ونقل ذلك عن الإمام الحسن البصريّ إذ قال في تفسير هذا الغلّ: "يغلّلون في الدّنيا أسارى، وفي الآخرة معذبين بأغلال جهنم".

﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ**﴾: نقض لما قالوه، إذ هو الغني الحميد الجواد الكريم، وسعت رحمته كل شيء، وفاضت نعمه على خلقه في أرجاء ملكوته لا تنفد خزائنه بالعطاء الواسع، والذي يدلّ عليه التّعبير باليدين مبالغة في الوصف بالجود والكرم، وقوله: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ لا ينافي كرمه وهو يقتّر على

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٤٥٣/٦.

بعض عباده، لأن ذلك يجري وفق حكمته في سياسة خلقه وهو تعالى يقول: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (الشورى:٢٧).

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾: بيان للدّوافع الدّنيئة في نفوسهم من الحقد والحسد، والتي كانت السّبب في بذاءة أقوالهم ومواقفهم المخزية من رسول الله وأصحابه، إذ أن هذا القرآن الذي يكشف عن أسرارهم وينبّه عن خفايا شؤونهم دليل على نبوءتك -أيها الرّسول- لو أنهم كانوا منصفين. ولكنهم لا يزدادون إلا كفرا وطغيانا.

وأكّد الله هذا المعنى بالقسم، حتى لا يجد الرّسول مطمعا في صلاحهم، ثم لا يغيظه ذلك الموقف منهم، لأن الحسود لا يرضيه إلا زوال النّعمة عن محسوده ولأن التّأثير القرآني يكون على حسب الاستعداد النّفسي عند السّامع كما قال تعالى في آيات أخرى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ (الإسراء:٨٢).

وللطغيان والكفر وعيد وعقاب، ومن حتمية اللّعنة والطّرد من رحمة الله أن لا يهنأ لهم قرار، ولا يكون لهم عزّ ولا فخار. فهم على شحناء وبغضاء، إن في ما بينهم أو بينهم وبين النّصارى -على خلاف بين المفسّرين-، ومع العداوة والبغضاء لا يستقيم العمران، ولا ينعمون بالأوطان وذلك عقابهم إلى يوم القيامة، فلا يغرّنكم مظهر اتحادهم في بعض الفترات: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ (الحشر:١٤).

﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾: لأن المكر السّيئ لا يحيق إلا بصاحبه، فكم من مؤامرات دبّروها للكيد بالمسلمين والنّيل من الرّسول أحبطها الله يوم أن كان الصّفّ

متراصًا، وإيقاد النّار محاولة لإشعالها بشتى الوسائل، وأعظمها تهييج الفتن والوقيعة بين النّاس، واليهود هم أخبث النّاس في هذا المجال مدفوعين بعصبيتهم الجنسية والدّينية. يقول الشّاعر في هذا المعنى لاستنهاض همم بني أمية ضدّ أعدائهم، هو سديف الشّاعر:

أرى خلل الرّماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام

فإن النّار بالعودين تذكـــى ... و إن الحرب أوّلها الكـــلام

فإن لم يطفها عقلاء قـــوم ... يكون وقودها جثث و هَامُ

أقول من التحسّر ليت شعري ... أأيقاظ "أمية" أم نيـــــام؟؟

فإن كانوا لحينهم نـــيامـــا ... فقل: قوموا فقد حان القيام

﴿وَلَوَ اَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَلَوَ اَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالانجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾:

على ذلك الوصف المزري والتّهديد الشّديد يفتح الله باب التّوبة، ويمد حبل الأمل أمام أهل الكتاب وخاصّة اليهود علهّم يرعوون عن غيّهم فيؤمنون بالله ويتقونه كما دعاهم إلى ذلك رسول الله. ولو أنهم فعلوا ذلك لوجدوا الله توّابا رحيما، يكفّر عنهم سيئاتهم ويجزيهم بجنات النّعيم.

فذلك هو المطلب الأساسيّ منهم أي الإيمان بالله وبرسوله محمدﷺ، ثم في الدّرجة الثّانية لو أنهم عملوا وفق ما في كتبهم المقدّسة من دون تحريف أو تبديل سيما ما أنزل الله إليهم من بشارة النّبي الخاتم وبيان أوصافه، إذ يعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم، لو فعلوا ذلك لأغدق الله عليهم الأرزاق غيثا من السّماء وبركات

من الأرض.

و"لَو" حرف امتناع لامتناع كما يقول اللّغويون، فقد تعطّل وعد الله لامتناعهم عن استجابة دعوة الرّسول. وفي نظير هذه الآية من سورة الأعراف يفصح الله بالمعنى اللّغويّ المستفاد هنا من حرف "لَو" فيقول تعالى: ﴿وَلَوْ اَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالاَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف:٩٦).

ذلك هو موقف الكثير من أهل الكتاب، و لم يبخس الله حق أولئك الذين استجابوا منهم لدعوة الرّسول يهودا أو نصارى فحسن إسلامهم وزكت نياتهم وأعمالهم في قصد واعتدال وفي طاعة وامتثال وإن كانوا قلّة، وقد تكرّر هذا المعنى في القرآن الكريم كقوله تعالى:

أ)- ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (الأعراف:١٥٩).

ب)- ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَآءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء:٧٣).

ج)- ﴿فَآتَيْنَا الذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد:٢٧).

ومهما ساءت الأوضاع في أمة من الأمم فإن للحق أنصاره يثبتون على نهجه لا تفتنهم المطامع ولا تثنيهم المصائب والمواجع حتى يظهره الله على أيديهم أو على أيدي من يأتي بعدهم من الخلائف.

والله أعلم.

واجب الرّسول في التّبليغ وأن لا يخشى مكر النّاس

أ)- النّص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿بَلِّغْ﴾: من التّبليغ: الإعلان بالشّيء والإعلام به إلى الغير، والمقصود الشّريعة الإسلامية وما تضمنته من الأحكام. ﴿يَعْصِمُكَ﴾: من العصمة، أي يحفظك ويصونك من كيد النّاس فلا تخش إذايتهم في التّبليغ. ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾: من حقيقة الدّين الصّحيح وأنتم قد حرفتم ما أنزل الله في التّوراة والإنجيل. ﴿تُقِيمُوا﴾: إقامة الشّيء: العمل على الإتيان به كاملا غير منقوص. ﴿فَلَا تَأْسَ﴾: لا تحزن على كفرهم. ﴿الصَّابُونَ﴾: الخارجون عن الدّين.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾: قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر وأبو جعفر:

﴿رِسَالَاتِهِ﴾ بصيغة الجمع. وقرأ الباقون: ﴿رِسَالَتَهُ﴾ بالإفراد، والمقصود الجنس فهو في سياق النّفي سواء مفرده وجمعه.

د)- البيان والتّفسير:

ذكر الإمام الفخر في مناسبة هذه الآية ما روي عن الحسن عن النّبي ﷺ قال: «**إن الله بعثني برسالته، فضقت بها ذرعا وعرفت أن النّاس يكذبونني واليهود والنّصارى وقريش يخوّفونني، فلما أنزل الله هذه الآية زال الخوف**».

وروي أن النّبي ﷺ كان أيام إقامته بمكة يجاهر ببعض القرآن، ويخفي بعضه إشفاقا على نفسه من تسرّع المشركين إليه، فلما أعزّ الله الإسلام وأيّده بالمؤمنين قال له: ﴿**يَآ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾ أي لا تراقبن أحدا، ولا تترك شيئا مما أنزل إليك خوفا من أن ينالك مكروه.[1]

قلت: النّداء الإلهي بصفة الرّسالة لسيّدنا محمد تشريف وتكريم وهو النّداء الثّاني بهذه الصّفة في هذه السّورة الكريمة، وبين مضمون النّداءين توافق وتكامل في تصوير طبيعة الدّعوة وصفة الدّاعي، لأن الدّعوات الصّالحة التي تواجه واقع النّاس لإصلاح وضعيتهم وتغيير منهجهم لابد وأن تصطدم بأنواع من التّحدّيات تفضي أحيانا إلى المواجهة في إصرار وعناد، كما أن الدّاعي الوفي لمبدئه وعقيدته لا يردّه كيد الكائدين، ولا تحبط مسعاه أنواع الإذايات التي يتلقاها، وإن كان يجد في نفسه بعض الضّيق لما يجابهه من قومه ويلقاه، والرّسول قد واجه المكر والإذاية في مكة من طرف قومه من كفار قريش، كما واجه ذلك في المدينة من طرف أهل الكتاب وأشياعهم من المنافقين.

وقد استشكل بعض المفسّرين موضع هذه الآية من هذه السّورة وهي من

١- الفخر الرازي، التفسير الكبير، ١٢/٤٨.

آخر القرآن نزولا، ويوشك التّبليغ المأمور به أن ينتهي؟ فذهب المفسّرون مذاهب شتى في التّوفيق بين موضعها من هذه السّورة وبين طبيعة الدّعوة من أول مسارّها فيها بعيد الاحتمال وفيها القريب، ووردت في أسباب النّزول روايات تتفاوت في الصّحة والضّعف لا تقوى أن تبيّن بوضوح مقام الآية مما يكتنفها من الآيات في هذه السّورة الكريمة ولذا يقول الإمام الرّازي بعد سوقه لتلك الأقوال: "واعلم أن هذه الرّوايات وإن كثرت إلا أن الأولى حمله على أنه تعالى آمنه من مكر اليهود والنّصارى، وأمره بإظهار التّبليغ من غير مبالاة منه بهم، وذلك لأن ما قبل هذه الآية بكثير، وما بعدها بكثير لما كان كلاما مع اليهود والنّصارى امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة في البين على وجه تكون أجنبية عما قبلها وما بعدها".[1]

قلت: نهى الله تعالى في ندائه الأول للرسول أن يحزنه الذين يسارعون في الكفر من المنافقين واليهود، وقبل أمره بالتّبليغ لكل ما أنزل إليه من ربّه في هذا النّداء، أخبره ربّه بأن الكثير من أهل الكتاب هم ممن ساءت أعمالهم وأن بلاغ القرآن لا يزيدهم إلا طغيانا وكفرا، فهم -إذن- في موقف التّحديّ والعداء، ومع العداوة والطغيان المكر والكيد، فهل يكون للرّسول عذر في هذا الموقف أن يحجم عن الدّعوة أو أن يداهن اتقاء للمكر والإذاية، سيما والقرآن يكشف فضائحهم ويجابههم بما يُسرّون وما يكتمون. فجاء هذا الأمر الجازم للرسول بأن لا يستبقي شيئا مما أنزله الله، وأن لا يخشى مكر النّاس لأن الله حافظه وعاصمه، وما أروع الإظهار في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

ولفظ الجلالة له إيحاءاته المكنية في مثل هذا الموقف. فالتّبليغ لكل النّاس وحفظ الله موعود به لرسوله من جميع النّاس، فأهل الكتاب وغيرهم من المنافقين والمشركين سواء، ذلك لأن ادّعاء الإيمان من أهل الكتاب لم تخرجهم عن طبيعة

١- الفخر الرازي، التفسير الكبير، ١٢/٥٠.

النّاس في جاهليتهم وضلالهم، لأنهم اختاروا الظّلم فأخطأهم هداية الله.

وقوله تعالى: ﴿فَلاَ تَاسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ يؤكد معنى التوافق والتكامل بين مضمون النداءين كما تقدم أي بعد قوله: ﴿قُلْ يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالانْجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾، ثم قال مؤكدا المعنى السّابق: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَاسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

ومن أشدّ ما أمر الله به الرّسول أن يبلّغه لأهل الكتاب وقد وعده بالحفظ والعصمة -والمقصود بأهل الكتاب هنا اليهود والنّصارى بدليل ذكر التوراة والإنجيل- من أشد ذلك هذه العبارة التي تدلّ على تحقير شأنهم: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾، أي هذا التديّن الذي تدّعونه لا يعتدّ به عند الله، واسم شيء يصدق على كل موجود وقد ورد نكرة في سياق النّفي. إلا أن القرائن تبيّن المراد منه هنا، وهو الدّين بما فيه من إيمان وسلوك، أي لغاية إقامتكم لأحكام التوراة والإنجيل.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾: يحتمل أن يراد به -والله أعلم- ما أنزل من القرآن على محمد الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، ويحتمل أن يراد به ما أنزل على رسلهم وأنبيائهم من غير التوراة والإنجيل.

وبهذه الآية أبطل الله مزاعمهم بأنهم متديّنون وأنهم يتمسكون بما عندهم ولا يحتاجون إلى غيره، إذ ليس الدّين ادعاء باللّسان، ولا انتماء إلى جنس كما يريدون، وكان من مستلزمات إقامتهم للتوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم أن يؤمنوا بما أنزل على محمد وهو المبشر به في التوراة والإنجيل، وهو المصدق لما بين يديه من الكتاب، ويالها من مواجهة فاصلة تقرعهم وتجرح كبرياءهم لا تزيد الكثير منهم إلا طغيانا وكفرا حسدا من عند أنفسهم.

﴿فَلاَ تَاسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾: فما للرسول بدّ من تبليغهم هذه الحقيقة

الفاصلة، فلا يحزن لمن آثر الكفر والضّلال حتى أصبح متوغّلا فيهما بحيث لا ترجى هدايته، فليس للمجاملة والرّفق أي أثر في نفوس مثل هؤلاء النّاس، وقد يعتبرون ذلك ضعفا ممن يجاهمهم ويناوئهم، وكيف ترجى هدايتهم والله ينفي عنهم ذلك في ما سبق: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَالذِينَ هَادُواْ وَالصَّابُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الاٰخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

تقدم في سورة البقرة ذكر هذه الفرق، وأعيد ذكرها هنا لوضع القاعدة العامّة للحساب والجزاء وهي أن اتّباع الدّيانات السّماوية المختلفة إذا استكملوا متطلبات الدّين بالإيمان الصّحيح والعمل الصّالح وفق ما تأمر به شرائعهم دونما تحريف أو تبديل، فإن جزاءهم عند الله هو انتفاء الخوف والحزن عنهم، والمتبادر من ذلك أن يكون المراد -والله أعلم- رفع الخوف عنهم والحزن في يوم الفزع الأكبر من أهوال القيامة.

وبما أن النّفي جاء مطلقا فيمكن أن يضاف إلى ذلك انتفاء الغمّ والحزن حتى في الحياة الدّنيا بحيث تطمئن نفوسهم إلى الرّضى بقضاء الله وقدره، وأن الله يكفي عنهم شرور الدّنيا وأوصابها مصداقا لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ انثَىٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَواةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٧).

ويلاحظ أن جمع ﴿وَالصَّابُونَ﴾ لم يعطف على ما سبق أي على النّصب، لأن هذه الفرقة هي أبعد الفرق المذكورة عن إتباع الأديان.

والله أعلم

معاملة اليهود لرسلهم بالتكذيب والقتل

أ)- النص:

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾: أي جاء بعكس رغباتهم التي تميل إلى المنافع العاجلة. ﴿رُسُلًا﴾: الرّسل: ويتناول أنبياءهم كذلك، إذ المشهور عنهم أنهم قتلوا الأنبياء لا الرّسل. ﴿فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾: العمى والصّمم: كناية عن الأفعال السّيّئة التي ارتكبوها إعراضا عن هداية رسلهم. ﴿حَسِبُوا۟﴾: من أفعال الظّن وإذا تمكّن هذا الظّن من النّفس مال إلى اليقين.

ج)- البيان والتفسير:

عودة إلى ذكر أحوال اليهود في استئناف صدّر باللاّم المشعرة بالقسم، وهذه العودة لموضوع اليهود تتضمن اليأس من اتباعهم لرسول الله والإيمان برسالته، وهم أولئك الذين أخذ الله عليهم الميثاق فنقضوه وتجرّأوا على الله كما ذكر في أول السّورة، وفي سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (٨٧). والمقصود بالرّسل كل أولئك الذين جاؤوا من بعد موسى وهارون وحتى الأنبياء منهم على قاعدة: كل

رسول نبي، وليس كل نبيء رسول. لأن القتل نال أنبياءهم لا الرّسل، والله يقول في سورة النّساء: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ (النساء:١٥٥).

﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ﴾:

ورسل الله إنما يجيئون لتصحيح المعتقدات وإصلاح الأوضاع الفاسدة باحتدام الرّغبات وتصارع الأهواء لا يتملقون النّاس في دعوتهم إلى العدل، ولا يمالئونهم في ما يريدون، و"كلّما" تفيد التّكرار وتتطلّب جوابا وهي مشربة معنى الشّرطية وقيل: إن جوابها مقدّر، ويكون التّفصيل في قوله تعالى: ﴿فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ﴾ يكون استئنافا بيانيا لموقفهم من الرّسل، بالتّكذيب والإعراض تارة، وبالقتل أخرى، لا لشيء إلا لأنهم يحملون هؤلاء الأتباع على الالتزام بعهد الميثاق من توحيد الله والإيمان به، ومن السّير على نهج أحكامه التي شرّعها لهم لضمان سعادتي الدّنيا والآخرة وضمان العزة والتّمكين.

وقد اختلفت صيغة الفعل في التّقسيم الدّال على موقفهم الشّائن، اختلفت ما بين صيغة الماضي والمضارع، وهي كلّها أحداث وقعت في الماضي لاستحضار شناعتها في الحاضر للمبالغة في النعي والتّوبيخ.

ويوم تزيغ قلوب فريق من النّاس ويتمكن منهم التّحدّي والضّلال إلى درجة الإضرار بقادتهم وزعمائهم فقد حقت عليهم كلمة العذاب حين ينفذ فيهم أمر الله في ما هو الجزاء والعقاب، ويومئذ لا تجدي محاولة التّأويلات والإتيان بالمبررات، من حتمية الظّروف وقهر الأحداث وما إلى ذلك من التّعلات.

﴿وَحَسِبُوۤاْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾:

وكم للمغرور من حسبان، وكم للمفتون من أوهام ...!.

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدّق ما يعتاده من توهّـــم

وللسفهاء والغاوين متاهات يوغلون فيها وينسون أنفسهم عندما ينسون الله، فلا ينتبهون إلى العواقب، بل يلجون في الفساد، فيرون ما هم عليه هو الصّواب والسّداد، وعطف جملة: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ على ما قبلها من بيان أفعالهم الدّنيئة من القتل والتّكذيب للرسل، لإفادة أن ما يفعلونه يصدر عن تعمّد وسبق إصرار لا عن جهالة أو غفلة، فهم لفساد معتقدهم وقوة غرورهم يعتقدون أنهم آمنون من الفتنة.

ومن سنن الله تعالى في خلقه أن يفتنهم جزاء ما كسبت أيديهم بالمصائب التي تنتابهم. يقول تعالى: ﴿الٓمٓ، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوٓاْ أَنْ يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت:١-٢). وقد تكون الفتنة للابتلاء والاختبار والتّمحيص: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت:٣).

﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾:

استعير العمى والصّمم للإعراض عن آيات الله، والغفلة عن سننه، والسّمع والبصر وسيلتان كبريان للهداية والرّشاد متى وظّفهما الإنسان للتذكّر والتّبصّر والاتعاظ، وعلى سنة الاستدراج وإقامة الحجة تتكرر فترات الضّعف والقوة لدى أمة من الأمم، فدلت هذه الآية الكريمة أن الله تعالى سلّط على بني إسرائيل من أذاقهم سوء العذاب للمرة الأولى بعد نقضهم الميثاق، ثم أخذوا العبرة بما أصابهم فتابوا وأصلح الله أحوالهم. ولكنهم عادوا إلى الغفلة والنّسيان، وإلى البغي والطّغيان بكيفية أقوى حتى أصبح ذلك هو الطّابع الغالب على أكثرهم: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾، ولم تبيّن الآية ماذا أعقب عماهم الثّاني، وإنّما كان التّذييل بقوله

تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

وقد حاول المفسّرون أن يسقطوا هذا الإخبار الإلهي على تاريخ بني إسرائيل من بعد موسى فذهبوا مذاهب تتفاوت في القوة والضّعف.

ويرى المحققون أن بيان هذه الآية قد فصلته آيات الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ فِي الْكِتَٰبِ...﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ (الإسراء:٤-٨). وأن فسادهم الأول أعقبه نكال ملك أشور بهم "بختنصر" قبل ميلاد المسيح، وأن توبة الله الأولى عليهم كانت على يد ذي القرنين الملك الفارسي "قورش" حين تغلب على الآشوريين. فحرّر اليهود من ربقتهم وأذن لهم بعمارة بيت المقدس.

كما أن فسادهم الثّاني أعقبه نقمة القائد الرّوماني عليهم -أي بعد المسيح- وتقتيلهم وتشريدهم في الأرض على يديه، وهناك من تأويلات المفسرين المحدثين غير ما ذكرنا والله أعلم.

ويدل العطف بـــ"ثم" أن الحادثين كانا في أزمنة متباعدة، والأجيال التي جرت عليهم تلك الأحداث مختلفة، وإن كانت الضّمائر جاءت على صيغة واحدة لاعتبار المصير المشترك، والمسؤولية الجماعية لدى المجموعات البشرية المنتمية إلى أصل واحد،

والله أعلم

الحكم بكفر من اعتقد ألوهية المسيح أو التثليث

أ)- النص:

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

الفرق الدقيق الذي بين الجملتين: "لا إله إلا إلهٌ واحدٌ" أو ﴿ما من إله إلا إلهٌ واحدٌ﴾. يقول عنه الإمام ابن عاشور: "للاهتمام بإبراز حرف "من" الدال بعد النفي على تحقيق النفي. فإن النفي بحرف "لا" مما أفاد نفي الجنس إلا بتقدير حرف "من". فلما قصدت زيادة الاهتمام بالنفي هنا جيء بحرف "ما" النافية وأظهر بعده حرف "من"[1].

﴿لَيَمَسَّنَّ﴾: المسّ: يكون باليد، وهو مجاز على مطلق الإصابة دون تقييد بشدة أو ضعف. ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾: أي واحدٌ من تلك الأقانيم الثلاثة في معتقدهم فإذا قيل: رابع ثلاثة، فمعناه جاعل الثلاثة أربعة.

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٦/٢٨٣.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد ذكر ترهات اليهود انتقل السّياق إلى إبطال مزاعم النّصارى بغلوّهم في إطراء المسيح، وكل من اليهود والنّصارى على طرفي نقيض في نظرهم إلى المسيح عليه السلام، فاليهود كفروا بعيسى وقالوا عنه وعن أمّه بهتانا عظيما ثم حاولوا قتله، بينما النّصارى ألّهوه، إما باعتقادهم أن الله حلّ بذات عيسى واتحد به تعالى الله عن ذلك، وإما أنه أحد الأقانيم الثّلاثة التي تكوّن شيئا واحدا كما يعتقدون.

وقد صدرت الآيتان باللام المشعرة بالقسم تأكيدا لكفر القائلين بذلك. وجاء الرّدّ على المقولة الأولى مقرونا بواو الحال. ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ﴾: وهو على ضدّ ما يقولون تماما في ما أمرهم به من عبادة الله وحده، لأنه الأوحد في ربو بيته، جاعلا من اعترافه هو بذلك حجة قاطعة تدحض ما يقولونه وما يدّعونه. ولم يقتصر على تلك الدّعوة، بل علّل ذلك الأمر بقوله لهم: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾:

مبيّنا أن مثل ذلك الاعتقاد قد أوقعهم في الشّرك من حيث أنهم يعتقدون الحذر من الوقوع فيه، والشّرك أشدّ أنواع الكفر، ومظاهره متعدّدة ومنها الخفية والجلية، وقضت إرادة الله أن يحرّم الجنة على المشركين لأن من حقه تعالى على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وقد ابتلي المسلمون كما ابتلي أهل الكتاب بمظاهر هذا الشّرك ولا يزال الكثير منهم يستجير بالأولياء في دفع الضّرّ وجلب النّفع. بل من المؤسف أن تشجع هذه الظّاهرة حتى على المستوى الرّسميّ في الإذاعة والتّلفزة الوطنية ببث الأغاني التي يستغاث فيها بسيدي بومدين، وأحمد التيجاني وغيرهما. وهذا كتابنا العزيز يثيرها حربا لا هوادة فيها ضدّ الكفر والشّرك: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾: قال تعالى في سورة لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣). وأفدح الظّلم أن يظلم الإنسان نفسه بخلعه عليها لباس الشّرك، وغالبا ما يستأنس الظّالم -وهو يتمادى في ظلمه- يستأنس بما عنده من الجاه وبما حوله من النّصراء أو الشّفعاء، ولكن الملك يومئذ الحق للرحمن، فلا نصير ولا شفيع يقول صاحب المنار: "ونكتة جمع الأنصار مع كون النّكرة المفردة تفيد العموم في سياق النّفي، هي التّنبيه على كون النّصارى كانوا يتكلون على كثير من الرّسل والقدّيسين إذ كانت وثنية الشّفاعة قد فشت فيهم وإن لم تكن من أصل دينهم"[1]

﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾: حكم الله بالكفر المؤكد على الفريق الثّاني، وهم جمهور النّصارى اليوم يعتقدون أن الله وإن كان جوهرا واحدا فهو يشمل ثلاثة أقانيم، كل واحد منها هو عين الآخر، الأب والابن وروح القدس. ويمثلون لذلك بالشّمس، ويقولون هي مركبة من الجرم المشتعل، ومن النّور والحرارة، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا.

وبعد ذكر هذا الاعتقاد الباطل يجيء التّقرير للاعتقاد الصّحيح: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، يجيء بهذا الأسلوب المؤكد للنفي -أي بالصّيغة التي يبرز فيها حرف "من" الدّال بعد النّفي بـ"ما" على تحقيق النّفي لإبطال مزاعمهم هذه التي ما يزال مفكّروهم وعقلاؤهم يحاولون الخروج من تعقيداتها، وحتى (البروتستانت) منهم لم يستطيعوا الفكاك من ربقة التّثليث.

﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: معطوف على الجملة قبله وهو تهديد مؤكّد بالقسم ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾، وهذا التّهديد إنما كان بعد بيان وجه الحق في حقيقة الألوهية على لسان الرّسول الذي ألّهوه. والانتهاء عن قول شيء من كلام الكفر يجب أن ينبعث عن المعتقد، وإلا فمجرّد

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٦/٤٨١.

القول لا يكفي، ثم إن صيغة المضارع ﴿يَقُولُونَ﴾ تقتضي الانتهاء بعد التوبة والاستغفار، و لم يستعمل الضّمير لبيان أن مسّ العذاب لا يكون إلا لمن أصرّ على كفره و لم يتب.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: وعلى أسلوب التّرهيب والتّرغيب تأتي الدّعوة إلى الهداية بصيغة الاستفهام التّعجبيّ وأداة التّحضيض، وطريق الخلاص من الكفر هو التّوبة والاستغفار، أي محو لأوزار الماضي والتّعهّد بالاستقامة في المستقبل، وشأنه تعالى هو المغفرة والرّحمة لمن تاب إليه وأناب، والله أعلم.

بيان الحقيقة الشّخصية والنّوعية

لكل من المسيح وأمّه

أ)- النّص:

مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿صِدِّيقَةٌ﴾: جمعه صديقون، مشتق على وزن "فعّيل" للمبالغة في الصّدق أو

التصديق لقول الله تعالى في شأن أبي بكر: ﴿وَالَّذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ (الزمر:٣٣) ولقوله في مريم بالذّات: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ (التحريم:١٢) ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: يقال أفكه يأفكه إفكا إذا صرفه، والإفك من معانيه الكذب لأنه صرف عن الحق. ومعنى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: كيف يصرفون عن الحق أو من أين يصرفون. ﴿لَا تَغْلُوا۟﴾: الغلوّ: الإفراط وتجاوز الحق، والغلوّ في الدّين: هو العدول عن الوحي المنـــزل من عند الله إلى ما تهوى الأنفس.

ج)- البيان والتّفسير:

ينطلق المسيحيون في تأليههم للمسيح وأمّه أولا من كون المسيح جرت على يده معجزات خارقة للعادة هي غاية في الغرابة كإحياء الموتى، ثم من كون أمّه ولدته من غير أب، والإنسان المبهور أمام بعض الظّواهر يخرج بتفكيره عن نطاق المنطق المعقول فيحاول أن يخرج عن نطاق المألوف، إذ يغرق في التّأويلات والتّقديرات. فلم يستسغ النّصارى أن يكون المسيح وأمّه كسائر المخلوقات فأضفوا عليهما صفة الألوهية غلوّا في التّقديس والتّعظيم، فكان الإخبار الإلهي في هذه الآيات ردّا لهم عن أوهامهم الباطلة، وذلك ببيان حقيقتهما من وجهين:

أ)- وجه الخصوصية التي يختار بها الخالق من يشاء من عباده إذ يصطفي من الملائكة رسلا ومن النّاس، وهذه الخصوصية قد تتفاوت في الفضل والمنـــزلة عند الله أيضا، فجاءت صفة الرّسولية للمسيح مقصورا هو عليها، وليس هو في ذلك بدعا من الرّسل الذين خلوا من قبله، إذ كلّهم قد خصّهم الله بذلك الفضل غير منازع في اختياره واصطفائه، كما أجرى على أيديهم تلك المعجزات الخارقة للعادة، أما الأمّ فهي في مصافّ الصّديقين الأوفياء، ولا بِدْع أن تلد ولدا من غير أب فإن الله القادر قد خلق آدم من غير أب ولا أمّ.

ب)- بيان الحقيقة الشّخصية والنّوعية لكل من المسيح وأمّه في أنها مساوية لغيرهما من البشر أبناء جنسهما ضرورة أنهما مثلهم في حاجتهما إلى الطّعام. والذّات التي تفتقر إلى ما يقيم أودها لا يمكن أن تكون إلها معبودا. وهنا نتساءل: لم اختير في مقام الاستدلال على بشرية المسيح وأمّه أكل الطّعام وبالتّالي ما يستتبعه من إخراج فضلاته؟. يجيب الإمام ابن عاشور فيقول: "وإنما اختيرت هذه الصّفة من بين صفات كثيرة لأنها ظاهرة واضحة للنّاس، ولأنها أثبتها الأناجيل، فقد أثبتت أن مريم أكلت ثمر النّخلة حين مخاضها، وأن عيسى أكل مع الحواريين يوم النّصح خبزا وشرب خمرا".[1]

قلت: ويؤيده ما حكاه الله في سورة الفرقان من تعجّب الكفار برسول الله كيف يدّعي الرّسالة وهو كسائر النّاس يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق فقال جلّ من قائل: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ (الفرقان:٧).

﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤفَكُونَ﴾: الخطاب للرسول ولكل سامع له عقل ونظر، والمقصود منه النّظر العقلي للتعجّب من هؤلاء كيف ينصرفون عن الحق بعد وضوح أدلّته وبراهينه، والعطف بـــ"ثم" في انصرافهم عن الحق، يدلّ على أنهم في كامل وعيهم وتفهّمهم لوجهة الحق من خلال تلك الحجج، وأن انصرافهم بعد ذلك كان عن قصد وغلوّ.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: أمر رسول الله في هذه الجملة المستأنفة أن ينكر عليهم عبادة من لا يستطيع دفع ضرّ ولا جلب نفع، ومعبود النّصارى من العقلاء، واستعمال "ما" لغير العقلاء جاء على وجه التّغليب، لأن أكثر ما عبده النّاس من دون الله غير

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٦/٢٨٦.

عاقل في مختلف الحضارات البشرية المتعاقبة. وفي اختيار "ما" ما يدلّ أن المقصود هم جميع الذين يجعلون لله أندادا من النّصارى وغيرهم من المشركين. ووجه الاستدلال أن عيسى وأمّه قد تعرّضا لإذاية اليهود بالقول والفعل فما استطاع أحدهما أن يدفع عنه شرّهم، كما أن عيسى عندما ألّهه المسيحيّون لم يملك أن يجلب إليهم نفعا، بل كان كلما ألحّوا عليه في تحقيق شيء -كإنزال المائدة- توجّه إلى مولاه بخالص الدّعاء يطلب منه العون لتحقيق ما يرغبون فيه، ومن كان في حاجة إلى غيره لا يمكن أن يكون إلها يُعبَد.

﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: وإنما الألوهية الحقة لله وحده، والجملة في موقع الحال، وهي تفيد القصر بتعريف الجزأين وضمير الفصل، فالسّميع لدعائكم المالك للاستجابة هو الله وحده وهو العليم بأحوالكم والقاضي لحاجاتكم، فلا يملك عيسى ولا غيره ممن عُبِد من دون الله أن يضرّكم ولا أن ينفعكم، وإنما هو الغلوّ في الدّين متى تمكّن من النّفوس صرفها عن الحق فضلّت وأضلّت.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾: الخطاب لعموم أهل الكتاب ينهاهم الله فيه عن الغلوّ في الدّين، وغير الحق هو الباطل، والحق تتحدّد معاييره للناس بما أنزله الله وبيّنه رسله، وعندما يركن النّاس إلى أهوائهم فإنهم يقعون في الباطل -لا محالة- فيستحوذ عليهم الضّلال، ويدعون غيرهم إلى ضلالتهم مدفوعين بذلك الغلوّ.

وقوله تعالى: ﴿أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ﴾ فيه إشارة إلى موقف أسلاف المخاطبين من دعوة عيسى عليه السلام سيما أحبار اليهود، وقد سار الأخلاف على سننهم تقليدا وتماديا على الغلوّ.

﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾: أي هو ضلال مركّب، قد لازمهم في مسيرتهم الدّينية من قبل الإسلام بموقفهم من رسلهم، ومن بعد الإسلام

الذي دعاهم إلى سواء السّبيل فكفروا به، وأعرضوا عنه.

وذهب بعض المفسّرين أن الخطاب هنا للنّصارى بالخصوص، وأن المراد بالذين ضلّوا هم اليهود تنفيرا للنّصارى من سلوكهم في دينهم، والله أعلم.

إثبات اللّعن لكفّار بني إسرائيل وسبب ذلك

أ)- النّص:

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿لُعِنَ﴾: اللّعن: الطّرد من رحمة الله وهو أشد تعبير في القرآن على سخط الله وغضبه. ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ﴾: "على" تدلّ على الاستعلاء المجازي المستعمل للملابسة، أي لعنوا بلسان داوود، أي بكلامه الملابس للسانه. وقيل: هؤلاء هم الذين اعتدوا في السّبت، وأما من لعنوا على لسان عيسى فهم الذين أكلوا من المائدة ولم يؤمنوا. ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾: التّناهي إما من تفاعل النّهي، أي ينهى بعضهم بعضا وهو المتبادر، وإما من الانتهاء، يقال: تناهى عن الأمر إذا كفّ عنه. ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: أي يوالون ويؤيدون مشركي مكة.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد الرّدّ القويّ على ضلالات اليهود والنّصارى جاء وصف أسلافهم بأن الكفار منهم مطرودون من رحمة الله، وسبب ذلك هو استمرارهم في العصيان والاعتداء على حدود الله، واستعمال الفعل الماضي بعد ما المصدرية: ﴿بِمَا عَصَواْ﴾ يدلّ على قدم عصيانهم، وصيغة المضارع: ﴿كَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ تدلّ على الاستمرار، إذ كذبوا بعيسى وبمحمّد، ثم سبب ذلك الاستمرار في العدوان وهو أنهم ﴿كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾، لأن النّهي عن المنكر إذا كان قدرا مشتركا بين النّاس، فإنه دليل صحة وعافية لذلك المجتمع، يحافظ على الفضيلة ويرعى حرمات الدّين، فلا يتجرّأ السّفهاء والفساق في تشجيع الرّذيلة.

وبنو إسرائيل فشت فيهم المنكرات عندما سكت علماؤهم عن التّوجيه والإرشاد كما قال تعالى في الآيات السّابقة: ﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ (المائدة:٦٣). وكما ورد عن رسول الله في معنى هذه الآية عن عبد الله بن مسعود: إن أول ما دخل النّقص على بني إسرائيل أنه كان الرّجل يلقى الرّجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحلّ لك ثم يلقاه من الغد، وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال: ﴿**لُعِنَ الذِينَ كَفَرُواْ مِنْ بَنِي إِسْرَآءِيلَ**﴾ إلى قوله: ﴿فَاسِقُونَ﴾. ثم قال ﷺ «**كلا والله، لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ثم لتأخذن على يد الظّالم، ولتأطرنّه على الحق أطرا، ولتقصرنّه على الحق قصرا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض، ثم يلعنكم كما لعنهم**».[1]

١- رواه أبو داود في السنن، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، حديث ٤٣٣٦-٤٣٣٧.

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾: أكّد الذّم لما كانوا يفعلون بـ"لام القسم"، لأن السّكوت عن فعل القبيح كثيرا ما يؤدّي بحكم التّعوّد إلى الرّضى به، والرّاضي عن الشّيء كفاعله.

قلت: إن البراءة الشّخصية التي سار على نهجها الإباضية في مجرى تاريخهم وطبّقها "العزّابة" بصرامة على أفراد مجتمعهم هي التّطبيق العمليّ لتوجيهات رسول الله في هذا الحديث الشّريف، لأنه عندما يعلن بالبراءة من الشّخص المجاهر بالمعاصي فإنه لا يجد من يؤاكله أو يشاربه حتى من خاصّة عائلته، فيكون ذلك زاجرا قويّا للإقلاع عن المعاصي، وإلى الإسراع إلى التّوبة عند الوقوع فيها، علما بأن المعلن عنه في المسجد يجب أن يعلن عن توبته أمام جموع المصلّين ليشهد المسلمون على حسن توبته بعد أن يتلقى درسا قيّما من الإمام. وتلك -لعمري- خطة صالحة للنهي عن المنكر أخذت تضعف -بكل أسف عند الإباضيين- والنّتيجة هي ما حذّر منه رسول الله فهل من مدّكر؟.

﴿تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾:

وبحكم ما مرد عليه هؤلاء من العصيان والعدوان جيلا بعد جيل، فإنك أيها الرّسول ترى طائفة منهم ممن أظهروا الإسلام كذبا ونفاقا وهم يوالون الكفار من قومك، ويحرّضونهم على قتالك ويتركون موالاة المؤمنين.

وقد ذمّ الله هذا الموقف منهم ذمّا مؤكدا بـ"لام القسم": ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ فهم لاتباعهم هوى أنفسهم مصرّون على ما يفعلون، خائبون في ما قدّموه لمعادهم في الآخرة، مما يوجب سخط الله عليهم ومن نزل عليه سخط الله فهو المذموم المخذول، وليس له إلا عذاب جهنم خالدا فيها وبئس المصير.

﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾:

في الإيمان بالنّبي وما أنزل إليه احتمالان: أن يكون المقصود منه الرّسول محمد ﷺ وذلك بالنّسبة للذين أظهروا الإسلام من اليهود، أو يكون المقصود منه الإيمان بموسى والمحافظة على دينه كما يدّعون، لأن الإيمان بأحدهما أو كليهما يقتضي عدم موالاة الكافرين، فموالاة هؤلاء لهم هي علامة على عدم الإيمان.

وهناك وجه آخر نسبه الفخر الرّازي إلى القفّال فقال: "يكون المعنى: ولو كان هؤلاء المتولّون من المشركين يؤمنون بالله وبمحمد ﷺ ما اتخذهم هؤلاء اليهود أولياء، وهذا الوجه حسن ليس في الكلام ما يدفعه".[1]

فتلخّص من هذه الاحتمالات: أن كلا من اليهود المنافقين ومن المشركين يتولّى بعضهم بعضا لاشتراكهم في عداوة رسول الله.

﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾: وسبب ذلك هو فسقهم، أي خروجهم عن حظيرة الدّين، والحكم على المجموعات إنما يكون على الغالب الكثير.

علاقة كلّ من اليهود والمشركين والنصارى بالمؤمنين

أ)- النص:

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ

١- الفخر الرازي، التفسير الكبير، ١٢/٦٥.

تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿لَتَجِدَنَّ﴾: من الوجدان القلبي، أي من أفعال العلم الذي ينصب مفعولين. ﴿مَّوَدَّةً﴾: المودة هي صحبة يظهر أثرها في القول والعمل. ﴿قِسِّيسِينَ﴾: القسّيسون جمع سلامة لقسّيس، ويقال: قسّ جمعه قساوسة، وهو العالم بدين النّصرانية. ﴿رُهْبَانًا﴾: الرّهبان: مفرده راهب، وهو المنقطع للعبادة في دير أو صومعة، وقد يطلق "رهبان" على المفرد ويجمع على رهابين ورهابنة. ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾: لا يتكبّرون ولا يتعاظمون على غيرهم فزيادة "السّين" و"التّاء" للمبالغة. ﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾: أي يفيض الدّمع من جوانبها لشدة التّأثر، أو أن عيونهم تفيض هي نفسها وتذوب دمعا، والمراد المبالغة في شدة البكاء. ﴿فَأَثَابَهُم﴾: جازاهم.

ب)- البيان والتّفسير:

صحت روايات كثيرة في سبب النّزول عن ابن عباس وغيره أنها نزلت في النّجاشي وقومه الذين قدموا من الحبشة على الرّسول وآمنوا به، أو هم الذين استمعوا إلى جعفر بن أبي طالب عندما قرأ عليهم سورة مريم بحضرة النّجاشي، فآمنوا بالقرآن وفاضت أعينهم من الدّمع، أو هم فريق آخر من النّصارى أدركهم الإسلام، فآمنوا به لما سمعوا القرآن.

بعد ذكر مواقف أهل الكتاب من دعوة الإسلام ومحاجّتهم في فساد عقيدتهم في التّثليث، وبيان شأنهم في ما يدّعونه من الإيمان، جاءت هذه الآيات لتبيّن حالاتهم النّفسية في نظرتهم إلى المسلمين، وأنهم على تفاوت نسبّي في الإعراض والعداوة، وإن كان الله تعالى قد لزّهم في قرن واحد ونهى المسلمين عن موالاتهم؛ غير أن التّشنيع بمواقف اليهود كان أشدّ وأقوى في الآيات السّابقة لأنهم أشد مكرا وأمعن إيذاء للمسلمين، فلا عجب أن يبتدأ في الإخبار عنهم بأنهم أشدّ النّاس عداوة للذين آمنوا، وأن يجعلوا في ذلك قرناء للمشركين: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ**﴾.

لأن في تقديم ذكرهم على المشركين زيادة على "لام القسم"و"نون التّوكيد" ما يدلّ على ذلك، كما أن الواقع التّاريخي في الصّراع المرير قديما وحديثا بين المسلمين واليهود يثبت معنى الآية الكريمة، ويصلح الخطاب أن يكون لرسول الله باعتبار اليهود والمشركين المعاصرين للتنـــزيل، أو هو خطاب لغير معيّن باعتبار وجود الطّائفتين في كل زمان ومكان على قاعدة: العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب.

يقول سيّد قطب رحمه الله في تقرير هذا المعنى: "وحين يستأنس الإنسان في تفسير هذا التّقرير الرّباني بالواقع التّاريخيّ المشهود منذ مولد الإسلام حتى اللّحظة الحاضرة، فإنه لا يتردّد في تقرير أن عداء اليهود للذين آمنوا كان دائما أشدّ وأقسى وأعمق إصرارا وأطول أمدا من عداء الذين أشركوا".[1]

قلت: للفخر الرّازي -رحمه الله- ملحظ جيّد في هذا التّفاوت بين اليهود والنصارى إذ يقول: "وها هنا دقيقة نافعة في طلب الدّين، وهو أن كفر النّصارى أغلظ من كفر اليهود لأن النّصارى ينازعون في الإلهيات والنّبوءات، واليهود لا

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، ٧/١٠.

ينازعون إلا في النّبوءات، ولا شك في أن الأول أغلظ، ثم إن النّصارى مع غلظ كفرهم لمّا لم يشتد حرصهم على طلب الدّنيا بل كان في قلبهم شيء من الميل إلى الآخرة شرّفهم الله بقوله: ﴿**وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَارَىٰ**﴾. وأما اليهود مع أن كفرهم أخفّ في جنب كفر النّصارى طردهم وخصّهم الله بمزيد من اللّعن، وما ذاك إلا بسبب حرصهم على الدّنيا، وذلك ينبّهك على صحة قوله ﷺ «**حبّ الدّنيا رأس كل خطيئة**»[1]"اه.[2]

قلت: إن بين الوصف بشدة العداوة من جانب اليهود والمشركين، وبقرب المودّة للمسلمين من جانب النّصارى تفاوتا كبيرا ينمّ عن مدى طبع كل طائفة وتوجّهها الدّيني، فبينا نجد اليهود نزّاعين إلى المادية المتطرفة وما يتولّد عنها من الحرص والأنانية والحيلة والمكر، نجد النّصارى على العكس من ذلك في نزعتهم إلى التّواضع والزّهد، والميل إلى الطّيبة حتى مع الأعداء اتباعا لوصايا السّيد المسيح: "من ضربك على خدّك الأيمن فأدر له خدّك الأيسر". وقد عرفهم العرب بهذه الصّفات لانتشار أديرتهم في جنوب الجزيرة واحتكاكهم بهم في الشّام. وقصة الرّاهب "بحيرا" مع الرّسول معروفة من السّيرة الشّريفة.

ثم بيّن الله نموذج تلك المعاملة اللّينة وجعل من أسبابها وجود القسيسين والرّهبان هؤلاء الذين وصفهم الله في سورة الحديد بما يؤيّد ما في هذه الآية الكريمة، إذ قال عزّ من قائل: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَآءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾(الحديد:٢٧). وهنا يثني الله عليهم بالتّواضع: ﴿**وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾.

١- رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الزهد من حديث الحسن، حديث ٥٠. ورواه الأصبهاني في حلية الأولياء عن سفيان الثوري من قول عيس بن مريم عليه السلام، حديث ٩٤٨٤.

٢- الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٦٧/١٢.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ﴾: أي أنهم إذا سمعوا القرآن المنزل على رسول الله محمد ﷺ تأثروا به تأثرا كبيرا يعبّرون عنه بالبكاء الشّديد الحارّ، وذلك بسبب إذعانهم للحق الذي ينطق به، سواء بذكره لحياة المسيح، كما في قصة جعفر بن أبي طالب مع النّجاشي وقساوسته، أو بما ورد في الإنجيل من البشارة ببعثة سيدنا محمد، فتكون: ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ بيانية أو تبعيضية.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾: الجملة حالية، أي يكون فيضان الدّمع من أعينهم تعبيرا عن صدق إيمانهم بدين الله مما جاء به الرّسل ومنهم محمد ﷺ، وبذلك كملت عندهم حقيقة الإيمان اعتقادا وإقرارا، فهم يطلبون من الله أن يسلكهم في عداد الشّاهدين الذين يبادرون إلى التّصديق بدعوات الرّسل حين يكذبهم النّاس. وروي عن ابن عباس في تفسير الآية: "إن المقصود بالشّهادة هو معنى قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣).

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾: وبصيغة الاستفهام الإنكاري استبعدوا أن يجمعوا بين عدم الإيمان بالله والطّمع في أن يحشروا مع القوم الصّالحين وأن يدخلوا الجنة معهم. وتبدو في هذا القول عزيمتهم الصّادقة في الثّبات على إيمانهم، يردّون به كل تردّد قد يخامر نفوسهم، أو هم يواجهون به كل من يلومهم من أهل ملّتهم، وتحدث مثل هذه المواجهات عند كل إصلاح أو تغيير لأوضاع المجتمع، لأن النّاس عبيد ما ألفوه. وجملة: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ تقع موقع الحال مما قبلها، والمراد بالقوم الصّالحين هم الحواريون بالنّسبة لسيدنا عيسى، والصّحابة بالنّسبة لرسول الله، كما يصدق الوصف على كل من سار على نهجهم في الصّلاح والتّقوى.

﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ﴾:

أي بسبب هذا الموقف الإيماني المخلص جازاهم الله خير الجزاء مما يجازي به عباده المحسنين، والإحسان هو أعلى المراتب في سلّم الإيمان كما عرّفه رسول الله لجبريل عليه السلام وأيّ ثواب أعظم من جنة الرّضوان والخلود فيها.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَآ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾: أما الذين بقوا على كفرهم وتكذيبهم بما جاء به الرّسول سواء من النّصارى أو غيرهم فمثواهم جهنم، والإشارة بـــ"أولئك" يقتضي حصرهم في هذا الحكم، أي هم أصحاب الجحيم لا غيرهم، والله أعلم.

إباحة الطّيبات والتزام الاعتدال وتقوى الله

أ)- النص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿طَيِّبَاتِ﴾: ضدّه الخبيثات أو الخبائث، هي اللّذائذ التي تشتهيها النّفوس وتميل إليها القلوب. ﴿لاَ تُحَرِّمُواْ﴾: والتّحريم قد يكون بالاعتقاد أو باللّسان، ويكون بالاجتناب الفعلي إما بزهد وتقشف، وإما التزاما ليمين أو نذر، ويكون التّحريم للغير بالفتوى الشّرعية، والصّيغة تحتمل كل هذه الأوجه. ﴿وَكُلُواْ مِمَّا

رَزَقَكُم﴾: ذكر الأكل لأنه هو الغالب في ما حرّمه النّاس، فهو يعمّ كل ما ينتفع به من طعام وشراب ولباس ومتاع ومأوى ...إلخ.

ج)- البيان والتّفسير:

تشتمل السّورة على ستة عشر نداء وجّهها الله تعالى للمؤمنين خاصة، يعقبها حكم أو توجيه ينظم المجالات المختلفة لحياة المسلمين في علاقة بعضهم ببعض أو علاقتهم بغيرهم سيما أهل الكتاب، وهذا هو النّداء العاشر يعود إلى بيان بعض الأحكام التّشريعية بعد تلك الجولة الطّويلة من مناقشة أهل الكتاب التي انتهت إلى مدح القسّيسين والرّهبان من النّصارى، وأنهم أقرب مودّة للذين آمنوا بما ذكره الله تعالى من فضائلهم سيما الرّهبانية التي وصفوا بها بعزوفهم عن التّزوّج وحرمان أنفسهم من كثير من الطّيبات.

وبما أن المجتمع المسلم في المدينة المنوّرة قد بدأت معالم تربيته وقيم حضارته تتميّز، وقد أشرفت هداية الرّسالة الرّبانية على نهايتها، فإن الله تعالى في هاتين الآيتين قد سدّ الطّريق على ما يمكن أن يتسرب إلى المسلمين من الرّهبانية النّصرانية المفرطة، أو من العادات الجاهلية، ممّا حرمه العرب على أنفسهم أو ذويهم من أصناف الأنعام أو بعض أجزائها كما هو مفصّل في السّورة الموالية. فتمت بذلك المناسبة والرّبط البليغ بين الآيتين وما سبق فقال جلّ من قائل: ﴿**يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ**﴾.

وردت في السّنة روايات كثيرة يعضد بعضها بعضا تذكر تسرّب بعض الظّواهر الرّهبانية إلى المجتمع المسلم عند أول الهجرة لخّصها الإمام الفخر الرّازي بقوله: " روي أنه ﷺ وصف يوم القيامة لأصحابه في بيت عثمان بن مظعون، وبالغ وأشبع الكلام في الإنذار والتّحذير، فعزموا على أن يرفضوا الدّنيا ويحرموا

أنفسهم المطاعم الطّيبة والمشارب اللّذيذة، وأن يصوموا النّهار ويقوموا اللّيل، وأن لا يناموا على الفراش، ويخصوا أنفسهم، ويلبسوا المسوح ويسيحوا في الأرض، فأخبر النبي بذلك فقال لهم: «**إني لم أومر بذلك، إن لأنفسكم عليكم حقا، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل اللّحم والدّسم وآتي النّساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[1] اهـ.[2]

والنّهي في الآية الكريمة يحتمل المعاني المتقدمة، والمقصود تحريم ذلك على النّفس تعمّدا لإنهاكها حتى تتقرّب إلى الله بدعوى الرّياضة الرّوحية مثلما يفعله الزّهّاد والمتصوّفة، وليس المقصود من ذلك التّحريم أن يلتزم الإنسان ذلك في كل الأوقات وعلى كل الأحوال، بل الاعتدال مطلوب في مثل هذه الحالة، كما كان يفعل رسول الله، وهو ما عبّر عنه في حديثه لأصحابه، كما أن استعدادات النّاس تختلف في هذا المجال وفق أمزجتهم وطباعهم والظّروف التي نشأوا عليها ونوع انشغالاتهم التي يمارسونها. ولذا اقترن هذا النّهي في عمومه بالنّهي عن الاعتداء، وهو تجاوز حدّ الاعتدال في تناولها أو تجاوزها إلى الخبائث المحرمة. ثم علّل النّهي بما يجب أن يتحاشاه المؤمن من غضب الله وسخطه وهو قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾.

ثم قال تعالى آمرا بضدّ ما تضمّنه النّهي الذي قبله: ﴿**وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللَّهَ الذي أَنتُم بِهِ مُومِنُونَ**﴾، الأمر للوجوب لا للإباحة وهو معطوف على النّهي قبله لتأكيده، أي أن تحريم الطّيبات لا يتحقق بمجرّد القول أو الاعتقاد، بل لا يتحقق إلا بالانتفاع بها فعلا، لأن الله تعالى يحبّ من عباده أن

١- رواه البخاري من حديث أنس بن مالك، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، حديث ٤٧٩٣.

٢- الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٦/٧٤-٧٥.

يقبلوا نعمه، وأن يشكروه عليها كما قال تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ للهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة:١٧٢).

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقَكُم﴾ يرى الفخر أن "من" تبعيضية تفيد معنى الاعتدال في الأكل وفي الإنفاق حتى تصرف البقية إلى الصّدقات والخيرات وذلك في معنى قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ﴾.

والقيد في قوله: ﴿حَلاَلاً طَيِّباً﴾ فيه احتمالان: أن يكون قيدا للأكل أو للمأكول كما يراه الفخر، والأرجح أن المقصود به هو المأكول، أي كلوا من الرّزق الذي يكون حلالا طيبا في عينه من غير المحرمات، وحلالا في طريقة كسبه وتناوله بأن لا يكون سحتاً أو حراماً.

﴿وَاتَّقُواْ اللهَ الذي أَنتُم بِهِ مُومِنُونَ﴾: ومن التّقوى لله أن يلتزم المؤمن حدوده فلا يفتري عليه بالتّحريم والتّحليل لأن ذلك من خصوصياته، والتزام التّقوى من شأن الإيمان الصّحيح؛ والأمر بالتّقوى في هذا التّذييل توكيد للتوصية بما أمر به، والله أعلم.

حكم أيمان اللّغو والأيمان المغلظة وكفارتها

أ)- النص:

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿يُؤَاخِذُكُم﴾: من المؤاخذة على الذّنب بما يترتب عليه من الحساب والجزاء. ﴿بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾: اللّغو في الأيمان: اللّغو من الكلام هو ما يسبق إليه اللّسان من غير قصد. ﴿بِاللَّغْوِ﴾: واللّغا: صوت العصافير ونحوها، كقول الرّجل: كلا والله. أو قوله لصاحبه: والله لتجيئن، والله لتشربن، ونحوه. ﴿عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ﴾: أو توثيقها بقصد اليمين، والعقد ضدّه الحلّ، واستعمل في القرآن لفظ "النّقض" الذي ضدّه الإبرام في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ (النحل:٩١). وفي معنى النّقض النّكث وضدّه الفتل، ومعنى هذه الألفاظ كلها مأخوذ من عقد الخيوط والحبال ونحوها، استعير للمعاني في العقود والمواثيق. ﴿كَفَّارَةُ﴾: الكفّارة من السّتر والتّغطية، وهي صيغة مبالغة، تستعمل في المصطلح الشّرعي لأعمال خيرية لتكفير بعض الذّنوب. ﴿كِسْوَتُهُم﴾: الكسوة هي إما مصدر لكسا يكسو، أو اسم لما يُلبس. ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾: جعل العبد حرّا، ويعبّر بالرّقبة عن جملة الإنسان من إطلاق الجزء وإرادة الكلّ. ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾: احفظوها من النّكث، بأن تتوخوا بها أعمال البرّ.

ج)- البيان والتّفسير:

قيل: إن الآية نزلت مع الآية السّابقة، لأن القوم تحرّجوا مما وقعوا فيه من تحريم ما أحلّ الله، وذلك يكون في الغالب مقرونا باليمين، وقيل: إنها نزلت بعد سؤالهم رسول الله كيف يصنعون بأيمانهم إذ روي عن ابن عباس أنه قال: لما نزلت: **﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾** في القوم الذين كانوا حرّموا النّساء واللّحم على أنفسهم. قالوا: يا رسول الله: كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها؟، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

واللّغو في الأيمان ليست له صورة محدّدة ببعض الألفاظ كما لا يمكن أن تنحصر في حالات معيّنة، بل مرجع ذلك إلى مألوف النّاس وعاداتهم، وهذه أمّنا عائشة ﵂ قد حدّدت الإطار الذي يمكن أن يندرج فيه ذلك النّوع من الحلف اللّغو إذ قالت: "هو القوم يتدارءون في الأمر يقول هذا: لا والله، ويقول هذا كلا والله، يتدارءون في الأمر لا تعقد عليه قلوبهم، أي ما يكون من اليمين بغير قصد". ويدلّ عليه ما جاء في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (البقرة:٢٢٥). وفي سورة النّحل قوله تعالى: ﴿وَلا تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ (النحل:٩١). يقول صاحب المنار: "فمجموع الآيات في المائدة والبقرة والنّحل يدلّ على أن المؤاخذة في الأيمان إنما تكون في المؤكد الموثق منها بالقصد الصّحيح والنّية".[1]

قلت: يحصل مما تقدم أن الأيمان نوعان: يمين لغو، ويمين منعقدة. وللفقهاء اجتهادات في ما يحرم منها وما يكره، تطلب من مطوّلات الفقه الإسلامي، ومدارها أو محورها لا يتجاوز أحد الأمور الثّلاثة:

أ)- المقاصد والنّيات.

ب)- مراعاة العرف والعادة.

ج)- تعلّق الأسماء بمسمّياتها.

- ماذا يترتّب عن الحنث في اليمين المنعقدة؟

من رحمة الله بعباده أن شرع لهم كفارة اليمين إذا ما أوقعوا أنفسهم في

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٣٥/٧.

حرج وأرادوا التّحلّل من أيمانهم، وإنما تنعقد الأيمان إذا كان الحلف بالله أو بصفة من صفاته لقوله عليه الصّلاة والسّلام: «**إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفا، فليحلف بالله أو ليصمت**».[1]

﴿**فَكَفَّارَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ**﴾: أي إن كفارة الحنث في اليمين المنعقدة تكون على التّخيير بإحدى هذه المبرات الثّلاث:

أ)- **الإطعام لعشرة مساكين**: لكل واحد منهم أكلة مدومة غذاء وعشاء. أما نوعية هذا الطّعام فهي أوسط ما نطعم به أهلنا، أي لا يكون من النّوع الأدنى ولا من الأعلى، إذ قد يتقشف الإنسان في الإنفاق لظروف معيّنة، وقد يتوسّع في بعض المناسبات، كما أن الله تعالى قد فضّل النّاس بعضهم على بعض في الرّزق، فالحدّ الأوسط في ذلك يختلف من شخص لآخر على قاعدة قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (الطلاق:٧). ولعل ابن عباس أخذ المعنى من هذه الآية حين قال في الكفارة: "من عسرهم ويسرهم". ومن العلماء من ذهب إلى أن معيار التّقدير لذلك ينظر فيه إلى طعام أهل البلد كافة، لا إلى طعام الأفراد الذين تجب عليهم الكفارة، وفي الباب مباحث تطلب من مظانها في المطوّلات.

ب)- **الكسوة**: أي اللّباس، وهو أيضا يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، ولا يكتفى فيه بما يستر العورة، بل المطلوب ما يستر البدن. ولعلّ أنسب معيار لتحديد نوعية اللّباس هو ما ذهب إليه الإمام مالك ﷺ قال: "يدفع لكل مسكين ما يصحّ أن يصلي فيه إن كان رجلا أو امرأة كل بحسبه".

١- رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمر، كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، حديث ٣٢٠٦.

ج)- **تحرير الرّقبة**: أي العتق للمماليك، إن كان الرّقيق موجودا، ومن العلماء من اشترط أن تكون الرّقبة مؤمنة حملا للمطلق هنا على المقيّد في كفارة القتل والظّهار.

ومن تفريعات حكم الكفارة: هل يشترط التّوزيع لعشرة مساكين أم يجزئ إطعام مسكين واحد لعشرة أيام؟ وهل يجزئ القيمة أم لا بد من الإطعام والكسوة الفعلية؟. ولمراعاة المقاصد الشّرعية العليا دخل كبير في ترجيح أنسب الأقوال من اجتهادات العلماء في استنباط هذه الأحكام، يجب على المفتي أن يراعيها.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾: وعدم الاستطاعة لوجود المبرات الثّلاثة، هو الآخر لا يتحدّد بنسبة واحدة لجميع الأشخاص ولمختلف الظّروف والأحوال. وأدنى مقياس للاستطاعة أن يجد المكفّر ما يفضل عنده عن نفقته ونفقة عياله في فترة ضرورية لتأمين الحدّ الأدنى من النّفقة، وذلك يخضع للظروف والأحوال ومستويات الأشخاص في المعيشة، والصّيام هو الحدّ الأدنى في الكفارة ويشترط بعض العلماء أن تكون الأيام متتابعات إلا إن عجز عن ذلك لمرض.

﴿ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾: أي أن ما تقدم من الأحكام هو كفارة أيمانكم المنعقدة بالحلف بالله أو بأحد أسمائه وصفاته، وأردتم التّحلّل مما حلفتم عليه.

﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾: بالبرّ بها وعدم الحنث إلا لضرورة عارضة أو مصلحة راجحة، ومن حفظ الأيمان التّعجيل بالتّكفير عليها عند الحنث.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: أي بمثل هذا البيان الواضح من الله تعالى تتضح لكم أحكام دينه لتكونوا مؤهلين لشكره على نعمة التّيسير ورفع الحرج في الدّين، والله أعلم.

التّحريم النّهائي للخمر والميسر

أ)- النص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿الْخَمْرُ﴾: كل شراب مسكر، أي خامر العقل، وهي تسمية لغوية وشرعية على الأرجح، وللخمر أسماء كثيرة في الأدب العربّي، كما أن لشربها في أوقات معينة أسماء فيقولون للتي تشرب بعد العشاء: الغَبوق، وللتي تشرب عند الصّبح: الصَّبوح. وللمدينة شراب يخمّر بالبسر والتّمر يسمّى: الفضيخ ...إلخ. ﴿الْمَيْسِرُ﴾: كل أنواع القمار. ﴿رِجْسٌ﴾: هو كل ما يستقذر حسًا ومعنى. ﴿يَصُدَّكُمْ﴾: يمنعكم عند اللّهو بهما. ﴿تَوَلَّيْتُم﴾: أي أعرضتم بعدم الانتهاء من ممارسة تلك الأشياء. ﴿الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾: الإبلاغ الواضح من طرف الرّسول. ﴿جُنَاحٌ﴾: الإثم. ﴿طَعِمُوا﴾: طعِمَ يطعَم: أكل الطّعام أو تذوّق حلاوته بلسانه، أو ذاقه فوجد طعمه منه.

ج)- البيان والتّفسير:

هذا هو النّداء الحادي عشر، وهو يتضمّن النّهي عن الأشياء الأربعة: الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وقد ورد التّحريم في أول السّورة عن الأنصاب والأزلام مقرونا بكيفية ممارستهما فقال تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾، وقال: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ (المائدة: ٣). وأما الخمر والميسر فقد تقدم ذكرهما في سورتي البقرة والنّساء بأسلوب غير جازم في النّهي، فجاءت هذه الآية الكريمة لتحسم الأمر بالنّهي عن هذه الأشياء الأربعة التي يجرّ بعضها إلى بعض في العادات الجاهلية المستحكمة.

وقد صحت روايات عديدة في أسباب النّزول، منها ما يذكر أنها بسبب ملاحاة بين سعد بن أبي وقاص ورجل من الأنصار على شراب لهما ففزر الرّجل أنف سعد بلحي جزور. وروى ابن عباس أنها نزلت في قبيلتين من الأنصار شربوا حتى ثملوا فعبث بعضهم ببعض. وكان عمر ﷺ يدعو الله ويقول في كل آية نزلت قبل هذه الآية في شأن الخمر: "اللّهم بيّن لنا في الخمر بيانا شافيا".

والمناسبة بين هذه الآية وسابقتها، أن الله تعالى لمّا نهى عن تحريم الطّيبات هناك، حرّم هنا ما يعدّ من الخبائث المهلكة، فإن الخمر وما ذكر بعدها من الميسر والأنصاب والأزلام هي من الخبائث التي تفضي إلى المفاسد وتنجرّ عنها أضرار فردية واجتماعية كثيرة، وبخصوص الخمر فإن النّهي عنها هنا جاء في نهاية المراحل المتدرجّة التي سلكها القرآن في مكافحة آفتها المتجذّرة في المجتمع الجاهليّ.

وتصدّر الآية بالنّداء الإيماني من شأنه أن تحرض المؤمنين على المسؤولية التّضامنية في اجتثات تلك الآفة بعد أن وضحت معالم الطّريق للمجتمع المسلم وتحدّدت مقوّماته ومميزات شخصيته ووصف هذه المحرّمات الأربعة: "بالرّجس".

ثم قصرها فيه بأداة "إنَّمَا" هو للمبالغة في التّشنيع والتّقبيح، ومن ثمّ فقد ترجّح ما فيها من الإثم على ما ذكر من بعض المنفعة في سورة البقرة للخمر والميسر، والرّجس هو كل ما يستقذر حسًا ومعنى.

ولزيادة التّنفير منها قال تعالى: ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ مما يفيد أن متعاطيها يعمل عمل الشّيطان، فهو شيطان في زيّ إنسان، وكفاه شرًا أن يكون مثله مطرودا من رحمة الله.

﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: تفريع على ما تقدّم من التّشنيع والتّنفير، يأمره تعالى لاجتناب ذلك الرّجس رجاء أن يفلح المخاطبون إذا هم استقاموا على نهج الله في ترك المنهيات، والمقصود باجتنابهم لتلك المنهيات هو اجتناب التّلبّس بها، ممّا تتحقق به المفسدة، أما ما سوى ذلك من مسّها أو رؤيتها أو نجاسة ذواتها، أو عصر العنب لاتخاذها خلاًّ، وغير ذلك من بعض أحوالها فهو مما اختلف فيه أهل العلم نجد تفاصيله في كتب الفقه.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلَ اَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟. الجملة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾: بيان لعمل الشّيطان من دفعكم إلى تعاطي الخمر والميسر بأن يوقعكم في العداوة والبغضاء وإثارة الخصومات وما ينجرّ عنها من أنواع الإجرام، وبذلك يتحقق هدفه في تمزيق وحدة المؤمنين، وفي ذلك مفسدة عظيمة، تنافي المقصد الشّرعي في تركيز الأخوة الدّينية بين المسلمين. والتّعبير بـــ"في" في قوله تعالى: ﴿فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ يفيد السّببية أي إن إيقاع العداوة والبغضاء بينكم يكون بسبب تعاطيكم للخمر في مجالسكم، وصدق رسول الله حين قال:

«الخمر أمّ الخبائث».[1]

﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾: فذكر الله أعمّ من أقوال الصّلاة، إذ يشمل الذّكر اللّساني بتلاوة القرآن والحديث والأدعية والأوراد وكل ما يرطب اللّسان من أنواع الذّكر، كما يشمل إشغال القلب والتّدبّر لاستحضار عظمة الله. وذلك كلّه ميسّر للمؤمن في كل حين، وأما صرف الشّيطان عن الصّلاة فيتمثل في غيبوبة العقل بالسّكر، كما نهى الله عن ذلك في سورة النّساء، ويتمثل في الميسر بالانصراف الكلّي واستفراغ الوقت على طاولته طلبا للربح لأن للصلاة مواقيتها المحدّدة لأدائها.

فتلك أربع علل لهذا النّهي تقتضي كل واحدة منها ذلك التّحريم النّهائي لتلك المنكرات، فكيف بها إذا اجتمعت، ويبدو من هذا التّفصيل في ذكر العلل عظم المفاسد والأضرار التي تنجرّ عن هذه المنكرات، ويؤيّد ذلك واقع المجتمعات البشرية التي لا تتقيّد بحدود الله، كيف تعيش في ضنك واضطراب، وكيف تقصر وسائلها الأمنية عن درء تلك الأخطار وكبح جماح الفسّاق والفجّار.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾: تفريع عن ذكر تلك العلل يراد بهذا الاستفهام الأمر أي: انتهوا، وهو من أبلغ ما ينهى به لأنه يتضمّن الحضّ على الانتهاء إذ يتضمّن تحقيق الإسناد المستفهم عنه وهو: ﴿أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ مبالغة في التّحذير من انتفاء وقوع المستفهم عنه، وممّن أدرك هنا المعنى اللّغوي الدّقيق سيّدنا عمر ﷺ فقد روي عنه أنه لما سمع هذه الآية قال: "انتهينا انتهينا يا ربّنا".

ولا ريب أن العلل المذكورة لتحريم هذه الآفات المنكرة لا تقصر عليها

١- رواه الدارقطني بهذا اللفظ من حديث عبد الله بن عمرو، كتاب الأشربة، حديث ٤٠٤٤، ورواه النسائي بلفظ: «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث»، موقوفا على عثمان بن عفان، كتاب الأشربة، باب ذكر الآثام المتولدة عن شرب الخمر، حديث ٥٦١٨.

وحدها، بل تشمل كل آفة تنجرّ عنها تلك العلل، ويا ما أكثرها في هذا الزّمان النّكد الذي راجت فيه أسواق الشّيطان، واستحدثت فيه الحضارة الفاجرة أنواعا من اللّهو والفجور، تروّج لها وسائل الإشهار والإعلام بما يفتن ويغري.

﴿وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ﴾: تأكيدا للتحريم وتشديدا في الوعيد لمرتكب تلك الآفات، ذيّلت الجملة السّابقة بتكرار أمر الطّاعة لله والرّسول لتعمّ ما تقدّم، وتشمل غير ذلك من وجوه الامتثال لأوامر الله ورسوله واجتناب نواهيهما، وعطف على ذلك الأمر للمخاطبين بالحذر: ﴿وَاحْذَرُواْ﴾ وحذف مفعوله ليعمّ الحذر في أمور الدّين كلها، أي الحذر البالغ من الوقوع في ما يأباه الله ورسوله.

وفي حالة العصيان والإعراض فإنكم لا تضرّون إلا أنفسكم، وتيقنوا بأن الرّسول قد قطع عليكم الحجة بأن بلّغ لكم بوضوح وبيان ما شرع الله لكم من الأحكام.

﴿لَيْسَ عَلَى الذينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾:

جاءت هذه الآية في مكانها المناسب لترفع اللّبس في فهم الآية التي قبلها، إذ ارتبك بعض المسلمين في حكم الذين ماتوا قبل تحريم الخمر وهم يشربونها. وفي سبب النّزول جاء في الصّحيحين وفي غيرهما عن أنس بن مالك والبراء بن عازب وابن عباس ﷺ أنه لما نزل تحريم الخمر قال ناس من أصحاب النّبي ﷺ: كيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر؟. أو قال: وهي في بطونهم وأكلوا الميسر؟. فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الذينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ...﴾. وفي رواية أن أبا بكر قال: يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا

وقد شربوا الخمر وعملوا القمار؟ وكيف بالغائبين عنا في البلدان لا يشعرون أن الله حرّم الخمر وهم يطعمونها؟.

ومثل هذا السّؤال من الصّحابة ينمّ عن مدى إشفاقهم بإخوانهم، وعن مدى حذرهم من أية شبهة تنفي عنهم كمال الإيمان، وقد رفع الله الإثم عما فرط من أولئك في جاهليتهم بعد أن هداهم للإيمان. ووصفهم بذلك هي شهادة من الله تطمئن قلوبهم، إذ أنهم ما طعموا شيئا من المحرمات إلا قبل أن يحرّمها الله، غير أنه يتعيّن عليهم أن يتقوا الله ويلتزموا بأحكامه.

ويلاحظ التركيز على فعل التّقوى لأنها هي ملاك الأمر في الوقف عند حدود الله فلا يقتصرون على الفرائض، بل يأتون بالنّوافل حتى يبلغوا درجة الإحسان، فيكون ذلك مدعاة لمحبة الله مصداقا للحديث القدسّي: «**ما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ...**».[1]

التّمهيد لحكم قتل الصّيد في حالة الإحرام

أ)- النص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٤

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾: الابتلاء: الامتحان والاختبار، ومعناه هنا ابتلاء تكليف ونهي،

١- تقدم تخريجه، ص٢٤.

ولا يراد به الإصابة بالبلوى. ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ﴾: تنكير "شَيْءٍ" لإفادة التنويع لا للقلة، والصّيد مصدر صاد يصيد ويطلق على المصيد. ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾: تعبير عن سهولة أخذه لكثرته وتنوّعه، مما يقبض باليد أو يرمى بالسّلاح. ﴿بِالْغَيْبِ﴾: ما ليس بمشاهد لدى الإنسان والله تعالى هو عالم الغيب والشّهادة.

ج)- البيان والتّفسير:

صدّرت الآية بالنّداء الثّاني عشر وهي تمهيد لبيان عقوبة محلّي الصّيد في حالة الإحرام التي نهى الله عنها في أول السّورة في قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (المائدة:١). وبما أن السّورة الكريمة تناولت كثيرا من أحكام الحلال والحرام في الطّعام والنّسك، فإن الصّيد -وهو طعام لذيذ- وهو أيضا من الطّيبات التي أحلّ الله، يكون له حكم النّسك الذي تعبّد الله به المؤمنين، فيقيّدون فيه شهوتهم ويتركون مألوفهم امتثالا لأمر الله، وفي ذلك امتحان وابتلاء، أقسم الله تعالى أنه سيمحّص به جماعة المؤمنين، ليظهر بذلك شدة تمسّكهم بأوامر الله. ذلك لأن ترك المشتهى السّهل الميسور هو أدلّ على التّقوى من ترك الصعب الممتنع. فقد جاء وصف الصّيد بأنه مما تناله الأيدي والرّماح ليدلّ على كثرته وسهولة أخذه وتنّوعه.

فقد روى مقاتل بن حيّان: إن الآية أنزلت في عمرة الحديبية، فكانت الوحش والطّير تغشى المسلمين في رحالهم وخيامهم لم يروا مثله قطّ في ما خلا، وكان منهم المحلّ ومنهم المحرم، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون.

وقوله: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾: ليس المقصود منه حصر النّهي في ما ينال بهذه الوسائل، بل المقصود هو استقصاء كل أنواع الصّيد في حالة الإحرام أو

في أرض الحرم، وفي هذا الإخبار بالقسم تحذير للمؤمنين أن يفعلوا ذلك في المستقبل.

﴿لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾: بيان لعلة التحذير، أي يبتليكم ابتلاء تكليف ونهي عن ذلك وأنتم محرمون ليعلم الله من يخافه منكم بالغيب، أي متلبسًا بالإيمان بالغيب على معنى قوله تعالى في سورة الملك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الملك:١٢). أو بمعنى: يخافه غائبا عن نظر الناس فلا يراني ولا ينافق لأنه لا يخاف غير الله.

يقول الإمام ابن عاشور في معنى جعل علم الله علة للابتلاء: "وجعل علم الله علّة للابتلاء إنما هو على معنى ليظهر للناس من يخاف الله من كل من علم الله أنه يخافه، فأطلق علم الله على لازمه، وهو ظهور ذلك وتميّزه، لأن علم الله يلازمه التحقق في الخارج، إذ لا يكون علم الله إلا موافقا لما في نفس الأمر".

ثم يقول في فائدة ذكر هذه العلة: "وفائدة ذكره أنه ثناء على الذين يخافون الله أثنى عليهم بصدق الإيمان وتنوّر البصيرة، فإنهم خافوه ولم يروا عظمته وجلاله ونعيمه وثوابه، ولكنهم أيقنوا بذلك عن صدق استدلال، وقد أشار إلى هذا ما في الحديث القدسّي: «**إنهم آمنوا بي ولم يروني، فكيف لو رأوني**»[1]"[2].

قلت: إن الله تعالى -جلّت قدرته- كثيرا ما يركّز معنى التقوى في قلوب المؤمنين بمثل هذه التربية الحكيمة، وقد تختفي علّة الحكم، ولكن لا تكون لهم الخيرة من أمرهم إذا قضى الله ورسوله أمرا، لأن الله تعالى يحكم ما يريد كما قال

١- رواه البخاري نحوه من حديث أبي هريرة، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل، حديث ٦٠٧١.

٢- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٧/٤٠.

في أول السّورة عند النّهي عن قتل الصّيد في الحرم أو في حالة الإحرام، وبذلك تعلّم المؤمنون أن يقولوا لله ولرسوله: سمعنا وأطعنا، وبذلك تجسّدت خيرية هذه الأمة عمن سواها.

ولسيد قطب -رحمه الله- ملحظ دقيق في هذا المعنى إذ يقول في ظلاله: "إنه صيد سهل يسوقه الله إليهم، صيد تناله أيديهم من قريب، وتناله رماحهم بلا مشقة، ولقد حكي أن الله ساق لهم هذا الصّيد حتى لكان يطوف بخيامهم ومنازلهم من قريب.

إنه الإغراء الذي يكون فيه الابتلاء، إنه ذات الإغراء الذي عجزت بنو إسرائيل من قبل عن الصّمود له حين ألحّوا على نبيهم موسى عليه السلام أن يجعل الله لهم يوما للرّاحة والصّلاة لا يشتغلون فيه بشيء من شؤون المعاش. فجعل لهم السّبت، ثم ساق إليهم صيد البحر يجيئهم قاصدا الشّاطئ متعرّضا لأنظارهم في يوم السّبت فإذا لم يكن السّبت اختفى". ثم قال: "هذا الابتلاء بعينه ابتلى به الله الأمة الإسلامية فنجحت حيث أخفقت يهود".[1]

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي بعد هذا الابتلاء وذلك التّحذير فإن الإقدام على ارتكاب ذلك المحرّم اعتداء على حدود الله، يترتب عليه العذاب الأليم، ولم يذكر ظرفية ذلك العذاب، فقيل: هو الجزاء الأخرويّ، وقيل: هو الأذى الدّنيوي بالتّعزير والضّرب كما ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما.

والله أعلم

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، ٣/٧/٤١-٤٢.

الصّيد في حالة الإحرام، وجزاء صيد البرّ

أ)- النص:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۗ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ٩٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَأَنتُمۡ حُرُمٞ﴾: جمع حَرام بمعنى مُحرِمٌ، وهو اللابس للإحرام بحجّ أو عمرة، ويطلق المحرِم على الكائن في الحرَم، ويشمل الحرم مكة والمدينة. وجملة: ﴿وَأَنتُمۡ حُرُمٞ﴾ للحال، أي حال كون الصّائد محرما، وحال كون الصّيد في الحرم ولو كان الصّائد حلالا. ﴿فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾: الجزاء: العوض عن عمل. المِثل: الشّبيه في الهيئة والخِلقة. من النّعم: أي الإبل والبقر والغنم. أي فعلى قاتل الصّيد عمدا وهو محرم جزاء من الأنعام مماثل في هيئته وخلقته لما قتله من الصّيد إن وجد ذلك. ﴿بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾: أي فهو كالهدي يذبح أو ينحر في حرم الكعبة. ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦ﴾: أيّ ليحسّ بذلك الجزاء سوء فعلته. ﴿فَيَنتَقِمُ﴾: الانتقام: المبالغة في العقوبة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾: قرأ جمهور القراء: ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ بإضافة ﴿جَزَآءٞ﴾ إلى ﴿مِّثۡلُ﴾ فيكونَ ﴿جَزَآءٞ﴾ مصدرا بدلا عن الفعل. ويكون ﴿مِّثۡلُ مَا

قَتَلَ﴾ فاعل المصدر، أضيف إليه مصدره. ﴿مِنَ النَّعَمِ﴾: بيان المثل لـ﴿مَا قَتَلَ﴾. والتّقدير: فمثل ما قتل من النّعم يجزئ جزاء ما قتله، أي يكافئ ويعوّض ما قتله، وإسناد الجزاء إلى المثل إسناد على طريقة المجاز العقلي. وقرأ عاصم وحمزة ويعقوب والكسائي وخلف: ﴿فَجَزَآءٌ مِثْلُ﴾ تنوين ﴿جَزَآءٌ﴾، ورفع ﴿مِثْلُ﴾ على تقدير: فالجزاء هو مثل. على أن الجزاء مصدر أطلق على اسم المفعول، أي فالمجزيّ به المقتول مثل ما قتله الصّائد. ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ﴾: قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر: ﴿كَفَّارَةُ﴾ بالرّفع بدون تنوين مضافا إلى طعام. كما قرأ: ﴿جَزَآءٌ مِثْلِ مَا قَتَلَ﴾ الوجه فيه إما أن فعله كوجه الرّفع والإضافة في قوله تعالى: ﴿فَجَزَآءُ مِثْلِ مَا قَتَلَ﴾، فنجعل كفارة اسم مصدر عوضا عن الفعل وأضيف إلى فاعله، أي يكفّره طعام مساكين، وإما أن نجعله من الإضافة البيانية، أي كفارة من طعام. وقرأه الباقون بتنوين ﴿كَفَّارَةٌ﴾، ورفع ﴿طَعَامُ﴾ على أنه بدل من كفارة.

د)- البيان والتّفسير:

في هذا النّداء الثّالث عشر استئناف بياني لمضمون النّداء التّمهيدي السّابق: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ﴾، ففي مطلع السّورة استثنى الله الصّيد من حليّة بهيمة الأنعام في حالة الإحرام، وهنا ينهى عن قتل الصّيد في الحرم مطلقا أو حال كون الصّائد محرما بحجّ أو عمرة: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾. والصّيد المنهيّ عنه هو صيد حيوان البرّ، كما تدلّ عليه الآية اللاحقة، وأما الحرم فالمقصود به مكة والمدينة. والحرم المكيّ هو مَا حرّمه إبراهيم عليه السلام بحدوده المعروفة حتى اليوم، وأما الحرم المدنيّ فقد حدّده رسول الله ﷺ بقوله: «**المدينة حرَم من ما بين عَير إلى ثوْر**».[1]

١- رواه مسلم من حديث إبراهيم التيمي عن أبيه، كتاب الحج، باب فضائل المدينة، حديث ٢٥٢٣.

وكلاهما جبل حول المدينة. وقيل: إن ثورا جبل صغير وراء "أحُد".

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ منكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾:

بيان لجزاء من قتل الصّيد متعمّدا وهو محرم، أو هو في الحرم، والقتل يشمل كل الوسائل التي يقتل بها، وسواء قتل المحرم الصّيد بيده مباشرة أو تسبّب في قتله. ومن فعل ذلك فعليه من الأنعام مماثل لما قتله، أي يكفّر على فعلته تلك ببهيمة من الأنعام تكون شبيهة بما قتله من الصّيد في هيئته وخلقته، مثل عنـــزة أو شاة إذا قتل ظبيا، أو بقرة إذا قتل بقرة وحش.

ولمّا كان ضبط المماثلة والمشابهة بين الصّيد المقتول وما يكفّر به من النّعم جزاء لما كان ذلك من الأمور التي يعسر ضبطها عند أكثر النّاس وكلَ الله تقدير ذلك إلى عدلين من المؤمنين لقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، ويقارن العدلان بين المقتول وجزائه من النّعم بالمعاينة أو المواصفة، فإذا هما لم يجدا الشّبه بينهما في وجه من الوجوه حكَما بالقيمة يتصدق بها، وهذا هو رأي الجمهور. وأبو حنيفة ﷺ يرى اللّجوء إلى القيمة مطلقا سواء كان للصيد المقتول مِثلٌ أو لم يكن.

وقد اختلف العلماء في الصّيد الذي نهت الآية عن قتله، فقيل: إنه كل حيوان وحشي يؤكل لحمه، وأما ما لا يؤكل لحمه من السّباع أو الزّواحف والحشرات فغير منهي. وعمّم بعض العلماء قتل كل حيوان إلا ما أذن الرّسول في قتله من الفواسق الخمس كما في حديث عائشة وهي: **الغراب والحدأة والعقرب**

١ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٧/٤٤.

والفأرة والكلب العقور.[١]

وتقييد القتل بالعمد يفيد أن المخطئ لا جزاء عليه، أو عليه جزاء أخفّ، و لم تثبت الرّوايات حكما لرسول الله في ذلك، إلا ما مضى عليه العمل من عهد الصّحابة، فقد نقل الإمام ابن عاشور عن الإمام الزّهري أنه قال: "نزل القرآن بالعمد وجرت السّنة في النّاسي والمخطئ أنهما يكفران". ثم علّق الإمام ابن عاشور على ذلك بقوله: "ولعلّه أراد بالسّنة العمل من عهد النّبوءة والخلفاء ومضى عليه عمل الصّحابة، وليس في ذلك أثر عن النّبي ﷺ".[٢]

﴿هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾: أي ذلك الجزاء المحكوم به من طرف العدلين يكون هديا يصل إلى الكعبة ويذبح في جوارها كما يذبح الهدي ويتصدق بلحمه على الفقراء والمساكين. والذين يقولون بالقيمة مطلقا يرون أن المكفّر مخيّر بين أن يتصدق بتلك القيمة أو أن يشتري بها هديا.

﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامِ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾: عطف كفارة الإطعام بـــ"أو" التي تدلّ على التّخيير، و لم يحدّد الله تعالى في هذه الكفارة عدد المساكين ولا مقدار الإطعام، وعطف بما يعادل ذلك الإطعام صياما، وهذا الإطلاق تحديده موكول إلى الحكمين، وهو لا محالة يخضع إلى ظروف الأمكنة والأحوال، ولذلك نجد فيه خلافا فقهيا واسعا يطلب من مظانّه، كما أن الخلاف واقع في كون هذه الكفارة على التّرتيب أو التّخيير، غير أن سماحة الإسلام ويسر أحكامه تقتضي التّخيير كما ذهب إليه الجمهور.

١- رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمر، كتاب الحج، أبواب المحصر وجزاء الصيد، باب ما يقتل المحرم من الدواب، حديث ١٧٤٤.

٢- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٤٤/٧.

﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾: تعليل للجزاء والكفارة، أي ليحسّ القاتل جريرة ما ارتكبه من الذّنب إحساس غضاضة ومرارة، لأنه تعدّى بذلك حدود الله. والتّعبير بالوبال يدلّ على ثقل الجرم لما له من سوء العاقبة، وفي ذلك تشديد لانتهاك حرمات الله.

﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾: بعد التّشديد يأتي عفو الله عما سلف مما كان في عهد الجاهلية أو قبل ورود النّهي. والعودة إلى الذّنب دليل الاغترار والعناد، والعنود المغتر لا تردعه إلا القوة، فناسب هذا التّذييل بأن الله عزيز ذو انتقام، ومن غالبَ اللهَ غُلِب. واستدلّ الجمهور بالآية على تكرّر الجزاء بتكرّر القتل، بينما يرى بعض الأئمة أن العائد لا يترتب عليه الجزاء إلا مرة واحدة وحق عليه عذاب الآخرة، وهو رأي الإمام جابر بن زيد ﷺ والله أعلم.

ملاحظة: لهذا الحكم الشّرعي تفاريع فقهية واسعة تحاشينا الدّخول في تفاصيلها اكتفاء بما تنصّ عليه الآية الكريمة، ومن أراد استقصاء الجزئيات فليطلبها في تفسير المنار وتفسير جامع الأحكام للإمام القرطبي.

حلّية صيدِ البحرِ

أ)- النّص:

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي :

﴿الْبَحْرِ﴾: مُجمّع الماء الكثير المستبحر فيشمل الأنهار العذبة والأودية

والبرك. قال تعالى: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ (القصص:٧). والمقصود به نهر النّيل. وقال: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ (الأعراف:١٣٦). والمراد به: البحر الأحمر. ولفظ اليمّ مرادف للبحر. ﴿طَعَامُهُ﴾: ما يطعمه الإنسان سواء ما حضّره بجهد وتكلفة، أو ما حضّره له غيره، ﴿لِلسَّيَّارَةِ﴾: مؤنث سيّار، جماعة المسافرين يتزوّدون من صيد البحر. ﴿مَتَاعاً لَكُمْ﴾: ما يتمتع به لذة وسرورا. ﴿تُحْشَرُونَ﴾: الحشر جمع النّاس في مكان، والمقصود به يوم يقوم النّاس لربّ العالمين.

ج)- البيان والتّفسير:

استئناف بيانيّ يقتضيه التّطلّع إلى معرفة حكم صيد البحر، بعد تحريم قتل صيد البرّ في حالة الإحرام أو في الحرم، وترتب الجزاء والكفارة على من فعل ذلك. وحيث لا يوجد بحر ولا نهر في أرض الحرم فإن رحمة الله تعالى اقتضت التّيسير على خلقه في التّزوّد من صيد البحر، فقد أحلّه الله تعالى للمحرم وغيره، بل ولكل المسافرين كيفما كانوا من الإيمان بالله أو عدمه، ممن يتعامل معهم المؤمنون بيعا وشراء. وجاء التّعبير: ﴿مَتَاعاً﴾ منصوبا على الحال أو على المفعول المطلق أو على المفعول لأجله. والتّمتع: هو الانتفاع المقرون باللّذة والسّرور، لأن طعام البحر من أطيب الأطعمة وألذّها على النّفوس، وأعظمها نفعا لصحّة البدن. وقد أحلّ الله صيد البحر بمعنى المصيد منه بكل أنواعه والمقصود منه كل الدّوابّ التي لا تعيش إلا فيه، بحيث أنها تموت إذا أخرجت منه، أما الحيوانات البرمائية كالضّفادع والسّلاحف فلا تعتبر من صيد البحر. وفي تحليل البعض وتحريم البعض الآخر خلاف بين العلماء.

وقد عطف الله تعالى على صيد البحر قوله: ﴿وَطَعَامُهُ﴾ مما يدلّ على المغايرة بين المعطوفين، وذكر المفسّرون وجوها لتفسير ذلك. وتبثت في التّفسير المنقول روايات تقول إن الصّيد ما صيد بالحلية حال حياته، والطّعام ما يوجد مما

لفظه البحر أو انحسر عنه الماء أي أنه يوجد ميّتا، لأن الرّسول ﷺ يقول في البحر: «**هو الطّهور ماؤه الحلّ ميتته**».[1] ويقول صاحب المنار معلقا على تلك الرّوايات: " المتبادر من الآية عندي: أحلّ لكم أن تصطادوا من البحر وأن تأكلوا الطّعام المتخذ من حيوانه سواء صدتموه أنتم أو صاده لكم غيركم، أو ألقاه البحر إليكم، وسواء كنتم حلالا أو محرمين".[2]

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً﴾: تأكيد للنّهي السّابق ﴿لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾. وليس الإتيان بمثل هذه التّأكيدات من قبيل التّكرار والإطناب، بل هي لمزيد من العناية والاهتمام بهذه القضية، حتى لا يتهاون فيها أولئك الذين شغفوا بهواية الصّيد، بحيث يحسّون بشيء من المعاناة والضّيق في تنفيذ حكم الله. فقد تكرّر ذلك النّهي عدة مرات في هذه السّورة الكريمة. وفي إرشاد أمّ المؤمنين عائشة لابن أختها عروة بن الزّبير ما يدلّ على التّخفيف من تلك المعاناة فقد روى الإمام مالك في الموطأ أن عائشة قالت لعروة بن الزّبير: يا ابن أختي إنما هي عشر ليال (أي مدة الإحرام)، فإن تخلّج في نفسك شيء فدعه". والضّمير يرجع إلى الصّيد.

والصّيد المحرّم على المحرم إنما هو الصّيد الذي يصيده بنفسه أو تسبّب هو في قتله بالإشارة أو التّدليل عليه، وأما الذي يصيده المحلّ ففيه خلاف نلخّصه مما أورده الإمام الرّازي:

أ)- أنه يحرم عليه لعموم الآية، وهو رأي لكثير من الصّحابة منهم ابن عباس

١- رواه أبو داود من حديث أبي هريرة، كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر، حديث ٧٩ ورواه الترمذي من حديث أبي هريرة، أبواب الطهارة، باب ما جاء في ماء البحر أنه طاهر، حديث ٧١، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

٢- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١١٤/٧.

ب)- إنه إذا صيد للمحرم بغير إعانته وإشارته حلّ له وهو قول أبي حنيفة.

ج)- إن لحم الصّيد مباح للمحرم بشرط أن لا يصطاده المحرم ولا يصطاد له لما روي عن جابر ﷺ قال: :سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**صيد البرّ لكم حلال ما لم تصيدوه أو يصاد لكم**».[1] وهو قول الإمام الشّافعي ﷺ.[2]

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: تذكير بتقوى الله وذكر هول المحشر لمعاناة الحساب، فيه تحفيز على إدمان الطّاعة مخافة لله واستعدادا للقائه، والله أعلم.

مكانة البيت الحرام

أ)- النص:

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿جَعَلَ﴾: يطلق بمعنى الإيجاد والتّكوين وبمعنى التّشريع. وفي الإطلاق الأول يتعدّى إلى مفعول واحدٍ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ (الأنعام:١).

١- رواه الترمذي من حديث جابر بن عبد الله، أبواب الجمعة، باب الحج عن رسول الله، باب أكل الصيد للمحرم، حديث ٨٣٢، وروى عن الشافعي قوله: هذا أحسن حديث روي في هذا الباب وأقيس. ورواه النسائي في السنن الصغرى، كتاب مناسك الحج، إذا أشار المحرم إلى الصيد، حديث ٢٨١٠، ولم يقوّه.

٢- الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٦/١٠٥.

ويتعدّى إلى مفعولين فيكون بمعنى التّصيير. فعلى الأول يكون قوله تعالى: ﴿قِيَاماً﴾ حالا وعلى الثّاني يكون مفعولا ثانيا، وكلاهما صحيح. ﴿الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾: الكعبة علم للبيت الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وقيل: هو مشتق من التّكعيب والتّربيع أو من الكَعْب: أي النّتوء والبروز. والبيت الحرام وصف بياني للكعبة وصار لها علَما بالغلبة. ﴿قِيَاماً لِّلنَّاسِ﴾: أي ما يقوم به أمر النّاس في دينهم ودنياهم. ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾: يراد به الجنس فيشمل الأشهر الحرم الأربعة. ﴿وَالْهَدْيَ﴾: الأنعام التي تذبح للنّسك. ﴿وَالْقَلَآئِدَ﴾: جمع قلادة، تتخذ من شعر أو من لحاء شجر الحرم يقلّدُ بها الهدي، أو يتقلدها الحاجّ أو المعتمر حتى يأمن على نفسه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿قِيَاماً﴾: قرأ الجمهور بألف قبل الياء، وقرأه ابن عامر: ﴿قِيَماً﴾ بدون ألف بعد الياء، والقيام في الأصل مصدر "قام" إذا استقام على رجليه. وأما "قيما" فهو مصدر "قام" على وزن "فِعَل" بكسر ففتح.

د)- البيان والتّفسير:

الآية مزيد بيان لتتمة معنى السّياق السّابق للإشادة بحرمة الكعبة ومكانتها عند الله وليس المقصود بالكعبة هنا عينها مما بناه إبراهيم، بل كلّ حرمها مما حولها كما حدّده هو وأصبح معروفا للناس، فأراد الله تعالى بهذا المزيد من البيان أن يضفي القداسة لحرم البيت فجعل الحرمة لكل ما يشمله الحرم من الأحياء إلا ما استثناه الرّسول من الدّوابّ والحشرات المضرّة، وحتى الشّجر -وهو كائن حيّ- لا يجوز للمحرم قلعه.

يقول الإمام ابن عاشور في معنى هذه الحرمة: "ومعنى وصف البيت بالحرام

أنه ممنوع من أيدي الجبابرة فهو محترم عظيم المهابة، وذلك يستتبع تحجير وقوع المظالم والفواحش فيه".[١]

قلت: روى المفسّرون القدامى عن ابن زيد في معنى الآية أنه قال: "كان النّاس فيهم ملوك يدفع بعضهم عن بعض، ولم يكن في العرب ملوك يدفع بعضهم عن بعض، فجعل الله لهم البيت الحرام قياما يدفع بعضهم عن بعض به، والشّهر الحرام كذلك يدفع الله بعضهم عن بعض بالأشهر الحرم والقلائد، ويلقى الرّجل قاتل أبيه وابن عمّه فلا يعرض له".[٢]

استوقفني هذا النّصّ -وأنا بصدد تفسير الآية- فوجدت فيه ملحظا دقيقا يلخّص كل ما أطنب فيه المفسّرون لبيان معنى جعل الله لهذا البيت وما يتصل بها من تلك الحرمة والقداسة. لأن العرب -وهم المقصودون- أوّلا بكلمة "النّاس" كانوا في حياتهم الجاهلية لا يعرفون نظام الدّولة في حياتهم الاجتماعية حيث تقام الضّوابط لتصرفات النّاس، وتحدّد حقوقهم وواجباتهم بمقتضى القوانين التي تشرّعها الدولة، إذ أن النّظام القبلي المعروف عندهم لم يرتق إلى ذلك المستوى التّنظيميّ الرّاقي الذي مارسته الأمم الأخرى مثل فارس والرّوم، ولذا بقي العرب على فطرتهم السّاذجة معتمدين على أنفسهم في كسب أقواتهم والدّفاع عن حماهم. والحياة صراع وكفاح، وتدافع النّاس لا مفرّ منه في صراع البقاء. فكان من الطّبيعي أن ينشأ العربيّ على تلك الجفوة والغلظة وأن تضطرب حياته وهو يتقلّب في تلك الصّحراء الشّاسعة يطارده الخوف والجوع حيثما حلّ وارتحل.

فكان من رحمة الله وفضله على هذه الأمّة أن يجعل لها بديلا من نظام يلتئم به شملهم وتستقرّ به أوضاعهم بتخصيص حيّز من الزّمان والمكان هو في شكله

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٥٥/٨.

٢- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١١٨/٧.

الماديّ مما يعرفه النّاس ويألفونه، ولكنه في بعده الرّوحي والمعنويّ مقدّس مبارك محفوف بعناية الله لا تناوشه المظالم ولا تدنّسه الفواحش والأرجاس إذ لابد لقيام شؤون النّاس وصلاح أمر دينهم ودنياهم من هيكل سلطة يذعنون لها إذعانا روحيا أو ماديًا فكيف بهما إذا اجتمعا.

وفي هذا البعد الرّوحي للبيت الحرام يقول تعالى في سورة الحجّ: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ (الحج:٢٧-٢٨).

فلا غرابة أن نجد ذلك الحشد الهائل من نصوص القرآن تذكّر قريشا بما أنعم الله من رفع الجوع والخوف عنها استجابة لدعوة إبراهيم، وتمهيدا لصلاح البيئة التي قدّرها الله منبتا للإسلام الدّين الخاتم والرّسالة الخالدة. وأعظم آي القرآن امتنانا من الله على قريش وتذكيرا لهم بنعمته سورة قريش.

﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلآئِدَ﴾: خصّص الله بالذّكر هذه الأشياء لأنها تتبع البيت الحرام في الحرمة والقدسية، فجعلها معطوفة عليه في أنها هي الأخرى قيام للناس لما تجرّ عليهم من النّفع في كونها مجلبة للأمن والأرزاق. وسّيد قطب -رحمه الله- يطرح هذا التّساؤل فيقول: وبعد ففيم هذه الحرمات؟. ثمّ يجيب قائلا: " إنها منطقة الأمان يقيمها الله للبشر في زحمة الصّراع، إنها الكعبة الحرام، والأشهر الحرام، تقدّم في وسط المعركة المستعرة بين المتخاصمين والمتحاربين والمتصارعين والمتزاحمين على الحياة بين الأحياء من جميع الأنواع والأجناس بين الرّغائب والمطامع والشّهوات والضّرورات فتحلّ الطّمأنينة محلّ الخوف، ويحلّ السّلام محلّ الخصام، وترفّ أجنحة من الحبّ والإخاء والأمن والسّلام، وتدّرب النّفس البشرية في واقعها العملي -لا في عالم المُثل والنّظريات-

على هذه المشاعر، فلا تبقى مجرّد كلمات مجنحة ورؤى حالمة تعزّ على التّحقيق في واقع الحياة".[1]

﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

الإشارة إلى جعل الله المذكور في صدر الآية إشارة تعظيم وتنويه تعقبه لام التّعليل: ﴿لِتَعْلَمُوا﴾، والعلم لا يحصل إلا بالتّأمّل والتّفكير، فكلّ تلك المنافع المجعولة في ذلك الحيّز الزّماني والمكاني المقدّس هي معلومة لدى العرب مألوفة في واقع حياتهم، ولو أنهم رجعوا إلى أغوار التّاريخ لعرفوا كيف نشأت الحياة في واديهم وكيف أن الله قد قدّر في علمه الأزلي ودبّر الأمر لخليله إبراهيم إذ بوّأه مكان البيت وأفاض عليه من البركات والخير بما يصلح أن يكون مهبطا لوحيه ومهادا لرسوله ومنبتا لدينه المرتضى للناس إلى آخر الزّمان. وكيف جعل الله أفئدة النّاس تهوي إلى هذا البيت وتعظّمه ليضمن بذلك الرّزق والأمن لأهله، ولا يقدر على ذلك إلا العالم بما في السّماوات والأرض وهو الله العليم القدير.

فمن هذه المنافع الثّابتة المعروفة لديكم تدركون بأدنى تأمّل علم الله وحكمته في تدبير شؤون خلقه وأنه لا تخفى عنه خافية، ودلائل عظمته وقدرته لا تحصى عدّا في أرجاء ملكوته، غير أن ما بينته الآية من أدلّة خاصّة بزمان ومكان معيّنين هو تذكير بالمشاهد المعيشة لدى المخاطبين، وذلك أدلّ على قيام الحجة وأشدّ تأثيرا في نفوسهم، والله أعلم.

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤٥/٧.

الله بالمرصاد لأنواع العباد

أ)- النص:

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾: مهمته أن يبلّغ للناس وليس يضيره ألا يؤمنوا به لأن الله هو الذي يحاسبهم، فالقصر إضافي ليس بحقيقي لأن الرّسول يقوم بأمور أخرى غير البلاغ. ﴿مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾: ما تظهرون من أعمالكم وما تخفونه. ﴿الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾: الرّديء والجيّد من الأعمال والأشياء ومن سائر المخلوقات. ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾: أولو الألباب أصحاب العقول النيّرة.

ج)- البيان والتفسير:

بعد ذكر الأحكام المتعلقة بالصّيد والتّذكير بعلم الله المحيط بكل ما في السّماوات وما في الأرض وأنه تعالى أعلم بمن خلق، إذ يشرّع للناس ما يصلح بهم، تأتي هذه الآية الكريمة تذييلا لما سبق مفتتحة بقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا﴾ مثل سابقتها في التّذكير بعلم الله الشّامل، اهتماما بمضمون الجملتين، فهما متكاملتان في تركيز عقيدة المسلم، فهو إذ يعتقد بإحاطة علم الله وسعة قدرته وبالغ حكمته في ما يشرعه من الأحكام يتيقّن بذلك أن الله تعالى لعباده بالمرصاد يجازي كلا بما عمل فضلا وعدلا فهو شديد العقاب للمجرمين وذلك من تمام عدله، وهو غفور

رحيم، يقبل التّوبة عن عباده ويعفو عن السّيئات.

ومن رحمته بخلقه أن يبعث إليهم رسولا من أنفسهم يبلّغ ويبيّن ما نزّل إليهم، ثم لا يكرههم على الإيمان به لأن مهمته أن يبلّغ، وليس عليه محاسبة النّاس كما تعالى في سورة الرّعد: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (٤٠). وفي سورة الغاشية: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (٢١-٢٢). والرّسول مهما اجتهد في التّبليغ والبيان فهو لا يحكم إلا بظاهر الأشياء، وبالتالي لا يستطيع تقييم أفعال العباد، والجزاء العادل لا يتحقق إلا بتحديد المسؤولية في العمل المكتسب، ولا يملك ذلك إلا الله الذي يعلم السّر وأخفى.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾: فيجازي كلاً على عمله بحسب ما ثبت في علمه فليس الإبداء والإخفاء من طرفكم بمخلّ ولا بمجحف لميزانه.

﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾: عجبا لهذا التّفنّن في أساليب التّرغيب والتّرهيب والوعد والوعيد بعد تفصيل الأحكام بما فيها من حلال وحرام في قضية الصّيد والطّعام، ذلك لأن النّاس في جهلهم وجاهليتهم هم في حاجة إلى مثل هذا الأسلوب، إذ الإنقلاع عن العادات المألوفة والتّقاليد الموروثة ليس بالأمر الهيّن، ولذا يضع الله في هذه الآية التي جاءت تتمة للسياق، يضع ميزانا تريسا للقيم والأشياء يزن به المسلم أعماله ومواقفه حين تغرّه المظاهر وتبهره الكثرة حتى لا ينساق مع الرأي الفطر والنّظرة العجلى.

والخطاب في الآية موجّه إلى رسول الله، وهو الذي يواجه العناد، ويتعامل مع أصناف العباد وفيهم الطّيّع الوفيّ والكنود الغيّ، وفي المشركين عنجهية واعتزاز بالكثرة في الأموال والأولاد والأتباع وقد قالوا: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ:٣٥). وقال الرّجل المتطاول بجنته للرجل الفقير الصّالح: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ (الكهف:٣٤). إنها لغة السّادة الكبراء في كل زمان

ومكان. فها هو ميزان الله العادل: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾.

فالخبيث والطّيب حقيقتان متضادّتان لا مقاربة ولا مشابهة بينهما، فالحلال لا يشبه الحرام، وبالتالي فإن الملتزمين بالحلال الموفّين لعهد الله لا يستوون عند الله مع المتهتكين الفجّار: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (ص:٢٨). قد يلتبس على المرء تمييز الخبيث من الطّيّب، إما غفلة أو غباوة وتقليدا، ولذا أمر الرّسول أن يقول لمخاطبه بعد تقرير القاعدة العامّة: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾، فإن الكثرة ليست مقياسا للنوعية في كل حالة، والذين لا يملكون معايير التّقييم يجعلون من الكثرة دليلا على الطّيبة والامتياز، و حتى الصّحابة الكرام أشكل عليهم مثل هذا التّمييز عندما أخبرهم الرّسول بما ستؤول إليه أوضاع الأمة الإسلامية إذا ضعف الوازع الدّيني فيها. فينـــزع الله مهابتها من قلوب أعدائها. «**قالوا: أمن قلّة نحن يا رسول الله؟ قال: لا، بل أنتم كثرة ولكنكم كغثاء السّيل**»[1]،والإعجاب بالشّيء قد يغطي العيوب التي فيه، وقد قال الشّاعر العربّي:

وعين الرّضى عن كل عيب كليلة ولكن عين السّخط تبدي المساويا

ولذا جاء الأمر الإلهي بالتّقوى موجّها لذوي العقول النّيرّة التي تعمل النّظر في حقائق الأشياء ولا تغترّ بالمظاهر والأشكال، ولا تستخفّها الدّعايات الكاذبة فهذه الفئة من النّاس هي التي يرجى فلاحها ويتحقق فوزها، لأنها سخّرت عقولها في ما خلقت لأجله من التّمييز والإدراك.

والله أعلم

١- رواه أبو داود من حديث ثوبان، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، حديث ٣٨٠٥.

النّهي عن الفضول في ما لم ينزّل على الرّسول

أ)- النّص:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ﴾: أشياء إمّا جمع لشيء، وإما اسم جمع على وزن "فعلاء" كحلفا، وطرفا، على اعتبار أن المدة في آخره مدّة تأنيث، ولذلك منع من الصّرف، ولفظ الشيء يصدق على كل موجود من جميع الذّوات كما يصدق على أحوال الذّوات. ﴿تَسُؤْكُمْ﴾: أي تزعجكم وتقلقكم لشرّ فيها أو عنت يلحقكم منها. ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾: إن الشّرطية تفيد احتمال الوقوع وعدمه في جزئي جملة الشّرط، أي الشّرط والجزاء، بخلاف "إذا" الشّرطية فإنها تدلّ على احتمال الوقوع. ﴿حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ﴾: أي أن الله تعالى يبديها لكم فتقعون في حرج. ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ﴾: المقصود بهم الأمم الخوالي التي ذكرها القرآن مثل عاد وثمود أصبحوا بها كافرين، أي أنها عندما أجيبوا عما سألوه صاروا بإنكارها كافرين.

ج)- البيان والتّفسير:

هذا هو النّداء الرّابع عشر جاء مناسبا لقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾: والذي يتضمن بيان مهمّة الرّسول بأنها البلاغ عن الله، وأنه عليه الصّلاة

والسّلام قد قام بهذه المهمّة على أكمل وجه وفق ما أرشده الله إليه في الآيات التي تتضمن معنى هذه الآية كآيتي الرّعد والجاثية. وكان المبلغ إليهم -أحيانا- لا يراعي البعض منهم الآداب واللّياقة الواجبة مع رسول الله لأنهم حديثو عهد بالجاهلية في غلظة الطّبع والجفوة في المعاملة فتنزلت مثل تلك الإرشادات الإلهية في سورة الأحزاب وسورة الحجرات.

وهنا في هذا النّداء الإلهي للذين آمنوا إرشاد وتربية لكيفية تلقي البلاغ عن رسول الله، إذ نهاهم الله أن يبادروا الرّسول بأسئلة يحاولون بها معرفة أمور غيبية ربما لا يدركون كنهها، أو يستفصلون عن أمور دقيقة في بعض الأحكام، أو حتى عن قضايا ذاتية لبعض الأشخاص، لأن الفضول لا يكون محمودا في كل المواقف ومع كل الأشخاص والمثل الحكيم يقول: مَن تدخّل فيما لا يعنيه لقي ما لا يرضيه.

وقد ثبتت في الصّحاح والسّنن روايات تذكر تلك الأشياء التي سئل الرّسول عنها فأجاب عنها الرّسول، وكان في بعضها غضبان محمّر الوجه، مما حدا بعمر ﷺ أن يخفّف من غضبه فقد روي عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ وهو غضبان محمرٌّ وجهُه حتى جلس على المنبر. فقام إليه رجل فقال: أين أنا؟. قال في النّار. فقام آخر فقال: مَن أبي؟ فقال: أبوك حذافة. فقام عمر بن الخطاب فقال: رضينا بالله ربّا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا، وبالقرآن إماما، إنّا يا رسول الله حديثو عهد بجاهلية وشرك، والله أعلم من آباؤنا. قال: فسكن غضبه ونزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَسْئَلُواْ عَن اَشْيَآءَ﴾.[1]

قلت: إن الأشياء المسؤول عنها قد تعددت فيها الرّوايات منها شؤون ذاتية

١- رواه البخاري من حديث أنس، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يُكره من كثرة السؤال، حديث ٦٩٠٣.

كهذه الرّواية، ومنها أمور تتعلق بالتّشريع كالسّؤال عن الحجّ، أهو في كل عام فسكت الرّسول و لم يجب. ولما أعيد السّؤال قال الرّسول: «**لا، ولو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما أطقتموها، ولو لم تطيقوها لكفرتم**»[1]، كما روي عن ابن عباس أنها نزلت في قوم سألوا رسول الله عن البحيرة والسّائبة والوصيلة والحام.

قال صاحب المنار بعد تمحيصه لتلك الرّوايات قال: "وأما القول الذي رواه مجاهد عن ابن عباس فغير بعيد عن الصّواب". ثم قال: "والطّريقة المتبعة في الجمع بين أمثال هذه الأحاديث أن يقال: إن النّهي في الآية يشمل كل ما ورد في سبب نزولها وكل ما هو في معناه".[2]

وليس كل سؤال يسوء جوابه صاحبه، فهو يحتمل الإساءة وعدمها، ولذا جيء بـــ"إن" التي لا يقطع بوقوع شرطها وجوابها، غير أن الاحتراز من بعض الأجوبة التي تسوء يقتضي من المؤمن أن يتأدّب بهذا الأدب العالي مع الرّسول، لأن الله تعالى لا يؤخّر البيان عن وقت حاجته، بل كان من تمام رحمته ولطفه بهذه الأمة أن ترك لها مجالا واسعا في التّشريع ترجع فيه إلى النّظر والاجتهاد، ومثل ذلك الإستفصال في دقائق الأحكام تضييق ما وسّعه الله فيجد المؤمنون في ذلك حرجا لم يجعله الله تعالى في دينه.

﴿وَإِن تَسْئَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾: هذه الجملة الشّرطية معطوفة على سابقتها: ﴿لاَ تَسْئَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ واختيار أداة "إن" يفيد إمكان وقوع السّؤال وعدمه كما تقدم، فالأصحاب وإن كانوا مخيّرين بين السّؤال وعدمه فهم بسليقتهم اللّغوية يفهمون أن ترك السّؤال

١- رواه الدارقطني بهذا اللفظ من حديث أبي هريرة، كتاب الحج، باب المواقيت، حديث ٢٣٦٨.

٢- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١٢٩/٧-١٣٠.

أوْلى، لأنهم إن سألوا حين نزول القرآن فإنهم يتلقون الجواب -لا محالة- وهذا الجواب قد يكون فيه ما لا يسرّ، فيكون ذلك سببا لإعنات المسلمين وقد قال رسول الله ﷺ: «**إن أعظم المسلمين جُرما مَن سَأل عن شيء لم يحرّم فحرّم من أجل مسألته**».[1]

وقد صحت عن رسول الله أحاديث فيها إرشاد عال للأصحاب تدلّ على منهجية الإسلام في التّشريع وكيف أن الله تعالى يهيّيء الظّروف ويسوق القضايا من واقع الحياة وواقع النّاس فيريد الله أن يصلح من ذلك الواقع فتنـــزل الأحكام بما يضمن وتيرة الإصلاح، ومن شأن المؤمن الوقيّ أن لا يتعجّل في السّؤال، بل يترك ذلك لحكمة الله في معالجة القضايا لأنه أعلم بمن خلق.

وفي الصّحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم**».[2]

وقال أيضا: «**إن الله فرض فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ حدودا فلا تعتدوها، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم فلا تسألوا عنها**».[3]

﴿**عَفَا اللَّهُ عَنْهَا**﴾: أي لا تسألوا عن أشياء سكت الله عنها أو أبقاها مجملة، فالجملة صفة لأشياء، ويحتمل أن يكون المعنى: عفا الله عما كان من مسألتكم قبل النّهي، أي لا يعاقبكم على ذلك، حتى لكأن الذّنب قد عفيّ على أثره.

١- رواه البخاري من حديث عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال، حديث ٦٨٧٩.

٢- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب الفضائل، باب توقيره صلى الله عليه وسلم، حديث ٤٤٧٤، بلفظ: "مسائلهم".

٣- رواه الحاكم في المستدرك من حديث أبي ثعلبة الخشني، كتاب الأطعمة، حديث ٧٢١٤.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾: الضّمير في ﴿سَأَلَهَا﴾ إمّا أن يرجع إلى ﴿أَشْيَاءَ﴾ في لفظه دون مدلوله، أو التّقدير: سألوا مسائل -أي أمثالها- فكانت سببا لكفر أقوام قبل المسلمين، لأنهم لم يعملوا بمقتضى ما بيّن لهم من تلك المسائل، إما عن جحودها تماما بأنها من عند الله، وإمّا عن استثقالها في العمل بها. وفي التّاريخ البشري أمثلة كثيرة لذلك.

ويجوز في معنى الباء "بِهَا" أن يكون للتعدية -أي كافرين بها- فكلّ ما هو ذريعة للكفر بالله يجب الحذر منه، بل المطلوب من المؤمن العاقل أن يجانب كلّ ما من شأنه أن يورثه الحسرة والنّدم حتى في أبسط المعاملات في علاقته بالنّاس.

والله أعلم

افتراء الكفار على الله في بعض العادات؛

ومسؤولية المسلمين في حق الدّعوة لأنفسهم ولغيرهم

أ- النص:

مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿بَحِيرَةٍ﴾: البحيرة: النّاقة يشق أذنها شقا واسعا، أي إلى نصفين طولا. ويتركونها ترعى لا تركب ولا تنحر، وذلك إذا ولدت خمسة أبطن وكان الخامس ذكرا وقيل: عشرة أبطن. ﴿سَآئِبَةٍ﴾: الوصف من سأب الفرس إذا ذهب على وجهه حيث شاء. والنّاقة إذا نذروها لآلهتهم تركوها لترعى حيث شاءت، لا يحمل عليها ولا يجز صوفها ولا يشرب لبنها إلا لضيف. ﴿وَصِيلَةٍ﴾: قالوا في الشّاة أو النّاقة أنها وصلت أخاها إن هي ولدت ذكرا وأنثى. وقيل: هي التي تصل أنثى بأنثى في النّتاج. ﴿حَامٍ﴾: الحامي هو فحل الإبل يولد منه عشرة أبطن. فيقولون: حمى ظهره وتركوه لا يحملون عليه شيئا. ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾: أي يختلقون الكذب على الله بأنه هو الذي حرّم ذلك، أو ينسبون إليه ذلك التّحريم وهو من عند أنفسهم. ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: عليكم اسم فعل بمعنى: ألزموا واحرصوا على أنفسكم. ﴿حَسْبُنَا﴾: بمعنى هو كافينا، وهو عند اللّغويين إمّا اسم صريح أو هو اسم فعل.

ج)- البيان والتّفسير:

تذكر رواية ابن عبّاس في مناسبة هذه الآية لما قبلها في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾: تذكر تلك الرّواية أن من بين ما كانوا يسألون عنه أشياء كانت في الجاهلية من مثل تحريمهم لبعض الأنعام فجاء هذا النّفي القاطع من الله تعالى لردّ ذلك.

غير أنه يعجبني في وجه الرّبط والمناسبة ما ذكره الإمام ابن عاشور في تحريره وتنويره إذ قال ما نصّه: "استئناف ابتدائي جاء فارقا بين ما أحدثه أهل الجاهلية من نقائض الحنيفية وبين ما نوّه الله به مما كانوا عليه من شعائر الحجّ، فإنه لما بيّن أنه

جعل الكعبة قياما للنّاس وجعل الهدي والقلائد قياما لهم، بيّن هنا أن أمورا ما جعلها الله ولكن جعلها أهل الضّلالة ليميز الخبيث من الطّيّب. فيكون كالبيان لآية: ﴿**قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ**﴾، فإن البحيرة وما عطف عليها هنا تشبه الهدي في أنها تحرّر منافعها وذواتها حيّة لأصنامهم كما تهدى الهدايا للكعبة مذكّاة، فكانوا في الجاهلية يزعمون أن الله شرع لهم ذلك ويخلطون ذلك بالهدايا. ولذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ (الأنعام:١٥٠). وقال في هذه الآية: ﴿**وَلَكِنَّ الذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ**﴾".[1]

قلت: إن هذا التّقابل الجميل بين الجعلين في حالتي الإثبات والنّفي هو تقابل بين حلال شرعه الله للنسك والعبادة وبين حرام من أباطيل الجاهلية ما أنزل الله به من سلطان، وبالتّالي هو تقابل بين الخبيث والطّيّب فهو تناسب على أوفر حظ من الدّقة والفهم -رحمه الله-. ونفي الجعل من الله لهذه الأشياء المذكورة معناه أن ليست لها الصّفة الشّرعية من الله كما يدّعون، وإن كانت هي موجودة في واقعهم الجاهلي.

وقد جاءت الرّوايات مختلفة في تحديد وتفسير هذه الأصناف من الأنعام وذلك نظرا لاختلاف عادات الجاهلين عند كل قبيلة في ممارسة تلك الطّقوس، فقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن سعيد بن المسيّب قال: "البحيرة التي يمنع درّها للطواغيت فلا يحلبها أحد من النّاس، والسّائبة كانوا يسيّبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء، قال: قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجرّ قصبه في النار كان أوّل من سيّب السّوائب**». قال الرّاوي: "والوصيلة النّاقة البكر تبكّر في أول النّتاج ثم تثني بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٨/٧١.

لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر، والحامي فحل الإبل يضرب الضِّراب المعدود. فإذا قضى ضرابه ودعوه، أي تركوه للطواغيت وأعفو من الحمل وسمّوه الحامي". [1]

قلت: أورد المفسّرون تفسيرات أخرى غير هذه تتفق كلها في أنها ترتبط بطقوس عباداتهم، وهم يعتقدون أنها من الحنيفية التي شرعها الله لكونها من تراث آبائهم وأجدادهم، والله تعالى إذ ينفي ذلك في الآية الكريمة يحكم على الذين كفروا بأنهم يفترون على الله الكذب وأن أكثرهم لا يعقلون. والأكثرية التي لا تعقل هم أولئك الأتباع الأغرار الذين يستغلّهم السّدنة بابتداعهم لمثل هذه الأشياء. والإسلام في منهجية تربيته الحكيمة جعل ارتباط المؤمن بالله مباشرة فلا توسّل بغيره إليه.

ومن المؤسف أن يبتدع كثير من المسلمين ما يشبه تلك العادات الجاهلية في توسّلهم بأضرحة بعض الأولياء حتى أصبحت مزارات مقدّسة تخصّص لها الوعدات، ويتفنّن بأساليب شيطانية في جمع المريدين والأتباع. يقول سيّد قطب -رحمه الله- في هذا المعنى: "وهذا هو الذي كان في جاهلية العرب والذي يمكن أن يحدث في كل زمان ومكان، حين ينحرف الضّمير البشري عن التّوحيد المطلق الذي لا منعرجات فيه ولا ظلام، وقد تتغيّر الأشكال الخارجية، ولكن لباب الجاهلية يبقى، وهو التّلقي من غير الله في أيّ شأن من شؤون الحياة، إن الجاهلية ليست فترة من الزّمان، ولكنها حالة ووضع يتكرّر في أشكال شتّى على مدار الزّمان". [2]

١- رواه البخاري من حديث سعيد بن المسيب، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة، حديث ٤٧٣٠.

٢- سيد قطب، ظلال في القرآن، ٥٨/٧.

قلت: إن شريعة الله محدّدة مضبوطة بمقاصدها، ولا تعرف إلاّ من مصادرها الثّابتة، وهي ما أنزله الله في قرآنه وما بيّنه الرّسول في سنّته، وقد أمر الله بالاحتكام إليهما، غير أن هؤلاء يرفضون ذلك اكتفاءً بما وجدوا عليه آباءهم دونما مناقشة أو بحث، وذلك هو غاية الضّلال والتّيه. قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾: أي إذا كان هؤلاء يعتقدون أن ما هم عليه من عادات هي من شرع الله فلماذا يعرضون عمّا ثبت أنه من وحي الله بالأدلة والبراهين القاطعة، ولا ينصتون لبيان الرّسول وهو المبلّغ عن الله بصدق وأمانة ؟. وأيّ تعطيل لنعمة العقل هو أردى من هذه الحالة التي يصبح فيها الإنسان عبدا لغيره أو لهواه؟. وهل هذه الكفاية بما تركه الأجداد تفيدهم ولو كان هؤلاء الآباء لا يعلمون شيئا ولا يهتدون؟.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾: فهم إذن سواء في الضّلالة والتّيه، إذ نفى الله عنهم بصيغة الاستفهام الإنكاري صفة العلم والاهتداء. وإيراد العلم مقرونا بالاهتداء على منهج الله ورسوله يدلّ على منع التّقليد لعالم سوء لا يهتدي بهدي الله لأن الحق أحق أن يتبع. وفي معنى هذه الآية الكريمة وردت آية سورة البقرة في الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ (١٧٠). وبالنّسبة للمنافقين ورد قوله تعالى في سورة النّساء: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ (٦١).

فكم من عالم لا يشق له غبار خطّته الهداية والتّوفيق، فيجب على المؤمنين أن يجتنبوه لأنه ممن أضلّه الله على علم، فهو حينئذ كالشّيطان عدوّ للفضيلة والتّقوى والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ

حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (فاطر:٦).

ويجيء النّداء الخامس عشر للجماعة المؤمنة ليحدّد مسؤوليتها التّضامنية في إصلاح شأنها والمحافظة على ميزها، كما يحدّد موقفها ممن أخطأته الهداية الرّبانية. وذلك بمناسبة ذكر عناد المشركين ومكابرتهم في الآية السّابقة، لأن تبعة الدّعوة إلى الله تجعل المؤمن في حرج إذا واجهته جماعات الكفر والفسوق والعصيان، أيدعوهم إلى الخير ويأمرهم وينهاهم، ولا عليه بعد ذلك في استجابتهم أو عدمها، لأن الله تعالى قد أعذر رسوله في ذلك حين قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ (القصص:٥٦).

يقول تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: أي ألزموا إصلاح أنفسكم بما نزل عليكم من الهداية، وكونوا متضامنين متكاملين في بناء مجتمعكم على أسس الخير والهداية، وحينئذ لا يضركم عناد واستكبار من ضلّ، لأنكم وإياهم راجعون إلى الله، وهو الذي يجزي كل نفس بما كسبت وهو أعلم بالمهتدين.

والملاحظة في نفي الضّرّ عن المجتمع المسلم وجود شرط الاهتداء ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾: وأغلب المفسّرين على أن الاهتداء يشمل القيام بكل الواجبات الدّينية بما فيها الدّعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. يقول الإمام ابن عاشور: "فلا يتوهّم من هذه الآية أنها رخصة للمسلمين في ترك الدّعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، لأن جميع ذلك واجب بأدلة طفحت بها الشّريعة فكان ذلك داخلا في شرط: ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾".[1]

قلت: وأبرز آية في ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران بعد أمره تعالى للمؤمنين بالاتحاد والاعتصام بحبل الله فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: ٧٨/٧.

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:١٠٤).

غير أن علماء الأمة قديما وحديثا اختلفوا في توجيه معنى الآية على اختلاف الظّروف والأحوال بين جماعة المؤمنين فيما بينهم، ثم تجاه غيرهم من الأقوام، فقد روى أصحاب السّنن بأسانيد متعددة ما يُستدلّ به على اختلاف الرّعيل الأول في تفسير هذه الآية سواء في عهد رسول الله أو خلفائه الرّاشدين، وبالأحرى أن يحدث ذلك في الأزمنة اللاحقة. ونقتصر في الدّلالة على ذلك برواية الإمام التّرمذي إذ قال: حدثنا سعيد بن يعقوب الطّالقاني حدثنا عبد الله بن المبارك حدثنا عتبة بن أبي حكيم حدثنا عمرو بن حارثة اللّخمّي عن أبي أميّة الشّعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: ما تصنع في هذه الآية؟ قال: أيّة آية؟ قلت قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾. قال: أما والله لقد سألت عنها خبيرا سألت رسول الله عنها فقال: « **بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحّا مطاعا وهوًى متبعا ودنيا مُؤثَرَة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصّة نفسك ودع عنك العوامّ، فإن من ورائكم أيّاما، الصّابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم**».[1] وفيه زيادة بيّن فيها الرّسول أجر خمسين رجلا أنهم من الصّحابة.

قلت: إن الرّسول ﷺ قد تنبّأ في هذا الحديث بما يكون عليه المسلمون أيام ضمورهم الحضاريّ حين يضعف فيهم الوازع الدّيني، فتنفكّ عرى الدّين في المجتمع عروة عروة. فلا يجدون من يتصدّى لمهمة التّبليغ والإرشاد في ما بينهم، فكيف بمسؤوليتهم نحو غيرهم، والعلل التي ذكرها الرّسول كلها عوامل للتفكك

١- رواه الترمذي من حديث أبي أمية الشعباني، أبواب تفسير القرآن، باب "ومن سورة المائدة"، حديث ٣١٣١، وقال: حديث حسن غريب.

والاشرار في المجتمعات. وإذا اجتمع ضعف الوازع الدّيني وضعف الوازع السّلطاني أو انعدامه فإن ذلك هو الطّامّة الكبرى. وقد تقلّب المسلمون في مثل هذه الأحوال ولا يزالون يتخبطون فيها، وتبقى مثل هذه النّداءات الرّبانية حجة عليهم، لا ينفعهم فيها التّأويل الفاسد لمعنى الآية.

وقد حاول العلماء المرشدون أن يرتّبوا درجات الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر في مطوّلاتهم بما لا مزيد عليه، وهم في ذلك لا يخرجون عن الإطار الذي حدّده رسول الله في مراتب هذه المسؤولية العظمى حين قال: «**من رأى منكم منكرا فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**».[1] فبين القوة والضّعف الذي يكون عليه المسلم في حياته الفردية أو الاجتماعية تتحدّد مسؤوليته أمام الله في هذه المسؤولية الخطيرة، وعلى قدر تطبيقه وأخذه بإحدى مراتب هذا السّلّم تكون نتيجة ذلك على المجتمع تتردّى أوضاعه إلى أضعف الإيمان.

والله أعلم

توثيق الوصية حين الموت

أ)- النص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ
ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ
فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ

١- رواه مسلم من حديث طارق بن شهاب، كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، حديث ٩٩.

إِرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا
لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا
مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا
وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ
وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾: الشّهادة: حضور الشّيء مع مشاهدته بالبصر أو البصيرة، وهي أيضا إخبار عن واقعة بعلم يحصل بالحسّ البصريّ أو السّمعيّ ﴿بَيْنِكُمْ﴾: "بين" اسم يفيد صلة أحد الشّيئين بالآخر يبّينه ما يضاف إليه من زمان أو مكان أو عمل أو حال. ﴿حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾: أي ظهور علاماته. ﴿ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: كناية عن السّفر، لأن المسافر يضرب الأرض برجليه أو حوافر دابته، وفي الوقت الرّاهن بأزيز العجلات وضجيج المحركات. ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾: والحبس إمساك الشيء وإيقافه عن حرية التّحرّك. ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾: شككتم في شهادتهما. ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾: بمعنى يعبّران في نصّ شهادتهما بتلك العبارات، وأنهما لا يطلبان منفعة بتلك الشّهادة، ولا يراعيان صلة القربى في المشهود له. بمعنى أنهما يلتزمان الصّدق والعدل في الشّهادة. ﴿عُثِرَ﴾: العثور على الشيء: الإطلاع عليه من غير سبق طلب له. ﴿اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾: فعلاً ما يوقعهما في الإثم بالكذب وخيانة الأمانة. والإثم: ما يقعد بصاحبه عن عمل الخير من المعاصي والآثام وعرّفه الرّسول بقوله: «**الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن**

يطلع عليه الناس».[1] ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ﴾: هم ورثة الميت. ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾: أي هما أولى بالميّت وأعرف بأحواله. ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾: أي ذلك أقرب الوسائل إلى أن تؤدّى الشّهادة على حقيقتها بدون تحريف ولا تبديل. ﴿أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: أي يخافون الافتضاح فينعتون بالكذب وشهادة الزور.

ج)- أوجه القراءة:

﴿اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾: قرأ الجمهور ﴿اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ﴾ بالبناء للمجهول، فالفاعل المحذوف في قوله: ﴿اسْتُحِقَّ﴾ هو مستحق مّا. وقوله: ﴿عَلَيْهِمُ﴾ قائم مقام نائب الفاعل ﴿اسْتُحِقَّ﴾ و﴿الْأَوْلَيَانِ﴾: تثنية "أولى"، وهو الأجدر والأحق. وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وخلف: ﴿الْأَوَّلِينِ﴾: بتشديد الواو مفتوحة وبكسر اللاّم وسكون التّحتية جمع "أوّل". وقرأ حفص عن عاصم ﴿اسْتَحَقَّ﴾بصيغة البناء للفاعل فيكون ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ هو فاعل ﴿اسْتَحَقَّ﴾.

د)- البيان والتّفسير:

وهكذا نصل إلى النّداء السّادس عشر وهو النّداء الأخير في السّورة الكريمة. وتتأكد به مرة أخرى المسؤولية التّضامنية بين المسلمين في ما شرّعه الله تعالى من التّوثّق لعقود المعاملات مما يندرج في الكليات الخمس لمقاصد الشّريعة، وهي هنا حفظ الأموال، والإسلام قد شرّع لتداول الأموال بين النّاس أحكاما هي غاية في الإنصاف والعدل، وذلك بوضع ضوابط وقيود بمختلف وسائل التّوثيق لينال كل

١- رواه مسلم من حديث النواس بن سمعان الأنصاري، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، حديث ٤٧٦٠.

ذي حق حقّه، ومن تلك الوسائل الوصية، وهي معروفة عند العرب من قبل الإسلام، ولكن الله تعالى قد أبطل ما فيها من إجحاف وأكّد مشروعيتها بما تقدم من الأحكام في سورتي البقرة والنّساء.

وجاءت هذه الآيات في موضوع الوصية وتوثيقها حين يكون الموصى بعيدا عن أهله وأقربائه، وخير ما قاله المفسّرون في مناسبة هذه الآية لما قبلها ما أورده صاحب المنار بعد نقله لقول الإمام الرّازي في ذلك إذ قال: "وأظهر منه أن يقال أنه تعالى لما ذكّرنا في آخر الآية السّابقة بأن مرجعنا إليه بعد الموت، وأنه يحاسبنا ويجازينا، ناسب أن يرشدنا في إثر ذلك إلى الوصية قبل الموت وإلى العناية بالإشهاد عليها لئلا تضيع".[1]

قلت: ومن أوجه المناسبة -والله أعلم- أنه تعالى لما شرّع لنا الأحكام المتعلقة بالصّيد في الحج وامتن علينا بحليّة صيد البحر للحجّاج وللسيارة، وكلهم من الضّاربين في الأرض، -و السّفر مظنة للمشقة والموت-، ناسب أن يرشدنا إلى العناية بالوصية وتوثيقها بالإشهاد إذا حضر أحدنا الموت وهو مسافر.

ونقل صاحب المنار كثيرا من الرّوايات تذكر أسباب نزول هذا الآيات، أظهرها ما رواه الإمام البخاريّ والتّرمذي والدّار قطني وابن المنذر والطّبراني والبيهقي عن عكرمة عن ابن عبّاس وقد لخّصه سيد قطب قال: "روى البخاريّ والدّار قطني وغيرهما عن ابن عبّاس قال: كان تميم الدّاريّ وعديّ بن بدّاء يختلفان إلى مكة فخرج معهما فتى من بني سهم، فتوفي بأرض ليس بها مسلم، فأوصى إليهما، فدفعا تركته إلى أهله، وحبسا جاما من فضة مخوّصا بالذّهب. فاستحلفهما رسول الله ﷺ: **«ما كتمتما ولا اطلعتما»**. ثم وجد الجام بمكة فقالوا: اشتريناه من عديّ وتميم. فجاء رجلان من ورثة السّهمي فحلفا أن هذا الجام للسّهمي

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٢١٩/٧.

و﴿لَشَهَادَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَآ﴾ قال: فأخذا الجام وفيهم نزلت هذه الآية".[1]

قلت: وفي غير روايته زيادة: كان تميم الدّاريّ وعديّ بن بدّاء رجلين نصرانيين يتجران إلى مكة ...الخ.

وملخّص معنى الآيات أن الله تعالى ينادي المؤمنين ويأمرهم بتوثيق الشّهادة على الوصية إذا حضر أحدهم الموت، وذلك بأن يشهد اثنان عدلان من المؤمنين لقوله تعالى: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾، واثنان خير لقوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ التّقدير: الشّهادة المشروعة بينكم هي شهادة اثنين من رجالكم، وحضور الموت بمعنى ظهور علاماته، وغالبا ما يوصي النّاس في تلك الحالة وكان ذلك من عادة العرب. قال تعالى في سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ (البقرة:١٨٠). ومعلوم أن العرب في تلك الحقبة من التّنـــزيل ما يزالون في أميّة يعتمدون في تعاملهم على التّوثيق الشّفهيّ بشهادة الشّهود أو الرّهن والضّمان. ولم يشترط جمهور العلماء أن يكون الشهود من الأقارب والعشيرة.

وقد يكون الموصي في حالة سفر: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ﴾ ووجد علامة الموت، فإنه يشهد شهيدين من غير المسلمين -على تفسير الجمهور- أو الأجانب غير الأقرباء -على تفسير غيرهم-. والموصي في كلتا الحالتين من حضور الموت في الحضر أو السّفر؛ وائتمانه للشهيدين يكون قد وثق الشّهادة على وصيته وغلب على ظنه بذلك إيصال الأمانة إلى أهلها من ورثته. غير أن هؤلاء قد يرتابون في أمر الشّهيدين عندما تبدو منهما خيانة، فكيف يكون الحكم في هذه

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، ٦٥/٧. وروى الدارقطني الحديث بهذا اللفظ عن ابن عباس موقوفا، كتاب النذور، حديث ٣٨٠٧.

الحالة؟.

فكان حكم الله أن يُستحلف الشّاهدان من بعد الصّلاة قال تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾: فذهب أغلب العلماء أنها صلاة العصر، لأن الرّسول استحلف تميما وعديّا بعدها، ولأن العرب كانوا يجلسون بعدها للقضاء والفصل في المظالم، وزاد البعض أنها هي الصّلاة الوسطى وأنها وقت صلاة لغير المسلمين أيضا، وابن عباس اعتبر الوقت لغير المسلمين أن يكون بعد الصّلاة المعروفة في دينهم.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ﴾: ولتأكيد الشّهادة على الوصية وإزالة الشّكوك والرّيب يدين الشّاهدان في وقت يرجى فيه منهما اتقاء الكذب والخيانة، وذلك باستحاشة الضّمير الإيماني بالله ومسؤولية القسم به في وقت يتمّ فيه ذكره وتعظيمه بالعبادة. والعجيب أن ينصّ الله على ألفاظ تلك الشّهادة، فالعبارة عند الجمهور تبتدئ بقول المقسمين: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ﴾.

غير أن الإمام ابن عاشور له ملحظ دقيق في نصّ الشّهادة حين جعلها تبتدئ بقول الشّاهدين: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾. ثم يشرح وجهة نظره بقوله: "والوجه عندي أن يكون قوله: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ من جملة الكلام الذي يقوله الشّاهدان، ومعناه أنّ الشّاهدين يقولان: إن ارتبتم في شهادتنا فنحن نقسم بالله لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى ولا نكتم الشهادة، أي يقولان ذلك لاطمئنان نفس الموصي، لأنّ العدالة مظنّة الصّدق مع احتمال وجود ما ينافيها مما لا يُطّلع عليه، فأكّدت مظنّة الصّدق بالحلف".[1]

١- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٨٦/٨.

قلت: ويفهم من تفسير الشّيخ المراغي أنّه يوافق الإمام ابن عاشور في تحديد نصّ الشّهادة بما تقدم إذ يقول: "﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي يُقسمان بقولهما لا نشتري بيمين الله ثمنا ولو كان المقسم له من أقاربنا". وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ يقول: أي ويقولان في يمينهما أيضا: ولا نكتم الشّهادة التي أوجبها الله وأمر أن تقام له".[1]

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾:

أي في حالة ما إذا حصلت من الشّاهدين الحالفين مخالفة يأثمان عليها كالكذب والخيانة في الشّهادة أو كتمان شيء من التّركة أو كتمان شيء من الشّهادة بحيث تكون باطلة، وتبيّن ذلك بوضوح بعد أن لم يكن متوقّعا. فإن الواجب حينئذ أن تردّ اليمين إلى الورثة، فيقوم اثنان منهما من الأقربين الأحقّين بالميّت في الإرث ولم يمنع مانع من ذلك يعوّضان دينك الشّاهدين الآثمين في إثبات الوصية. وعلى غرار ذلك يقسم الرّجلان المعوّضان يقسمان بالله بأنّ شهادتهما أولى بأن تُقبل من اللّذين عُثر على أنهما استحقّا إثما، وأنهما ما اعتديا عليهما بتهمة باطلة. وهذا النّفي منهما هو لتوكيد أحقّيتهما في الشّهادة وأنهما واعيان بأنّ الاعتداء على الغير ظلم، وذلك يعرّضهما لسخط الله وعذابه.

والخلاصة: أنه في حالة اختلال شهادة شاهدي الوصية بوجود ما يبطلها، فإن الشّهادة تنتقل إلى يمين الموصى له سواء كان واحدا أو متعدّدا.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: "ذلك" إشارة إلى ما ذكر من الحكم، و"أدنى" بمعنى أقرب إلى الظّن

١- المراغي، التفسير، ٣/٥٠.

بالصّدق بأن يؤتي الشّهداء أي الآخران من غيركم أو اللّذان يقومان مقامهما كل واحد منهم يؤدّي الشّهادة على الوجه الأكمل، لأن الوجه يستعار لأحسن ما في الشّيء وأكمله، تشبيها بوجه الإنسان. وكمال الشّهادة هو صدقها وثباتها.

﴿أَوْ يَخَافُواْ أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: هذه الجملة المعطوفة تفيد خوف الشّهداء أن يفتضح أمرهم بظهور كذبهم، فترجع الأيمان إلى ورثة الموصى بعد أيمان الشّاهدين الأولين، لأن مخافة الخزي والفضيحة بين النّاس قد تكون رادعا لبعض النّاس ممن لم يمنعه خوف الله وخشيته -أي الوازع الدّيني- جريا على قاعدة: "من لم يخش النّاس لم يخش الله".

﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاسْمَعُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾: ذيّل ما تقدم من الأحكام بالأمر بالتّقوى ثم السّمع والطّاعة، أي السّمع الذي تعقبه الإجابة والانقياد. وكلّ مخالفة لأمر الله هي فسق وخروج عن هديه المستقيم، وقد يؤدي بصاحبه إلى أن يختم على قلبه فلا ينفذ إليه نور الهداية.

ولإتمام الفائدة في مثل هذه الأحكام المتعلقة بحقوق النّاس في الأموال ننقل ما لخصه الشّيخ المراغي بعد تفسيره لهذه الآيات إذ قال: "وقد استنبط العلماء من هاتين الآيتين فوائد وأحكاما نذكر أهمها في ما يلي:

١- الحديث عن الوصية وعدم التّهاون في أمرها في حضر أو سفر.

٢- الإشهاد عليها لتثبيت أمرها والرّجاء في تنفيذها.

٣- بيان أن الأصل في الشّاهدين عليها أن يكونا مؤمنين موثوقا بعدالتهما.

٤- بيان أن إشهاد غير المسلمين على الوصية جائز مشروع، لأن مقصد الشّارع منها إذا لم يمكن أداؤه على وجه الكمال فلا يترك البتة.

٥- شرعية اختيار الأوقات التي تؤثر في قلوب الشّهود ومقسمي الأيمان رجاء أن يصدقوا ويبرّوا فيها.

٦- التّغليظ على الحالف بصيغة اليمين بأن يقول فيه ما يرجى أن يكون رادعا للحالف على الكذب.

٧- إن الأصل في أخبار النّاس وشهاداتهم أن تكون مصدّقة مقبولة، ومن ثمّ شرط في تحليف الشّاهدين الارتياب في خبرهما.

٨- شرعية تحليف الشّهود إذا ارتاب الحكام والخصوم في شهادتهم، وهو الذي عليه العمل الآن في أكثر الأمم. وقد حتمته القوانين الوضعية لكثرة ما يقع من شهادة الزّور.

٩- شرعية ردّ اليمين إلى من قام الدّليل على ضياع حقّ له بيمين صار حالفها خصما له.

١٠- إذا احتيج إلى قيام بعض الورثة في أمر يتعلق بالتّركة، فأولاهم بذلك أقربهم إليه" اه.[1]

إجابة الرّسل عن موقف أقوامهم، والتّذكير بنعم الله على عيسى بن مريم

أ)- النص:

يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ

١- المراغي، التفسير، ٣/٥٢.

إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾: أي في موقف الحشر للحساب والجزاء. ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾: هناك من قدّر الباء أي -بماذا أُجبتم- فيكون سؤالا عن الإجابة، ومن غير تقدير الباء يكون السؤال عن نوع الإجابة؟. أي بالتصديق أو التكذيب، فهو لمعنى توبيخ أولئك الأقوام على موقفهم من رسلهم. ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾: صفة للذات العلية بصيغة المبالغة لإحاطة علمه بكل شيء. قيل: لا يقال في وصفه تعالى علامة لتاء التأنيث. ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: هو جبريل عليه السلام لقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (النحل:١٠٢). ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾: أي تكلّمهم في حالتي الطفولة، والمهد هو فراش الرّضيع وفي حالة الكهولة، وفي كلتا الحالتين هو مؤيّد بروح القدس، ومما قاله في المهد صبيًا ما حكاه الله في سورة مريم: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (٣٠). ﴿عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾: يعني بالكتاب: القراءة والكتابة، والحكمة: العلم الصّحيح النّافع. ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾: الخلق هو جعل الشّيء بمقدار معيّن، وفي الاستعمال القرآني: هو إيجاد الله تعالى الأشياء كما قدّرها في علمه، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:١٧). ﴿الْأَكْمَهَ﴾: من ولد أعمى، وقد يطلق على من عمي بعد الولادة. ﴿الْأَبْرَصَ﴾: مرض جلديّ يتسبّب

في بقع بيضاء، وهو أنواع تتفاوت في الخطورة والعدوى. ﴿بِإِذْنِي﴾: وقد تكرّر هذا اللّفظ للدلالة على أن ذلك يتمّ بإرادة الله وقدرته ليكون معجزة لعيسى عليه السلام. ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَآءِيلَ عَنكَ﴾: أي حفظتك ومنعتك منهم حين همّوا بقتلك وصلبك. ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: هي هذه المعجزات التي أجراها الله على يديه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾: قرأ الجمهور ﴿الْغُيُوبِ﴾ بضمّ العين، وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بكسر العين، وهي لغة لدفع ثقل الانتقال من الضّمّة إلى الباء كما تقدّم في لفظ "بيوت" من قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ (النساء: ١٥). ﴿فَتَكُونُ طَآئِراً بِإِذْنِي﴾: قرأ نافع وحده: ﴿فَتَكُونُ طَآئِراً بِإِذْنِي﴾ بالإفراد كما قرأ في سورة آل عمران. وتوجيه ذلك أن الضّمير هنا جرى على التّأنيث، فتعيّن أن يكون المراد: وإذ تخلق، أي تقدّر هيئة كهيئة الطّير فتكون الهيئة طائرا، أي كل هيئة تقدّرها تكون واحدا من الطّير. وقرأ البقية: ﴿طَآئِراً﴾ بصيغة اسم الجمع باعتبار تعدّد ما يقدّره من هيئات كهيئة الطّير. ﴿إِنْ هَذَآ إِلاَّ سِحْرٌ﴾: قرأ الجمهور: ﴿إِنْ هَذَآ إِلاَّ سِحْرٌ﴾: والإشارة بـ"هذا" إلى مجموع ما شاهدوه من البيّنات. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿إِنْ هَذَآ إِلاَّ سَاحِرٌ﴾، والإشارة إلى عيسى المفهوم من قوله: ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، ولا شك أن اليهود قالوا لعيسى كلتا المقالتين.

د)- البيان والتّفسير:

قد حفلت السّورة الكريمة بذكر مواقف أهل الكتاب من يهود ونصارى، ومحاجتهم بما يجدونه في كتبهم، وكان القصد من ذلك هو تثبيت الرّسول والجماعة المؤمنة، وهم يواجهون ذلك المكر والخداع من اليهود وأشياعهم من

المنافقين. وقد تخللت تلك النّصوص آيات في تفصيل بعض الأحكام، وتعددت النّداءات الإلهية للمؤمنين حتى يتلقوا تلك الأحكام بالسّمع والطّاعة وإن جاءت على خلاف مألوفهم في بعض العادات والتّقاليد، فقال جلّ من قائل في تذييل الآية السّابقة: ﴿وَاتَّقُواْ اللهَ وَاسْمَعُواْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

والنّاس إزاء دعوات الرّسل على صنفين: مؤمنون أتقياء، وفسّاق منافقون، والكلّ صائر إلى الله. وشهادة الرّسل على هؤلاء وأولئك في موقف الحساب ثابتة بنصّ القرآن في قوله تعالى من سورة النّساء: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاَءِ شَهِيداً﴾ (٤١). ولذا قال بعض المفسّرين بأن الظّرف: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ متعلق بالفعل من آخر الجملة قبله، والتّقدير: والله لا يهدي القوم الفاسقين إلى طريق النّجاة يوم يجمع الله الرّسل في الآخرة ويسألهم ...إلخ.

ويقول الإمام ابن عاشور في وجه المناسبة بين هذه الآية وما قبلها: "ولأنه لمّا تمّ الكلام على الاستشهاد على وصايا المخلوقين ناسب الانتقال إلى شهادة الرّسل على وصايا الخالق تعالى فإن الأديان وصايا الله إلى خلقه، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ (الشورى:١٣)."[1]

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾: التّقدير: أذكر يا محمد يوم يجمع الله الرّسل في موقف الحشر للحساب والجزاء، والله تعالى يعلم مصائر خلقه، وإنما المقصود من سؤال الرّسل هو التّوبيخ والتّقريع لأممهم أمام الخلائق حين يقرّون بما اختاروه في مواقفهم من الرّسل وهم شهود على ما كان منهم في الدّنيا من إيمان وإذعان، أو إنكار وكفران. ولا تتمّ إدانة المتّهم إلا بالشهود أو الإقرار وكلاهما وارد في مشاهد

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ٩٨/٧.

القيامة. قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦).

﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾: فوّض الرّسل علم ذلك إلى الله تأدّبا وتعظيما. ووصفوه بالعلم المطلق الشّامل. ونفيهم لجنس العلم ليس على إطلاقه، إذ كانوا يعرفون من أقوامهم أحوالهم الظّاهرية وكثيرا من تصرفاتهم التي يشهدون بها لهم أو عليهم، أما علم البواطن ونوايا النّفوس فيكلون أمرها إلى الله الذي يعلم السّرّ وأخفى. وهو تعالى يرشدنا إلى هذا الأدب الرّفيع مهما بلغنا من الإيمان والتّقوى حتى لا يدفعنا الغرور إلى تزكية أنفسنا فقال تعالى في سورة النّجم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ (٣٠). وقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (٣٢).

وعلم الغيب مفاتحه عند الله تعالى لا يعلمها إلاّ هو، والرّسل -وإن اصطفاهم الله لرسالته- فهم لا يطّلعون على غيب الله إلا بما شاء أن يوحي به إليهم قال تعالى في سورة الجنّ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ (٢٦- ٢٧). ومن هذه الصّفة للذات العلية: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾. يظهر وجه التّقييد لنفيهم جنس العلم.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾: وردت الآية بدون عطف لأنها بدل اشتمال من قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾، وتخصيص سيدنا عيسى بالذّكر وتعداد نعم الله عليه هو لتقريع أتباعه ويندرج في الإطار العامّ لمضمون السّورة في أكبر جزء منها محاجّة أهل الكتاب. ويبتدئ الحوار القدسيّ بين الله وعيسى بذلك الأسلوب النّابض الحيّ على طريقة التّحقيق مع المتهم للكشف عن

ضلال اليهود والنّصارى في معتقدهم بعيسى بن مريم وهم بين إفراط وتفريط.

ويعجب الإنسان لذلك الأسلوب الحكيم في مراحل الحوار، كيف أن الله تعالى مهّد لموضوع التّهمة بذكر النّعم التي حباها الله لعيسى بمشيئته وقدرته لتكون بين يدي دعوته معجزات خارقة للعادة لقوم صعاب المراس شديدي المكر والكيد، حتى إذا استأنس عيسى بهذا التّكريم الإلهي -وهو لا ينسى ولا ينكر تلك النّعم- وحاشاه أن يتّهم بما ادعاه فيه وفي والدته كل من اليهود والنّصارى، بعد ذلك الاستئناس اللّطيف ينتقل السّياق إلى ذكر الدّعوى التي ألصقت به: ﴿**ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**﴾.

والله تعالى يمتنّ عليه بذكر تلك النّعم بصيغة الماضي وظرفه الزّمني "إذْ"، والمقام مقام المستقبل لتأكيد وقوع ذلك الفعل وتتلخص تلك النّعم وتلك المعجزات فيما يلي:

أ)- تأييده وتأييد والدته بروح القدس وهو جبريل عليه السلام على أرجح الأقوال، فقد أنطقه الله في مهده صبيًا ليبرّئ والدته من الدّنس الذي ألصقه بها اليهود، ثم أيده به وهو رسول كهل يبلّغ رسالة الله إلى قومه.

ب)- علّمه الله الكتاب والحكمة، أي أن الله يسّر له أسباب التّعلّم بالقراءة والكتابة وزوّده بالحكمة في تصرّفاته ومعاملته للناس، كما أنعم عليه بوحيه المقدّس في التّوراة والإنجيل، فلا يستطيع اليهود أن يتطاولوا عليه ويتحدّوه بما عندهم من التّوراة.

وحسب عيسى تكريما وتشريفا بهذه الصّلة الوثقى بالملإ الأعلى وتلك الهبة الرّوحانية الثّمينة، ولكن أنّى لقوم ماديّين أن يقتنعوا بالرّوحانيات وهم عبيد الواقع

المحسوس، قلوبهم كالحجارة أو أشدّ قسوة، فكان من الله لعيسى تلك المعجزات المادية عاشها قومه وشاهدوها وهي:

أ)- يصوّر بالطّين هيكلا على شكل طائر ثم ينفخ فيه فتدبّ به الحياة -بإذن الله- فكيف يتمّ ذلك؟. فالله أعلم بسرّ الحياة، ذلك اللّغز المحيّر قديما وحديثا، والذي أغلق الله باب معرفته على البشر عند إجابته على السّؤال عن الرّوح فقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء:٨٥). والتّعبير بالنّفخ في هيئة الطّير هنا وجعله سببا لدبيب الحياة هو نفس التّعبير لخلقه تعالى لآدم من غير أبوين، ثم لخلقه عيسى بدون أب إذ قال تعالى: ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ (التحريم:١٢). وقال في خلق آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر:٢٩).

ب)- إبراؤه للأكمه والأبرص: وهما مرضان ما يزالان مستعصيين على الطّبّ الحديث رغم تقدمه في مجال التّخصّصات الطّبية المختلفة، لأن الاستشفاء بالوسائل المختلفة -وإن كان مطلوبا ومشروعا- فإن الذي يملك الشّفاء الحقيقي هو الله وحده وفق إرادته ومشيئته.

ج)- وأعظم المعجزات التي أجراها الله على يدي عيسى هي إحياء الموتى، هذه المعجزة التي بهرت قومه حتى ألّهوه مع الله، وأيّ غرابة في ذلك وهو لم يدّع فعل ذلك بقدرته وحيلته عليه السلام بل تمّ كل ذلك بمشيئة الله، ولذا تكرّر لفظ: ﴿بِإِذْنِي﴾، مع كل معجزة وهو كما يقول صاحب المنار: " يطلق على الإعلام بإجازة الشّيء والرّخصة فيه، وعلى الأمر به، وكذا على المشيئة والتّيسير".[1]

د)- حماية الله له من كيد اليهود حين همّوا بقتله وصلبه فرفعه الله إليه، وقد

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٢٤٧/٧.

شُبَّه لهم في تنفيذ مؤامرتهم.

وعلى مجيء عيسى بتلك الآيات البيّنات التي لا يستطيعون إنكارها إذ عاشوها وشاهدوها، فقد كذّب بها الكفّار من قومه عنادا ومكابرة بدعوى أنها سحر مبين، ولذلك استحلّوا قتله بمقتضى شريعة موسى في قتل السّاحر، لأن السّحر عنوان للكفر، وأنه من ممارسة عبدة الأصنام، وهكذا الكفّار الجاحدون لا يعدمون تأويلا في تلفيق الشّبهات ولا تعوزهم المبرّرات في ما يقترفونه من المنكرات، والله أعلم.

دعوة الحواريّين إلى الإيمان وطلبهم إنزال المائدة

أ)- النص:

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أَوْحَيْتُ﴾: الوحي في اللّغة الإعلام بالشّيء في سرعة وخفاء، واستعمل هنا بمعنى الإلهام مما يلقيه الله تعالى في نفوس الأحياء، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ (النحل:٦٨). ويجوز أن يكون المعنى هنا أنه ما أوحى الله به إلى عيسى ليدعو بني إسرائيل إلى دينه. ﴿الْحَوَارِيُّونَ﴾: مفرده حواريّ، والحواريّ هو من أخلص في مودّتك سرّا وجهرا، ومعناه في أصل اللّغة الأبيض النّقي اللّون، ثم

استعمل في النّفي مطلقا. ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾: وفي قراءة: ﴿هل تستطيعُ ربَّك﴾ بتاء المخاطب ونصب الباء، فيكون المعنى: هل تسأل لنا ربّك، على معنى طلب الطّاعة أي إجابة السّؤال. وقيل: هو على حذف المضاف تقديره: هل تستطيع سؤال ربّك. ﴿مَآئِدَةً﴾: الخوان الموضوع عليه الطّعام، ويستعمل للطعام نفسه من إطلاق اسم المحلّ على الحالّ.

ج)- أوجه القراءة:

﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾: قرأ الجمهور: ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ بياء الغيبة ورفع ﴿رَبُّكَ﴾ وقرأه الكسائي: ﴿هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ﴾ بتاء المخاطب ونصب الباء الموحّدة من قوله: ﴿رَبُّكَ﴾ على أن ﴿رَبَّكَ﴾ مفعول به. فيكون المعنى: هل تسأل لنا ربّك، فعبّر بالاستطاعة عن طلب الطّاعة أي إجابة السّؤال، وقيل: هي على حذف مضاف تقديره: هل تستطيع سؤال ربّك. فأقيم المضاف إليه مُقام المضاف في إعرابه.

د)- البيان والتّفسير:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾: معطوف على النّعم التي امتن الله بها على عيسى، أي أذكر نعمتي عليك إذ ألهمت الحواريين إلى الإيمان برسالتك فأصبحوا من أتباعك الخلّص وكانوا سببا لتخليد رسالتك إذ بادروا إلى تصديقك، وقد بيّن الله تعالى مضمون ذلك الوحي والإلهام بقوله: ﴿أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾، فكان جوابهم بالإيمان والإذعان: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾، إذ أشهدوا الله على إسلامهم بعد الإيمان للدلالة على الصّدق والإخلاص، وأنه إيمان يمتاز عن إيمان العامّة والدّهماء، وهم في ذلك بمثابة الرّعيل الأول من صحابة رسول الله، وقد وردَ معنى هذه الآية في سورتي آل عمران والصّف: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ

وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ، رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران:٥٢-٥٣).

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾:

الجملة إما مستأنفة ابتدائيا، والتّقدير: أذكر يا محمّد زمن قال فيه الحواريّون لعيسى...إلخ. ويجوز أن يكون الظّرف: "إذْ" متعلقا بفعل: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا﴾، فتكون الجملة من تمام الكلام الذي قاله الله لعيسى يوم يجمع الرّسل ...إلخ.

وقد استشكل بعض المفسّرين معنى هذا السّؤال من الحواريين بأنه ينافي الإيمان الذي ادّعوه، وأشهدوا الله على أنفسهم بأنهم مسلمون مخلصون، أي أنهم بهذا السّؤال يكونون قد شكّوا في قدرة الله على ذلك؟. وحاول بعض المفسّرين قديما وحديثا أن يردّ هذه الشّبهة بضروب من التّأويل لا يخلو من تكلّف.

وأورد الإمام ابن عاشور كلاما مفيدا في توجيه مثل هذا الأسلوب في الكلام العربيّ، نجد فيه ضلاعة كبرى في اللّغة وفهما دقيقا لبلاغة القرآن نورده بنصّه كاملا إتماما للفائدة قال طيّب الله ثراه: "وجرى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ على طريقة عربية في العرض والدّعاء، يقولون للمستطيع لأمر: هل تستطيع كذا؟ على معنى تطلب العذر له إن لم يجبك إلى مطلوبك وأنّ السّائل لا يحبّ أن يكلّف المسؤول ما يشق عليه، وذلك كناية فلم يبق منظورا فيه إلى صريح المعنى المقتضى لأنه يشكّ في استطاعة المسؤول، وإنما يقول ذلك الأدنى للأعلى منه، وفي شيء يعلم أنه مستطاع للمسؤول، فقرينة الكناية تحقق المسؤول أن السّائل يعلم استطاعته، ومنه ما جاء في حديث يحيى المازني أن رجلا قال لعبد الله بن زيد: أتستطيع أن تريني كيف كان رسول الله يتوضأ؟. فإن السّائل يعلم أن عبد الله بن زيد لا يشق عليه ذلك، فليس قول الحواريّين المحكي بهذا اللّفظ في القرآن إلا لفظا

من لغتهم يدلّ على التلطّف والتأدّب في السّؤال، كما هو مناسب لأهل الإيمان الخالص، وليس شكا في قدرة الله تعالى"[1].

قلت: مثل هذه الصّيغة من الاستفهام على استطاعة القيام بشيء معروفٌ متداول في الدّارجة، بل حتى في البربرية مثل أن يطلب أحد أمرا من مسؤول أعلى، ولكنه يتوسط إليه بواسطة كاتبه أو أحد مستخدميه فيقول له: أيستطيع معلمّك أن يقضي لي الأمر الفلانيّ، وهو يعلم أن ذلك المسؤول يستطيع ذلك بحكم مسؤوليته، ولكنه التّرفق في الطّلب.

أراد الحواريون بطلبهم إنزال المائدة من السّماء أن يحصل لهم مزيد من الطّمأنينة بالمعاينة والمشاهدة، كما طلب إبراهيم من ربّه أن يريه كيف يحي الموتى، و لم يكن إبراهيم بسؤاله ذلك شاكّا في قدرة الله. وكون المائدة تنزل من السماء يريدون به طعاما قدسيّا ليس من النّوع المألوف في الأرض لتكون خارقة للعادة.

﴿قَالَ اتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: أمرهم بالتّقوى لأنها من مقتضيات الإيمان الحقيقي، ولأنه يخشى من سؤالهم تلك المعجزة أن يكون الشّك قد تطرق إلى إيمانهم، سيما وقد رأوا من رسولهم معجزات أخرى لا تدع لهم مجالا للشكّ في صدقه، ويجوز أن يكون المعنى: استعينوا بتقواكم لله عساه يمنحكم ما تطلبون، ولكن الحواريين أعادوا الطّلب مركزا ببيان أغراضهم في ذلك وهي تتلخّص في أربعة أمور:

أ)- أن يأكلوا منها تبرّكا وتيمّنا لأنه طعام قدسيّ نزل من السّماء.

ب)- حصول الاطمئنان لقلوبهم، إذ يشاهدون نزولها بالفعل فيكون ذلك تأكيدا لإيمانهم أي بالدّليل الحسيّ يقويّ الدّليل العقلي.

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير: ٧/١٠٥.

ج)- يزداد يقينهم بصدق عيسى عندما تضاف هذه المعجزة إلى المعجزات الأخرى.

د)- وبما أنهم في مقام القدوة لغيرهم من بني إسرائيل فإنهم بمشاهدتهم لتلك المعجزة السّماوية يكونون شاهدين له بصدق النّبوءة، ولله تعالى بكمال القدرة.

فأعجب لتدبير أمر الله مع هؤلاء القوم، كيف كانت وسائلهم إلى الإيمان الصّحيح والإذعان لرسول الله بتلك الخوارق وهي تترى وهم يطلبون المزيد. ويقارن سيد قطب -رحمه الله- بينهم وبين صحابة رسول الله فيقول: "فأما أصحاب محمد ﷺ فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم، لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان، ولقد صدقوا رسولهم فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان، ولقد شهدوا له بلا معجزة إلاّ هذا القرآن.

هذا هو الفارق الكبير بين حواريّ عيسى ﷺ وحواريّ محمد ﷺ، ذلك مستوى وهذا مستوى، وهؤلاء مسلمون وأولئك مسلمون، وهؤلاء مقبولون عند الله وهؤلاء مقبولون. ولكن تبقى المستويات متباعدة كما أرادها الله".[1]

إنزال المائدة

أ)- النص:

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، ٧/٧١-٧٢.

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾: نداءان لله تعالى، اللهم بمعنى يا الله، و"ربّنا" تقديره يا ربّنا، واسم الرّبّ فيه معنى التّربية والرّعاية ومعنى التّدبير والملك. واستعمال النّداءين للمبالغة في الخشوع والضّراعة. ﴿عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾: العيد: سمّي كذلك لأنه يوم يعود كل سنة يكون للفرح والسّرور، فهو إما عيد وطني لذكرى حادثة وقعت أو عيد ديني كعيد الفطر والأضحى في الإسلام. وقوله: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أي نعظمه نحن ومن يأتي بعدنا من الأجيال. ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾: أي علامة منك تدلّ على صدق نبوّتي. ﴿لاَّ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾: أي لا أعذّب أحد العالمين ذلك العذاب، فالضّمير في " أعذّبه" هو في موضع المفعول المطلق، أي أعذّبه عذابا شديدا.

ج)- البيان والتّفسير:

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ﴾: جاءت الآية في الأسلوب الحواريّ إجابة لطلب الحواريين بعد الإفصاح عن قصدهم بأنهم لا يريدون التعجيز ولا الاستنقاص من قدرة الله، إذ نادى عيسى ربّه نداء تعظيم وتقدير لمقام الألوهية والرّبوبية، وذكر مطلوب الحواريين في إنزال المائدة متبوعا بالأوصاف التي أراد الاستفادة منها وهي:

أ)- ﴿تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾: أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيدا نعظّمه نحن ويبقى للأجيال من بعدنا. وقد حاول المفسّرون أن يحدّدوا هذا العيد عند النّصارى فلم يجدوا في أناجيلهم شيئا صريحا عن قصة إنزال المائدة إلا ما ترويه بعض الأناجيل من قصة إطعام عيسى للألوف من تلاميذه في عيد الفصح من خمسة أرغفة وسمكتين، يقال أنه أكل منها أولهم كآخرهم ثم جمعوا منها زادا

كبيرا لرحلتهم، ومنهم من حدّد ذلك العيد بيوم الأحد، إذ ما تزال النّصارى تعظّم هذا اليوم.

قلت: وليس عجيبا أن تجري كرامة النّماء والوفرة في طعام أو ماء على يد الرّسل الكرام، كما صحّ ذلك عن رسول الله مع أصحابه في كثير من المناسبات والمواقف.

ب)- ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾: أي علامة من لدنك تكون دليلا على صدق نبوءتي يخضعون لها، سيما إذا جاءت وفق طلبهم.

ج)- ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾: طلب من الله الرّزق بصفة عامّة سواء من تلك المائدة أو من غيرها مما يكفل صحة أبدانهم وذلك أوفق من قول الحواريين ابتداء: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾. قال صاحب المنار: "ومن محاسنه أنه أخّر ذكر فائدة المائدة المادية عن ذكر فائدتها الدّينية الرّوحية".

قلت: وللإمام الرّازي ملحظ لطيف في آداب الدّعاء ومراتب الدّاعين بتدقيق النّظر في دعاء كل من المسيح والحواريين فقال: "تأمّل في هذا التّرتيب: فإن الحواريين لمّا سألوا المائدة ذكروا في طلبها أغراضا، فقدموا ذكر الأكل، فقالوا نريد أن نأكل منها وأخروا الأغراض الدّينية الرّوحانية، فأما عيسى فإنه لما طلب المائدة وذكر أغراضه فيها قدّم الأغراض الدّينية بعد أن توجّه إلى الله بوصف الرّبوبية بالإضافة إلى ضمير المتكلّم، وفيه التّمهيد بحاجة المربوبية إلى غنى الرّبوبية فقال: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ﴾. وأخّر غرض الأكل حيث قال: ﴿وَارْزُقْنَا﴾، وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح في كون بعضها روحانية وبعضها جسمانية، ثم إن عيسى عليه السلام لشدة صفاء دينه وإشراق روحه لما ذكر الرّزق بقوله: ﴿وَارْزُقْنَا﴾ لم يقف عليه، بل انتقل من الرّزق إلى الرّازق فقال:

﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.[١]

قلت: ولعلّ المسيحيين قد أخذوا من هذا الأدب العالي للسيد المسيح، فكان من عادتهم إلى اليوم أنهم عندما يجلسون إلى مائدة الطّعام يتوجّهون إلى الله بالدّعاء قبل البدء في الأكل، ويؤمّنون على ذلك الدّعاء ثم يشرعون في الأكل.

﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيَ أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾: هذا وعد مؤكّد من الله تعالى بأنه يترّل هذه المائدة، ووعد الله حق وصدق، ولكنه في الآية الكريمة مقرون بشرط إن لم يوفّ به الحواريّون يترتب عليه وعيد شديد، وهو مقرون بـــ"فاء" التّرتيب. وذلك أن من يكفر منهم بعد ذلك وقد قامت عليه الحجة باستجابة ما طلب فإن الله يعذبه عذابا أشدّ من عذاب سائر الكفّار.

وكانت سنة الله في الأمم الخوالي أنه يستأصل شأفتها بعد كفرها بما أنجز الله لها من الآيات الخارقة للعادة، كما أشارت إليه آية الأنعام بالنّسبة لكفّار قريش: ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ﴾ (٨). وقال في سورة الإسراء: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ (٥٩).

وبعد هذا الجزء من قصة المائدة يتمّ الحدث ولا يذكر ما حدث بعد نزولها، لأن المقصود من إيراد القصة هو تشخيص إيمان الحواريين من جهة، وكون المسيح لا يستنكف أن يكون عبدا لله في ضراعته وتعظيمه لربّه وكل ذلك تمهيد للحوار القدسي التّالي في صلب العقيدة.

وكما اختلف المفسّرون في إيمان الحواريين وشكهم، اختلفوا في المائدة

١- الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٢٥٥/٧.

أنزلت بالفعل أم هو مثل ضربه الله لمراتب الإيمان؟. فالجمهور على أنها نزلت، وإن كانوا على خلاف في ما نزل عليها من طعام مما لا نلزم بمعرفته في باب الإيمان، وروي عن الحسن ومجاهد وقتادة أنها لم تنزل وقال هؤلاء: إن الحواريين لما قيل لهم: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيَ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وهو واضح في التوعّد بالعذاب الشّديد عند عدم إيمانهم بعيسى ودعوته، استعفوا واستغفروا الله وقالوا: لا نريدها. واستند هؤلاء في نفيهم لنزولها بأن القصة لم ترد في كتب النّصارى. وهكذا نجد في كتب التّفسير حشدا من أدلة النّافين والمثبتين وردّ كل طرف على الآخر مما لا فائدة من ذكره. غير أننا -نحن المسلمين- نجزم بقدسية القرآن وهيمنته على الكتب الأخرى فنؤمن بالقصة حسب مدلول ألفاظها كما وردت، آخذين العبرة منها في السّياق الذي نزلت فيه، بدون تأويل مجحف يخرجها عن الغرض المقصود بالقصص القرآني في عمومه.

والله أعلم

تنزيه عيسى لربّه وتبرئته لنفسه

أ)- النص:

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾: المقصود بالنّاس هنا أهل ملته ممن يقولون بالتثليث أو يقولون إن الله هو المسيح بن مريم كما حكى عنهم القرآن. ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾: "دون" يدلّ على مكان مجازيّ ويقصد به المغايرة فيكون بمعنى "سوى" ﴿سُبْحَانَكَ﴾: يستعمل للتّسبيح، ومعناه تنزيه الله عما لا يليق بجلاله. قيل: إن التّسبيح يدلّ على الإبعاد ولكن عن كل شرّ وسوء، ولذا خصّ بتنزيه الله تعالى. ﴿مَا يَكُونُ لِيَ أَنَ اَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾: أي ما يوجد لديّ قول ما ليس لي بحق، فقد نفى نفيا مبالغا فيه أن يوجد استحقاقه ذلك القول. وهذا التّأكيد للنفي أبلغ من أن يقول مثلا: لم أقل هذا الكلام. ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾: إضافة النّفس إلى اسم الجلالة يكون بمعنى العلم الذي لم يُطلع عليه غيرَه، وجيء بكلمة النّفس لمشاكلة ما قبلها. ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾: أي رقيبا وشاهدا عليهم حتى لا يقولوا ذلك الكفر. و"ما دام" هنا تامّة تفيد البقاء وليست لمعنى الاستمرار. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾: أي قضيت بوفاتي وهي الموت التي أنهت ما بيني وبينهم. ﴿الْعَزِيزُ﴾: القويّ الذي يغفر عن مقدرة.

ج)- البيان والتّفسير:

انتقل الحوار القدسيّ إلى تقريع النّصارى وتوبيخهم عن الانحراف الذي أحدثوه في عقيدتهم بعد وفاة المسيح، وهو يندرج في جملة ما يقوله الله تعالى: **﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾**، وهو معطوف على قوله تعالى: **﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾** أي بتقدير: أذكر يا محمد. إذ قال الله ... إلخ . ويجيء الحوار بعد ذلك التّمهيد بقصة المائدة، وقد أبرزت مكانة عيسى عند الله وسموّ آدابه مع الله واعترافه بألوهيته وربوبيته.

فليس عيسى بمتّهم عند الله -وهو الرّسول الكريم المعصوم- والله يعلم منه صدق الإيمان، ويعلم براءته مما ادّعى عليه أتباعه، ولكنه استجواب يقصد به التّقريع والتّوبيخ لأولئك الذين ألّهوه وألّهوا أمّه، حتى إذا سمع المذنبون براءته منهم على رؤوس الأشهاد كان ذلك أشنع وأبشع في تصوير ما وقعوا فيه من ذنب عظيم وأي ظلم أعظم من الشّرك بالله؟ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣). والتّعبير بجملة: ﴿قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ دون قوله مثلا: أمرت أو دعوت النّاس، ينمّ عن معنى الادّعاء والقيل والقال مما يسفّه به الكفّار دعوة الرّسل. ولذا كانت إجابة عيسى في مستوى الأدب الرّفيع مع الله تعالى وذلك بمبادرته لتنزيه مولاه أولا، وفي التّنزيه إقرار بإفراد الألوهية لله وإثبات لوحدانيته في ذاته وصفاته.

ثم انتقل إلى تبرئة نفسه بأسلوب متنوّع بين النّفي والإثبات نفي جاء بصيغة المبالغة بنفي أن يكون ذلك من شأنه، أو يكون له في ذلك أدنى حق. فهذا القول باطل من أساسه وهذا النّفي في حق نفسه أولا، ثم ارتقى إلى البرهان الأعلى الواجب في حق ربّه فقال: ﴿**ان كُنتُ قُلْتُهُ، فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ**﴾.

فهو يستشهد في ذلك الموقف الرّهيب بعلم الله على براءته، فعلمه محيط شامل للظواهر والبواطن، وفي ردّه هذا إقرار لله تعالى بخصوصية الألوهية بالعلم المطلق الشّامل، بينما ينفي ذلك عن نفسه تفويضا لله في إظهار براءته، إنه أدب النّبوءة الرّفيع، ثم يؤكد ذلك العلم المطلق لله بقوله: ﴿**إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ**﴾.

وينتقل من التّنزيه والنّفي إلى بيان حقيقة ما قاله لقومه: وهو على عكس ما ادّعوه عليه: ﴿**مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ أَنُ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ**﴾: فهو ينفي أن يكون قد تجاوز في التّبليغ لقومه ما أمره الله به وهو: أن يعبدوا الله وحده لا شريك له معترفين بربوبيته، و"أن" هنا تفسيرية لمضمون أمر الله، وهو أمر شامل

لكل الرّسالات السّماوية قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَٱعْبُدُونِ﴾ (٢٥).

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾: أي كنت قائما بدعوتي فيهم كما أمرتني أتعهّدهم بالإرشاد وأراقب سلوكهم وأشهد عليهم في ما يقولون وما يفعلون طيلة بقائي فيهم.

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾: أي إن وفاتك لي حالت بيني وبينهم وانتهت بذلك مسؤوليتي عليهم، ثم فوّض أمر مراقبتهم بعد ذلك إلى الله فهو أعلم بأمرهم وهو شهيد بينه وبينهم شهادة المتصرّف المطلق في ملكه، وعلى هذا التّفويض لعلم الله في بيان أمرهم بعد وفاته فوّض أمر جزائهم إليه بمقتضى علمه وعدله فقال:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: لقد استرعى انتباهي اختيار وصف "العبودية" لأتباع عيسى في هذا المقام إذ لم يقل مثلا: فإنهم خلقك. فلم أجد ما يشفي الغليل في التّفاسير التي بين يديّ إلا ما ألمح إليه صاحب المنار بقوله: "فكأنه قال لربه إنك أنت العليم بما كان منهم مدة وجودي بينهم وبعد وفاتي، وأنت الشّهيد عليهم ولا شهادة أكبر ولا أصدق من شهادتك، فمهما توقعه فيهم من عذاب فلا دافع له من دونك، إذ لا يوجد أحد أرحم منك بعبادك فيرحمهم أو يسألك أن ترحمهم، ومهما تمنحهم من مغفرة فلا يستطيع أحد حرمانهم منها بحوله وقوته، لأنك أنت العزيز الذي يغلب ولا يغلب، ويمنع من شاء ما شاء ولا يُمنع، ولا بتحويلك عن إرادتك، فإنك أنت الحكيم الذي تضع كل شيء موضعه، فلا يمكن لأحد غيرك أن يرجعك عنه".[1]

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٢٦٩/٧.

قلت: إن المقام مقام التّقريع وإقامة الحجة على أولئك المنحرفين، ومن مقاصد هذا الحوار القدسيّ إقرار عيسى بعبوديته لله -وهو المؤلّه لدى هؤلاء القوم-، وبالتالي فهو في تفويض أمر جزائهم إلى الله يقرّ بعبوديتهم لله تعالى إذ هو وحده السّيد المطاع فتعذيبه إياهم على تمرّدهم وعصيانهم إن شاء تربية وعدل ومغفرته لهم إن شاء فضل ورحمة.

وفي تقديمه عليه السلام شرطية التعذيب على شرطية المغفرة ملحظ دقيق لصاحب المنار، إذ يقول: "فذكر عيسى عليه السلام لاسمي الله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في جزاء شرطية المغفرة كذكره لكلمة: ﴿عِبَادُكَ﴾ في جزاء شرطية التّعذيب كل منهما وقع في محلّه الذي تقتضيه البلاغة في مقام التفويض فكان حجة له، ولو أراد بكلامه الشّفاعة والاسترحام لعكس ولكل مقام مقال"[1]

أجل: إن الموقف رهيب مهول، لا مجال فيه للرغبات والعواطف. يومئذ لا تنفع الشّفاعة إلا من أذن له الرّحمان ورضي له قولا،

والله أعلم

الجزاء الأوفى للصادقين، وبراعة الختام للسورة

أ)- النص:

قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

١- المصدر نفسه، ٢٦٩/٧.

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿هَذَا يَوْمَ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾: "يوم" اسم زمان، فيه قراءتان: بالرفع على أنّه خبر للمبتدأ "هذا"، وبالنصب على أنّه مبني على الفتح لإضافته إلى الجملة الفعلية. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ﴾: الرّضا ضدّ الغضب، ورضوان الله على أحد من خلقه يكون بمعنى الإكرام والإحسان إليهم، وهو النّعيم الرّوحي الذي يسعد به أهل الجنّة فوق النعيم المادّي، قال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٧٢). والفوز: الظّفر بالمطلوب مع النّجاة من ضدّه ممّا يحول دونه، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (١٨٥). وهو يُعدّى بـــ"الباء" في المعنى الإيجابي، يقال: فاز بكذا، ويُعدّى في السّلبي بـــ"من" فيقال: فاز من كذا.

ج)- أوجه القراءة:

﴿هَذَا يَوْمَ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾: قرأ غير نافع من العشرة: ﴿يَوْمُ﴾ مضموما ضمّة رفع لأنه خبر "هذا"، وقرأ نافع مفتوحا على أنه مبنيّ على الفتح لإضافته إلى الجملة الفعلية تسوّغ بناءه على الفتح، فإن كانت ماضية فالبناء أكثر، وإن كانت مضارعة فالبناء والإعراب جائزان كما في هذه الآية.

د)- البيان والتّفسير:

تشكّل هاتان الآيتان نهاية الحوار القدسيّ بين الله وعيسى، وهي بمثابة الحكم المرتقب من جلالة المولى لعبده يثبت له الصّدق والبراءة ويعده بالجزاء الأوفى ماديا وروحيا، ويتحقق له الفوز العظيم، ويصدر الحكم في صيغة عمومية تبيّن ما للصدق من نفع في الدّنيا والأخرى، ليكون عيسى فيه مثالا يُقتدى.

والصّدق مطلوب في جميع التّصرفات وفي كل الأحوال، وأعظمه مرتبة ما يكون في معتقد الإنسان حين لا تخالطه شائبة من شرك أو نفاق، وقد برهن عيسى على ضراعته وعبوديته لمولاه في ذلك الموقف المهول المشار إليه في أول الآية: ﴿هَذَا يَوْمُ﴾. وإيراد هذا الوصف الحميد "الصّدق" دون سواه من الأخلاق الحميدة الأخرى كالإخلاص والوفاء مثلا، هو الذي يتناسب مع موقف الافتراء والكذب من أتباع عيسى عليه السلام، فقد صدّقه الله على رؤوس الأشهاد في ما أجاب به عن نفسه، وفي حقيقة ما بلّغه لقومه في قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ أَنُ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

والصّادق ينتفع بصدقه في الدّنيا والآخرة، فما وجه تحديد وقوع النّفع باليوم الآخر ؟. ذلك لأنه يوم الجزاء على الأعمال المقدمة في الدّنيا حيث كان الإنسان مختارا موكولا إلى إرادته في ما يعتقده وما يعلمه، ثم إن كونه صادقا في الدّنيا لا يجعله معترفا بصدقه من جميع النّاس؛ أولا: لأن معايير الصّدق تختلف عندهم، وثانيا: لعدم معرفتهم لما في بواطن الخلق، وهي مستودع أسرار النّفوس، ولا يعلم حقيقتها إلا الله، وقد يتعرّض الصّادق إلى كثير من المتاعب والشّرور في الدّنيا حين يشيع الفساد وتتدهور الأخلاق.

﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾:

بيان لجملة ذلك النّفع بذكر النّعيم الماديّ والنّعيم الرّوحاني.

أ)- فالأول: يتمثل في نعيم الجنة وما فيها من الطّيّبات والملاذّ يزيد في لذة الاستمتاع بها أنها دائمة باقية كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الزّخرف:٧١).

ب)- والثّاني: يتمثل في رضوان الله عنهم، ورضاهم عنه. والتّعبير بالرّضا في

مقام الطّمأنينة النّفسية والسّعادة الرّوحية لا تعوّضه كلمة أخرى في تشخيص العواطف الإنسانية النّبيلة. وتمام لذة الرّضا وكماله أن يكون متبادلا بين المحبّ والمحبوب. ألا ترى إلى رسول الله -وهو النّموذج الأعلى في حبّ الله- ألا تراه في ابتهالاته إلى مولاه وهو عائد من محنة الطّائف كيف تدرّج في الاستعطاف وطلب الرّضا من مولاه. فقد تدرّج من المرتبة الدّنيا في استعطاف الحبيب، وقد كادت المحنة تفقده ذلك التّألق الرّوحيّ في منازل القربى فقال عليه السلام: «**إن لم يكن لك عليّ غضب فلا أبالي**». ثم إذا بالرّوح الشّريفة يتوهّج إشراقها وهي تستحث الخطى إلى رفرف الرّضا الرّباني لتجد رضاها وسكينتها وعندها ينهي تلك الابتهالات بقوله: عليه السلام «**لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**».[1] وذلك منتهى الفوز العظيم. فما أعظمه فوزا في ذلك اليوم العصيب أن يجمع المؤمن بين نعيم الجنة ورضوان الله.

وذهب بعض المفسرين أن الإشارة إلى النّعيم الثّاني لأن الله يقول في سورة التّوبة بعد ذكر نعيم الجنة والخلود فيها: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (التوبة:٧٢).

يقول الإمام الرّازي في ترجيح ذلك: "فإنه ثبت عند أرباب الألباب أن جملة الجنة بما فيها بالنّسبة إلى رضوان الله كالعدم بالنّسبة إلى الوجود، وكيف والجنة مرغوب الشّهوة، والرّضوان صفة الحق، وأيّ مناسبة بينهما".[2]

﴿**لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾: جاء هذا الختام الكريم مناسبا لنهاية الحوار القدسّي ومناسبا لمضمون السّورة كلها.

فأما بالنّسبة لموضوع الحوار فلأنه يقرّر الحقيقة العظمى لواجب الوجود

١- رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن جعفر، حديث ١٣٦٥٥.

٢- الفخر الرازي، التفسير الكبير، ١٣٩/١١.

وتفرّده بالعلم والقدرة والسّلطان في ملكوته، وأنه المالك الحقيقي لكل الموجودات ما عقل منها وما لم يعقل، وهو الذي يجازي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته. ولذا كان من مقتضيات الإيمان والتّصديق بالوحي المنزل على رسله أن نسلّم وجوهنا إليه ونفوّض أمرنا إليه كما فعل رسل الله وهم قدوتنا في الآداب الرّبانية، وكما فعل عيسى عليه السلام. ألا ترى توافق الإجابة منهم للسؤال المطروح من قبل الله تعالى إذ أجاب الكلّ إجابة خضوع وضراعة وتفويض.

﴿**إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**﴾: وأما ما يتعلق بمضمون السّورة وتناسبه مع الخاتمة، فيلخصه سيد قطب -رحمه الله- في الظّلال بقوله: "وختام يتناسق مع السّورة التي تتحدث عن الدّين وتعرضه ممثلا في اتباع شريعة الله وحده، والتّلقي منه وحده، والحكم بما أنزله دون سواه... إنه المالك الذي له: ﴿**مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ**﴾. والمالك هو الذي يحكم: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة:٤٤). إنها قضية واحدة، قضية الألوهية، قضية التّوحيد، وقضية الحكم بما أنزل الله، لتتوحّد الألوهية، ويتوحّد التّوحيد".[1]

قلت: ما أروع التّناسب بين حقّ المالك المطلق وواجب المملوك إزاءه، وهو يتحمّل أمانة التّكليف، ويبرم معه عقودا وعهودا، فلا يكتب له النّجاح إلا بالوفاء بها.

والله أعلم

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، ٧٨/٧.

سورة الأنعام مكية، وآياتها ٢٦٧

أ)- المدخل إلى السّورة:

هي من السّور المكية باستثناء بعض الآيات، روي عن ابن عباس أنها ستّ آيات نزلت بالمدينة المنوّرة، من قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾. ومن قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وقدْ نقل صاحب المنار روايات أخرى تذكر غير هذه الآيات، فناقشها وبيّن سبب اختلافها.

أما آياتها فهي مائة وسبع وستون في العدد المدني والمكيّ، ومائة وخمس وستون عند الكوفيين، ومائة وست وستون عند البصريين والشّاميين.

وتسمّى "سورة الأنعام" لما ذكر فيها من العادات الجاهلية وتصرّفاتهم في تصنيف الأنعام إلى ما يحلّ لهم وما لا يحلّ، والإنكار عليهم في ذلك. بحيث تكرّر فيها لفظ "الأنعام" ستّ مرّات، ولا يعرف لها إلا هذا الاسم، وهي السّورة السّادسة في التّرتيب المصحفي.

وقيل: إنها نزلت على رسول الله جملة واحدة وشيّعها سبعون ألف ملك، وقد وردت في ذلك عدة روايات تختلف قوّة وضعفا أشهرها رواية عن ابن عمر: **«نزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيّعها سبعون ألف ملك»**[1].

يقول صاحب المنار نقلا عن الإمام الرّازي: " والسّبب فيه أنها مشتملة على

١- رواه الطبراني في المعجم الصغير من حديث عبد الله بن عمر، باب من اسمه إبراهيم، حديث ٢١٩.

دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وإبطال مذاهب الملحدين والمبطلين، وذلك يدلّ على أن علم الأصول في غاية الجلالة والرّفعة، وأيضا فإنزال ما يدلّ على الأحكام قد تكون المصلحة أن يترله الله تعالى قدر حاجتهم وبحسب الحوادث والنوازل، وأما ما يدلّ على علم الأصول فقد أنزله الله تعالى جملة واحدة، وذلك يدلّ على أن تعلّم علم الأصول واجب على الفور لا على التراخي".[1]

وقد تعددت اجتهادات المفسّرين قديما وحديثا في ذكر المناسبة بين هذه السّورة وما قبلها جملة، أي بالنّسبة لأمّ الكتاب والأربع الطّوال المدنية، أو بالنّسبة لسورة المائدة، وقد أوجز الإمام شلتوت في تفسيره وجه المناسبة فقال :"سورة الفاتحة تتضمّن الإشارة إلى جميع مقاصد القرآن، ذلك أنها تشير إلى جانبي الحق والخير متعلّقي العقيدة والعمل". ثم يقول: "أما السّور الأربع المدنية التّالية لسورة الفاتحة وهي البقرة، آل عمران، النّساء، المائدة فهي بحكم مدنيتها تشترك كلها في هدف واحد، وهو تنظيم شؤون المسلمين بالتّشريع لهم باعتبارهم أمة مستقلّة، وبإرشادهم إلى مناقشة أهل جوارهم فيما يتصل بالعقيدة والأحكام، وإلى الأساس الذي يرجعون إليه ويحكمونه في التّعامل معهم في حالتي الحرب والسّلم"[2].

وأما مناسبتها لسورة المائدة فقد اقتبس صاحب المنار ما قاله أبو إسحاق الأسفراييني: "إن في سورة الأنعام كل قواعد التوحيد فناسبت تلك من حيث أن فيها إبطال ألوهية عيسى عليه السلام وتوبيخ الكفرة على اعتقادهم الفاسد وافترائهم الباطل".[3]

وسورة الأنعام من سور الحمد في القرآن الكريم، وهي: الأنعام، الفاتحة،

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٢٨٧/٧.

٢- محمود شلتوت، تفسير القرآن، ٢٥٠-٢٥٢.

٣- محمد رشيد رضا، المصدر نفسه، ٢٩٠/٧.

الكهف، سبأ، وفاطر. فهي تشاركها في افتتاحية الحمد لله وفي المكية، وهي كلّها تبيّن أن سرّ استحقاقه تعالى للحمد واختصاصه به هو الخلق والإيجاد، ونعمة الهدى والإرشاد مما هو مظهر للإلهية والرّبوبية، والله أعلم.

استحقاق الله للحمد، وأدلة وحدانيته

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ
(١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ
تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ
وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿الْحَمْدُ﴾: مصدر حمد يحمد، الثناء الحسن والذكر الجميل، والإسناد خبريّ لفظا ومعنى. ﴿خَلَقَ﴾ و﴿جَعَلَ﴾: الفرق بين الخلق والجعل أن الخلق فيه معنى التقدير، قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (٢). وأما الجعل ففيه معنى التضمين كإنشاء شيء من شيء، أو تصييره شيئا آخر، أو نقله من مكان إلى مكان، و"جعل" يتعدى إلى مفعول واحد كما في هذه الآية، فيكون بمعنى أحدث وأنشأ، وإلى مفعولين فيكون بمعنى صيّر كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات:١٣). ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ و﴿النُّورَ﴾: عرضان متناقضان، يقول الرّاغب: الظّلمة عدم النّور، والنّور الضّوء المنتشر الذي

يعين على الإبصار. ويرى صاحب المنار أن الظّلمة الحالة التي يكون عليها كل مكان ليس فيه نور لا عدم النّور. ﴿يَعْدِلُونَ﴾: يجعلون عدلا مساويا له، وقد يتعدّى بـــ"عن" فيكون معناه: مال عنه وانحرف. ﴿قَضَىٰ أَجَلًا﴾: الأجل هو المدة المضروبة للشّيء أي المقدار المحدود من الزّمان، وقضاء الأجل يطلق على الحكم به وضربه للشيء، وعلى القيام بالشيء وفعله. ﴿تَمْتَرُونَ﴾: تشكّون.

ج)- البيان والتّفسير:

تثبت افتتاحية السّورة استحقاق الحمد لله تعالى، واختصاصه به دون غيره، لأنه مصدر النّعم كلّها، إذ خلق جميع الكائنات على الصّورة البديعة التي نشاهدها وأثبت لها الأعراض المناسبة لها، وخصّ بالذّكر الأجرام العلوية الكبرى: "السَّمَاوَات"، وأوردها بصيغة الجمع لأنها كثيرة، مستقلّ بعضها عن بعض، بينما "الأَرْض" جاءت بصيغة المفرد لأنها عالم واحد متكامل، وإن ورد في القرآن ذكر لسبع أرضين في قوله تعالى في سورة الطّلاق: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ (١٢)، فإنه لم يرد فيه لفظ الأرض جمعا. وبذكر هذين العنصرين من مادّة الكون العظيم تحصل الإشارة إلى جنسي المخلوقات كلها بصفة إجمالية تكون في متناول إدراك جميع النّاس.

وقد علّل الإمام ابن عاشور الاقتصار بذكر هذه المخلوقات الأربعة بأنه تعريض بإبطال عقائد كفّار العرب، فإنهم بين مشركين وصابئة ومجوس ونصارى، وكلهم قد أثبتوا آلهة غير الله. فالمشركون أثبتوا آلهة من الأرض، والصّابئة أثبتوا آلهة من الكواكب السّماوية، والنّصارى أثبتوا إلهية عيسى، أو عيسى ومريم وهما من الموجودات الأرضية، والمجوس وهم المانوية ألّهوا النّور والظّلمة، فالنور إله الخير والظّلمة إله الشّر عندهم، فأخبرهم الله تعالى أنه خالق السّماوات والأرض، أي بما فيهن، وخالق الظّلمات والنّور.

وحاول المفسّرون أن يجدوا معنى في تقديم الظّلمات على النّور، ولِمَ جمع الأول وأفرد الثّاني، وهل يجمع فيهما بين الحقيقة والمجاز بما يطول شرحه. وقد أبدع الإمام ابن عاشور رحمه الله في تلخيص ذلك بقوله: "ثم إن في إيثار الظّلمات والنّور بالذّكر دون غيرهما من الأعراض إيماء وتعريضا بحالي المخاطبين من كفر فريق وإيمان فريق، فإن الكفر يشبه الظّلمة لأنه انغماس في جهالة وحيرة، والإيمان يشبه النّور لأنه استبانة الهدى والحق، قال تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة:٢٥٧). وقدّم ذكر الظّلمات مراعاة للترتيب في الوجود، لأن الظّلمة سابقة النّور، فإن النّور حصل بعد خلق الذّوات المضيئة، وكانت الظّلمة عامّة. وإنما جمع "الظُّلُمَات" وأفرد "النُّور" اتباعا للاستعمال، لأن لفظ "الظُّلُمَات" بالجمع أخفّ ولفظ "النُّور" بالإفراد أخفّ. ولذلك لم يرد لفظ "الظُّلُمَات" في القرآن إلا جمعا، ولم يرد "النُّور" إلا مفردا".[1]

﴿ثُمَّ الذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾: جملة معطوفة على جملة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، عطفت بـ"ثُمَّ" للتراخي الرّتبي وهي تتضمّن معنى التّعجيب من أمر المشركين، وكونه ضدّ ما يجب عليهم للإله الحق الذي يعترفون بأنه هو الخالق: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (لقمان:٢٥). فكيف يعدلون به غيره في تلك القدرة، ويسوّونه بهم في الحمد والثّناء والعبادة. قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:١٧). وقال: ﴿وَالذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (النحل:٢٠).

﴿هُوَ الذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾: كلام مستأنف بأسلوب الالتفات إلى خطاب المشركين. واستعمال الضّمير "هُوَ" يفيد القصر، أي هو خالقكم لا غيره، كما يفيد التّعجيب من أمرهم

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٢٧/٧-١٢٨.

في إنكار البعث. وبعد أن ذكّرهم بخلق السّماوات والأرض الذي يعترفون به، ذكّرهم بخلقهم الأول من مادة التراب، وهو يعترفون به كذلك: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤفَكُونَ﴾ (الزّخرف:٨٧).

والبعث الّذي أنكروه هو الخلق الثّاني، وإعادة الخلق هي أسهل من الخلق الأوّل في عُرْفنا نحن البشر، فكيف يحصل هذا الإنكار ممن أقرّ بقدرة الله في الخلق الأول؟ قال تعالى: ﴿وَهُوَ الذي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾(الروم:٢٧).

وإذا وازنّا في تقييم حجم الخلق في التّدليل على قدرة الله، فإن خلق السّماوات والأرض وما فيهن هو أعظم لدى التأمّل والاعتبار، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ (غافر:٥٧).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾، وقضاء الله للأجلين هو بمعنى الاستيفاء، أي أنه تعالى قضى لعباده أجلين: مدة حياة كل فرد، والتي تنتهي بموته، والأجل الثّاني هو أجل بعث النّاس إلى الحشر، وهو معيّن في علم الله وحده دون غيره.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾: الخطاب للمشركين المنكرين للبعث والجملة معطوفة على قوله: ﴿هُوَ الذي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، وتتضمّن التعجيب والتوبيخ لشكّ هؤلاء في قضية البعث، مما يتعارض مع ما يقتضيه العقل من النّظر والتأمل.

﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾: "اللهُ" لفظ الجلالة وهو الاسم الأعظم لربّ العالمين، وهو معروف عند مشركي العرب، أي أن الله الذي تقرّون بأنه الخالق هو المتصف بهذه الصّفات المعترف له بها في السّماوات والأرض، وفي ذلك تنبيه على فساد اعتقادهم لغير الله في الإلهية، وفي هذا المعنى قال تعالى في سورة الزّخرف: ﴿وَهُوَ الذي فِي السَّمَآءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٤). أي أنه المعروف بالإلهية فيهما

والمتصف بهذه الصّفات وهو الذي يعلم سرّكم وجهركم، ويعلم ما تكسبون من خير أو شرّ على ما تختارونه لأنفسكم بمحض حريتكم وإرادتكم، وهذا العلم الشّامل منه تعالى هو مما تقتضيه إلهيته في السّماوات والأرض.

والله أعلم

طبيعة البشر في التّكذيب والإعراض وإنذارهم بالعقاب

أ)- النص:

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾: ما تجيء به إليهم من آية تبلّغها إليهم، والمقصود آيات القرآن، و"من" لتوكيد النّفي واستغراقه. ﴿مُعْرِضِينَ﴾: من الإعراض عن الشيء، أي صرف النّظر فيه حسًا أو معنى. ﴿أَنبَٰٓؤُا۟﴾: مفرده نبأ، وهو الخبر الذي له أهمية كبرى. ﴿قَرْنٍ﴾: جمع قرون، أصله الزّمن الطّويل، وقد أطلق في القرآن على الأمة تدوم طويلا، وعلى الأمم البائدة بصيغة الجمع: ﴿أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ

الأُولَى﴾ (القصص:٤٣). ويطلق على الجيل من الأمة: «**خير القرون قرني**»[1]، وهو في الأشهر يطلق على مئة سنة، والعقد لعشر سنين. ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ﴾: مكّن له ومكّنه مشتق من المكان، أي وضع له مكانا يتصرّف فيه كيف يشاء، أي ثبتناهم في المكان وملّكناهم إياه حتى يكونوا في قوة ومنعة وسعة رزق. ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً﴾: السّماء هنا بمعنى المطر والمدرار صيغة مبالغة من فعل درّ يدرّ الضّرع إذا جاد باللّبن، والمطر المدرار أي الغزير. ﴿وَأَنشَأْنَا﴾: من الإنشاء، أي إيجاد الشّيء وابتكاره.

ج)- البيان والتّفسير:

ذكرنا في المدخل إلى السّورة الكريمة أنها تتضمن أصول الاعتقاد وتردّ على شبه الكفرة بمختلف الحجج والبراهين، وهذه الأصول تتمثل في القضايا التّالية:

أ)- قضية الألوهية ووحدانية الله وعبادته بحق.

ب)- قضية النّبوءة والرّسالة.

ج)- قضية البعث والجزاء.

وقد عالجت الآيات السّابقة قضية الألوهية ووحدانية الله كما أرشدت إلى دلائل البعث والجزاء، وكيف أن المشركين ظلوا على شكّهم وفي حيرتهم يترددون، ولما جاءهم الوحي ليرشدهم إلى طريق الحق أنكروه وأعرضوا عنه مكابرة وعنادا، وتجيء هذه الآيات اللاحقة لتبيّن إصرارهم على الباطل والأسباب التي جعلتهم كذلك، وتنذرهم عواقب التّكذيب والاستهزاء، ثم تفيض في تأكيد

١- روي الحديث بألفاظ مختلفة، منها ما رواه البخاري بلفظ:« خير أمتي قرني...»، من حديث عمران بن حصين، كتاب المناقب، باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، حديث ٣٤٨٣.

ظاهرة الوحي وتردّ على شبهاتهم بتفصيل قال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

إن الآيات والبراهين الدّالة على قدرة الله ووحدانيته، وعلى علمه الشّامل وعدله الكامل في قضية البعث والجزاء، إن تلك الآيات والبراهين هي طوع كل إنسان خلصت فطرته من شوائب الجهالات والخرافات، وهؤلاء المشركون إذ منعوا على أنفسهم التّأمّل والنّظر في تلك الآيات الثّابتة المنبثة في أرجاء الكون العظيم، فهم لا يُرجى منهم أن يهتدوا بالآيات النّاطقة التي جئتهم بها من وحي الله؛ ذلك لأن العناد والاستكبار قد طمس بصائرهم فران على قلوبهم ما كانوا يكسبون. فحسب هذا الإنسان الظّلوم الجهول أن يركن إلى فطرته السّليمة ويستجيب لندائها، فيخطو بذلك الخطوة الأولى في حظيرة الإيمان ليسير في طريق الله وتتضح له معالم السّير، فلا يستشكل ولا يختار، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَه﴾ (التغابن:١١). أما وقد استغلقت منافذ الإيمان على هؤلاء الكفرة فإنك أيها الرّسول لا تفوز منهم بطائل في دعوتك مهما تفننت في العرض وبرعت في البيان والإقناع.

والالتفات من صيغة الخطاب إلى الغيبة في حق هؤلاء للتنديد والتّشهير بهم لأنه كما قال المتنبيّ:

ومن البلية عذل من لا يرعوي عن غيّه وخطاب من لا يفهم

وجيء بـــ"من" لتوكيد النّفي للنّتائج المرجوّة للآيات، ثم بأداة الاستثناء ليدلّ على أن الإعراض هو شأنهم في كل موقف. ولبيان سبب ذلك الإعراض قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَآؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، فالإعراض الكلّي منهم وإصرارهم عليه إنما منشأه التّكذيب، والحق الذي كذّبوا به هو هذا الدّين الذي جاء من عند الله لينير لهم الطّريق بإنزال هذا

القرآن على الرّسول الذي يقرّون بأمانته وصدقه، وبشرفه وكرم محتده، فلم تجدهم الآيات الصّامتة ولا النّاطقة. وعاقبة ذلك التّكذيب أنه سيحلّ بهم ما حلّ بالمكذّبين من قبلهم.

وقد أجمل الله تعالى أخبار ذلك الوعيد إمعانا في التّهديد، حتى يذهبوا في التوقعات كل مذهب، وذكر الاستهزاء بعد التّكذيب دليل على ما بلغ إليه هؤلاء من الإصرار والعناد والإنكار، والتّهديد نوع من العلاج للنفوس القاسية حين لا ينفع الإقناع والحوار.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمَ اَهْلَكْنَا من قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَاهُمْ فِي الاَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الاَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَاَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾:

الكلام مستأنف لبيان ما توعدهم به الله تعالى بدعوتهم إلى التّأمّل والاعتبار بما حدث للمكذبين من قبلهم، والالتفات إلى الماضي للتأسّي والاعتبار هو المقصد الأسمى من تسجيل أحداث التّاريخ، والتّركيز فيه على مصارع الطّغاة لهو أحدى في إبراز طبيعة الحياة وسنن الله في خلقه، والقرآن الكريم قد وظّف مثل هذا الأسلوب في إرشاده، وفي أغلب الأحوال يجعل أسباب الهلاك للقرون الخوالي هو الانحراف والانحلال الخلقي الذي ينجرّ -غالبا- عن التّرف والنّعيم.

وليس يخفى عن مشركي العرب ما حلّ بأقوام من بني جلدتهم في الجزيرة بالذّات، مثل عاد وثمود وسبأ، وقد مكّن الله لهم بأكثر مما مكّن لهؤلاء: ﴿مَّكَّنَاهُمْ فِي الاَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾، والخطاب للمشركين وقت التّنزيل على سبيل الالتفات.

وقد قامت حضارة أولئك الأقوام على الزّراعة كما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الاَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾، فسبحان

المدبّر الحكيم -وهو القاهر فوق عباده-، كيف أصبحت تلك الحضارات أثرا بعد عين، كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص:٥٨).

وهؤلاء المخاطبون وقت التّنزيل قد أبطرهم النّعمة، إذ أغناهم الله بوسيلة التّجارة في رحلتي الشّتاء والصّيف، وجعل لهم حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شيء، ولكن النّاس يفرحون بما هم فيه من حاضرهم، وقلّما يتفكّرون في تقلبات الزّمان ومفاجآت الدّهر حين تتزيّن لهم الأرض ويظنون أنهم قادرون عليها، ومن هنا تتبيّن فائدة التّذكير بالماضي لأنه واقع ملموس، أمّا توقعات المستقبل فهو غيب مكتوم.

﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾: فالإهلاك ناتج عن الذّنوب: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود:١١٧).

والإتيان بالجمع لـ"الذنوب" ليشمل كل أنواعها، سواء ما كان منها في حق الله أو في حق العباد، والله يقدّر لكل أمة أجلها، كما يقضي نوع إهلاكها، قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٠).

وقد رفع الله عن الأمّة المحمدية عذاب الاستئصال، ولكن سنة الله لا تتخلّف، لأنه وإن تعاقبت الأجيال في تلك الأمة -كشأن الأمة الإسلامية- فإن فقدها لعزّها وسيادتها واستقلالها لهو أشدّ وأنكى، لأنه موت معنويّ وهو أشدّ إيلاما للحرّ الكريم يقول الشّاعر:

ليس من مات فاستراح بميْتٍ إنما الميْت ميّت الأحيـــــاء

ومعنى "إنشاء قوم آخرين" في تلك الأمة هو أن ينشأوا على غير أوضاع أسلافهم من الذّل والهوان، فيسترجعون أمجادهم ويجعل الله من ضعفهم قوة، ومن أخلاقهم عزة ومناعة. يقول تعالى في نفس هذه القاعدة العمرانية والسّنة الاجتماعية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أَمْثَالَكُم﴾ (محمد:٣٨). ويقول في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَاتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُومِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُوتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة:٥٤). وكم في التاريخ القديم والحديث من أمثلة على ذلك، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

والله أعلم

شبهات الكفار على الرّسالة، والاعتبار بعاقبة المكذبين

أ)- النص:

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿كِتَاباً﴾: الكتاب مصدر الكتابة ويطلق على الشّيء المكتوب رسالة أو سفرا. ﴿قِرْطَاسٍ﴾: القرطاس جمعه قراطيس بكسر القاف، الصّحيفة التي يكتب عليها من أيّ مادّة كانت كالطّرس جمع طروس، وقيل: هو مخصوص بالصّحيفة المكتوبة. ﴿فَلَمَسُوهُ﴾: اللّمس المسّ للشيء باليد لمعرفة ذاته أو وصفه، ويستعمل مجازا بمعنى طلب الشّيء والبحث عنه، يقال: التمس الشيء. ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: السّحر المبين: السّحر الخداع والتّخييل لأشياء لا حقيقة لها، والمبين أي البيّن الواضح. ﴿يُنظَرُونَ﴾: يمهلون. اللّبس: لبس يلبس من السّتر والتّغطية، ولبّس يلبس ستره به، أي جعله مكانه ليظن أنه الحق وهو من الستر المعنويّ. ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾: السّخرية. ﴿حاق﴾: يحيق به أحاط به العذاب فلا مفرّ له منه، قال تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر:٤٣).

ج)- البيان والتّفسير:

بعد أن بيّن الله تعالى موقف المشركين من أصول العقيدة الإسلامية من الإيمان بالله والبعث، وأرشدنا إلى سبب تكذيبهم وأنّهم سوف يلقون جزاءهم كما جرت سنة الله في الذين خلوا من قبلهم؛ انتقل البيان هنا إلى ذكر شبهاتهم في قضية الوحي والرّسالة، وما وقعوا فيه من الخلط بين بشرية الرّسول ونبوءته، حتى جرّهم ذلك إلى العناد والمكابرة، وانتهى الأمر بهم إلى الجحود والاستهزاء، فأكملوا بذلك إنكارهم لأصول الدّين الثّلاث.

وقد ورد في كثير من السّور المكية، الفرقان وهود والإسراء، ورد ما كان المشركون يقترحونه على رسول الله في تحدّ وتعجيز من إنزال كتاب من السّماء يقرأونه، أو إنزال ملك مع الرّسول يسانده في التّبليغ، بل طالبوه بأن يأتي بالله

والملائكة قبيلا مما هو من خصوصيات الملإ الأعلى، عدا تلك الاقتراحات لإتيانه بالأشياء الحسيّة المذكورة في سورة الإسراء؛ ولذا فقد نقل مفسّرو السّلف ما اعتبروه سببا لنـــزول مثل هذه الآيات التي تردّ على مثل تلك الشّبهات.

روى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق قال: دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام وكلّمهم فأبلغ إليهم فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب، والنّضر ابن حارث بن كلدة، وعبده بن عبد يغوث، وأبيّ بن خلف، ابن وهب، والعاصي بن وائل بن هشام: لو جعل معك يا محمّد ملك يحدث عنك النّاس ويرى معك. فأنزل الله تلك الرّدود. ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ...﴾.

قال الله قبل ذلك: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: بعد أن بيّن الله تعالى موقف المشركين من آيات الله بصفة مجملة وهو الإعراض والتّنكّر، أي قوله: ﴿وَمَا تَأتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ عطف عليها هذه الجمل في شيء من التّفصيل في العرض ليرّد على كل شبهة من تلك الشّبهات ويلزمهم الحجة، وهو يخاطب الرّسول ليحاورهم في صدق وثبات، وهم في ظلمة الشّك والحيرة يتخبّطون، كيف يتلقى خبر السّماء بشر مثلهم.

وليست ظاهرة الوحي وحيرة البشر إزاءها بشيء جديد في القضايا الإنسانية الكبرى، بل هي وليدة الوجود البشريّ منذ أن قضت حكمة الله بإنزال الكتب وإرسال الرّسل، إذ قصّ علينا القرآن مواقف القرون الخالية مع رسلهم بنفس تلك الشّبهات، ونفس الإنكار والجحود. ذلك لأن عملية الوحي تتمّ في ستر وخفاء، وليس للتلقّي فيها صورة ماديّة محسوسة، ومن هنا أثار المشركون تلك الشّبهة في طلب رؤية الملك، أو إنزال سفر يلمسونه بأيديهم، فجاء ردّ الآية الكريمة أنهم لا يطلبون ذلك للحصول على الثّقة والاطمئنان، إذ هم جاحدون منكرون ابتداء،

بحيث لو تحقق لهم ما طلبوه بأن أنزلنا عليك كتابا فرأوه ولمسوه بأيديهم لظلّوا على إنكارهم وإعراضهم، ولوجدوا مبرّرات لذلك الإنكار بأن ما يشاهدونه هو من قبيل السّحر الذي هو تخييل لما ليس بواقع. وبما أن القائلين ليسوا على مرتبة سواء في الجحود والإنكار، اختير الإظهار في مقام الإضمار: ﴿لَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ ليدلّ على أن الكفر هو الدّافع إلى ذلك.

﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ﴾: اقتراح من المشركين أن ينزل على الرّسول مَلَك يشاهدونه ويكون مؤيّدا له في التّبليغ، ظنّا منهم أن مساواتهم برسول الله في البشرية تجعلهم قادرين على رؤية الملائكة. فجاء الرّدّ الإلهي بأنه لو تحقق ما طلبوه من رؤية المَلَك لتمّ إهلاكهم فلا يُمْهَلون، وقد جرت سنة الله في إهلاك من قبلهم إذا أعطاهم الله ما طلبوه من الآيات ثم لم يؤمنوا بها، لأن الملائكة لا تنزل إلا بأمر من الله كما قال في شأنهم: ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء:٢٧). وقال في سورة الحجر: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ﴾ (٨).

ولدحض هذه الشّبهة من كل الوجوه، جاء الرّدّ الثّاني عليها بأن الله لو صيّر الرّسول ملَكا فلا يمكن أن يتمثل إلا في صورة إنسان بشر، لأن البشر في أصل تكوينهم الكثيف الماديّ لا يطيقون رؤية الملائكة في صورتهم الأصلية من تكوينهم النّورانيّ اللّطيف، وحتى الرّسول نفسه لم ير جبريل عليه السلام في صورته الأصلية إلا مرتين كما ثبت ذلك في بعض الرّوايات. بل قال عليه السلام في ظاهرة الوحي: «**يتمثل لي الملك رجلا فيكلّمني فأعي ما يقول**».[1] وقيل: كان يظهر له -غالبا- بصورة دحية الكلبّي. فإذا كان لا مناص من تشكّل الملك بشكل رجل إنسان فإنه سوف يلتبس عليهم أمره كما التبس عليهم أمر محمد عليه السلام فما بقي منهم -إذن- إلا

١- رواه البخاري من حديث عائشة، باب بدء الوحي، حديث ٢.

العناد والمكابرة.

﴿وَلَقَدُ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾:

عطف الله هذا التّهديد بعد الرّدّ على شبهات الكفار، والتي كان مبعثها السّخرية والاستهزاء، لأنهم يعرفون أن مقترحاتهم تلك لا يمكن أن تتحقق، فبيّن الله تعالى لرسوله أن ذلك هو شأن من تقدمه من الرّسل مع أقوامهم، قال تعالى: ﴿وَمَا يَاتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (الحجر:١١).

غير أن سنة الله جارية في إهلاك المكذبين المستهزئين وأن هؤلاء سوف ينالون جزاءهم، وفي هذا تسلية للرسول وتبشير له بالنّصر والغلبة، وذلك هو ما تحقق في غزوة بدر إذ هلك فيها معظم أولئك المستكبرين.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾: تصميم المشركين على الاستهزاء والتّكذيب يقتضي من الرّسول أن يحاورهم لردّ شبهاتهم حتى يلزمهم الحجة، ولذا تكرّر الأمر بالقول لهم في دحض كل شبهة أو إثبات وحدانية الله من خلال ملكوته في ما يرد من الآيات اللاحقة.

ولدحض ارتيابهم في هلاك المكذبين بحسب سنة الله المطردة كما تضمّنه الوعيد السّابق، أمر الله رسوله بأن يدلّهم على السّير في الأرض ليشاهدوا آثار ما حلّ بالقرون الخالية وكيف كانت عاقبتهم جزاء التّكذيب والاستهزاء، والسّير في الأرض يكون لأغراض متعدّدة، وأكثر سير مشركي مكة كان للتجارة، وكثيرا ما يغفلون عن النّظر والاعتبار بما يمرّون عليه من تلك الآثار. وقد جاء العطف بـــ"ثم" ليدلّ على أن يكون المقصد من السّير في الأرض هو النّظر في عاقبة المكذبين. وذكر في سبب الهلاك وصف "المكذبين" تارة ووصف "المستهزئين" أخرى، لأن الكافر قد لا يجمع بينهما، غير أن وجود أحد الوصفين كاف لإنزال العذاب بعد

الإنذار وإقامة الحجة، وإن كان المستهزئون أحق بالعذاب وأجدر، والتاريخ يثبت أن كثيرا من مكذّبي قريش اهتدوا إلى التصديق والإيمان وصاروا بعد ذلك من جنود الرّحمان، والله أعلم.

التّدليل على وحدانية الله والبعث والجزاء

بأسلوب السّؤال والجواب

أ)- النص:

قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾: أوجب على ذاته العلية الرّحمة بخلقه إيجاب تفضّل وكرم، وذلك بمقتضى عدله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، أي يحشركم ليوم الجزاء. ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾: من السّكون وهو ضدّ الحركة، فيه اكتفاء بما ذكر عما يقابله وهو الحركة. والمعنى: له ما سكن وما تحرّك. ﴿فَاطِرِ﴾: أصل الفطر الشّقّ. قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾(الانشقاق:١). أي انشقت. ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ﴾:

أي مبدعها. ﴿يُطْعِمُ﴾: يرزق النّاس ما يطعمون أي يأكلون. ﴿يُصْرَفْ عَنْهُ﴾: أي يجنّب ذلك العذاب أي عذاب يوم القيامة. ﴿الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾: النّجاح الوّاضح الجلّي قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران:١٨٥).

ج)- أوجه القراءة:

﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾: قرأ الأكثرون: ﴿يُصْرَفْ﴾ بالبناء للمجهول على أنه رافع لضمير العذاب أو لضمير "من" على النّيابة عن الفاعل. وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وخلف: ﴿يَصْرِفْ﴾ بالبناء للفاعل على أنه رافع لضمير: ﴿رَبِّي﴾ على الفاعلية.

د)- البيان والتّفسير:

من ركائز الفصاحة والبلاغة أن يكون الكلام مناسبا لمقتضى الحال، والمخاطبون ليسوا على درجة واحدة في الفهم والاستيعاب، كما أنهم يتفاوتون في التّصوّر والاعتقاد، ولذا فإن الرّسول الدّاعية هو بصدد تصحيح عقيدة فاسدة زائغة لقوم متحجّرين أعمتهم الحميّة الجاهلية، وأضلّهم التّقليد للآباء والأجداد.

بعد بيان أصول الدّين في الآيات السّابقة، ودحض شبهات الكفار على النّبوءة والرّسالة، وبيان سنّته تعالى في إهلاك المكذبين المستهزئين، ومراعاةً لأحوال أولئك المستهزئين المعاندين، يجيء هذا الأسلوب من السّؤال والجواب، يؤمر فيه الرّسول أن يقول لهم ثم يأتي هو بالجواب، ليستدرجهم إلى الإقرار بما يعتقدون من وجود الإله وأنه هو الخالق الرّازق، والمالك لما في السّماوات والأرض، وبعد جرّهم إلى الإقرار يبني عليه بعد ذلك ما يريد أن ينبّههم إليه مما يجهلونه أو يغفلون عنه.

وهذا التّفنن في أسلوب الدّعاية والتّبليغ، وإن كان تكرارا لمعنى واحد، قد

يلجأ إليه الخطيب أو الدّاعية إمعانا في التّأثير لدى السّامعين، وحرصا على إيضاح المقصود وتمكينه من نفوسهم.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾:

الخطاب للرسول، يأمره الله أن يقول لقومه بصيغة الاستفهام التّقريري ترتّب عليه الجواب الذي يقرّون به في دواخل أنفسهم من وجود الله، وهو يتضمن نوعا من التّوبيخ لإنكارهم ما يعتقدون. وكل من هذا الاستفهام والجواب عنه هو تمهيد لما يُبنى عليه من مستلزمات ذلك الإقرار وهو التّأكيد على قضية البعث ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾.

وتأتي جملة: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ في مقولة الرّسول تأتي في مكانها المناسب، بعد إقرارهم بملكية الله لما في السّماوات والأرض وتهديدهم بوعيد يوم القيامة. وللإمام ابن عاشور ملحظ دقيق في هذا التّركيب إذ يقول -رحمه الله-: "إن الإخبار بأن لله تعالى ما في السّماوات والأرض يثير سؤال سائل عن عدم تعجيل أخذهم على شركهم بمَن هم ملكه، فالكافر يقول: لو كان ما تقولون صدقا لعجّل لنا العذاب، والمؤمن يستبطئ تأخير عقابهم. فكان قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ جوابا لكلا الفريقين بأنّه تفضّل بالرّحمة. فمنها رحمة كاملة وهذه رحمته بعباده الصّالحين، ومنها رحمة مؤقّتة وهي رحمة الإمهال والإملاء للعصاة والضّالّين، ثم إن ما في قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلَّهِ﴾ من التّمهيد لما في جملة: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ من الوعيد

مائة جزء، حديث ٧٧، ص.

والوعد، ذكرت رحمة الله تعريضا ببشارة المؤمنين وبتهديد المشركين".[١]

قلت: إن اتصاف الذّات العلية بالرّحمة تكرّر في القرآن الكريم بصيغ مختلفة، ولكن ورودها بهذا الشّكل في هذه السّورة الكريمة: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ ويأتي قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام:٥٤) يَدُلّ على أن رحمة الخالق بعباده هي الأصل، تفضّلا منه تعالى ومنّة، لا يوجبها عليه أحد، إذ كتبها بإرادته ومشيئته، والمقصود أن هذه الصّفة لا تتخلّف، كما لا يتخلّف الأمر الواجب المفروض، وتتجلّى هذه الرّحمة في كل حركة أو سكنة من هذا الوجود، حتى في ما يبدو لنا أنه نقمة وعذاب في أنواع من الابتلاء نتعرّض لها في مسيرة حياتنا. وأعظم مجالي رحمته هذا الجمع للحساب والجزاء للفصل بين الخلائق، فينال كلٌّ ما يستحقه وفق ما قدّمه من عمل.

وفي السّنة النّبوية كثير من النّصوص تصوّر هذه العلاقة الرّحيمة بين الخالق وعباده، بما يدحض شبهة الذين يصوّرون الإله في الإسلام جلاّدا لا يلين ولا يرحم، فقد روى الشّيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**جعل الله الرّحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدّابّة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**».[٢]

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، المجموعون إلى يوم القيامة هم بين الفوز والخسارة، ولكل منهما أسباب ووسائل، وهم بين اللّوم

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتنوير، ١٥١/٧.

٢- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، حديث ٥٠٧١. ورواه البخاري بلفظ "الفرس"، كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مائة جزء، حديث ٥٦٧٧.

والتقريع أو المدح والبشارة، فالذين خسروا أنفسهم لا يملكون شيئا يستظهرون به في ذلك الموقف المهول، ذلك لأنهم لخسرانهم أنفسهم في الدّنيا كانوا لا يؤمنون بالآخرة وما خسارة الأنفس إلا اتّباع هواها وتدسيتها بالمعاصي والآثام، فلم ينتفعوا بالتّذكير بآيات الله.

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: كما أن لله تعالى وحده الملكية المكانية في الأرض والسّماوات فإن له الملكية الزّمانية، فالآية معطوفة على ما قبلها: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾. والتّعبير بـــ"مَا" لاستقصاء الخلائق كلها فهي تتحرك وتسكن في اللّيل والنّهار، غير أن اختيار فعل: "سَكَنَ" ليدلّ على الدّقة والخفاء لإثبات عموم علم الله وإحاطته بكل ما دقّ وخفي، ولذلك عقّبه بصفتي: ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾: أعيد الأمر بالقول للإدلاء بحجة أخرى بعد الإقرار بملكية الله لما في السّماوات والأرض وعبودية الخلائق له، فقد أصبح من حقه تعالى أن يفرد بالعبادة، فجاء تقرير ذلك بصيغة الاستفهام الإنكاريّ من اتخاذ غير الله وليًّا، لا إنكار مطلق اتخاذ الوليّ، لأن تناصر النّاس وتولّي بعضهم لبعض مطلوب شرعا وعقلا، ثم ذكر الله تعالى وصفين يسندان أحقيته بالعبادة وإفراده بها:

أ)- ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق، والمشركون يقرّون بهذه الحقيقة -كما تقدّم-، وفي اختيار وصف: "فَاطِر" إشارة إلى الحقيقة الكونية من أن السّماوات والأرض كانت كتلة واحدة من دخان فتفتقت عن السّماوات السّبع والأرض. وفي ذلك يقول المولى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ (فصلت:١١-١٢). ويقول في سورة الأنبياء:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الذينَ كَفَرُواْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُومِنُونَ﴾ (الأنبياء:٣٠).

ب)- ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ﴾: أي هو الرّازق الغني يكفل لكل الخلائق أقواتها من غير احتياج إليها لا تنفد خزائنه، قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ (هود:٦). وليس معنى ذلك أن ينتظر النّاس أرزاقهم بغير سعي ولا كسب فإن السّماء لا تمطر ذهبا ولا فضة، ومع أنها تمطر ماء فإن الله قال في سورة الذّاريات: ﴿وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (٢٢). ويقول في سورة عبس: ﴿فَلْيَنظُرِ الانسَانُ إِلَىٰ طَعَامِه، إِنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبّاً، ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً، وَعِنَباً وَقَضْباً، وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً، وَحَدَآئِقَ غُلْباً، وَفَاكِهَةً وَأَبّاً، مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾.(عبس:٢٤-٣٢). وفي الآية إرشاد إلى جهد الإنسان في شق الأرض وإنباتها بمعونة الله.

﴿قُلِ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنَ اَكُونَ أَوَّلَ مَنَ اَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: أمر الرّسول أن يكون في مقام القدوة لما يدعو إليه بأن يكون أول المسلمين، فالأوّلية هنا كناية عن الأقوى والأمكن في الإسلام، وذلك يستدعي الحرص في التّبليغ، والمجاهدة في العمل الدّعويّ، والأمر بالشّيء نهي عن ضدّه. وتأكيدا للثّبات على الإسلام نهي أن يكون من المشركين، أي يتبرّأ منهم ومن دينهم الفاسد، حتى لا يبقى لهم مطمع في مساومته أو استمالته.

﴿قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، مَّنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾: عصيان الله مُتوعّد له بالعذاب العظيم، والرّسول ﷺ معصوم عن عصيان الله، فورود الشّرط بـــ"إنْ" لاستبعاد وقوعه. ومع ذلك فرسول الله -وهو في مقام القدوة- يرجو رحمة الله ويخاف عذابه، وهو خوف إجلال وتعظيم -كما أشار إليه صاحب المنار- يصاحبه دائما. وذلك من

الآداب العالي مع الله تعالى، أرشد إليه أصحابه حتى لا يغترّوا بمنزلتهم عند رسول الله، فلا يزكون أنفسهم على الله مهما بلغوا من الصّلاح والتّقوى. وقد روي عنه أنه قال: «**لا يدخل الجنة أحدكم منكم بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ فأجاب: ولا أنا؛ إلا أن يتغمّدني الله برحمته**».[1] وقد وصف ذلك العذاب بأنه عظيم، وأن المصروف عنه ذلك العذاب يومئذ فقد حظي برحمة الله الواسعة ونال الفوز الحقيقي، وأيّ فوز أعظم من النّجاة من النّار: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران:١٨٥).

وإذا كان الرّسول المعصوم في هذا الإشفاق والخوف من عذاب الله فكيف بغيره من البشر العاديين،فاللّهم رحمتك نرجو ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين آمين.

والله اعلم

عناية الله برسوله وشهادته له بالصّدق

أ)- النص:

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾
قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ
لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ
إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

١- رواه أحمد في المسند من حديث أبي هريرة، مسند بني هاشم، حديث ٧٣٢٥.

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾: المسّ: وضع اليد على شيء، ويستعمل مجازا في إيصال شيء إلى شيء، أي يصبك الله بضرّ. الضّرّ: ما يسوء الإنسان وما يؤلمه. وهو بضمّ الضّاد وفتحها، يقابله النّفع أي اللّذة والسّرور وما يفضي إليهما. ﴿بِخَيْرٍ﴾: والخير ما فيه منفعة حاضرة أو مستقبلة وهو أعمّ من النّفع، يقابله الشّرّ، ما لا منفعة فيه البتة. ﴿الْقَاهِرُ﴾: من القهر، الغلبة والإذلال.﴿لَتَشْهَدُونَ﴾: شهادة الشّيء حضوره ومشاهدته، والشّهادة به الإخبار به عن علم ومعرفة واعتقاد. ﴿لأُنذِرَكُم﴾: الإنذار: التّخويف. ﴿وَمَن بَلَغَ﴾ : أي جميع من بلغته دعوة القرآن إلى يوم القيامة.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد أن بيّن الله في الآية السّابقة لطائف رحمته، وأن من أعظم مجاليها صرف عذاب الآخرة عمّن شاء أن يرحمه، أعقب ذلك في هذه الآية الكريمة ببيان مجالي رحمته كذلك في الدّنيا وأنه المتصرّف في الضّرّ والنّفع قاهر فوق عباده، فلا يملك المشركون أن يضرّوا الرّسول مهما تطاولوا عليه بقولهم، ومهما هدّدوه بنقمهم. وفي توجيه الخطاب لرسول الله تثبيت له في ميدان المواجهة وإحباط لدسائس أعدائه، وفيه التّعريض لما يعتقده المشركون من النّفع والضّرّ في الالتجاء إلى آلهتهم باطلا، لأنهم إذ يقرّون بأن الله هو خالق السّماوات والأرض يتحتّم عليهم أن يقرّوا بأنه هو المالك القادر على النّفع والضّرّ.

﴿وَإِنْ يَّمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَّمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾: الخطاب للرسول باعتباره النّموذج الأعلى للإنسان الكامل في معتقده وفي سلوكه وأخلاقه،

يخبره الله تعالى بأنه المالك الحقيقي للنفع والضرّ، يتصرّف بهما في شؤون خلقه إصابة أو كشفا وفق مشيئته وقدرته بتدبير حكيم وفق سنن ونواميس لا تكون طيّعة إلا لقدرة خالقها وواضعها، ولا يعني تصرّف الله تعالى في شؤون عباده وفق حكمته في قضائه وقدره، لا يعني ذلك أن يبقى الإنسان مكتوف الأيدي لا يأخذ بالأسباب في جلب النّفع ودفع الضرّ، بل المطلوب من المؤمن الصّادق أن لا يلتجئ لغير الله في الطّلب والدّعاء توسّلا بنبيّ أو وليّ، أو توقا إلى صنم كما يفعله المشركون، لأن الإنسان وإن يكن له سعي من اتخاذ الأسباب فقد لا يهتدي لأنجعها في تحقيق مراده، وقد يتعسّر عليه طلبها، وقد يستعصي كشف الضرّ عن الأسباب التي هي في متناول يده، لأن منها ظاهرة وباطنة، فلا ملاذ -إذن- إلا لعالم الغيب والشّهادة، لأنه القادر على كل شيء، القويّ القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير، أي صاحب التدبير المحكم والصّنع المتقن، الخبير بمنافع الأشياء ومضارّها.

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة يونس مخاطبا رسوله: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (يونس:١٠٦-١٠٧). وكان الرّسول يقول: «**اللّهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ**».[1]

﴿**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْءَانُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ**﴾: بعد إثبات ما يليق بجلال الله من صفات الكمال المطلق سيما ما يناسب عناد المشركين وتحدّيهم، وذلك بذكر صفات العلم

١- رواه البخاري من حديث وراد، كتاب الأذان، أبواب صفة الصلاة، باب الذكر بعد الصلاة، حديث ٨٢١.

والقدرة والقهر والغلبة، انتقل النّصّ إلى إثبات صدق رسالة الرّسول ﷺ بأسلوب السّؤال والجواب، وتصدير مقول القول بالاستفهام التّقريريّ: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾.

وقيل في أسباب هذه الآية أن رؤساء مكة قالوا: يا محمد ما نرى أن أحدا مصدّقك بما تقول، وقد سألنا عنك اليهود والنّصارى فزعموا أن ليس عندهم ذكرك ولا صفتك، فأرنا من يشهد أنّك رسول الله فنزلت هذه الآية: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً...﴾.

أمر الله تعالى رسوله أن يطرح السّؤال على كفار قريش ليستدرجهم بذلك إلى تقرير الجواب المطلوب، فأضيف اسم الاستفهام "أيّ" إلى لفظ "شَيْءٍ"، وهو اسم عام لكل الأشياء فيتعيّن معناه بالتّمييز: ﴿أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾، فيكون المعنى: أية شهادة هي أعظم الشّهادات وأصدقها. ثم أمر الرّسول بالجواب عن السّؤال: ﴿**قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**﴾.

الشّهيد بيني وبينكم هو الله أصدق الشّهود، فلا زور ولا كذب، وكفى بشهادة الله توثيقا وتصديقا لما جاء به الرّسول، فلا يسع المشركين أن يكذّبوا بما أقرّوا به من وجود الله خالقهم، ولا أدلّ على ذلك مما أوحي به إليّ في هذا الكتاب من الآيات التي تثبت رسالتي من مثل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (البقرة:٢٥٢). وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ (البقرة:١١٩). فالله الشّهيد بيني وبينكم هو الذي أوحى إليّ هذا القرآن لأخوّفكم به من عذاب الله إن بقيتم في عنادكم وتكذيبكم، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله وذلك أعظم شهادة على صدق رسالتي.

وفي الاقتصار على "النّذارة" بجعلها علة لنزول القرآن يقول الإمام ابن عاشور: "واقتصر على جعل علة نزول القرآن للنذارة دون البشارة لأن المخاطبين

في حال مكابرتهم التي هي مقام الكلام لا يناسبهم إلا الإنذار".[1]

وقوله تعالى: ﴿وَمَن بَلَغَ﴾ معطوف على ضمير المخاطبين: ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ وهم قوم الرّسول وعشيرته، ثم تعمّ هذه النّذارة كل من عاصر الرّسول من الأقوام والأجناس وكل من يأتي من بعدهم من الأجيال إلى يوم القيامة، فكل من بلغته دعوة القرآن فقد قامت عليه الحجة كما ثبت ذلك في ما رواه السّلف عنه ﷺ أنه قال: «**من بلغه القرآن فكأنما شافهته به. ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾**».

وتبقى مهمّة التّبليغ بعد وفاة رسول الله منوطة بعهدة المسلمين، يتخذون لذلك الوسائل الكفيلة بإسماع صوت القرآن، وترجمة معانيه للذين لا يفهمون اللّغة العربية، وما أيسر هذه الوسائل اليوم عبر الأقمار الصّناعية وأمواج الأثير.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾: فإذا كان في جانب الرّسول شهادة الله التي تضمنّها القرآن الكريم، فإن شهادتهم هم مستنكرة من أساسها، فقد أمر الله رسوله أن يواجه المشركين بذلك الإنكار، ويعلن المفاصلة التّامّة بين دينه ودينهم، فأنّى للتوحيد أن يلتقي مع الشّرك والكفر: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

و لم يقتصر الأمر على إنكار شهادتهم بل أمره الله أن يعلن شهادته بنقيض ما يزعمون، وأن يتبرأ من شركهم. وملاك الأمر في هذه الدّعوة هو الإقرار بوحدانية الله بعد نفي الشّريك عنه، وتلك هي القضية الجوهرية في بلاغ القرآن المكيّ.، استنفدت فيه كل أساليب الإقناع وأدوات التّوكيد والتّفهيم.

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٦٨/٧.

معرفة أهل الكتاب للنبي وموقفهم منه، وإنكار المشركين لشركهم في موقف الحساب

أ)- النص:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿الذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾: أي اليهود والنصارى. ﴿يَعْرِفُونَه﴾: أي القرآن، وذلك بمعرفة الرّسول المنزل عليه بما يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل. ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً﴾: بالإشراك والكفر. ﴿كَذَّبَ بِآيَاتِه﴾: النّاطقة وهو القرآن، والصّامتة وهي صفحة الكون العظيم. ﴿لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُم﴾: إما بتقدير لفظ "عاقبة" أي عاقبة كفرهم، وإما أن يكون المقصود من الفتنة ما في إجابتهم من كذب وافتراء. ﴿كَذَبُواْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾: بمخالفة ما اعتقدوه ونطقوا به من الكفر والإشراك. ﴿ضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾: أي أنهم لا يجدون حولهم أولئك الشّركاء ليشفعوا لهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُم﴾:قرأ الجمهور: ﴿لَمْ تَكُن﴾ بتاء تأنيث حرف المضارعة.

وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب بياء المضارعة للغائبة باعتبار أنّ "قالوا" هو اسم "كان". وقرأ الجمهور: ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ بالنصب على أنه خبر "كان"، فتكون "كان" ناقصة واسمها هو جملة: ﴿إِلاَّ أَن قَالُواْ﴾. وقرأه ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم بالرّفع على أنه اسم "كان"، و﴿أَن قَالُواْ﴾ خبرها، فتكون "كان" تامّة. ﴿وَاللهِ رَبِّنَا﴾:قرأ الجمهور: ﴿رَبِّنَا﴾ بالخبر على الصّفة لاسم الجلالة. وقرأه حمزة والكسائي وخلف بالنّصب على النّداء بحذف حرفه.

د)- البيان والتّفسير:

لقد أثبت الله تعالى صدق رسوله في ما أمره أن يبلّغه من رسالته بأسلوب السّؤال والجواب، وأنه ألزم الحجة على المشركين بتقدير شهادة الله بينهم وبين الرّسول، وبما أن المشركين سألوا عنه اليهود والنّصارى فزعموا أنهم لا يعرفون له في كتبهم ذكرا ولا صفة، فقد انتقل النّصّ في هذه الآيات إلى التّعرّض لأهل الكتاب ليردّ عليهم إنكارهم، كما ردّ على المشركين العرب، بل إن هؤلاء أشدّ عنادا واستكبارا، إذ ينكرون ما يعرفونه حق المعرفة، ولتأكيد تلك المعرفة شبّهها بمعرفة الآباء للأبناء بحكم ملازمتهم إياهم ونشأتهم في أحضانهم.

وكتمان الشّهادة على طالبها من أعظم الآثام عند الله تدنّس الصّفاء الفطريّ وتفقد الأمانة في مجال التّعلم والاستفادة ولذا قال الله تعالى في شأن هؤلاء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة:١٧٤). فكلّ من السّائلين والمسؤولين سواء في العناد والمكابرة، ولذا جاءت علة الإنكار لكلا الفريقين بمعنى واحد وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾، أي خسارة الأنفس بعدم الإيمان.

هذا التّوجيه لمعنى الآية إنما هو على اعتبار الرّواية السّابقة في سبب النّزول،

وهناك رواية أخرى أوردها الإمام الفخر الرّازي في تأكيد معرفة أهل الكتاب لرسول الله من خلال كتبهم، فقد روي أنه لمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة قال عمر لعبد الله بن سلام: أنزل الله على نبيه هذه الآية فكيف هذه المعرفة؟ فقال عبد الله بن سلام: يا عمر لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابني، ولأنا أشدّ معرفة بمحمد منّي بابني، لأني لا أدري ما صنع النّساء وأشهد أنه حق من الله تعالى".[1]

قلت: فعلى هذه الرّواية يكون توجيه معنى الآية هكذا: إن المؤمنين من أهل الكتاب من أمثال عبد الله بن سلام يشهدون بصدق الرّسول، إذ هم يتيقنون بأنه النّبي الخاتم المبشّر به في كتبهم، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فتكون شهادتهم بمعرفته وصدقه ملزمة للسائلين الذين يثقون بأهل الكتاب ويقدرونهم. وفي هذا المعنى يقول المولى جلّ وعلاَ في سورة الشّعراء: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَآؤُا بَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾ (الشعراء:١٩٧). وفي سورة الرّعد: ﴿وَيَقُولُ الذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (٤٣) وعلى هذا المعنى يكون قوله تعالى: ﴿الذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ استئناف يراد به تكرير حكم الخسارة والكفران على مشركي مكة، لبيان أنهم لا يؤمنون ولو مع شهادة أهل الكتاب بصدق الرّسول.

﴿وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً اَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾:

ومن أفدح الظّلم وأقذعه أن يجمع الإنسان بين الكذب والتّكذيب بما ثبت أنه حق وصدق، فالافتراء على الله بالكذب هو الإشراك به وإنكار وحدانيته، أو إضفاء ما هو من صفاته العلية على مخلوق في مجال التّوسّل والاستشفاع كما يفعله بعض الجهلة من المسلمين، وإما هو التّكذيب بآياته، أي بنصوص القرآن القطعية

١- الفخر الرّازي، التفسير الكبير، ١٢/١٧٩.

أو بآياته الدّالة على قدرته ووحدانيته في الآفاق وفي الأنفس.

ثم بيّن الله عاقبة الظّالمين بنفي الفلاح عنهم عامّة فهم لا يفلحون دنيا ولا أخرى، وإذا بدا لكثير من النّاس أن هؤلاء الظّلمة في منعة من قومهم وجبروتهم فإن ذلك من الاستدراج الإلهي لهم، وصدق مولانا إذ يقول: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (الأعراف:١٨٢-١٨٣).

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾:

جملة: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، وتقدير المعنى: واذكر لهم أيها الرّسول يوم يحشرهم الله جميعا في ذلك الموقف المهول. وتوكيد الضّمير بـــ"جَميعاً" ليشمل الفريقين: مشركي العرب والمتعنّتين من أهل الكتاب. وقيل: يشمل المشركين والأصنام التي عبدوها من دون الله، كما جاء في غير هذه الآية من مثل قوله تعالى: ﴿احْشُرُواْ الذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ، مِن دُونِ اللّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ (الصافات:٢٢-٢٣). وبين الحشر واستجوابهم فترة انتظار عصيبة تزيد في عذاب المجرم، ولذلك جاء العطف بـــ"ثم" التي تدلّ على التّراخي.

يوجّه إليهم هذا السّؤال التوبيخي: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، والزّعم ظن يميل إلى الكذب أو الخطأ يكون صاحبه محلّ اتهام بعزوفه عن الحق جهلا أو عنادا. وقد بيّن القرآن الكريم أشكال ذلك الزّعم، فهم يقولون تارة: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر:٣). وتارة يقولون: ﴿هَؤُلاَءِ شُفَعَآؤُنَا عِندَ اللّهِ﴾ (يونس:١٨). وفي أعجز الاحتجاج يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (الزّخرف:٢٣).

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾: والفتنة بمعنى الاختبار، أي أنهم يختارون كيف يجيبون على ذلك السّؤال، وهم في اضطراب وخوف من هول الموقف. ولذلك يبادرون إلى الإنكار مرة أخرى ظنا منهم بأن ذلك ينجيهم من العذاب، فيقسمون بالله أنهم ما كانوا مشركين. وتقدير المعنى: فافتتنوا في ما يجيبون، فكان جوابهم أن قالوا: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾".[1] قال ابن عباس: "إنهم لمّا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا تعالوا لنجحد فقالوا: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثا".

﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾: أمر رسول الله أو سامع القرآن بالنّظر إلى المتحدّث عنهم -وهم الكفار في موقف المواجهة والحساب- كيف يتخبّطون في أجوبتهم بإنكار ما صدر عنهم، وجيء بصيغة الماضي "كَذَبُواْ" للدلالة على التّحقق من الخبر.

والكذب على النّفس هو أخزى ما يصدر عن الكاذب لأنه ينمّ عن خبث الطّوية، وعن الوضاعة الدّنيئة عند الكاذب، تجعله في صراع مع نفسه ليقهرها على التّدسية والدّنس، وذلك منهم أوغل في الكفر والعناد، ثم يزدادون تيها وضياعا أن يغيب عنهم من كانوا يلتمسون منهم النّصرة والشّفاعة من أولئك الشّركاء الذين كانوا يعبدونهم من دون الله. قال تعالى في سورة غافر: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ، مِن دُونِ اللهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ﴾ (غافر:٧٣-٧٤).

والله أعلم

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ١٧٦/٧.

إعراض المشركين وابتعادهم عن تدبّر القرآن

أ)- النص:

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾: أي عند قراءتك للقرآن. ﴿أَكِنَّةً﴾: مفرده كِنان، أي الغطاء، من كن يكنّ: استر. ﴿وَقْرًا﴾: بفتح الواو: الصمم الشّديد، وبكسر الواو الوِقر: الحمل. فهو لازم أو متعد. يقال: وقرت أذنُه ووقر الله أذنه. ﴿أَسَاطِير﴾: مفرده أُسطورة وهو معرّب. ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾: ينهى المشركون عن سماع القرءآن من النّبي ﷺ. ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾: أي يتباعدون ويعرضون عنه.

ج)- البيان والتّفسير:

الضّمير يرجع على المشركين المتحدث عنهم من أول السّورة بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، فبعد أن بيّن الله مواقفهم وكيف اختلفت أحوالهم في الكفر وأسبابه ثم اضطرابهم في موقف الحساب. أتبع ذلك البيان هنا بذكر أحوال عقلائهم وكيف أنهم يريّمون على عامّتهم بأنهم يستطيعون مجادلة الرّسول لأن ما يقوله ويدّعيه من الوحي إن هو إلا من النّوع الذي يعرفه بعضهم

من أخبار الأولين، إذ تذكر الرّوايات في سبب النّزول أن أبا سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، والنّضر بن الحارث، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، وأمية وأبي بن خلف استمعوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا للنضر: يا أبا قتيلة: ما يقول محمد؟ قال: والذي جعلها بيته ما أدري ما يقول، إلاّ أني أراه يحرّك شفتيه ويتكلم بشيء وما يقول إلا أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية. وكان النّضر كثير الحديث عن القرون الأول صاحب أسفار إلى بلاد الفرس، كان يحدث قريشا عن أحاديث العجم فيستملحون حديثه.

قلت: إن كفر أمثال هؤلاء السّادة كان عن مكابرة وعناد وإصرار مسبق في إعراضهم عن التّأمل والنّظر في ما يسمعون ولو شاؤوا لوجدوا في القرآن ما يبكّتهم وينفي أوهامهم ولكن الله تعالى -وهو العليم بحقيقة أمرهم- يبيّن لرسوله أن إيمان هؤلاء ميؤوس منه، لما مضت به سنة الله في طباع خلقه من تأثير الموقف الذي يختاره الإنسان لنفسه في تعامله مع الأشياء والمعطيات التي تتوفّر له، فإذا كان قويّ الشّخصية فإنه لا يكتفي بالظّواهر ولا يقف عنه المألوف المتبع، ولكنه يتحرّر في تأمله وتفكيره فلا يقبل إلا بما يقتنع به بعد التّأمّل والتّمحيص، وهؤلاء على ذكائهم ومنزلتهم الاجتماعية قد حجبت عنهم الحقيقة، فهم لا يسمعون ولا يهتدون، حتى كأن على قلوبهم أكنّة وفي آذانهم وقرا، فهم كما قال تعالى في أمثالهم: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عندَ الله الصُّمُّ الْبُكْمُ الذينَ لاَ يَعْقِلُونَ، وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوَ اَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (الأنفال:٢٢-٢٣).

﴿وَإِنْ يَّرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لاَّ يُومِنُواْ بِهَا﴾: فإذا كان القلب في كنان والأذن في صمم، وهما مسلك الإيمان ومستودعه، فكيف ينفذ نور الإيمان إلى نفوسهم المستغلقة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَآءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الذينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ

﴿الأَوَّلِينَ﴾: ومجيئهم إلى مجادلة الرّسول هو نوع من إظهار النّباهة والعقل أمام أتباعهم، إذ ليس القصد منها معرفة الحق أو الاهتداء إليه، فهم ابتداء منطوون على الكفر، وقد سجّل الله عليهم ذلك بالإظهار عوضا عن الإضمار فقال: ﴿يَقُولُ الذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾، أي إن هذا القرآن هو من نوع الأساطير التي يتناقلونها في مجامعهم، وهو عليهم عمى في ما يزخر به من العلوم الكونية والأخبار الغيبية، التي ما كان الرّسول ولا قومه يعرفونها من قبل.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: وليت هؤلاء وقفوا في مكابرتهم وعنادهم عند أنفسهم الجحودة، بل إنهم نصبوا أنفسهم أوصياء على النّاس ينهونهم عن سماع القرآن، كما قال عنهم في سورة فصّلت: ﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت:٢٦). ثم هم يبتعدون عن مجالس الذّكر خشية سماعه حتى لا يؤثر في نفوسهم بفصاحته وبلاغته.

﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: أي هم في محاولتهم القضاء على الدّعوة القرآنية، إنما يقضون على أنفسهم ويهلكونها، لأن دعوة القرآن ستنتصر لا محالة، ويتقلّص نفوذ الكفر.

وفعلا فإن معظم هؤلاء هلكوا بكيفيات مختلفة، بأيديهم وأيدي المؤمنين، فتحقق بذلك وعد الله، ونفي الشّعور عنهم في آخر الآية دليل على ضعف عقولهم وقصور تفكيرهم وإن كانوا في منازل السّادة العقلاء.

والله أعلم

أماني الكفار في موقفهم أمام النار

أ)- النص:

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ﴾: عرضوا عليها وسُيّروا إليها. ويقال: وقف على الشّيء: تبيّنه وعرفه. ﴿بَدَا لَهُم﴾: ظهر لهم ما كانوا يكتمونه، أي يكونون في عرض مكشوف كما قال تعالى في سورة الحاقة: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَىٰ منكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الحاقة:١٨). ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾: الإشارة إلى البعث والحساب. ﴿فَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾: الذوق للعذاب، استعير للإحساس به. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: أي بسبب كفركم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤمِنِينَ﴾: قرأ الجمهور برفع الفعلين: "نُكَذِّبُ"، "وَنَكُونَ" بعد "لا النّافية" عطفا على "نُرَدُّ"، فيكون ذلك من جملة ما تمنّوه. وقرأه حمزة والكسائي: "نُكَذِّبَ"، "وَنَكُونَ" بنصب الفعلين على أنهما منصوبان في جواب التّمنّي. وقرأ ابن عامر: "وَلاَ نُكَذِّبُ" بالرّفع كالجمهور،

وقرأ "نَكُونَ" بالنصب على جواب التّمنّي والمعنى لا يختلف.

د)- البيان والتّفسير:

بعد حكمه تعالى بالهلاك لأولئك المتنطّعين من السّادة الكبراء الدّائبين على الكفر والعناد، أعقبه ببيان حالهم عندما ينكشف لهم الغطاء فيرون حقيقة ما كانوا ينكرونه من البعث والجزاء فقال: ﴿**وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُومِنِينَ**﴾:

الخطاب موجّه إلى الرّسول تسلية له عما يلاقيه من عنت هؤلاء، كما هو موجّه لكل سامع يتلقى هذا الخبر، والمعنى: لو تشاهد حال الكفار أمام ذلك الموقف المهول، وملائكة العذاب تعرضهم على النّار وهو يشاهدون فظائعها وألوان عذابها. وقد حذف جواب "لو" الشّرطية لأنه يتوصّل إليه من السّياق، كما جيء بالفعل "وُقِفُواْ" ماضيا، وهو بمعنى الاستقبال للتنبيه على تحقيق وقوعه. والتّقدير: لو ترى هؤلاء الكفار حين يُعرضون على جهنم وما يكون من أمرهم لرأيت شيئا عظيما. فيعقب منهم على تلك المشاهدة الأليمة هذه الأماني التي تصدر منهم في حسرة وأسى، لأنهم قد أدركوا أن ما يشاهدونه من الهول إنما هو جزاء تكذيبهم وعنادهم، وأنهم في موقف جزاء لا فرصة فيه لأيّ عمل يقدّمه الإنسان، ولذا فهم يتمنون العودة إلى الدّنيا ليكون ذلك الرّجوع سببا للإيمان وترك التّكذيب، وهذا المعنى بناء على قراءة الجمهور برفع الأفعال المعطوفة على "نُرَدُّ"، وأما قراءة الفعلين: "نُكَذِّبُ"، "نَكُونُ" بالنّصب فلها تأويلات في الإعراب، ولا تبعد عن نفس المعنى.

﴿**بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾:

والإنسان الظّلوم قد يمنّي نفسه بالأماني الكاذبة، فهؤلاء الكفرة صاروا في

موقف الهول على غير ما كانوا عليه في الدّنيا من الأنفة والاستعلاء، إذ أصبحوا أذلاء خاشعين كما وصفهم الله في قوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ (الشورى:٤٥).

فهم يدركون أن ما هم عليه في ذلك الموقف سببه التّكذيب بآيات ربهم وعدم الإيمان به، وكلّ من هؤلاء العتاة قد يبدو له وجه الحق في ما يسمعه أو يراه من الآيات، ولكنه استبقاء لمركزه الاجتماعي يكتم ذلك ويخفيه في الدّنيا، ولكن سلب الاختيار عنه في موقف الحساب يجعله غير قادر على ذلك التريم والمغالطة. بل تواجهه الحقيقة فلا يستطيع إنكارها، وقل عكس ذلك في المنافق الذي كان يظهر الإيمان في الدّنيا ويخفي الكفر وذلك مصداقا لقوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الحاقة:١٨).

وكيفية ذلك الإبداء قد بيّنها الله في كثير من مشاهد يوم القيامة، من أعظمها توضيحا وتفصيلا ما ينشر على صحفهم من أجلّ الأعمال وأدقّها حتى يكون ذلك موضع تعجيب وانبهار من طرف المجرمين حين يقول قائلهم: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً الاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (الكهف:٤٩). ثم إن ألسنتهم وجوارحهم تكون شاهدة عليهم فلا يملكون لها إنكارا: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (النور:٢٤).

﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾: وإمعانا في إبطال تلك المتمنيات الكاذبة يبيّن تعالى حقيقة أمرهم بأنهم يكذبون، إذ لو تحقق لهم ما يتمنّون لعادوا إلى طبيعتهم الأولى من المكابرة والعناد والتّكذيب، ذلك لأن تلك الأماني لم تعتلج في صدورهم إلا عند موقف الهول ظنا منهم أنها تنقذهم منه، بحيث لو تسكن فيهم هواجس الخوف لعادوا إلى ما كانوا عليه من طبيعتهم

الأولى، تلك الطّبيعة التي تركّزت واستقرت على التّكذيب والسّخرية وقد أكدّها الله تعالى بمؤكدين "إن" و"اللام": ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾: الجملة معطوفة إمّا على قوله تعالى: ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ على أن تكون جوابا لـ"لو" أيّ لو ردّوا لكذّبوا بالقرآن أيضا، أو تكون الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، وهي تفيد نفي البعث بصيغة الحصر، والتّقدير: لا حياة لنا إلا حياة الدّنيا. فتكذيبهم بنزول القرآن يجرّهم إلى التّكذيب بالحياة الأخرى، وكلاهما من الأمور الغيبية التي تعتمد على التّصديق القلبي والإذعان لجلال الله و عظمته.

والإيمان باليوم الآخر عنصر أساسي في العقيدة الإسلامية يجعل المؤمن متوازنا في نظرته إلى الحياة الدّنيا، إذ يتخذها معبرا للآخرة فلا يجور ولا يطغى، قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (الشورى:١٨).

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٢٤).

والبعث حياة ثانية هم ينكرونها اعتمادا على استمرار وتيرة الحياة الدّنيا في حاضرهم المشاهَد، إذ يرون أن الأموات يموتون ولا يرجعون، وتقصر مداركهم عن فهم الحقيقة الوجودية في نظرتهم إلى الإنسان والحياة والكون، ولكنهم سوف يقرّون بخلاف ذلك عندما ينكشف الغطاء لهم يوم يقوم النّاس لربّ العالمين فيقولون مستعطفين: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (غافر:١١).

وقد وصف الله حالتهم المرتبكة في هول ذلك الموقف فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

الخطاب للرسول ولكل سامع، وقد تكررت الصّيغة الشّرطية بـــ"لو" تفخيما للأمر واستفظاعا لهول الموقف، إذ شبّهت حالة الكفار في حضورهم للحساب بحالة المقبوض عليه ووقوفه في قفص الاتهام، تستنطقه ملائكة العذاب وهو عبد ذليل أمام سيّده المهيب الجانب، وهو المعنى المجازي الذي تضفيه كلمة "رَبِّهِمْ" على المشهد، والحكم في أمرهم مقصور على الله يومئذ، فتناقشهم الملائكة بهذا الاستفهام التّقريريّ: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾.

والإشارة إلى البعث إذ أصبحوا يعاينونه ويعيشون أهواله، وبذلك أصبح البعث حقا لا مجال لإنكاره، ومن ثمّ جاءت إجابتهم بـــ"بلى" مؤكدة بالقسم: "وَرَبِّنَا". وتمّت بذلك إدانتهم، وتنطق المحكمة الإلهية بالحكم النّهائي الذي لا استئناف فيه: ﴿قَالَ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. وهو مدعّم بذكر السّبب ليكون أنكى وأخزى لهم، وقد استعير الذّوق لقوة الإحساس بذلك العذاب، ولبيس مثوى المتكبرين.

فاللّهم نجّنا من النّار سراعا سالمين، ولا تخزنا يوم يبعثون.

والله أعلم

خسران الكافرين وحسرتهم يوم القيامة

أ)- النص:

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿بِلِقَآءِ اللَّهِ﴾: ظهور آثار رضاه وغضبه دون تأخير ولا إهمال، وهو كناية عن البعث والنشور يوم تنكشف الحقائق بآثارها دون موانع. ﴿جَآءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾: الساعة لغة: الزمن القصير المعيّن بعمل يقع فيه، وفي المصطلح الدّيني: هو الوقت الذي ينقضي به أجل الحياة الدّنيا بخراب هذا العالم. ﴿بَغْتَةً﴾: من بغته الأمر، إذا نزل به فجأة. ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾: الحسرة شدة التألّم والندم على ما فات. ﴿فَرَّطْنَا﴾: أي قصّرنا في ما كنا نقدر على عمله. ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾: الأوزار: مفرده وِزْرٌ، وهو الحمل الثقيل، وهنا معناه الذّنوب والآثام، والفعل منه "يزرون". ﴿سَآءَ﴾: فعل ذمّ أُشرب معنى التعجّب كفعل "بئس" للذم، وقد يجيء متعديا فيقال: ساءه فعله أي أحزنه. ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾: اللّعب: العمل الذي لا يحقق نفعا ولا يدفع ضرّا، واللّهو: هو ما يشغل الإنسان عما يعينه ويهمّه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾: قرأ جمهور العشرة: "وَلَلدَّارُ" بلامين، لام الابتداء

ولام التّعريف. وقرأوا: "الآخرةُ" بالرّفع. وقرأ ابن عامر: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ﴾ بلام الابتداء فقط، وبإضافة "دار" منكّرة إلى الآخرة، فهو من إضافة الموصوف إلى الصّفة، أو هو على تقدير مضاف تكون الآخرة وصفا له. والتّقدير: "دار الحياة الآخرة".

د)- البيان والتّفسير:

بعد استعراض ذلك المشهد المهول من وقوف الكفّار على النّار، واستنطاقهم أذلاء خاشعين أمام ربّهم، ثم تبكيتهم بعذاب جهنم جزاء كفرهم، قال تعالى:

﴿قَدْ خَسِرَ الذينَ كَذَّبُواْ بِلقَآءِ اللهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾:

بيّن الله تعالى في هذه الآية الكريمة مبلغ خسارتهم بصفة عامّة بحذف مفعول "خسر" ليشمل كل أنواع الخسران. وسبب ذلك هو تكذيبهم بلقاء الله، أي بيوم البعث والحساب يوم يعرضون على الله تعالى وهم لا يملكون شروى نقير من الإيمان والعمل الصّالح، وهما صمام الأمن وحبل النّجاة في ذلك الموقف المهول، يقول تعالى في سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الانسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾ (١-٢-٣).

وهذا الحكم بالخسارة على الإنسان ما لم يتزوّد بالإيمان والعمل الصّالح لرحلته الأبدية قد تكرّر في القرآن بالأساليب المختلفة، مثل قوله تعالى في سورة الزّمر: ﴿قُلِ انَّ الْخَاسِرِينَ الذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (١٥). وقوله في سورة الكهف: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالاَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾

(١٠٣-١٠٤).

والذي أفضى بهم إلى تلك الخسارة هو تكذيبهم بلقاء الله وهم الذين كانوا يقولون: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ (الأنعام:٢٩).

وقد ورد التعبير بلقاء الله في آيات وسور كثيرة من القرآن الكريم، وهو كناية عن انكشاف الحقائق بآثارها دون موانع من كثافة المادّة كما كان في الدّنيا، فتنكشف للناس من أعمالهم من كوامن نفوسهم ما كان خفيًا عنهم، إما بالغفلة والجهل، وإما بالتّنطّع وفساد التّأويل. قال قطب الأئمة في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة:٤٦).

قال: "ملاقو حسابه بعد البعث".[1]

والتّكذيب بالبعث والجزاء الأخرويّ ينجرّ عنه ما بيّنته الآية الكريمة من الخسران، إذ الكافر المنكر لليوم الآخر ينحصر همّه في الاستمتاع بشهوات الدّنيا ولذّاتها، فيلهيه ذلك عن التّأمّل الواعي للتعرّف على حقيقة الدّنيا وأنها متاع قليل، ومتاع الغرور كما وصفها القرآن الكريم، والكافر لا يزال في سكرته سادرا حتى يفاجئه الموت وهي القيامة الصّغرى لما جاء في الحديث: «**من مات فقد قامت قيامته**»[2] فعندئذ تحصل النّدامة والحسرة لمن كذّب بلقاء الله، لأن الموت هو أول خطوة في الحياة الأخرى، وعند قيام السّاعة الكبرى تتضاعف تلك الحسرة، إذ يشعر المجرم بفداحة الخسارة التي تسبّب هو فيها بتقصيره، وذلك عندما يشاهد نجاة ونعيم أهل الفلاح، وهو يعلم أن ما هم فيه من ذلك النعيم إنما هو جزاء جهدهم

١- احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التّفسير، ١/٩١.

٢- رواه الأصبهاني في حلية الأولياء موقوفا على أنس بن مالك، حديث ٨٨٦٦؛ ورواه أيضا من قول عمر بن عبد العزيز، حديث ٧٥٩٤. ورواه الطبري في جامع البيان في تفسير سورة القيامة، موقوفا من قول علقمة.

وصبرهم في طاعة ربّهم، فلا يملك إلا أن يتحسّر على ما فرّطه في جنب الله كما قال في سورة الزّمر: ﴿وَاتَّبِعُواْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ، أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ (٥٥-٥٦). والتّفريط كان منهم في الدّنيا بالفسوق والعصيان، والذي ينتج عنه خسارة الفوز في الآخرة.

وإكمالا للصورة السّيئة من الخيبة والخسران قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾، ولتشخيص عنتهم النّفسي وتوبيخ الضّمير يتمثلون في هيئة من ناء ظهره بحمله الثّقيل، وهو لا ينفكّ عنه إيلاما وإعناتا، أو هو على القول بتجسّم الأعمال والمعاني في الآخرة، فقد روى جرير الطّبريّ وابن أبي حاتم عن السّديّ أن الأعمال القبيحة أعمال الظّالم تتمثل بصورة رجل قبيح الوجه أسود اللّون منتن الرّيح يحمله صاحبه يوم القيامة. وعن عمرو بن قيس الملائي: "تتمثل الأعمال الصّالحة بصورة رجل حسن الصّورة طيّب الرّيح يحمله صاحبها يوم القيامة". فما أسوأ ذلك الحمل وما أشقى صاحبه.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾: والعطف هنا من باب عطف البشارة على حكاية النّذارة بيانا للمؤمنين لقيمة تلك الزّخارف الدّنيوية التي اغترّ بها أولئك المنكرون الجاحدون، وأن العاقبة للمتقين لما يجدونه من نعيم الآخرة، ولا يدرك ذلك إلا العاقلون الموفّقون.

وصيغة القصر للحياة الدّنيا على أنها لعب ولهو تكرر في القرآن بنفس التّرتيب في أنها لعب ولهو وبعكسه وبزيادات شؤون أخرى، كقوله تعالى في سورة الحديد: ﴿اعْلَمُواْ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ﴾ (٢٠)، هي في عاقبتها كاللّعب واللّهو لا تنجرّ عنهما أية فائدة. ويقول الحكماء في فلسفة اللّذة والألم: إن جميع لذات الدّنيا سلبية إذ هي إزالة لآلام

الجوع والعطش والحرّ والبرد والمتعة الجنسية إنما هي تسكين لداعية الشّبق وحرارة الشّهوة البهيمية...إلخ. وأما نعيم الآخرة فهو نعيم إيجابي غير مشوب بشيء من الآلام، زيادة على كونه دائما باقيا. قال تعالى في شأنها: ﴿لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر:٤٨).

﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾: والتّعقيب على ذلك الوصف الدّنيويّ بخيرية الدّار الآخرة للذين اتقوا ثم كونها دارا لهم، يدلّ أوّلا على نعيم الاستقرار والاطمئنان لأن الدّار هي مبعث السّكن للنّفس كما قال تعالى: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً﴾ (النحل:٨٠). ووجه الخيرية فيها أنها جزاء للمتقين لما قدّموه من أعمال في الحياة الدّنيا هي أبعد ما تكون عن اللّعب واللّهو، مما اشتغل به أولئك الكفّار المنكرون للبعث.

وقوله: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ موجّه لكلا الفريقين والاستفهام فيه للتّوبيخ بالنّسبة للمشركين، وللتحذير والتّنبيه بالنّسبة للمؤمنين، حتى لا يغفلوا عن تلك الحقائق الوجودية الكبرى، والعقل هو المنة العظمى من الله لبني الإنسان وما يعقل آيات الله إلا العالمون، والله أعلم.

تسلية الرّسول في حزنه لإعراض قومه

أ)- النص:

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

"قد" تفيد التّحقيق تدخل على الماضي والمضارع، وهي أيضا تفيد التّقليل، وذلك بحسب دلالة المقام. ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾: الحزن هو ألم نفسّي تتعدّد أسبابه كفقد محبوب أو امتناع مرغوب فيه، أو حدوث مكروه ...إلخ. ﴿الذي يَقُولُونَ﴾: مما يدلّ منهم على التّكذيب، استعمل الاسم الموصول هنا تنزيها للرسول من استعمال لفظ "التّكذيب"، ومن أقوالهم تلك: إنه ساحر، أو إنه مجنون، أو إنه شاعر ...إلخ. ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾: بسكون الكاف وتخفيف الذّال، وقراءة الجمهور بفتح الكاف وتشديد الذّال ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾، يرى بعض اللّغويين أنهما بمعنى واحد وقيل: إن أكذبه بمعنى وجده كاذبا أو نسبه إلى رواية الكذب، وكذبه من التّكذيب وهو الرّمي بالكذب بمعنى إنشاء الكذب منه أو نقله وروايته. ﴿يَجْحَدُونَ﴾: من الجحود يتعدّى بنفسه وبالباء، وتعديته بالباء لتأكيد تعلّق الجحد بالمجحود، والجحود هو الإنكار لما هو معلوم، أي إنكار عن مكابرة وعناد. ﴿أُوذُوا﴾: من الأذى وهو ما يسوءك ولو إساءة مّا كقوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى﴾ (آل عمران:١١١). وآذاه أذاة وأذيّة: ألحق به الأذى. ﴿لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾: هي إما وحيه لرسله، أو وعده ووعيده. "النّبأ": الخبر ذو الشّأن العظيم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ﴾: قرأ نافع وأبو جعفر: ﴿لَيُحْزِنُكَ﴾ بضمّ الياء وكسر الزّاي وقرأه الباقون بفتح الياء وضمّ الزّاي. يقال: أحزنت الرّجل بهمزة تعدية لفعل: "حزن"، ويقال: "حزنته" أيضا. وعن الخليل: أن حزنته معناه جعلت فيه حزنا كما يقال: دهنته. وأما التّعدية فليستِ إلا بالهمزة. ﴿فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ﴾: قرأ نافع والكسائي وأبو جعفر: ﴿لاَ يُكْذِبُونَكَ﴾ بسكون الكاف

وتخفيف الذال. وقرأ الجمهور بفتح الكاف وتشديد الذال. وقد قال بعض أئمة اللّغة: إن أكذب وكذّب بمعنى واحد، أي نسبه إلى الكذب. وقال بعضهم: أكذبه بمعنى وجده كاذبا، كما يقال: أحمده وجده مَحمودا. وأمّا كذّب -بالتّشديد- فهو لنسبة المفعول إلى الكذب.

د)- البيان والتّفسير:

تذكر الرّوايات أن سبب نزول هذه الآية هي ما قاله أبو جهل للرسول في معرض السّخرية: إنا لا نكذّبك، ولكن نكذّب بما جئت به. وقيل: إن حوارا جرى بين أبي جهل والأخنس بن شريف وأبي سفيان حين سمعوا قراءة رسول الله خفية باللّيل، وقد تأثروا ببيان القرآن، فتناقشوا في صدق ما سمعوه فقال أبو جهل للأخنس: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشّرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا، حتى تجاثينا على الرّكب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السّماء فمتى ندرك هذه، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه. فقام الأخنس عنه وتركه.

ورويت مقولات لأشخاص آخرين من رؤساء القوم، وهذه الرّوايات توضّح ما تقدم من أوّل السّورة من مكابرة المشركين وإعناتهم لرسول الله بمختلف طلباتهم التّعجيزية سيما رؤساء القوم وكبراؤهم ممن يعتقدون صدق الرسول، ولكنهم لفداحة ظلمهم ينكرون ظاهريا ما يعتقدون أنه حق استبقاء لمنزلتهم الاجتماعية كما يدلّ عليه ردّ أبي جهل للأخنس بن شريف، وكما دلّ على هذا المعنى قوله تعالى في شأن بني إسرائيل في سورة النمل: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ (النمل:١٤).

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ

﴿فَإِنَّهُمْ لاَ يُكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾: وما أكثر ما تردّد في كثير من سور القرآن العظيم حزن رسول الله حين يعرض عنه قومه، وهو موقف سلبي تعدّدت دوافعه بين طوائف المشركين حين يسمعون البلاغ ويعرضون، فكيف بأولئك الذين يجابهونه بالأذى قولا وفعلا في علوّ واستكبار؟. والرّسول بشر له إحساس بالأذى، وكان من فرط رحمته ورأفته بقومه ﷺ يغمّ لمن أعرض عن دعوته، لأنه يتمثّل مقعده من النّار. فمثل هذه التّسلية للرسول ضرورة ملحّة للتخفيف من حزنه وتثبيت قلبه، إنها تسلية من لدن القويّ العزيز، وهو أعلم بطبائع خلقه، تسلية لا تحمّل فيها ولا هي من باب التّفاؤل والترجّي، إذ هي من علم الله كاشف الضّرّ وعلاّم الغيوب، فقد أخبر رسوله بأن هؤلاء لا يكذبونه، لأنهم لا يعتقدون كذبك ولا يتّهمونك في صدقك وأمانتك، ولكنهم بدافع الظّلم لأنفسهم ولغيرهم فإنهم يجحدون بآيات الله المنـــزّلة عليك أن تكون حقا من خبر السّماء. ولهذا فتصبّر أيها الرّسول فإن الله مؤيّدك وناصرك.

ثم أمره بالتّأسّي فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ الْمُرْسَلِينَ﴾:

يذكّر الله رسوله بما وقع للرسل من قبله، إذ قصّ عليه قصصهم بأساليب مختلفة بيّن فيها سننه في الدّعوات، وأن طريقها شاقّ طويل، وأهلها معرّضون للأذى في كل مسلك وسبيل، وأن الصّبر والتّحمّل هما الزّاد الذي لا ينفد في تلك الرّحلة الطّويلة حتى يفضي صاحبها إلى النّصر المحقق. وتلك هي سنة الله التي لا تتبدّل. فاصبر يا محمد على لأواء الطّريق، وتأسّ بأولئك الأفذاذ من الصّفوة البشرية، ففي التّأسّي العزاء مهما اشتدّ الخطب وعظم البلاء. ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَّهُمْ﴾ (الاحقاف:٣٥). ويقول تعالى في سورة

هود: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٩).

بمثل هذه التوجيهات الكريمة مضى رسول الله وأصحابه في جهادهم وصمودهم حتى كتب الله لهم النصر، وأتمّ الله نعمته وأكمل دينه، فهل يتأسّى بذلك الدّعاة المخلصون لدين الله؟. فطوبى للمتأسّين الصّابرين، والله أعلم.

عجز الرّسول عن الإتيان بآية، وأصناف النّاس في الاستجابة

أ)- النص:

وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿كَبُرَ عَلَيْكَ﴾: شقّ عليك الأمرُ، أصله عِظم الجثّة، ثم استعمل مجازا في الأمور العظيمة الشّاقة. ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾: أي انصرافهم عمّا جئت به من الرّسالة. ﴿تَبْتَغِيَ﴾: الابتغاء طلب ما فيه مشقة وكلفة. ﴿نَفَقًا﴾: النّفق: سرب في الأرض له مدخل ومخرج، ونافقاء اليربوع هو جحره في الأرض يتخذ له عدة مخارج. ﴿سُلَّمًا﴾: السلّم آلة الارتقاء ويقال: مرقاة، مدرجة. ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾: يكون

الجهل بمعنى ضدّ العلم، وبمعنى ضدّ الحلم. ﴿يَسْتَجِيبُ﴾: ويجيب استجابة وإجابة قيل: إنهما بمعنى واحد، وقيل: إن الاستجابة هي التهيّؤ للجواب والإجابة هي حصول الفعل المطلوب حقيقة أو ادعاء دفعة واحدة. ﴿الذِينَ يَسْمَعُونَ﴾: أي سماع تدبّر واعتبار وثمرته العمل.

ج)- البيان والتّفسير:

كان إعراض القوم عن دعوة الرّسول مبعث حزنه وأساه شفقة منه على سوء مصيرهم، وفي معرض تسلية الله له جاء عطف هذه الجملة على قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذِي يَقُولُونَ﴾، والجملة مصدرة بأداة الشّرط "إن" مفصولة بـــ"كان" بينها وبين فعل الشّرط ليبقى على معنى المضيّ، وقد أخبر الله تعالى رسوله من أوائل السّورة أن هؤلاء الكفار لا ينقلعون عن إعراضهم مهما حاول معهم في التّبليغ والإقناع، ولشدة حرصه ﷺ على هدايتهم ربّما تمنّى من الله لو آتاهم ببعض ما طلبوه، فأراد الله تعالى أن يؤكد لرسوله أن هؤلاء ميؤوس من إيمانهم، وقد سبق في علم الله ذلك أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية. فقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾:

والمعنى إن عظم ذلك في نفسك -أيها الرّسول- وكنت تستطيع أن تأتيهم بآية مما يطلبون تغوص عليها في أعماق الأرض أو تبحث عليها في السّماء حتى يصدّقوك بسببها فأفعل وائت بها، ولكنك لا تستطيع ذلك لأنك بشر محدود الحيلة والقوة.

وقد فصّل الله هذا المعنى في سورة الإسراء أكثر فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن

نُّومِنَ لَكَ حَتَّىٰ تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَاتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَآءِ وَلَن نُّومِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً﴾ (الإسراء: ٩٠-٩١-٩٢-٩٣).

أما وقد تعلّق ذلك بمشيئة الله وإرادته كما اقتضت حكمته وسنّته في خلقه أن يجعلهم متفاوتي الإدراك مختلفي الاستعدادات في الكسب والاختيار، فتذكّر ذلك -أيها الرّسول- ولا تنسه، فلا يضق صدرك لإعراضهم ما دام ذلك من حكمة الله البالغة في تصريف شؤون خلقه.

يقول صاحب المنار في توجيه معنى نهي الرّسول أن يكون من الجاهلين يقول: "فوصف الجاهل غير ذمّ، وكان عدم علم خاتم الرّسل بالكتابة من أركان آياته، وعدم علمه من أدلة الوحي وبيّناته، وكان ما يتوقف علمه على الوحي الإلهي لا يكون جهل الرّسول إياه قبل نزوله عليه عيبا يذمّ به، إذ لا يذمّ الإنسان إلاّ بما يقصّر في تحصيله وكسبه، وقد أمر الله تعالى رسوله بأن يسأله زيادة العلم، وكان يزيده كل يوم علما وكمالا بتنـــزيل القرآن وبفهمه، وبغير ذلك من العلم والحكمة".[1]

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾: جاء هذا الإخبار الإلهي لتأكيد مشيئة الله في جمع النّاس على الهدى أو عدم جمعهم وفق ما تقتضيه حكمته، فبيّن في هذه الآية بصيغة الحصر "إِنَّمَا" الصّنف الذي له قابلية الاستجابة وهم الذين يسمعون كلام الله ويجيبون دعوة الرّسول، وهم الذين يتدبّرون آيات القرآن وتقشعرّ جلودهم لذكر الله، لأن قلوبهم واعية ونفوسهم حيّة

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٣٨٢/٧- ٣٨٣.

مشرقة بنور هداية الله، أمّا موتى القلوب والأرواح فهم على إعراضهم مقيمون، وقد شبّههم الله بالموتى، فلا يرجى منهم إيمان، فهم مقابل أولئك الذين يسمعون ويستجيبون، فالموت استعارة لمن لا ينتفع بعقله ومواهبه.

وقد أكمل الله ذلك التّشبيه للصنفين في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:١٢٢)، فهؤلاء يترك أمرهم إلى الله، فهو القادر على أن يحملهم على الهداية، كما يبعث الأموات من قبورهم يوم الجزاء، لأن الرّجوع إليه وحده، وفي ذكر الرّجوع إلى الله إيماء إلى البعث الذي أنكره هؤلاء الرّاسخون في الكفر.

﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ قُلْ انَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾:

انتقل السّياق إلى إجمال ما يطلبه المشركون من إنزال خارقة للعادة مادية تكون دليلا على صدق الرّسول، وقد فصّل الله ذلك من أول السّورة، وجادلهم وكذّب دعاويهم وبيّن أن إعراضهم ليس منشأه أن دعوة الرّسول تفتقر إلى دليل ماديّ كما كان يقع في الرّسالات السّابقة، وإنما منشأه التّعنّت والعناد من جهة، والجهل بسنن الله في إنزال مثل تلك الآيات من جهة أخرى، وحكمته تعالى في أن يكون القرآن الكريم حاملا لآيات صدقه بما ينطوي عليه من البيان والفصاحة المعجزة وبما يحمله من أنواع العلوم ليست في متناول البشر، حتى تبقى معجزته لكل الأجيال، والله تعالى قادر على إنزال تلك الآيات لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء، ولكن هؤلاء القوم لا يدركون أن عدم استجابتهم لما يطلبون هو محض الرّحمة والعناية الإلهية لرفع عذاب الاستئصال عنهم، ثم إمهالهم عسى أن تخرج من أصلابهم من يكون مؤمنا موفيًا ينتصر به الإسلام وتعلو به كلمة الله، وذلك ما

حدث بالفعل مما أثبته التّاريخ ببروز أبطال مغاوير كانت لهم اليد الطّولى في الفتوحات الإسلامية المتتالية، والله أعلم.

تمام علم الله وقدرته في كفالة أرزاق المخلوقات وتقدير خصائصها للبشر

أ)- النص:

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿دَآبَّةٍ﴾: من دبّ يدبّ إذا مشى في الأرض، والدّبّ والدّبيب المشي الخفيف، والمقصود كل الحيوانات صغيرها وكبيرها برّية أو بحرية، كما تشمل الإنسان العاقل. ﴿طَٰٓئِرٍ﴾: كل ذي جناح يسبح في الهواء، وقوله تعالى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ ليشمل كل ما يطير حقيقة لا مجازا. ﴿أُمَمٌ﴾: جمع أمّة: الجماعة من النّاس المتماثلة في صفات ذاتية أي في مقوّماتها، ومماثلتها للإنسان يكون في تدبير شؤونها كما ألهمها الله تعالى كالنّحل والنّمل مثلا. ﴿فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ﴾: التّفريط: التّقصير في أمر ما وتضييعه حتى يفوت، يقال: فرّطه وفرّط فيه، والفرَط: هو الذي يتقدم الإنسان كما قال ﷺ في الأولاد الصّغار الذين يتوفّاهم الله: «**هم فرطُكم على الحوض**». أي إذا صبر الوالدان على موتهم.

ج)- البيان والتفسير:

أمر الله تعالى رسوله أن يقول للذين رغبوا في إنزال آية خارقة للعادة: ﴿قُلِ انَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَنْ يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾، وهو لا يترلها لما فيه مصلحة الرّاغبين في ذلك أنفسهم، ثم محافظة على حكمته تعالى في خلقه، وللتدليل على تلك القدرة الإلهية عطف عليها هذه الجملة فقال جلّ من قائل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَآئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ اَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾:

الخطاب موجّه لأولئك المعاندين المتكبّرين لينبّههم إلى بديع صنع الله وتدبّر قدرته في ما حولهم من الوجود، وما يحتويه من الأحياء، سواء منها ما يدبّ على الأرض أو ما يطير في جوّ السّماء، فهم ليسوا وحدهم في هذا الوجود، وهم لم يخلقوا فيه سدًى، وإن كانت لهم ميزة من عقل وإدراك أو إنجاز في مجال الحضارة والتّنظيم، لأن ما حواليهم من المخلوقات -وإن صغر شأنها في نظرهم- فإنها على شاكلتهم في الخصائص الفطرية التي تميّز كل نوع عن غيره، بحيث أن الله تعالى قد ألهمها كيف تدبّر شؤونها وتكتسب أقواتها وتكافح لأجل بقائها، فهي وإياكم مخلوقات لله كما قال تعالى على لسان موسى وهو يلقن لفرعون مبدأ التّوحيد ومعرفة الله فقال جوابا لسؤال فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ، قَالَ رَبُّنَا الذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طـه:٤٩-٥٠).

والله تعالى لم يبيّن وجه المماثلة بيننا وبينها ليبقى المجال مفتوحا للتأمّل والنّظر والبحث سوف لا ينتهي في مجال محدود، وكم تعدّدت اليوم التّخصّصات في علم الأحياء، وتيسّرت فيه أسباب البحث، فتأيّدت بذلك هذه الأخبار الإلهية التي تضمّنها كتابه الكريم في توجيه نظر الإنسان إلى استجلاء آيات قدرته في الأنفس والآفاق، ونرى أن المناسبة جدّ وطيدة بين الآيتين المتعاطفتين، لأن الذي خلق هذه

الكائنات كلها وقدّر لها أرزاقها وألهمها تدبير شؤون حياتها كما ألهم هذا الإنسان الخصيم لربّه لا يعجزه أبدا أن يأتي بما يقترحه أولئك المعاندون، ولكنهم لاستغلاقهم في الجحود والعناد لا يدركون الحكمة في ذلك.

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾: جملة معترضة، جاءت لتأكيد علم الله وقدرته الشّاملة المحيطة بكل ما في أرجاء الكون خلقا وإيجادا وتدبيرا وتصريفا، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السّماء، أي كل ذلك مقدّر في علمه وتدبيره لا تفريط فيه ولا تقصير.

على أن المراد بـ"الكتاب" في الآية الكريمة العلم الإلهي الشّامل الكامل، والنّكرة في سياق النّفي للاستغراق، وذهب بعض المفسّرين أن المقصود من الكتاب هو "القرآن" وأن معنى العموم في كل شيء يراد به أحكام الدّين، وهو بمعنى قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ (المائدة:٣). ويؤيّد الوجه الأول قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (٠٦)

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾: ذهب المفسّرون في معنى الحشر هنا باعتبار كل الكائنات إلى مذهبين:

أ- أن الضّمير في الآية يرجع إلى الدّوابّ والطّير، ونكتة جعلهما من ضمائر العقلاء تشبيه أممهما بأمم البشر العقلاء، ويرى ابن عبّاس أن حشر البهائم هو موتها.

ب- أن الضّمير يرجع إلى الأمم المذكورة من النّاس والحيوان دابّا أو طائرا، أي أنهم يساقون جميعا إلى المحشر ليحاسب الله كلاّ على ما فعل، فأما العقلاء فمصيرهم إلى الجنة أو النّار، وأما البهائم فتصير بعد حسابها ترابا والله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ (التكوير:٥). كما رويت أحاديث عن رسول الله في الموضوع، فقد روى الإمام أحمد عن أبي ذرّ «**أن رسول الله رأى شاتين تنتطحان**

فقال: يا أبا ذرّ هل تدري فيم تنتطحان؟ قال: لا. قال: لكن الله يدري، وسيقضي بينهما».[1] كما روي عن أبي هريرة قوله ﷺ: **«لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشّاة القرناء».**[2]

يقول ابن عاشور تعليقا على هذين الحديثين: "وإذا كان المراد من هذين الحديثين ظاهرهما فإن هذا مظهر من مظاهر الحق يوم القيامة لإصلاح ما فرط في عالم الفناء من رواج الباطل وحكم القوة على العدالة، ويكون القصاص بتمكين المظلوم من الدّوابّ من ردّ فعل ظالمه كيلا يستقرّ الباطل، فهو من قبيل ترتّب المسبّبات على أسبابها شبيه بخطاب الوضع، وليس في ذلك ثواب ولا عقاب لانتفاء التّكليف، ثم تصير الدّوابّ يومئذ ترابا كما ورد في رواية عن أبي هريرة في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ (النبأ:٤٠)."[3]

فالآية الكريمة كما ترشدنا إلى ضرورة البحث في طبائع هذه المخلوقات لمعرفة قدرة الله وعظمته من خلال ذلك، فهي ترشدنا أيضا إلى الرّفق بكل الحيوانات، لأنها أمم أمثالنا تتأذّى وتتألّم إذا عذّبناها، وتستأنس بنا إذا نحن ترفّقنا في معاملتها وإن كانت متوحّشة، اللّهم إلا ما أجازت الشّريعة قتله من الهوام السّامّة والكلب العقور ...إلخ. فكم استأنس الإنسان من حيوانات متوحشة وسخّرها لخدمته واصطحبها في الحظائر والبراري.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾:

١- رواه أحمد في المسند من حديث أبي ذر، مسند الأنصار، حديث ٢٠٩٧٧.

٢- رواه مسلم من حديث أي هريرة، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث ٤٨٠٧.

٣- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير التنوير، ٢١٥/٧.

كلام مستأنف لوصف الكفار المتحدث عنهم في السّياق المتقدم جملة وتفصيلا، أو هو معطوف على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ (الأنعام:٣٦). فهؤلاء الذين عطّلوا عقولهم عن التّأمّل والتّفكير في مخلوقات الله هم كالصمّ والبكم تائهون في الظّلمات: ظلمة الجهل والكفر وظلمة الكبر والعناد. فهم لا يهتدون بتلك الدّلائل المبثوثة في أرجاء الكون مع وضوحها، ذلك لأن الله تعالى قدّر في علمه الأزليّ أنهم باقون على ضلالهم وكفرهم، فهم معرضون عن الحق في كل حالة لا ينفع فيهم إرشاد ولا نصح، ويكون ذلك وفق ما اختاروه لأنفسهم، وليس ذلك الإضلال بمكره عليه بأمر من الله -حاشاه- لأن الله لا يأمر بالفحشاء والمنكر، وإنما ذلك من تصرّفات قدره تعالى، لا يعلم سرّه وحكمته إلا هو، كما أنه تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم في معرفة الحق والخير وفق استعداداته الفطرية لاتباع أسباب الهداية، وهو حرّ مختار في كسبه وليس في الآية معنى الجبر والإكراه، والله أعلم.

اللّجوء إلى الله في الشّدائد

دليل على غريزة التّوحيد الفطرية

أ)- النص:

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ

حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

ب)-التّحقيق اللّغوي:

﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾: بمعنى أخبروني عند جمهور اللّغويين، "التّاء" فيها ضمير رفع، و"الكاف" و"الميم" لمجرّد الخطاب، وتبقى "التّاء" مفتوحة في المؤنث والمثنى والجمع. وفي المعنى هي تفيد التّعجيب والاستغراب مما يأتي بعدها. ﴿عَذَابُ اللَّهِ﴾: أي عذاب الاستئصال كالذي نزل على من قبلكم. ﴿السَّاعَةُ﴾: أي القيامة بأنواعها الثّلاثة: الصّغرى والوسطى والكبرى حسب البيان المتقدم. ﴿بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾: الأخذ بهما بمعنى إنزالهما بهم، والبأساء يقول فيها الرّاغب: البؤس والبأس والبأساء: الشّدة والمكروه، إلا أن البؤس في الفقر والحرب أكثر، والبأس والبأساء في النّكاية. والضّراء فعلاء من الضّرّ، وهو ضدّ النّفع، وتطلق على الجدب والأذى وسوء الحال حسيًا كان أو معنويًا. ﴿تَضَرَّعُوا﴾: إظهار الخضوع والتّذلّل. ﴿مُبْلِسُونَ﴾: من الإبلاس أي الوجوم والسّكوت عند طلب العفو يأسا من الاستجابة، أي يبقون متحيّرين يائسين من النّجاة. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ﴾: والدّابر هو الماشي وراء القافلة بمعنى أدركهم الفناء كلهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾: قرأ نافع في المشهور بتسهيل الهمزة ألفا، وعنه رواية بجعلها بين الهمزة والألف. وقرأه الكسائي بإسقاط الهمزة التي هي عين الكلمة فيقول: "أريْت" وهي لغة. وقرأه الباقون بتحقيق الهمزة. ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾: قرأ الجمهور: ﴿فَتَحْنَا﴾ بتحفيف المثناة الفوقية. وقرأه ابن عامر وأبو جعفر

ورويس عن يعقوب بتشديدها للمبالغة في الفتح بكثرته، كما أفاده قوله: ﴿أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

د)- البيان والتّفسير:

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾:

كلام مستأنف مفتتح بفعل "قُل"، يأمر الله فيه رسوله بتوجيهه إلى المشركين في معرض التّهديد والوعيد، بعد أن بيّن الله تعالى كمال قدرته وإحاطة علمه بكل ما في الكون، وأوضح جهل الكفار وبعدهم عن أسباب الهداية، وأنه تعالى يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء وفق ما تقتضيه حكمته وما قدّره في علمه الأزلي، وفي هذا السّياق يذكّر المشركين بما أودع الله في أصل فطرتهم من الإيمان بالله وتوحيده، وهو ما يسمّيه العلماء بـ"عالم الذّرّ في أصلاب الآباء"، والذي تفصح عنه آيات الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ (١٧٢). وسيأتي بيان ذلك -إن شاء الله-. يواجههم بنداء الفطرة حين تثوب إلى رشدها وتنكشف على حقيقتها، وذلك في مواقف الهول والخطر، إذ تعجز حيلة الإنسان، وتنقطع عنه أسباب النّجاة، فلا يجد ملاذا إلا في كنف الله، ولا يتوجّه بدعائه الضّارع إلا إليه، وحينئذ يضلّ عنه من كان يدعو من دون الله، مهما كان نوع ذلك الشّرك أو الكفر.

وقد صوّر القرآن الكريم يقظة الفطرة في ذات الإنسان عند اشتداد الهول عليه وفي مواقف الشّدة وأغلبها في تصوير أهوال البحر عند هبوب العواصف كما جاء في السّور: الإسراء، يونس، لقمان، الرّوم ...إلخ.

وبما أن مشركي مكة لم يتوغّلوا في دركات الشّرك بحيث يجحدون وجود الله تماما ويعبدون مخلوقات أخرى لذاتها، بل هم يعتقدون بوجود الله واتخذوا من تلك الأصنام وساطة بينهم وبين الله يتقرّبون بها إليه: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ (الزمر:٣) حفاظا على تقاليدهم الموروثة، فالرّسول إنما يذكّرهم بما يشعرون به هم أنفسهم عندما يواجهون هولا من الأهوال كيف يلجأون إلى الله، وكيف لا يرجون من شركائهم نفعا في تلك الحالة، يذكّرهم بالسّؤال التقريري، ثم يجيب عنه بما هو المقصود من نداء الفطرة السّليمة عندما تزيل المحنة والشّدة ما ران عليها من أوضار الشّرك. يجيب بأنهم عندئذ لا يدعون أحدا غير الله، فيكشف ذلك عنهم إن اقتضت حكمته ذلك، إذ لا قادر غير الله يستطيع ذلك في معتقدكم متى صدقتم نداء الفطرة، ولذلك تخصّونه بالدّعاء وحده، وتنسون ما كنتم تدعون من دونه.

وقد مثّل الله تعالى للهول الشّديد بما نزل على الأمم الخوالي من عذاب الاستئصال، وبأهوال قيام السّاعة، والعرب لهم إلمام ببعض تلك الأهوال.

﴿وَلَقَدْ اَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾:

بعد تهديد المشركين المنحرفين عن نداء الفطرة بما يتوقّع من عذابهم حسب مشيئة الله، ساق الله هذا المثل بما حدث للأمم السّابقة من عذاب الاستئصال بعد استدراجهم وإنذارهم، وافتتحت الجملة بـــ"لام" القسم و"قد" لتوكيد مضمونها، وهي تقرّ سنّة الله في خلقه بالاختبار والابتلاء بأنواع الشّدائد علّهم يرجعون عن غيّهم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ اَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي أرسلنا إليها رسلا مثل ما أرسلناك إلى قومك، ولكنهم أصرّوا وامتنعوا عن الاستجابة فبلوناهم بالبأساء

والضّراء جريا على سنّتنا في تربية النّاس بالشّدائد، ولكن قد لا يؤثر ذلك في بعضهم ممن تقسو قلوبهم بحيث لا تلينها الشّدائد والمصائب.

فقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: والقلب الإنساني إذا تحجّر بما ران عليه من ظلمات الجهالة والكفر فإنه لا رجاء في صلاحه، وبالتالي فإن الأجساد التي تحمل تلك القلوب لا تنصر حقا ولا تؤمن بدين، إذ تصبح قرينة للشّيطان يزيّن لها ويغريها لمزيد من الفسوق والضّلال، وأداة "لولا" للتحضيض، أي هلاّ تضرّعوا إلى الله حين جاءهم البأس لينذرهم، ولكن أنّى للقلوب المتحجّرة أن تتعظ، فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾: يا لله على فضله وإحسانه وسعة رحمته، ويا له من استدراج للظالم وهو سادر في غفلته، مسترسل في إعراضه، لا تنفعه التّذكرة بما تعرّض إليه من المصائب، والإنسان سريع النّسيان للخير والشّرّ إذا لم ينعم الله عليه بنور الإيمان.

وبعد الابتلاء بأنواع المصائب التي لم تزدهم إلا قسوة وعنادا، يعقبه الابتلاء بأنواع النّعم، إذ يفتح الله عليهم أبوابها، وهي من الكثرة والتّنوّع بحيث تبعثهم على الفرح والغرور، فصاروا إلى نقيض ما كانوا عليه من ضنك العيش ووطأة المصائب، ولكنهم لا يهتدون إلى شكر المنعم، بل فسقوا عن أمر ربّهم ولجّوا في طغيانهم وجرّهم التّرف والنّعيم إلى حضيض الرّذيلة وفساد الأخلاق، ثم إلى ما ينجرّ عن ذلك من فساد الأوضاع والفوضى الاجتماعية، وعندئذ تأتي سنة الله التي لا تتبدل إذ يأخذهم الله بعذابه على غرّة فإذا هم تائهون حائرون يائسون من النّجاة، وقد شملهم العذاب حتى آخرهم، وكان الظّلم والطّغيان سببا لذلك العذاب، ولا أعظم

من ظلم الشّرك والكفر، وفي كل حالة من تلك الأحوال فإن الحمد لله ربّ العالمين، فله الحمد أن قطع دابر القوم الذين ظلموا.

وقطع دابر الفتنة في المجتمعات نعمة كبرى لا يدرك حقها إلا الذين ذاقوا ويلات الفتنة والصّراعات الدّاخلية، وله الحمد تعالى على نصره رسله وأولياءهم من حماة الحق والفضيلة.

وروي في التّفسير النّقلي عن عقبة بن عامر عن النّبي ﷺ قال: «**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدّنيا على معاصيه ما يحبّ فإنما هو استدراج**».[1] ثم تلا رسول الله الآية: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ...﴾.

يقول الشّيخ رشيد رضا -رحمه الله- تعليقا على الآية: "والآية تفيد أن البأساء والضّراء، وما يقابلهما من السّرّاء والنّعماء، مما يتربّى ويتهذّب به الموفّقون من النّاس، وإلا كانت النّعم أشدّ وبالا عليهم من النّقم. وهذا ثابت بالاختبار، فلا خلاف في أن الشّدائد مصلحة للفساد، وأجدر النّاس بالاستفادة من الحوادث المؤمن كما ثبت في حديث صهيب مرفوعا في صحيح مسلم: «**عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرا له**»[2][3].

فاللّهم أنر بصائرنا بنور الإيمان، حتى نكون من الشّاكرين الصّابرين، آمين.

١- رواه أحمد من حديث عقبة بن عامر، مسند الشاميين، حديث ١٧٠٤٦.

٢- رواه مسلم من حديث صهيب، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، حديث ٥٤٥٢.

٣- محمد رشيد رضا، تفسير المنار: ٧/٤١٤-٤١٥.

تسخير الحواسّ لنا وإرسال الرّسل
من مظاهر القدرة الإلهية

أ)- النص:

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾: أخبروني، والرّؤية هنا قلبية وهي تتعدّى إلى مفعولين. ﴿خَتَمَ﴾، و﴿أَخَذَ﴾: الأخذ انتزاع الشّيء وتناوله من مقرّه. ويقال: سلب الشّيء. وختم: بمعنى طبع. ﴿نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾: الإتيان بمختلف أنواعها لتأكيد الدّلالة على قدرة الله . ﴿يَصْدِفُونَ﴾ صدف عن الشّيء: الإعراض عنه إعراضا شديدا، وصُدفة الجبل: جانبه ومنقطعه. ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾: البغتة: أي وقوع الشيء فجأة وضدّه النّظرة من الانتظار، والجهرة: ضدّه الخفية والسّرّ. ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾: أي مهمّة الرّسل هي التّبليغ بأساليب الوعد والوعيد والتّرغيب والتّرهيب. ﴿يَمَسُّهُمُ﴾: يمسّ: المسّ اللّمس باليد، وهنا بمعنى الإصابة.

ج)- البيان والتّفسير:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ

غَيْرُ اللهِ يَاتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾:

استئناف يعود السّياق به إلى مجادلة أهل الكفر في موضوع القدرة الإلهية وإثبات عجز الآلهة التي يعبدونها من دون الله، ثم بيان مهمة الرّسل وأنها تنحصر في التبليغ عن الله بأساليب البشارة والنذارة والوعد والوعيد. وتكرّر أمر الله لرسوله بالقول للمعنى المتقدم وجيء بالجواب على صيغة الاستفهام التّقريريّ، والمعنى: قل أيها الرّسول لهؤلاء المكذّبين: أخبروني عن مدى حيلتكم وعن موقفكم من آلهتكم التي ترجون منها النّفع والضّرّ، ماذا عساكم تفعلون إن سلب الله منكم تلك الحواسّ التي تخوّلكم ذلك القدر من الفهم والإدراك فأصبحتم تخاصمون ربّكم وتتحدّونه؟. وكيف تكون قيمتكم لو طمس الله في ذواتكم نور العقل والفهم وأبقاكم في ظلمات التّيه والضّلال؟. من إله غير الله خالقكم يستطيع أن يردّ إليكم تلك الخصائص المميّزة من العلم والإدراك؟.

فإذا كان في الواقع المعروف أن لا أحد غير الله يستطيع ذلك، فإن الواجب يقتضي منك أن لا تدعو أحدا غيره إذ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ، أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (النحل:٢٠-٢١).

﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾: فاعجب يا محمد لهؤلاء في تعنّتهم وعنادهم، وقد نوّعنا لهم الأدلّة والبراهين لتذكيرهم وإقناعهم، ومع ذلك يعرضون عنها أشدّ الإعراض، والأحرى بهم أن يُقبلوا عليها ويتدبّروها لأنها مختلفة الأساليب وهي في متناول أفهامهم لا تعقيد فيها ولا غموض.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾: إذا كانت سنة الله لا تتبدّل في إنزال العذاب بالمجرمين، وقد أصررتم على تكذيبكم وكفركم، فماذا عساكم تفعلون إن نزل بكم ذلك العذاب على الكيفية التي يقدّرها الله تعالى، إذ يأتيكم على غرّة أو يأتيكم جهرة تعاينون أماراته

ومقدّماته، فهل من ملجإ منه للقوم الظّالمين؟ وهل يطمعون في نجاة؟. والظّلم مرتعه وخيم، والله تعالى يملي للظّالمين ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وجيء بصيغة الحصر في هذا الوعيد ليدلّ على أن الهلاك محيط بالظّالمين، أما غيرهم ممن آمن بالله ورسوله فهم من النّاجين، ويؤيّد ذلك قوله تعالى في الآية التّالية: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾.

ومن رحمة الله وعدله أن لا يأتي عذاب الله إلا بعد التّبليغ والإعذار: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء: ١٥). فإن الرّسل لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرّا وليست لهم القدرة في الإتيان بخوارق العادات التي يطلبها المعاندون المكذّبون، لأن وظيفتهم محصورة في البشارة والنّذارة، والنّاس إزاءهم بين مؤمنين مصدقين أو كفّار مكذبين ولكلّ من الفريقين جزاؤه عند الله.

فأما من آمن وعمل صالحا بأن عمل بمقتضى إيمانه فأطاع الله واستقام على منهجه كما أمره الله فإنه يكون في أمن يوم يخاف النّاس، وفي بهجة وسرور يوم يحزن المجرمون، سواء في حياتهم الدّنيا أو عند رجوعهم إلى الله.

وقد وصف رسول الله حالة المؤمن المتوازنة في السّراء والضّراء وكيف يكون دائما في خير وهو يتقلّب بين الشّكر والصّبر، والله تعالى ضمن الحياة الطّيّبة للمؤمن في دنياه والجزاء الأوفى في أخراه في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٧).

وعلى العكس من ذلك أولئك المكذبون بآيات الله فإن لهم معيشة ضنكا بما يصيبهم من العذاب في الدّنيا؛ إذ يسلّط الله تعالى عليهم أنواعا من القلق النّفسي

والاضطراب الوجداني، فهم أشقياء وإن كانوا يتمتعون بالشّهوات الحسية والمتع المادية، ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ، ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ، مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ (الشعراء:٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧). وينالهم ذلك بسبب فسقهم عن حدود الله، وهم لا ينفكون عنه تعنّتا وإصرارا، والله أعلم.

بشرية الرّسول وأخلاقيات الدّعوة

أ)- النص:

قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿خَزَآئِنُ اللهِ﴾: خزائن جمع خزينة وخزانة وهو الحرز الذي يخزن فيه الشّيء النّفيس الذي يراد حفظه ومنع الغير من التّصرّف فيه، والخزائن مستعارة لتعلّق قدرة الله بالإنعام وإعطاء الخيرات لخلقه. ﴿الْغَيْبَ﴾: ما استأثر الله بعلمه وغاب عن الخلق، وهو قسمان: غيب حقيقي مطلق لا يعلمه إلا الله، وغيب إضافي وهو ما

يعلمه بعض الخلق دون بعض. ﴿الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾: استعارة للمؤمن والكافر. ﴿أَنذِرْ بِهِ﴾: أي خوّف بالقرآن. ﴿لاَ تَطْرُدْ﴾: لا تبعد عن مجالسك. ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾: الغداة: البكرة ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشّمس. ﴿الْعَشِيِّ﴾: جمعه عشيات وعشايا: آخر النّهار. ﴿مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾: أنعم الله بها عليهم أي نعمة الهداية.

ج)- أوجه القراءة:

﴿بِالْغَدَاةِ﴾:قرأ الجمهور: ﴿بِالْغَدَاةِ﴾ بفتح العين وبألف بعد دال. وقرأه ابن عامر بضمّ الغين وسكون الدّال وبواو ساكنة بعد الدّال.

د)- البيان والتّفسير:

بعد الجولة المتقدمة في دحض شبه المشركين في إنكار نبوءة سيدنا محمد، والإنكار عليهم في طلبهم لإنزال آية من ربّه، وبعد بيانه تعالى لوظيفة الرّسل بأنها تنحصر في التّبليغ عن الله لخلقه تأتي الآيتان ٥٠-٥١ تتمة لما تقدم لتبيّن أن وظيفة رسول الله لا تخرج عن نطاق تلك الوظيفة العامّة لرسل الله.

وبصيغة الأمر للرسول أمره الله أن يقول لأولئك المتعنتين على ما تقدم من فائدة هذا الأسلوب الذي تكرّر في أجزاء من هذه السّورة الكريمة أمر الله رسوله لأن ينفي عن نفسه تلك الأمور التي هي من خصوصية الألوهية، ليحدّد بعد ذلك وظيفته الأساسية في التّبليغ عن الله بواسطة الوحي المنزل من عنده حقا وصدقا، ويلاحظ في هؤلاء القوم المشركين ذلك الخلط في التّصوّر لحقيقة الرّسالة ولظاهرة الوحي وهم متأثرون في ذلك بشيئين:

أ)- بسوء التّقليد لما وجدوا عليه الآباء والأجداد، إذ لا يملكون الشّخصية

المستقلة في التأمّل والتفكير، فيفتقدون حسن المقارنة ودقة الملاحظة.

ب)- تسرّب الأفكار والتصوّرات الخاطئة من أهل الكتاب سيما الأفكار المسيحية في قضية المسيح والتثليث، ثم موقف اليهود من نبوءة سيدنا محمد وكتمان ما يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل.

﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عندي خَزَآئِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ اِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾: أمر الله رسوله أن ينفي الادّعاء لثلاثة أمور:

أ)- أنه لا يملك خزائن الله، واستعير لفظ: ﴿خَزَآئِنُ اللهِ﴾ للدلالة على تعلّق قدرة الله بالإنعام وإعطاء الخيرات لخلقه، ونعم الله هي من الوفرة بحيث لا تنفد وهي أيضا من النّفاسة والقيمة بحيث تدّخر ويحافظ عليها، والخزانة هي الحرز الآمن المألوف عند الأثرياء وغيرهم لحفظ الأموال والنّفائس والودائع، غير أن الله تعالى في تسخيره لأرزاق المخلوقات له مطلق الإرادة في التصرف والإنفاق وفق ما تقتضيه مصلحة الخلق في القدر والبسط يقول تعالى في سورة الإسراء: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيَ إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً﴾ (١٠٠). وإذا كان الرّسول لا يملك التصرّف في خزائن الله فكيف يطلب منه الإتيان بما ليس في مقدوره ولا تصرّفه.

ب)- أنه لا يعلم الغيب: فالله وحده هو علاّم الغيوب، والرّسول لا ينبئ إلا بما يطلعه الله عليه عن طريق الوحي، وقد علّمه الله أن يقول: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَآءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ اِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤمِنُونَ﴾ (الأعراف:١٨٨).

ج)- لا يدّعي أنه مَلَك: حتى يمكن له أن يتلاءم مع الخلقة الملَكية في عالم روحانيتها، إنما هو بشر مثلهم بخلقته المادية الكثيفة، فإذا أعلم الخلق بشيء من المغيّبات فإن ذلك مما أطلعه الله عليه بوحي خاصّ يتلقاه ويبلّغه بأمانة وصدق: ﴿اِنْ

أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾.

وليس هو بدعا من الرّسل أمام ظاهرة الوحي في الإنباء ببعض الأمور الغيبية كما قال الله تعالى في سورة الجن: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٢٦-٢٧).

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾: مثّل الله حال المشركين بفاقد البصر لما يتخبّطون فيه من ظلمات الجهل والضّلال، فهم كالأعمى في تخبّطه وحيرته، أمّا من اهتدى بنور الإيمان فهو كالبصير يسير على النهج السّويّ في استقامة واعتدال، وعند المقارنة العقلية لا تستوي الحالتان، لو أن هؤلاء القوم كانوا يتفكرون بمنطق سليم.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: بعد بيان حقيقة الرّسول المتمثلة في بشريته العاجزة عما هو من خصوصية الألوهية، انتقل السّياق إلى بيان مهمته في الآيتين اللاحقتين، وكان قوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ مقدّمة إلى تفصيل الإرشادات التي يمكن أن نعتبرها من أخلاقيات الدّعوة إلى الله، في اختيار الأسلوب الذي يتلاءم مع أصناف النّاس في صفاتهم الذّاتية أو صفاتهم الاجتماعية.

أ)- فالصّنف الأول: هم أولئك الذين هدى الله قلوبهم للإيمان بكل مقوّماته الأساسية من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فهم في خوف أن يحشروا إلى ربّهم لإيمانهم الجازم بيوم الحساب، وهم لا يتوسلون إلى غير الله في الولاية والشّفاعة، وذلك لإيمانهم الجازم بوحدانية الله وقدرته وعظمة سلطانه، وهم على خلاف معتقد المشركين بأنّ لهم شفعاء عند الله وأولياء، فهؤلاء هم الذين ينتفعون بالقرآن في بشارته ونذارته، أما غيرهم من المشركين فهم لا يؤمنون بيوم الحساب ابتداء إذ يقولون: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلاَّ

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون:٨٣).

وفي معنى هذه الآية الكريمة وردت آيات أخرى فيمن يؤثر فيه القرآن مثل قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾ (٨٢). وفي قوله تعالى في سورة ق: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَنْ يَّخَافُ وَعِيدِ﴾ (٤٥).

ب)- والصّنف الثّاني: هم باعتبار منزلتهم الاجتماعية فقراء مستضعفون أوفياء لدين الله معظّمون لجانب الله، ولكنهم بجانب السّادة الكبراء هم في الطّبقة الدّنيا -على ما تواضع عليه النّاس يومئذ اجتماعيا وعرفيا- ورسول الإسلام جاء ليصحّح الأوضاع الفاسدة، فأولى النّاس بمجالسه هؤلاء الأتقياء الصّلحاء، فلا ينبغي أن يجامل أولئك الكبراء بطرد المستضعفين كما طلبوا منه ذلك.

وقد اختلفت الرّوايات في ذكر سبب النّزول لهذه الآية الكريمة، ونحن نجتزئ بما نقله الإمام ابن عاشور عن الإمام الواحدي قال: "إن هذه الآية نزلت في حياة أبي طالب، فعن عكرمة قال: جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، ومطعم بن عديّ والحارث بن نوفل في أشراف بني عبد مناف إلى بني طالب فقالوا: لو أن ابن أخيك محمدا يطرد عنه موالينا وعبيدنا وعتقاءنا كان أعظم في صدورنا وأطمع له عندنا وأرجى لاتباعنا إياه وتصديقنا له. فأتى أبو طالب إلى النّبي ﷺ فحدّثه بالذي كلمّوه. فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون وإلامَ يصيرون من قولهم، فأنزل الله هذه الآيات فلما نزلت أقبل عمر يعتذر". ثم يعلق الإمام ابن عاشور على هذه الرّواية قائلا: "والمعنى أن رسول الله ﷺ لحرصه على إيمان عظماء قريش ليكونوا قدوة لقومهم، ولعلمه بأن أصحابه يحرصون حرصه ولا يوحشهم أن يقاموا من المجلس إذا حضره عظماء قريش لأنهم آمنوا يريدون وجه

الله لا للرياء والسّمعة ولكن الله نهاه عن ذلك، وسمّاه طردا تأكيدا لمعنى النّهي".[1]

قلت: إن دعوات الحق تتشابه في طبيعة حركيتها ومسارها وفي كونها تعتمد في انطلاقتها على الطّبقات المستضعفة، ومن طبيعة السّادة الكبراء أنهم يأنفون أن يكونوا على صعيد واحد مع من يعتبرونهم خدما لهم وعبيدا، فهذا سيدنا نوح عليه السلام يواجهه قومه بمثل ما واجهت به قريش الرّسول محمدا عليه السلام حين قالوا له: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ (هود:٢٧). فرغبة الرّسول في إيمان أولئك الكبراء وهو يجالسهم ويحاورهم يجب أن لا تكون على حساب من أخلص دينه لله واعتزّ بعقيدته وإيمانه بأن يبعدوا عن مجالس القوم، فهؤلاء أكرم عند الله وأولى بالتزام مجالس الرّسول، لأنهم لا يقصدون بإيمانهم حظوة دنيوية.

وما قصّة عبد الله بن أمّ مكتوم مع رسول الله وعتاب الله عليه في سورة "عبس" إلا إرشاد من الله لما ينبغي على الرّسول أن يلتزم به وهو يدعو إلى الله، فلا يأخذ بأساليب الأعراف الفاسدة التي تفاضل بين النّاس بالمعايير المادية الصّرفة، فأولى النّاس بمجالسته وخفض الجناح لهم هم أولئك الذين أخلصوا ولاءهم لله، على أن الرّسول لم يطرد عبد الله ابن أمّ مكتوم -وحاشاه أن يكون من الظّالمين-.

وإنما التّعبير بالطّرد جاء للمبالغة في تأكيد النّهي، ذلك لأن الله يريد أن يرفع من شأن دينه بحيث يعتزّ النّاس به ويرغبون فيه لا العكس، وذلك -لعمري- غاية في الصّدع بالدّعوة والتزام أخلاقيتها، وليس على الدّاعي أن يسبر بواطن النّاس إذا آمنوا به -كما طالبه بذلك المشركون-، بل عليه أن يعتبر ظواهرهم، وحسابهم بعد ذلك على الله وحده.

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُواْ أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ٢٤٦/٧.

﴿اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾:

أوضح الله بأن التحاسد بين الكبراء والضعفاء هو ابتلاء واختبار من الله، إذ يجمع الكبراء من العجب والغرور ما يدعوهم إلى احتقار من دونهم في المنزلة الاجتماعية، كيف يخصّهم الله بمنة الهداية دونهم؟ فالسؤال إنكاريّ فهو كقوله تعالى على لسان الكفار في سورة الأحقاف: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ (١١). فجاءت الإجابة مبكتة بقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾؟. بلى إنه هو العليم الحكيم يضل من يشاء ويهدي من يشاء، والله أعلم.

من أخلاقيات الدّعوة في معاملة أصناف النّاس

أ)- النص:

وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾: المصدّقون بقدرة الله في إنزال الخوارق المطلوبة، والمصدقون بآيات القرآن، ويمكن أن يراد بهم من نهي الرّسول عن طردهم. ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾: بمعنى السّلامة، من الثّلاثي، والمسالمة من الرّباعي، أي البراءة والعافية. والسّلام من أسماء الله الحسنى وهو تحية الإسلام، يكون نكرة أو معرفة، وهو أيضا تحية أهل الجنة، قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ (إبراهيم:٢٣). ﴿كَتَبَ﴾: أي

أوجب الله تعالى لنفسه الرّحمة. ﴿بِجَهَالَةٍ﴾: بمعنى السّفه وغلبة الشّهوة، وبمعنى عدم العلم. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾: يقال: استبان النّجمُ أو الشّيء إذا ظهر للعين أو للبصيرة فهو لازم، ويقال استبنت الشّيء بمعنى استوضحته وتبيّنته، فهو بهذا المعنى متعدّ، تفصيل الآيات توضيحها وإبانتها بمختلف الأساليب والوسائل.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًا بِجَهَالَةٍ﴾: قرأه نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب بفتح همزة "أن" على أنه بدل من الرّحمة "بدل اشتمال". وقرأه الباقون بكسر الهمزة على أن يكون استئنافا بيانيا لجواب سؤال متوقع عن مبلغ الرّحمة. ﴿فَإِنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بكسر همزة: "فَإِنَّه" على أن الجملة مؤكدة بـــ"إن". وقرأه ابن عامر وعاصم ويعقوب "فَأَنَّه" بفتح الهمزة على أنها "أن" المفتوحة أخت "إنّ". فيكون ما بعدها مؤوّلا بمصدر، والتّقدير: فغفرانه ورحمته. وهذا جزء جملة يلزمه تقدير خبر أي له. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحفص عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بتاء مثناة فوقية في أول الفعل على أنها خطاب للنبي ﷺ. وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف بياء الغائب. ثم إن نافعا وأبا جعفر قرءا: ﴿سَبِيلُ﴾ بفتح اللام على أنه مفعول: ﴿تَسْتَبِينَ﴾ فالسّين والتّاء للطلب. وقرأه البقية برفع اللام على أنه فاعل "يستبين" أو "تستبين". فالسّين والتّاء هنا للمبالغة وليسا للطلب. وقرأ ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم برفع ﴿سَبِيلُ﴾ على أن تاء المضارعة تاء المؤنثة لأن السبيل مؤنثة في لغة الحجاز، وعلى أنه من "استبان" القاصر بمعنى "بان" و"سبيل" فاعل.

د)- البيان والتّفسير:

ما يزال السّياق متواصلا في بيان ما اعتبرناه (أخلاقيات الدّعوة)، فبعد نهيه تعالى عن طرد أولئك الأتقياء الصّلحاء من مجالس الرّسول لأنهم مستضعفون في نظر السّادة الكبراء، أمر الله رسوله في هذه الآية الكريمة أمرا إيجابيا بإكرام الذين يؤمنون بآياته الصّامتة والنّاطقة. واختلف المفسّرون في تحديد أولئك الذين يؤمنون بآيات الله على أقوال حسب الرّوايات:

أ)- أنه سيدنا عمر حين اعتذر لرسول الله بعد نزول الآية المتقدمة، وقد استحسن إجابة أشراف قريش إلى اقتراحهم.

ب)- وفي رواية أن قوما أتوا النّبي فقالوا: إنا أصبنا ذنوبا عظاما فلم يردّ عليهم بشيء، فلما ذهبوا وتولّوا نزلت هذه الآية.

ج)- إنما نزلت في أهل الصّفّة الذين طُلب من الرّسول إبعادهم وطردهم.

د)- قال الإمام الرّازي: "والأقرب من هذه الأقاويل أن تحمل هذه الآية على عمومها، فكل من آمن بالله دخل تحت هذا التّشريف".

قلت: ولصاحب المنار ملحظ دقيق في اختيار معنى العموم للآية، فبعد أن بيّن أصناف النّاس أزاء الدّعوة سيما في وقت التّنـــزيل قال -رحمه الله-: "فبعد هذا الإرشاد في شأن الكفار المعاندين والمؤمنين السّابقين حسن أن يرشد الله رسوله ﷺ إلى شيء في شأن الفريق الثّالث من النّاس، وهم الذين يجيئون الرّسول آنا بعد آن مؤمنين بآيات الله المثبتة للتوحيد والرّسالة فيدخلون في الإسلام مذعنين لأمر الله ورسوله -وهم الذين أراد رؤساء المشركين تنفيرهم وحاولوا صدّهم-، فأمره أن يبيّن لهم قبل كل شيء أنهم صاروا في سلام وأمان من الله تعالى، لأن الله كتب على نفسه الرّحمة فهو لا يؤاخذهم بما كان قبل الإسلام، ومن عمل بعده سوءا

بجهالة فما عليه إلا أن يمحو أثره بالتّوبة والإصلاح".[1]

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾: الخطاب لرسول الله يبيّن الله له كيف يكرّم ذلك الصّنف من المؤمنين بالله ورسله، ولعلّ اختيار الفعل المضارع الذي يفيد الحال أو الاستقبال يسند ما رجّحه صاحب المنار من أن المقصود بـ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ هم الذين يجيبون الرّسول آنا بعد آن لإعلان إيمانهم مذعنين لأمر الله، هؤلاء يكرّمهم الرّسول بشيئين:

أ)- يبادئهم الرّسول بالسّلام، بينما القاعدة المعروفة هي أن السّلام الذي هو بمعنى التّحية يلقيه القادم على المجلس، وأما إذا فسّرنا السّلام بأنه إخبار منه تعالى بسلامتهم وأمنهم بمغفرته وعفوه لما سلف منهم من ذنوب فإنها تكون بشارة لهؤلاء يستقبلون بها عند لقائهم بالرّسول وذلك آنس لمجلسهم وأروح لنفوسهم.

ب)- يكونون في كنف رحمة الله التي كتبها على ذاته العلية تفضلاً منه ومنّة، لأنه لا يوجب أحد شيئا على الله.

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: قبل أن يبيّن الله شروط قبول التّوبة مهّد لذلك بقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فهي رحمة عامّة واسعة تشتمل على مغفرة الذّنوب وعلى غير ذلك مما يتفضّل الله به على خلقه، وهذا التّمهيد هو آنس للنفوس التي أعنتها وزر الذّنب فأرادت الرّجوع إلى الله بصدق ووفاء، وهي لا تدري ما يقضيه الله في ماضيها المثقل بالأوزار والآثام، وقد عبّر القرآن عن هذه الرّحمة الغامرة بنظير هذه الآية:

أ)- فقال في أول السّورة: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٤٤٨/٧.

الْقِيَامَةِ﴾ (الأنعام:١٢)

ب)- وقال في سورة الأعراف: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (١٥٦).

ج)- وقال في سورة غافر مما يدعو به ملائكته للمؤمنين: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ (غافر:٧).

ثم بيّن الله طريقة التّوبة إلى الله والتي يتم بها القبول:

أ)- أن يصدر ذلك الذّنب عن غلبة شهوة وسفاهة، يندم المذنب على مقارفته ويعزم على أن لا يعود لمثله.

ب)- أن يتوب إلى الله بصدق وإخلاص.

ج)- أن يلتزم بالعمل الصّالح بعد ذلك حتى يمحو أثر ذلك الذّنب.

﴿فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: أي هو شديد المغفرة والرّحمة لخلقه كرما منه وإحسانا.

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾: وتفصيل الآيات هو تبيانها وتوضيحها والآيات هي آيات القرآن الدّالة على التّوحيد ومعرفة مناهج التّقوى والطّاعة، أي بمثل ذلك التّفصيل الكامل البديع نفصّل آيات القرآن ونوضّح أحكام الشّريعة، لتستبين- أيها الرّسول والمؤمنون معك- سبيل المجرمين على قاعدة: يعرف السّمّ ليتقى.

والمجرمون هم المشركون، وسبيلهم هو ما يدبّرونه من أنواع المكر والحسد والسّخرية والاحتقار، وهم في ذلك يتذرعون بأنواع من الحيل والتّستّر فتكشف آيات القرآن تلك الدّسائس للرسول والمؤمنين، فلا يؤخذون على غرّة، فإذا انكشفت لهم تلك الطّرق والوسائل اتضحت لهم سبيل المؤمنين، لأن بيان خاصية أحد الطّرفين المتضادين هو بيان لخصائص الطّرف الآخر.

وكان حذيفة بن اليمان ﷺ هو رائد هذه التربية الحكيمة إذ قال عن نفسه: كان النّاس يسألون رسول الله عن أنواع الخير وكنت أسأله عن أنواع الشّرّ خشية أن أقع فيه (أو كما قال)، والله أعلم.

الرّسول قدوة في ما يدعو إليه، وهو يؤكد بشريته

أ)- النص:

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿تَدْعُونَ﴾: من الدّعاء، وهو لغة النّداء وطلب إيصال الخير أو دفع الضّرّ، ويكتسي معنى العبادة إذا كان النّداء أو الطّلب من الأدنى إلى الأعلى، سيما إذا كان في أمر وراء الأسباب المسخرة للعبادة. ﴿لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾: الهوى: المحبة المفرطة للشيء، أي لا أتبع طريقتكم في عبادة الأصنام ولا في غير ذلك من أعمالكم الفاسدة. ﴿ضَلَلْتُ﴾: الضّلال: ضدّه الهدى، الانحراف عن جادة الصّواب. ﴿بَيِّنَةٍ﴾: البيّنة: الحجة المثبتة للحق بدون شكّ، والدّلالة الواضحة عقلية أو نقلية. ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾: طلب التّعجيل بشيء. ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾: يقصّ: هو من الاقتصاص أي اتّباع الأثر، أو من القصص أي ذكر الخير. ﴿الْفَاصِلِينَ﴾: من الفصل وهو الحكم من قضية والقضاء في أمر من الأمور.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾: قرأ نافع وابن كثير وعاصم وأبو جعفر: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ بضمّ القاف وبالصّاد المهملة. فهو من الاقتصاص أيّ اتّباع الأثر، أو هو من القصص أي يحكي بالحق، و"الحق" على الاحتمالين منصوب على المفعولية. وقرأ الباقون: ﴿يَقْضِ﴾ بسكون القاف وبضاد معجمة مكسورة على أنه مضارع "قضى" وهو في المصحف مكتوب بغير ياء، فاعتذر عن ذلك بأن الياء حذفت في الخطّ تبعا لحذفها في اللّفظ في حال الوصل.

د)- البيان والتّفسير:

ذكر الله تعالى أنه يفصّل الآيات لإظهار الحق حتى تستبين سبيل المجرمين من سبيل المؤمنين، وقد أرشد رسوله إلى أخلاقيات الدّعوة وسياسة التّبليغ لكل أصناف البشر وهنا يعود السّياق إلى تلقين الرّسول كيف يحاجّ المشركين في تركيز حقيقة الألوهية بمزيد من بيان عظمة الله وقدرته في ما خلق، ثم بيان صدق الرّسالة ممثلة في شخص الرّسول بكونه قدوة في ما يدعو إليه، حتى لا يكون للمشركين مطمع في مساومته على دينه، أو الوقيعة بينه وبين أصحابه بطردهم أو الشّكّ في إيمانهم وإخلاصهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

أعاد الله الأمر لرسوله بالقول للمشركين وكرّره مع كل جملة لزيادة الاهتمام بمضامينها، وصدّرت الجملة الأولى بحرف التّأكيد حتى ييأسوا من المساومة، إذ يعلن مفاصلتهم في ما هم عليه من عبادة غير الله، وهم يدعون من دونه ما لا ينفع ولا يضرّ، والدّعاء مخّ العبادة كما يقول العلماء، وبما أن المشركين تعدّدت معبوداتهم لما هو عاقل ولغير عاقل جيء بـ﴿الَّذِينَ﴾ الدّال على العقلاء على وجه التّغليب.

وفي الإتيان بالفعل مجهولا في: ﴿نُهِيتُ﴾ يقول صاحب المنار: "وهذا النّهي

يصدق بنهي الله تعالى إياه عن ذلك في آيات القرآن الكثيرة وأمره بضدّه -وهو دعاء الله تعالى وحده-، وبنهي العقل والفطرة السّليمة، فإن النّبي ﷺ كان قبل البعثة موحّدا، و لم يكن قطّ مشركا، ولأجل هذا قال "نهيت" بالبناء للمفعول".[1]

﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَد ضَلَلْتُ إِذاً وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾: وبما أن المشركين ضالّون في معتقدهم بدعائهم غير الله فهم ضالّون -أيضا- في سلوكهم وأعمالهم، لأنهم لا يحكّمون عقولهم في تصرّفاتهم، كما لا يذعنون للحجة والبرهان، والرّسول مأمور أن ينفي اتباعه لأهوائهم سواء في معتقدهم الفاسد أو في سلوكهم الخبيث، لأن اتباع الهوى في ذلك مسلك ضالّ، يخرج صاحبه من عداد المهتدين، وحاشا للرسول أن يطاوعهم في ذلك أو ينخدع لمساومتهم: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي، فَاعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ (الزمر:١٤-١٥).

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾: وإذ تقررت هداية الرّسول في المقولة السّابقة، بمخالفته لما كان عليه المشركون في معتقدهم وسلوكهم، جاء الأمر بهذه المقولة الثّانية لتتمّم معنى الهداية، وأنها هي المبنية على البّينات الواضحة التي فصّلها الله تعالى في كتابه المبين، يجد الرّسول في نفسه اليقين بها والإحساس الغامر بصدقها ووضوحها والطّمأنينة النّفسية بجلال حقها ونور هدايتها.

وهي ما كان عليه كل الرّسل بما أوحى الله إليهم من البيّنات والهدى، فنوح قال لقومه مثل ذلك: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ (هود:٢٨)، كما قالها صالح وغيره وكما ذكر في القرآن الكريم الذي قال الله في شأنه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٥). ولكنّها المفارقة بين الرّسول وقومه، المفارقة بين الإيمان والتّصديق، وبين الكفر والتّكذيب والشّك، التّكذيب بالله وآياته على وضوح الأدلة والبيّنات.

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٤٥٣/٧.

﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾: ومرة أخرى ينفي الرّسول عن نفسه أي خصوصية للألوهية والرّبوبية من القدرة على الإتيان بخوارق العادات، كما لا يملك أن يترّل عليهم كسفا من السّماء كما توعّدهم بذلك إن هم أصرّوا على الكفر والعناد، وهم يستعجلون ذلك العذاب عندما قالوا: ﴿وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال:٣٢)، جهلا منهم بسنن الله في خلقه، وأن الله وحده هو المالك لتلك القدرة، وهو اللّطيف بعباده، وهو الحليم الغفور، ولكنه يستدرج عباده من حيث لا يعلمون.

وبتجريد الرّسول نفسه من خصوصية الألوهية القادرة يحصر صفة الحكم في الله تعالى وهو يفصل بالحق في شؤون عباده، وهو أعلم بحكمة التّأخير أو التّعجيل في ما يقضي به، وهو أعدل الحاكمين.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾:

ولتأكيد صفة البشرية العاجزة في شخصية الرّسول لقنه الله أن يقول هذه الفرضية بـــ"لو" لقومه بأنني لو كنت أملك القدرة على الإتيان بما تستعجلون به من العذاب لحسمت القضية بيني وبينكم إما بإتياني ما اقترحتموه عليّ، أو بإهلاك للظالمين منكم بدافع العجلة التي هي من طبيعة الإنسان، بل وحتى بتحويل قلوبكم إلى الإيمان فتتوبون وتهتدون، فالأمر كله إلى الله وهو أعلم بالظّالمين، وقد ظلمتم بشرككم وهو اعتداء على حق الله، وبالتّكذيب والتّحدّي وهو اعتداء على حق رسول الله.

وكم للإنسان من نظرة قاصرة وحكم متسرّع حين يقيس عظمة الكون وحكمة الخالق في تدبير شؤونه، يقيس ذلك بمألوفه في حياة النّاس، ويقدّر توقعاته

بضوابط الزّمان والمكان اللذين يعيش فيهما، ومن هنا تأتي عجلته وتحتدم رغباته، وصدق المولى إذ يقول: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ، وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (الحج:٤٧-٤٨).

والله أعلم

الأدلّة على علم الله وقدرته في الأنفس والآفاق

أ)- النص:

وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿مَفَاتِحُ﴾: جمع مَفتِح ومِفتَح بفتح الميم وكسرها، ويقال: المفتاح جمعه مفاتيح، وهي الآلة التي يفتح بها المغاليق، وقيل: المفتح هو المخزن. ﴿الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾: البرّ هو الأرض اليابسة، والبحر المكان المتسع للماء الكثير حلوا أو مالحا، إذ يطلق

العرب اسم البحر على النّهر فيقولون: بحر النّيل والفرات. ﴿وَرَقَةٍ﴾: المراد بها أوراق النّبات والأشجار، و"من" زائدة لتأكيد النّفي. ﴿حَبَّةٍ﴾: أي من بذور النّباتات أو ما يطعم من أنواع الحبوب. ﴿كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾: علم الله تعالى، و"الكتاب" كناية عن الضّبط وعدم التّبديل. ﴿يَتَوَفَّاكُم﴾: التّوفّي: استيفاء الشّيء وضبطه، ويطلق على الموت لأخذ الرّوح أخذا تاما. ﴿جَرَحْتُم﴾: ما كسبتموه بجوارحكم من خير أو شرّ، و"اجترح" خاصّ بالآثام والذّنوب، ويطلق "التّوفّي" على النّوم. ﴿يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾: أي يوقظكم من نومكم في النّهار. ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: هو الأمد الذي يقضيه الإنسان في حياته كما قدره الله له. ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾: أي ترجعون إلى الله بقبض أرواحكم أو إلى الحشر يوم القيامة لمحاسبتكم. ﴿حَفَظَةً﴾: هم الملائكة الموكّلون بإحصاء أعمال النّاس. ﴿مَوْلَاهُمُ﴾: المولى: اسم مشترك يطلق على السّيد وعلى العبد.

ج)- أوجه القراءة:

﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾: قرأ الجمهور: ﴿تَوَفَّتْهُ﴾ بمثناة فوقية بعد الفاء، وقرأ حمزة وحده: ﴿تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا﴾، وهي في المصحف مرسومة بمثناة بعد الفاء. فتصلح لأن تكون مثناة فوقية وأن تكون مثناة تحتية على لغة الإمالة. والوجهان جائزان في إسناد الفعل إلى جمع التّكسير.

د)- البيان والتّفسير:

السّياق متصل، والجملة: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾. واختير هناك أسلوب التّفضيل بالقياس إلى علم البشر لأنهم لا يعلمون إلا الظّواهر، أما علمه تعالى فيشمل السّرّ وأخفى مما يختلج في خواطر الإنسان. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ

وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق:١٦).

وعلى ذكر الخفيات من العلم ناسب ذكر اختصاصه تعالى بعلم الغيوب، سواء ما كان منها حقيقيا لا يعلمه إلا هو، أو إضافيا قد يُطْلِع عليه أحدا إن شاء من أصفيائه وأوليائه، أو يتوصّل إليه الإنسان بالوسائل العلمية المساعدة.

وقد أجمل الله تعالى علم الغيب، واستعار المفاتح لقدرته ومطلق تصرفه في تلك الأسرار التي شبهت بالنفائس التي تدّخر في الخزائن المحصّنة بالأقفال وأكد العندية التي يختصّ بها بقوله: ﴿لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ﴾ لإفادة القصر، أي لا يعلم تلك الغيوب غيره، أي علما مستقلاً به، فليس لمعبوداتكم -أيها المشركون- ولا لأي مخلوق آخر أيّ دخل ولا تصرّف في ذلك، فالواجب أن يرجع الأمر إليه في إنجاز وعده ووعيده وفق ما تقتضيه حكمته.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ﴾: وبعد البيان الإجمالي لسعة علمه تعالى جاءت المعطوفات الأخرى تفصّل ذلك الإجمال، ولكن في إطار المشاهدات للإنسان، غير أن محدودية المعرفة للإنسان في تلك المشاهدات مما يخفى عليه في برّ أو بحر، أو في ظلمات الأرض، تجعل كثيرا من دقائقها وجزئياتها مجهولا لديه، إلا أن يهتدي -أحيانا- إليها بوسائله العلمية، فحصل من ذلك أن علم الله تعالى يحيط بجميع الموجودات ظاهرها وخفيّها حيثما قدر الله وجودها في زمان أو مكان أو في غيرهما مما نجهله، فهو كما وصف نفسه تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (الحشر:٢٢).

ويلاحظ دقة التّرتيب على طريقة التّرقّي من الأدنى إلى الأعلى في الدّقة والخفاء، فخفايا البحر أعظم من خفايا البرّ، ثم من خفايا القدرة الإلهية ذلك الخلق المستكنّ في الحبّة وهي مستورة في ظلمات الأرض، أو في الخلية تنمو وتتحرّك، أو في الرّطب واليابس من ظواهر الموت والحياة.

وقد تعرّض بعض المفسّرين إلى فائدة ذكر هذا التّفصيل لعموم علمه تعالى وإحاطته بالكليات والجزئيات، فقال الإمام ابن عاشور ما نصّه: "وقد علم من هذه الآيات عموم علمه تعالى بالكلّيات والجزئيات، وهذا متفق عليه عند أهل الأديان دون تصريح به في الكتب السّابقة، وما أعلنه إلا القرآن في نحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام:١٠١). وفيه إبطال لقول جمهور الفلاسفة أن الله يعلم الكليات خاصّة ولا يعلم الجزئيات، زعما منهم بأنهم يتزّهون العلم الأعلى عن التجزيء، فهم أثبتوا صفة العلم لله تعالى وأنكروا تعلّق علمه بجزئيات الموجودات، وهذا هو المأثور عنهم عند العلماء".[1]

قلت: وهناك إشكال ثار فيه الجدل قديما وحديثا حول الحديث المرويّ في الصّحيح عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:٣٤)»[2].

ولصاحب المنار جولة مفيدة في وجه تفسير الحديث لمفاتح الغيب بالخمس المذكورة في آخر سورة لقمان، فتحت هذا العنوان: "التّفسير المرفوع لمفاتح الغيب" كتب -رحمه الله يقول-: "وذكر العلماء في تفسير الآية والحديث قول عيسى عليه السلام الذي حكاه الله تعالى عنه في سورة آل عمران: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ (آل عمران:٤٩). وقول يوسف عليه السلام لصاحبي السّجن الذي حكاه الله عنه في سورته: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ (٣٧). وأجابوا عنه بأنه داخل فيما يظهر الله عليه رسله من علم الغيب

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتنوير، ٠٧/ ٢٧٤.

٢- رواه البخاري من حديث سالم بن عبد الله عن أبيه، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب "وعنده مفاتح الغيب..."، حديث ٤٣٧٤.

فقال جلّ من قائل في سورة الجنّ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً، إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ (٢٦-٢٧). وأدخلوا فيه ما نقل كثيرا عن الأولياء من الكشف المشتمل على مثل هذه الحوادث".

ثم ردّ هذه الإشكالية إلى أن ذلك في الحقيقة من علم الله وليس من علمهم الكسبّي فقال: "ولكن ظاهر الحصر في الآية ينافي هذا الرّأي، والصّواب في هذا الباب ما حققناه هنا، وفي تفسير الآية التّاسعة والآية الخمسين من هذه السّورة "الأنعام"، فمنه يعلم أن أمثال هذه المكاشفات ليست من علم الغيب الحقيقي ولا يقتضي أن يكون من علمهم الكسبّي الذي يصحّ أن يسند إليهم على سبيل الحقيقة." اه[1]

قلت: ويؤيد هذا التّوجيه لمعنى الآية والحديث قول يوسف بعد ذلك: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ (يوسف:٣٧). وقول عيسى عليه السلام وهو يعدّد معجزاته لقومه في كل منها: ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ (آل عمران:٤٩).

وتحت عنوان: "وجه تفسير مفاتح الغيب بهذه الخمس" يورد صاحب المنار تفسيرا اهتدى إليه فيقول: "وكنت قد فكرت في ذلك في أيام طلبي للعلم فظهر لي أن علم الله تعالى بجميع الموجودات علم شهادة، وعلمه بما لم يوجد علم غيب، وأن ما لم يوجد فخزائنه أو مفاتيح خزائنه التي يفيد النّاس من بيانها هي تلك الخمس، وهي لم تذكر بصيغة الحصر." اه[2]

قلت: إذا قارنّا التّعبيرين في الآيتين الكريمتين من سورتي الأنعام وسورة لقمان، فسنجد التّركيب متشابها تقريبا ففي نوع الغيب المطلق الذي يستأثر الله

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٤٦٤/٧.

٢- المصدر نفسه، ٤٦٨/٧.

تعالى بعلمه، يقول في سورة الأنعام بصفة إجمالية: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ بتأكيد الحصر. ويقول في سورة "لقمان" بأداة التوكيد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ (لقمان:٣٤). وقد بيّنا أن العندية هي بالنّسبة إلى الله تعالى بمعنى العلم والاستئثار.

ثم يفصّل بعض الجزئيات من عالم الشّهادة مما هو خفي، ويمكن للإنسان أن يطّلع على بعضه بعلمه الكسبّي، ويستعمل صيغة المضارع وبدون حصر في بعضها كقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾. وبنفس الأسلوب ترد في سورة "لقمان" جملتا: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ (٣٤)، فإذا أمكن للإنسان بعلمه الكسبّي أن يتوصل إلى معرفة توقعات نزول الغيث، ومعرفة ما في الأرحام من ذكر أو أنثى بما هو حاضر مشاهد بعينيه أو بآلاته، فهل يمكن أن يعلم ما ليس بموجود، وهو مقدّر في علم الله الأزلي الذي يعلم ما كان وما هو كائن وما يكون؟. كلا، إذن فلا تناقض في مدلول الآيتين ومعنى الحديث وما أصبح عليه واقع الإنسان من معرفته وإطلاعه على بعض الخفايا والأسرار في الأنفس وفي الآفاق.

وكنت قد أجبت لبعض طلبة العلوم على هذه الإشكالية بهذا التّحليل لمعنى الآيتين من غير أن أطلع على ما كتبه صاحب المنار في طرح هذه الإشكالية، فحمدت الله أن وفقني إلى ذلك الرّدّ المعقول، ثم اطمأن خاطري عندما قرأت النّصّ الذي يقول فيه: "فمعرفة نوع الحمل في الرّحم بهذه الطّريقة يعدّ من علوم البشر الكسبية، إذ هو معرفة المسبّب بسببه، وهو لا يعارض كون علم الله تعالى بما في الأرحام من مفاتح علم الغيب التي لا يعلمها إلا هو، فإن معنى هذا الحصر أن ما سيحدث في عالم الحيوان من التّكوين في المستقبل هو من خزائن الغيب التي لا يحيط بما فيها إلا الله، ومفتاح العلم بأيّ شيء منها عنده، فإذا هدى بعض عباده إلى سنة من سننه التي هي مفتاح موصل إلى الإطلاع على بعض ما تحويه هذه الخزانة

فذلك لا ينفي ما ذكر".[1]

قلت: وملاك الأمر في هذه القضية من عالم الغيب وعالم الشّهادة، ومدى معرفة الإنسان وكشفه لبعض الأسرار وضبطه لبعض القوانين، هي قوله تعالى في سورة البقرة بآية الكرسّي: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥). وقوله في سورة الجنّ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً، إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ (٢٦-٢٧).

ثم إن هذا الإنسان في كشوفه العلمية، مهما تبلغ دقته وملاحظته لفكّ كثير من ألغاز المادّة أو الخلية الحيّة، فإنه سيبقى عاجزا في إدراك كنه الحياة السّاري في الأجسام أو تركيبة الذّرة التي تشكّل نوعية المادة، وصدق مولانا حين قال لنبيه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء:٨٥). وحين قال في علم الإنسان: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم:٧).

وقد عبّر أمير الشّعراء عن هذا العجز الإنساني وهو يخاطب الماديين فقال: "عرفنا كما عرفتم الهيولى، ولكنا لم نجحد اليد الطّولى، ولم ننكر الحقيقة الأولى، عجزتم أنتم فقلتم سرّ من الأسرار، وعجزنا نحن فقلنا: الله وراء كل ستار". فاللّهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

﴿وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

يتواصل السّياق بهذه المعطوفات بعد قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾، لبيان قدرة الله في أنفس البشر وهو يخاطب المشركين الجاحدين بالخصوص، ويلفت

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٧/ ٤٦٦-٤٦٧.

نظر الخلق أجمعين لتلك الحالة الطّبيعية التي تعتريهم في هدأة اللّيل من السّبات والنّوم توفيرا للراحة البدنية والعقلية في فترة زمنية هي ضرورية لحفظ النّفس والعقل، وتعريف جزئي الجملة جاء بصيغة القصر، بمعنى هو لا غيره من آلهتكم المدّعاة ينيمكم في هدأة اللّيل.

والنّوم موتة صغرى للحيوان ينقطع فيه عن الإدراك والعمل، فلا وعي ولا حسّ، إنما هو نفس يتردّد، وأجهزة داخلية تقوم بوظيفتها في دقة ونظام، وقد شبه النّوم بالموت فعبّر عنه بالتّوفي، وهو استيفاء الشّيء حقه كاملا، وفي آية الزمر جمع الله بين الموت والنّوم بلفظ التّوفي فقال جلّ من قائل: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر:٤٢).

وهذه الظّاهرة هي من عجائب الخليقة في ذات الإنسان، ولا يزال سرّها غير معلوم لدى العلماء وإن عرفوا ظواهرها، فهي تندرج في أسرار الغيب، كسرّ الرّوح في ازدواجه بالجسد وانفصاله عنه بالموت، فهي -إذن- ظاهرة ومجلى لقدرة الله تدعو للتأمل والتّفكّر.

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾: ففي النّهار يسعى النّاس لاكتساب أرزاقهم وتدبير شؤونهم الدّنيوية، ولهم كسب واختيار ولهم حرية في التّصرّف، ولكن لا يعني ذلك أنكم منفلتون من قبضة الله كما يعتقده المشركون، وإنما هي رحمة الله في الاستدراج والإمهال، وسنته في الاختبار والابتلاء، وهو يعلم ما تكسبونه بجوارحكم في وضح النّهار، وقد بعثكم فيه، أي أيقظكم وأعادكم للحركة والنّشاط لتقضوا آجالكم في مسيرة عمركم كما حدّدها الله.

وفي التّعبير بـ﴿يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ إيماءة إلى البعث ليوم الحساب في الحياة الآخرة مما ينكره المشركون، ليوضّح المجهول بالمعلوم والمغيّب بالمحسوس، فكلاهما يتمّ بقدرة

الله ومشيئته، وذكر أعمال النّهار دون اللّيل هو على أسلوب التّغليب لأن الله تعالى لا تندّ عنه حركة ولا سكنة ولا تحدّ علمه ضوابط الزّمان والمكان كما قال تعالى في سورة الرّعد: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ، لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (١٠-١١). ذلك هو الموت الأصغر، وحين تستوفون آجالكم تعودون إلى الله، فهي عودة الرّوح إلى مصدرها كما جاءت من عند بارئها أول مرّة في نشأتكم الأولى، تعودون إليه ليخبركم بما كسبتموه من أعمال، إذ هي محصية عليكم ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن خيرا فخير وإن شرّا فشرّ، وبين النّوم واليقظة وبين الموت والبعث مهلة تقتضي العطف بـــ"ثم".

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ، ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾:

فهذا الإنسان لا يقوم وحده كما يدّعيه الملحدون الماديون، إنه في قبضة الله وإن تملّكه الغرور وادّعى القوة والغلبة، بل إنها العبودية الذّليلة أمام قهر الله وغلبته، إنها فوقية الاستعلاء والجبروت في كل حالة من أحوالكم، لا تملكون معها حولا ولا قوة، فسبحان من شلّ حركة الإنسان بالنّوم، وقهر جميع العباد بالموت.

غير أن الإنسان في زحمة نشاطه وإقبال من الدّنيا عليه، وهو ذاهل عن قدرة الله في الخلق والأمر والحكم والتّدبير، قد ينسى أو يتناسى هذه الحقائق، فيركبه الزّهو والغرور، و ينسلخ عن عبوديته لله، ويكتسي وشاح السّيادة التي تؤهّله للحاكمية والتّسلّط فإذا هو خصيم لمولاه، ولكنه في الحقيقة عبد خسيس لهواه.

ففي عالم الشّهادة نظن أنفسنا أحرارا غير مراقبين، بينما شاءت حكمة الله أن تحصي أعمالنا –ونحن نكدح ونتحرّك– وفق تصوراتنا لحقيقة الكون والحياة

والإنسان، والعملية الإحصائية تتمّ في سرّ وخفاء أيضا على يد من وصفهم الله بـــ"الحفظة" وأضفى عليهم صفة التمكّن والاستعلاء إذ قال: ﴿عَلَيْكُمْ﴾، ولم يقل إليكم، وهم رقباء أمناء كرماء كما قال تعالى عنهم في سورة الانفطار: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَاماً كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (١٠-١١-١٢).

وفي الحديث الذي رواه الشّيخان يذكر الرّسول أن هؤلاء الحفظة ملائكة يتعاقبون علينا باللّيل والنّهار فقال ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة باللّيل وملائكة بالنّهار يجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلّون، وأتيناهم وهم يصلّون**».[1]

ويسند الحديث قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ (٧٨).

وقد أبان الله صفة الحفظ المطلقة هنا في وصف الملائكة بأنها تتمّ بأمر الله في قوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد:١١)، أي بأمره، وهذه المراقبة الإحصائية لا تنقطع في لحظة من اللّحظات، بل هي دائمة متواصلة حتى نهاية الأجل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾:

فهؤلاء الرّسل هم الملائكة الموكلون بقبض أرواح العباد، وهم أعوان ملك الموت "عزرائيل" الذي قال الله في شأنه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، حديث ٥٤٠. ورواه مسلم من حديث أبي هريرة أيضا، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، حديث ١٠٤٧.

بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (السجدة:١١). إنها -إذن- الموتة الكبرى يسلّ فيها الرّوح من الجسد في الموعد الذي حدّده الله في علمه، وهو من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان:٣٤).

وتتمّ عملية الإماتة بضبط وإحكام لا تفريط فيه ولا تقصير من طرف الموكلين بها من ملائكة الله، وهكذا ترجع الرّوح إلى بارئها حيث شاء الله.

وقد صوّر الله تعالى حالة النّزع أبلغ تصوير في سورة الواقعة فقال جلّ من قائل: ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ، وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ، فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ، تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الواقعة:٨٣-٨٧). فيا هول المشهد في تلك اللّحظات، وقد انقطعت حيلة الإنسان فلا طبيب ولا دواء ولا تميمة، إلا ما يكون من لطف الله من التّيسير والتّخفيف لأوليائه، أو التّشديد والتّنكيل لأعدائه، سهّل الله علينا سكرات الموت، قال الشّاعر:

ولو عرف الطّبيب دواء داء لردّ الموت ما قاسى النّزاعا

وقال آخر:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كلّ تميمة لا تنفع

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾: أيّ أن جميع الخلائق المتوفاة ترجع إلى الله يوم القيامة أي إلى حكمه وجزائه، ويومئذ ينكشف الغطاء، فإذا بالخلائق كلّها سواء من آمن أو من كفر تعترف أن الملك الحقيقي لله الواحد القهّار، فهو الحاكم الذي يحاسب، وهو الذي يقضي ويحكم، فلا رادّ لقضائه ولا معقّب لحكمه، وليس ثمة تساوف ولا تراكم للملفات تتطلّب التّأجيل والانتظار، بل هي موازين القسط توضع، ويحاسب الكلّ بسرعة وعدل، وكفى بالله حسيبا، والله أعلم.

قدرته تعالى في التّنجية من الشّدة

وفي إنزال العذاب على العصاة

أ)- النص:

قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿يُنَجِّيكُم﴾: نجّى تنجية وأنجى إنجاءً: خلّصه ومنعه من كذا. ﴿تَضَرُّعًا﴾: التّضرّع المبالغة في الضّراعة، أي الذّلّ والخضوع، والمقصود به هنا ما يكون صادرا عن الإخلاص في الدّعاء، لأنه قد يتضرّع الدّاعي رياء. ﴿كَرْبٍ﴾: الغمّ الشّديد، يجمع على كروب. ﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾: لبس يلبسُ بمعنى خلّط، واللّبس التّغطية كاللّباس. ﴿شِيَعًا﴾: الشّيع جمع شيعة: الجماعة المتحدة في غرض أو عقيدة أو أمر يتفقون عليه. ﴿بَأْسَ﴾: البأس: أي القتل والشّرّ. ﴿يَفْقَهُونَ﴾: من الفقه وهو فهم الشّيء بدليله وعلته. ﴿بِوَكِيلٍ﴾: الوكيل: من توكل إليه الأمور، وفي الوكالة معنى التّصرّف والسّيطرة. ﴿نَبَإٍ﴾: النّبأ: الخبر الذي له شأن يهتمّ به. ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾: أي وقت يظهر فيه وتستقر حقيقته.

ج)- أوجه القراءة:

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُم﴾: قرأه نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف: ﴿مَنْ يُنَجِّيكُم﴾ بالتشديد. وقرأه يعقوب بالتخفيف: ﴿قُلْ مَنْ يُنجيكُم﴾. ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾: قرأ الجمهور: ﴿أَنجَيْتَنَا﴾ بمثناة تحتية بعد الجيم، ومثناة فوقية بعد التحتية. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف ﴿أَنْجَانَا﴾ بألف بعد الجيم. والضمير عائد إلى: "مَنْ" في قوله: ﴿قُلْ مَنْ ...﴾. ﴿قُلِ اللهُ يُنجيكُم مِّنْهَا﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر ويعقوب قرأوا: ﴿ينجيكُم﴾ بسكون النون وتخفيف الجيم على أنه من "أنجاه". وقرأه ابن ذكوان عن ابن عامر وأبو جعفر وخلف وعاصم وحمزة والكسائي: ﴿يُنَجِّيكُم﴾ بالتشديد مثل الأول.

د)- البيان والتفسير:

بعد بيان الأدلة على إحاطة علم الله وشمول قدرته وحفظ أعمال خلقه واستعلائه عليهم بالقهر والغلبة، أمر رسوله هنا أن يقول لعباده ويذكّرهم بشيء فطريّ في نفوسهم من الالتجاء إلى الله في الشّدة أن ينجيهم من ظلماتها، وحين يستجيب دعاءهم يغفلونُ عن شكر مولاهم، فقال تعالى: **﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُم مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾**:

أمر الرّسول أن يخاطب قومه المشركين مذكّرا إياهم بما أودعه الله في أعماق نفوسهم من آيات التّوحيد حين يستعلن نداء الفطرة في وقت الشّدة، يخاطبهم الرّسول بصيغة الاستفهام التقريري، لأنهم لا ينازعون في وجود الله

وقدرته. وفي جمع لفظ "الظّلمات" وإضافتها إلى البرّ والبحر استيعاب لأنواع الشّدائد الحسيّة والمعنوية التي يمكن أن يتعرض إليها الإنسان، وهو لا يملك في وقت الضّيق والشّدة حولا ولا قوة، فيتجه بدعائه إلى القويّ القاهر يدعوه متذلّلا خاضعا متعهّدا على شكران المنعم وهو يقسم ويؤكد: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

تلك هي حالة هؤلاء المشركين عندما تضطرب أحوالهم وتضيق بهم المسالك، فهم لا يشذّون عن واقع الفطرة الإنسانية عندما تجمعهم المصائب فيجتمعون على الدّعاء ويؤكدونه بالقسم والتّعهّدات.

وفي التّنصيص على صيغة الدّعاء تركيز للتقرير الذي تضمّنه الاستفهام، كما أن تلقين الجواب عليه من طرف الرّسول: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنجِيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ هو لجرّهم إلى الاعتراف بقدرة الله وكمال فضله ورحمته لعباده في إنجائهم من الضّوائق والشّدائد، ولكنّهم مع ذلك يخيسون بوعدهم، ويخونون عهدهم مع الله، إذ يعودون إلى الشّرك بعد الانفراج.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾: بعد ذكر نعمته تعالى بالإنجاء ذكّرهم هنا بقدرته على التّعذيب والانتقام على أسلوب التّرغيب والتّرهيب، والمخاطبون هم المشركون وكل من يسمع القرآن، ينذرهم بسوء العاقبة في كفران النّعمة.

وإعادة الأمر للرسول بالقول هو للاهتمام بالمضمون، ومؤداه أنّ الله تعالى هو وحده القادر على الانتقام وإنزال العذاب من فوق أو بعثه من تحت، أما هذه الأصنام التي تدعونها من دون الله فهي لا تملك لكم ضرًا ولا نفعا.

والتّعبير بالفوقية والتّحتية للعذاب هو لبيان التّنوّع والاختلاف في الكمّ والكيف مما نعبّر عنه اليوم بالآفات الطّبيعية، وهي إمّا معروفة مشاهدة كالصّواعق والطّير الأبابيل، والعواصف والأعاصير، وكذا الزّلازل والبراكين...إلخ، وإما غير مشاهدة كالأوبئة والجراثيم والأشعّة الضّارة.

وبما أن الآية لم تصرّح بوسيلة ذلك العذاب، فقد فسّرها ابن عباس بما هو أدلّ على عمومها فقال: "إن المراد بـ"من فوقكم" أي من أمرائكم، و"من تحت أرجلكم" أي عبيدكم وسفلتكم".

يقول صاحب المنار تعليقا على تفسيره لهذه الآية: "وحكمة مثل هذا الإبهام في القرآن أن ينطبق معنى اللّفظ على ما يدلّ عليه ممّا يحدث في المستقبل أو ينكشف للناس فيه ما كان خفيا عنهم، إذ ورد في وصف القرآن أنه لا تنتهي عجائبه، وأن فيه نبأ من قبل الذين نزل في زمنهم ومن كان معهم ومن يجيء بعدهم".[1]

قلت: ويستدل صاحب المنار على ما أدرجه ضمن تفسير هذه الآية، بما اخترعه النّاس اليوم من وسائل التّدمير والتّقتيل من قذائف عابرة للقارات تحمل رؤوسا نووية أو جرثومية، ومن غوّاصات تحمل مثلها تحت سطح الماء، ومن مختلف الألغام تخبّأ تحت الأرض...إلخ".

ثم يقول: "وفي الحديث المرفوع ما يشير إلى ذلك، فقد روى أحمد والتّرمذي من حديث سعد بن أبي وقاص قال: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ**

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٤٩١/٧.

﴿يَفْقَهُونَ﴾. فقال: «**إنما كائنة ولم يأت تأويلها بعد**».[1]

قلت: أما عذاب التّفرقة والفتنة فهو من صنع البشر حين يتخالفون في الدّين أو في السّياسة، فتضطرب أمورهم وتشتد خصومتهم مع تضارب الأهواء، والتّنافس على المنافع، مما يؤدي إلى فتن داخلية وصراعات دموية. وقد حصل ذلك الصّراع بين أتباع الدّيانة الواحدة كما حدث لبني إسرائيل وللمسلمين في فترات من تاريخهم، وكما يحدث بين الدّيانات المختلفة.

والمفروض في الدّين أن يكون جامعا لكلمة أتباعه، غير أن الصّراع على الحكم والسّياسة يجرّهم إلى التّناحر والاقتتال فتتفرق كلمتهم ويصبح بأسهم بينهم شديدا، وذلك مقتضى سنته تعالى في عقاب أتباع الرّسل حين يختلفون ويصبحون شيعا كل حزب بما لديهم فرحون. وفي رواية لابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ**﴾، قام النّبي فتوضأ ثم قال: «**اللّهم لا ترسل على أمتي عذابا من فوقهم ولا من تحت أرجلهم ولا تلبسهم شيعا ولا تذق بعضهم بأس بعض قال: فأتاه جبريل فقال: يا محمد قد أجار الله أمتك أن يرسل عليهم من فوقهم أو من تحت أرجلهم**»[2]. أي لم يجرهم من العذابين الآخرين.

١- رواه الترمذي من حديث سعد، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنعام، حديث ٣١٣٩، وقال: هذا حديث غريب. ورواه أحمد في المسند من حديث سعد، مسند العشرة، حديث ١٤٢٨.

٢- روي الحديث بألفاظ مختلفة قريبة، منها ما رواه النسائي من حديث خباب بن الأرت، كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب إحياء الليل، حديث ١٦٣٥. ورواه أحمد من حديث خباب، مسند البصريين، حديث ٢٠٦٤٦.

المفاصلة بين الرّسول والمؤمنين
وبين المستهزئين بآيات الله إلا للتذكير بالقرآن

أ)- النص:

وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا﴾: أصل الخوض هو الدّخول في الماء، واستعمل للكلام الذي فيه تكلّف الكذب والباطل. وقوله تعالى: ﴿فِي ءَايَاتِنَا﴾ أي يتكلمون في القرآن بالباطل والاستهزاء. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾: أترك مجالسهم وانصرف عنهم. ﴿الذِّكْرَى﴾: اسم مصدر ذكّر تذكيرا أي وعظ وأرشد، وتكون بمعنى التّذكّر. ﴿ذَرِ﴾: فعل أمر والمضارع منه يَذرُ، يترك ويتجنّب، ولم تستعمله العرب ماضيا، ولا مصدر له ولا اسم فاعل ولا اسم مفعول. ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾: أي تسلّم إلى الهلاك، والبسْلُ: المنع وحبس الشيء بالقوة، ومنه الباسل الذي يمنع نفسه ويحميها. ﴿وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾: الولي هو الناصر والحامي والشّفيع: الطّالب للعفو عن الجاني.

﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾: أي الفداء. ﴿حَمِيمٌ﴾: الماء الشّديد الحرارة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ﴾: قرأ الجمهور: ﴿يُنسِيَنَّكَ﴾ بسكون النّون وتخفيف السّين. وقرأه ابن عامر بفتح النّون وتشديد السّين من التّنسية، وهي مبالغة في أنساه.

د)- البيان والتّفسير:

ذكر الله للرسول تكذيب قومه بالقرآن وهو حق وصدق من عند الله، وأن الرّسول ليس عليه هداهم، وإنما هو مبلّغ، وأن العواقب التي يتوعّد بها المكذبين لها آجالها الزّمنية عند الله لتحقيقها وسوف يعلمونها لحينها، وعطف على ذلك هذه الآيات: **﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾**.

والخطاب للرسول ولسائر المؤمنين بالتّبع، يأمره الله بالإعراض عن الخائضين في آياته، أي ذلك الفريق من المشركين المكذبين بدعوة الرّسول وهم الذين لم يكتفوا بالتّكذيب، بل أوغلوا في الطّعن والإذاية بخوضهم في آيات الله سخرية واستهزاء، وذلك منهم أشدّ ظلما وأشنع كفرا من أولئك الذين كان موقفهم سلبيًا، لأن الذي يسعى للتشهير والإفساد إذا ترك لشأنه فإنه يضلّ ويعزّز جانب الكفر والباطل، فإذا وقف الدّاعي منهم موقفا سلبيًا بالسّكوت عنهم وحضور مجالسهم فإنه يقوّي جانبهم ضمنيا.

ولذا جاء هذا الإرشاد الإلهي في ما يعتبر -أيضا- من "أخلاقيات الدّعوة" بمجانبة هؤلاء ومقاطعتهم ما داموا في ذلك الخوض المشين، فإذا كان أمر الدّعوة يقتضي من الدّاعي أن يؤمّ مجالس القوم لنشر دعوته، وهم في كفر وعناد، وهم قوّة

وصولة، تمنع الإنكار باليد أو بالحوار الرّصين، فلا أقلّ من الإنكار السّلبي بمغادرة مجلسهم، أو بالقيام إن هم غَشَوا مجلس الرّسول، حتى غاية كفّهم عن الطّعن والاستهزاء.

ذلك هو ملخّص هذا التّوجيه الإلهي في مرحلة إعداد الجماعة المسلمة في مكة، وهي تمرّ بمحكّ الاختبار والتّمحيص تربّصا وانتظارا لفترة المواجهة والفصل في مرحلة البناء والتّأسيس بالمدينة المنوّرة.

فإذا كان لهذه الآية سبب لنزولها في مشركي مكة، فإنها على الأصحّ عامّة صالحة لكل زمان ومكان، ويؤيّد ذلك ما روي عن ابن عباس وابن سيرين أنها نزلت في أهل الأهواء والبدع من المسلمين الذين يؤوّلون الآيات بالباطل لتأييد ما استحدثوا من المذاهب والآراء.

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: وفي حالة طروء النّسيان بالقعود في مجالس القوم الخائضين، فيجب عليكم الإعراض فور تذكّركم، فأكّد الله تعالى الأمر بالإعراض بالنّهي عن القعود بعد التّذكّر وأظهر مكان الإظهار ليصف أولئك الخائضين بالظّلم لأنه إنكار للحق واستهزاء بذويه.

وصفة النّسيان للرسول من طرف الشّيطان هي من صفات الخلقة البشرية التي لا تنافي عصمة الرّسل في أمانة التّبليغ لدين الله وعصمتهم من الدّنايا، لأن إنساء الشّيطان للإنسان بعض الأشياء لا يعني تسلّطه عليه بوسوسة الشّرّ واستحواذه عليه بالإغواء الذي نفاه الله عن عباده المؤمنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَالَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ (النحل:٩٩-١٠٠).

وقد جاء التّعبير في القرآن لما وقع لبعض الرّسل والصّلحاء من هذا النّسيان فقال جلّ من قائل: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ (الكهف:٢٤).

وقال في شأن آدم: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (طـه:١١٥).

وقال في شأن يوسف: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (٤٢).

وقال في خادم موسى يوشع: ﴿وَمَآ أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ (الكهف:٦٣).

وقد أنسى الله نبيّه زمن ليلة القدر لما في إخفائها من حكمة الاجتهاد في الطّاعة ليالي رمضان المعظم، وثبت في كتب السّنة أن النّبي ﷺ سها في الصلاة فقال: «**إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسوْن فإذا نسيت فذكّروني**».[1]

﴿وَمَا عَلَى الذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾:

روي في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس قال: لمّا نزلت: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قال المسلمون: كيف نقعد في المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبدا؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا عَلَى الذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾. أي إذا تجنبتم -أيها المتقون- مجالسة هؤلاء الخائضين في آيات الله فإن الله لا يحاسبكم على خوضهم، حتى وإن تلقفت أسماعكم بعض ما يقولون من غير قصد.

ويحتمل أن يكون المعنى -والله أعلم- لا يحاسبكم الله في ما قعدتم معهم قبل النّهي أي من باب قوله تعالى: إلا ما قد سلف، أو على معنى ما تقدم من قبل، أي ما على الذين يتقون محاسبة أولئك الخائضين أو منعهم من الخوض، بل حسابهم

١- رواه البخاري من حديث عبد الله، كتاب الصلاة، أبواب استقبال القبلة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، حديث ٣٩٥.

على الله، ولكن عليهم أن يعظوهم وينكروا ما هم فيه على احتمال أن يكون الضّمير في: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ عائدا على الذين يخوضون بمعنى أنهم يتركون ذلك الخوض. أما إذا اعتبرنا الضّمير عائدا إلى الذين يتقون فيكون المعنى: لعلّهم بقيامهم بواجب التّذكير يستمرون على تقواهم.

﴿وَذَرِ الذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾: أكّد الله تعالى أمره بالإعراض عن المستهزئين بأمره في هذه الجملة المعطوفة أن يترك رسوله والمؤمنون معه، أن يتركوا هؤلاء المشركين الذين جعلوا دينهم لعبا ولهوا وذلك بما انتحلوه من العادات الفاسدة في عبادة أصنامهم، إذ أن طقوس عبادتهم هي ضروب من اللّعب واللّهو، فما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية كما أخبر عنهم الله تعالى.

وما كان نسكهم إلا أنواعا من العادات يحلّون منها ما يشاؤون ويحرّمون وفق أهوائهم، ويتعلقون بأباطيل الأوهام، في استقسامهم بالأزلام وغير ذلك مما يعدّ لهوا لا فائدة فيه من هؤلاء ومن على شاكلتهم من أهل الكتاب ومن المسلمين الجغرافيين.

وقوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ يفيد أن أقوى دافع على اللّعب واللّهو هو غرورهم بالحياة الدّنيا، فبالنّسبة للمشركين فلأنهم لا يعتقدون بالبعث ولا باليوم الآخر، ولذا فهم يعيشون للتمتع بالحياة، والأمر هنا بتركهم هو للتهديد، وهو في معنى قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَاكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الاَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(الحجر:٣)

وأما بالنّسبة للمستهترين الفاسقين من المسلمين وأهل الكتاب فهم الذين آثروا الحياة الدّنيا واتخذوا الدّين مطية للدنيا والتّكالب على زينتها وقد وصفها الله بأنها لعب ولهو وزينة.

﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلاَ

﴿شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤخَذْ مِنْهَا﴾: الخطاب للرسول ولكلّ من يتولى التذكير والإرشاد والضّمير في "به" للقرآن، كقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُواْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ (الأنعام:٥١).

أي ذكّر النّاس -أيها الرّسول- بالقرآن لئلا تُبسل نفس في يوم الحساب فتُحبس في العذاب وتمنع من نعيم الجنة بما كسبت من الزيغ والضّلال، يوم لا يكون لها نصير ولا شفيع من دون الله، ولا يقبل منها أي فداء، كما اعتاد النّاس فعله في الدّنيا، حتى توهّم الضّالون أن ذلك ينقذهم من عذاب الآخرة، كما قال المغرور بجنّتيه للرجل الصّالح الذي يحاوره: ﴿وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهُمَا مُنقَلَباً﴾ (الكهف:٣٦).

﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾:

أي أن أولئك الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا هم الذين أبسلوا بما كسبوا، وجزاؤهم في الآخرة هو شراب من حميم وعذاب أليم.

وخصّ لهم من أنواع العذاب الشّراب الحميم جزاء تلهفّهم على متاع الدّنيا، فهم لا يشربون إلا ما يزيدهم تلهفا وغصّة بسبب كفرهم وضلالهم، وفي ذكر الكسب مع الكفر سببا لذلك الإسلام إلى العذاب والهلاك دليل أن الإنسان في عمله مخيّر لا مجبر.

أعاذنا الله من الخذلان ونطلب منه تعالى العفو في الخطأ والنّسيان.

والله أعلم

دعاء غير الله ضلال وتخبط، وهدي الله هو الإسلام

أ)- النص:

قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا﴾: الأعقاب جمع عقب: مؤخر القدم. ويقال: نكص على عقبيه، رجع إلى المكان الذي جاء منه، وهو تمثيل لحال المرتدّ إلى الشّرك. ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾: استهواه: طلب هوى المرء ومحبته بإغرائه وتزيين ما يدعوه إليه. وقيل: إنه استفعال من هوَى يهوي في مكان سحيق من الأرض أي من الهُويّ أو السّقوط، والأول أرجح في معنى الآية. ﴿حَيْرَانَ﴾: من الحيرة، عدم الاهتداء إلى السّبيل القويم، وتطلق على التّردّد في الأمر. ﴿يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾: يطلبونه أن يبقى على هداه بأن يرجع إلى ما عليه أصحابه منه. ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾: الصّور هو البوق الذي يستعمل للإعلانات وتجميع النّاس أو الجيوش، والنّفخ في الصّور لا يعلم كنهه إلا الله تعالى، وقد ضرب مثلا لأمر الله التكويني يبعث

الأموات ليوم الحساب.

ج)- البيان والتّفسير:

﴿قُلَ اَنَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾: ظل المشركون وأتباعهم يحاولون صدّ الكثير من مستضعفي المسلمين عن دعوة الإسلام بكل الوسائل الخسيسة، وهم يطمعون في ارتداد البعض منهم، بل حتى رسول الله تعرّض إلى كثير من مضايقاتهم ومساومتهم في دينه من خلال عمّه أبي طالب حتى كان منه ذلك الموقف المشهود من إصراره وعزيمته بقوله: «**والله يا عمّ لو وضعوا الشّمس في يميني** ...» مما هو معروف من السّيرة النّبوية.[1]

والله تعالى يردّ على مزاعمهم في ما تقدم من سياق هذه السّورة الكريمة، وقوله تعالى: ﴿قُلَ اَنَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ﴾ استئناف وتأكيد لما تقدم في تأييس المشركين من محاولاتهم الكثيرة، حتى روي في أسباب النّزول أن عبد الرّحمن بن أبي بكر الصّديق دعا أباه إلى الارتداد، والقصة تندرج في المسعى اليائس من طرف المشركين.

وتكرّر الأمر لرسول الله بالقول للتنبيه إلى الاهتمام بالمقول المصدّر بالاستفهام الإنكاريّ والتّعجيبي ببيان علّة ذلك الإنكار، وجيء بنون المتكلمين: ﴿أَنَدْعُوا﴾ ليشمل الرّسول وكل الدّاعين معه إلى الله. وعلة الإنكار أن دعوة غير الله ارتداد وكفر إذ هي التماس لكشف الضّرّ وطلب النّفع من عاجز لا يملك ذلك لنفسه بله غيره، ثم إن ذلك نكوص على الأعقاب ورجوع إلى الوراء في هزيمة وخيبة لا يكون من شأن صاحب العقل والهمّة، ويكون الارتداد والنّكوص أخزى وأعظم عارا على صاحبه إذا كان عن تقليد بعد ممارسة الضغوط عليه من طرف

١- رواه البيهقي في دلائل النبوة من حديث يعقوب بن عتبة، حديث ٤٩٥.

الضّالّين أمثاله.

وتلك هي النّكتة التي اهتدى إليها صاحب المنار في اختيار التّعبير بقوله: "نرد" بدلا عن "نرتدّ" وهو ملحظ دقيق إذ يقول: "التّعبير بـــ"نردّ" المبني للمجهول بدل التّعبير بـــ"نرتد" أو "نرجع"، والنّكتة فيه أنّ هذا التّحوّل المذموم ليس من شأنه أن يقع من عاقل، لأن العاقل إذا وصل إلى مرتبة عالية من العلم والكمال فإنه لا يختار الرّجوع عنها، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير وأعلى". [1]

وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ للدلالة على معنى التّأييس. إذ أن هداية الله متى استقرت في قلب المؤمن بمشيئة الله فلا محيد عنها ولا ارتداد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُضِلٍّ﴾ (الزمر:٣٧). وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ (التوبة١١٥).

﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾:

ضرب الله هذا المثل التّشبيهي للحالة النّفسية للمرتد، والمثل مستوحى من البيئة العربية الصّحروية الموحشة، إذ يعتقدون أن الجنّ يظهر لهم في المفاوز والمهامه بألوان وأشكال مختلفة، ويسمّون هذا النّوع من الجنّ بـــ"الغيلان" و"السّعالى" جمع "غول" و"سعلاة".

ويرى العلماء أن هذا النّوع هم سحرة الجنّ لهم تلبيس وتخييل، غير أن الإسلام قد أبطل هذه المزاعم حفاظا على صفاء العقيدة ونقاوتها فقال رسول الله: **«لا عدوى ولا طيرة ولا غول»**[2]

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٥٢٣/٧.

٢- رواه مسلم من حديث جابر، كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة، حديث ٤٢٣٧.

وقال أيضا: «**إذا تغوّلت الغيلان، فنادوا بالأذان**»[1]، فأرشد إلى الإكثار من ذكر الله والالتجاء إليه عند تخيّل هذه الظّواهر من الأشباح والأطياف التي قد يتخيّلها الإنسان بدافع الخوف والفزع.

ومعنى: ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ شبّه المرتدّ عن إسلامه إلى الكفر بالذي أخذه مسّ من الجنون في فلوات الأرض، فهو حيران لا يهتدي إلى سبيل النّجاة. وهذه الصّورة شبيهة بآكل الرّبا في سورة البقرة إذ يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (البقرة:٢٧٥). وهذا التّشبيه البليغ يصوّر حالة القلق والاضطراب النّفسّي الذي يكون عليه المشرك أو المرتدّ -والعياذ بالله-.

وكم من المفكّرين عانوا من تلك الحالة النّفسية حتى إذا اهتدوا إلى الحق وشرح الله صدورهم للإسلام شعروا بالرضى والطّمأنينة، ولكنّها رياضة شاقة لمن تعثر في الطّريق، ولم تتهيّأ نفسه من أول عمره للإذعان والتّصديق، وقد علّمنا رسول الله أن نسأله تعالى الثّبات واليقين بدعائه المأثور: «**اللّهم يا مقلّب القلوب، ثبّت قلبي على دينك**»[2].

وتأكيدا لحيرة التّائه الضّال أضيف لحال كونه "حَيْرَان" حال ثانية بأن له أصحابا يدعونه إلى الهدى بلطف وترفق لينضم إلى جماعتهم، بقولهم: ﴿ائْتِنَا﴾، وما أحوج المجنون إلى ذلك الاستئناس الهادئ للتخفيف من غلواء عناده، فهو لا ينصاع

١- رواه ابن أبي شيبة في المصنف من حديث جابر بن عبد الله، كتاب الآذان، باب الغيلان إذا رُئيت، حديث ٢٩١٥٥. ورواه النسائي في السنن الكبرى من حديث جابر، كتاب عمل اليوم والليلة، باب الأمر بالآذان إذا تغوّلت الغيلان، حديث ٩٤٤٤.

٢- تقدم تخريجه، ص ٥٠.

لما يدعى إليه من الهدى والرّشاد، حتى إذا ما تمكّنوا منه جعلوه في الأصفاد، منعا لما يتوقع منه من شرّ وفساد.

﴿قُلِ انَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أعيد الأمر بالقول هنا للتأكيد على ما يجب على المسلم المهتدي أن يلتزم به من الاعتصام بما حباه الله به من الهداية، وما يجب أن يتحلّى به في معتقده وفي سلوكه، وقد تبرأ من الشّرك وأصحابه كما تفيده الآية السّابقة. والقول موجّه إلى المشركين حين لجأوا إلى المساومة فطلبوا من الرّسول أن يعبد آلهتهم زمنا ليعبدوا إلهه زمنا، فجاء الرّدّ الإلهي بصيغة القصر بأن الهدى الحق هو هدى الله الذي أنزله على رسوله، وهو هذا القرآن المبين الذي يتلوه عليهم، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وتأكيد القصر بـــ"إنّ" وضمير الفصل يوحي بما يعتقده المشركون من الهدى والصّواب في ما هم عليه من دين آبائهم وأجدادهم، وأنهم ينكرون أن يكون في دعوة الرّسول هدى أو صواب.

وعطفت على المقول جملة: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ و"اللام" فيها يحتمل أن تكون للتعليل أو للمصدرية، والتّقدير على الأول: وأمرنا بهذا الهدى لأجل أن نسلم قلوبنا لربّ العالمين لأن الإسلام الحقيقي هو الخضوع والإذعان لله تعالى، والتّقدير على الثّاني "أي المصدرية": وأمرنا بالإسلام لله ربّ العالمين. واختير وصف الرّبوبية للذات العلية لما في الوصف من الرّعاية لكافة الخلق، تلك الرّعاية التي تعطي الأحقية لهدى الله.

﴿وَأَنَ اَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ﴾: فبعد الأمر بإخلاص العقيدة وإسلام الوجه لله، عطف عليه الأمر بالجانب السّلوكي العملّي في أصدق مظهر له وهو إقامة الصّلاة، أي الإتيان بها على الوجه الأكمل. وملاك الأمر في كل من العقيدة والعمل الصّالح هو تقوى الله ومجانبة سخطه وغضبه بمخالفة دينه وشرعه، وذلك ما تفيده

آية سورة العنكبوت: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت:٤٥)، بعد قوله تعالى في بيان المقصد الشّرعي من الصّلاة: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت:٤٥).

﴿وَهُوَ الذي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: أي تُجمعون إليه وحده يوم القيامة للحساب والجزاء، وهذا الخبر جاء معطوفا على الأمر بالتّقوى في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ لأن الإيمان بالبعث والحشر والجزاء من أقوى الدّواعي لتقوى الله، وفي هذا الإخبار تعريض للمشركين بأن آلهتهم لا تغني عنهم من الله شيئا.

﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾: والخلق هو الإيجاد من العدم، وهو من خصوصيات الألوهية، والمشركون لا ينكرون ذلك، غير أن تصوّرهم لمعنى الألوهية فاسد بجعل الوسائط بينهم وبين خالقهم.

وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي الحق الثّابت المتحقق الأصيل، وهو قوام ذلك الخلق إحسانا وإتقانا وحكمة بالغة في ترتيب قوانينه وسننه، لا تفاوت فيها ولا تناقض، وبالتالي فإن ما أودع الله في السّماوات والأرض من الكائنات والخلائق، وفي طليعتها هذا الإنسان المكرّم، والحامل لأمانة التّكليف، لا يمكن أن يترك سدى بغير حساب ولا جزاء، لأن ذلك ينافي الحق والعدل الذي قامت عليه السّماوات والأرض: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ، فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (المؤمنون:١١٥-١١٦).

﴿وَهُوَ الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾: إذا كان فعل الله في الخلق والإيجاد للنشأة الأولى هو الحق فكذلك قوله هو الحق يوم يعيد الخلق للنشأة الثّانية، وليس ذلك بعسير على قدرته تعالى كما يتوهّمه المشركون إذ يقول للشيء كن فيكون.

والنّفخ في الصّور من مشاهد يوم القيامة كما صوّرها القرآن في سورة الزّمر

وغيرها، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَآءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (الزمر:٦٨).

وقد ثبت في بعض الرّوايات عن رسول الله ﷺ: «**أنها نفخات ثلاث: الأولى: نفخة الفزع. والثّانية: نفخة الصعق، والثّالثة نفخة القيام لرب العالمين**». وكما ثبت عنه ﷺ أن إسرافيل هو الملك الموكل بالنّفخ[1].

أما كيفيته وكيف يسمعه الموتى فهي من الأمور الغيبية التي نؤمن بها ونرجع فيها الأمر إلى الله. ويومئذ لا مجال للإنكار والعناد، ولا حيلة حتى لأعتى النّاس في الكفر والطّغيان والفساد، ولا ادّعاء لأيّ جاه ولا سلطان، فقد انكشف الغطاء وزالت الغشاوات، واستبانت للجاحدين حقيقة الملك لله وحده، وقد نادى المنادي: لمن الملك اليوم؟ فلا مدّعي له من المخلوقات مهما كان وزنها في الدّنيا، فيجيب ضمير الوجود المسبّح الأوّاب: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (إبراهيم:٤٨).

﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**﴾: ومن صفات الخالق الحق الذي تدعون إلى عبادته أنه عالم الغيب والشّهادة، فإذا كنتم -أيها البشر- تتعلقون بالمحسوس الذي تشاهدون، ويقصر علمكم وإدراككم لما هو مغيّب عنكم، فإن الإله الذي دعاكم الرّسول إلى إفراده بالعبادة يحيط علمه بما تشاهدون وما يخفى عنكم، فقوله الحق إذا أمر وإذا أخبر، وإذا كلّف فهو الحكيم في ما يشرعه لكم بما يصلح من شؤون معاشكم ومعادكم، وهو الخبير بأسرار ملكوته ودقائق مخلوقاته: ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(الملك:١٤)، فهو وحده المعبود الحق.

والله أعلم

١- أنظر الروايات في ذلك: الطبري، جامع البيان، تفسير سورة الكهف، ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾.

مجادلة إبراهيم لأبيه وقومه، واستدلاله على عدم ربوبية الكواكب بأفولها، وتصريحه بعقيدته وبراءته من الشرك

أ)- النص:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِبْرَاهِيمُ﴾: اسم علم لأبي الأنبياء خليل الرّحمن، وله عند العرب أسماء أخرى مثل: إبراهام، إبراهوم، وإبراهم، وأبرهم. وهو الجدّ الأكبر للعرب من ولده إسماعيل، ولد في بلدة " أور" جنوب الحدود التركية مع الحدود السّورية، وهي من بلاد الكلدان. قيل: إنه كان معاصرا للملك البابلي "حمو رابي". ﴿ءَازَرَ﴾: هو أبو إبراهيم حسب ظاهر الآية، وقيل: هو لقب لأبيه الذي ورد اسمه في نصوص العهد القديم بـــ"تارح" أو "تارخ"، وقيل غير ذلك فيه. ﴿إِنِّيَ أَرَاكَ وَقَوْمَكَ﴾: وقومه هم الكلدانيون ويسمّى ملكهم "النمروذ". ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: الضّلال: العدول عن الطّريق الموصل للغاية، والمبين: البيّن الواضح. ﴿مَلَكُوتَ﴾: الملك العظيم، والملك

الحق لله وحده. ﴿جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾: من الجَنّ، وهو ستر الشّيء عن حاسّة البصر. ﴿كَوْكَبًا﴾: والكوكب: النّجم المضيء، ويبدو أن الكوكب الذي رآه إبراهيم كان متميّزا عن بقية الكواكب، حتى قيل: إنه المشتري أو الزّهرة. ﴿أَفَلَ﴾: يأفل: أي غاب في الأفق. ولا يقال: أفل إذا احتجب بسحاب. ﴿بَازِغًا﴾: أي كان في ابتداء شروقه. ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾: أي من الأصنام التي تعبدونها من دون الله. ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾: قصدت بعبادتي وجه الله الذي أبدع خلق السّماوات. ﴿حَنِيفًا﴾: والحنيف: أي مائلا عن الضّلال إلى طريق الهدى.

ج)- أوجه القراءة:

﴿ءَازَرَ﴾: قرأه الجمهور: ﴿ءَازَرَ﴾ بفتح الرّاء، وقرأه يعقوب بضمّها. واقتصر المفسرون على جعله في قراءة فتح الرّاء بيانا من أبيه.

د)- البيان والتّفسير:

وجه المناسبة لذكر قصة إبراهيم مع أبيه وقومه هو الاحتجاج على مشركي العرب وإنكار وثنيتهم، وإبطال دعواهم بأنهم على ملّة إبراهيم، ثم مساندة الرّسول وأصحابه في دعوتهم لتوحيد الله، وأن لا غرابة في مواقف قومهم ضدّهم، وما يلاقون منهم من عناد وإنكار، فهذا خليل الرّحمان ورافع لواء التّوحيد وجدّ رسول الله يجادل قومه وهم عنه معرضون، وتلك هي سنة الدّعوات الصّالحة لا تنتصر إلا بعد معاناة وصبر وثبات.

فالآية معطوفة على سابقتها في سياق النّقاش والحجاج لإثبات توحيد الله. قال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾**:

والتّقدير: اذكر يا محمد قصة إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه...، وقد أثبت القرآن الكريم في سور مختلفة نُبَذًا من ذلك الحوار العائلي بين الولد وأبيه في شأن المعتقد. وهو يلين تارة كما جاء في سورة مريم إذ يبدو فيه إبراهيم ولدا صالحا شفوقا حريصا على هداية أبيه وهو يستعطفه المرة بعد المرة بقوله: ﴿يَا أَبَتِ﴾(٤٢). وقد يعنف ذلك الحوار، ولكنه لا يتجاوز حدّ اللّياقة كما ورد في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

وقد اشتهر هؤلاء القوم بوثنيتهم في عبادة الأصنام، حتى قيل: إنهم اتخذوا أصناما فردية لكل واحد منهم عدا تلك التي يعبدونها في معابدهم جماعة، وأن أبا إبراهيم كان يحترف صناعة الأصنام والتّجارة فيها.

ففي هذا الجوّ الموبوء والمرتكس في الضّلالة ينشأ الولد الصّالح "إبراهيم" ويترعرع، والله تعالى يعدّه لإصلاح ذلك الوضع المتردّي، وأول خطوته في ذلك الإصلاح أن يبدأ بألصق النّاس به وهو أبوه، لأن ذلك أدعى لكسب الثّقة من غيره عندما تتوسّع دعوته، وفي هذه القاعدة الإصلاحية يندرج أمر الله لرسوله محمد ﷺ حين قال له: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤).

ولقد عصم الله إبراهيم من لوثة الكفر والشّرك التي يستنقع فيها قومه، فهو بفطرته السّليمة يشعر أن ما عليه أبوه وقومه من عبادة الأصنام هو الضّلال المبين، فلم يشأ أن يبقى ذلك الشّعور مكبوتا في نفسه، فما لبث أن أعلن به صراحة بصيغة الاستفهام الإنكاري في توبيخ وتقريع: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾.

وتنكير كلمة "أصنام" مع جمعها دليل على ما أثبتناه من تعدّد آلهة القوم وكثرتها، وقد أكّد الجملة بـــ"إن" وبفعل "الرّؤية" بحيث يتيقن الرائي بأن المشاهد هو الضّلال الواضح البيّن، لأن الألوهية الحقة التي ارتمست صورتها المقدسة في قلب إبراهيم لا يمكن أن تكون في تلك الأصنام التي لا تنفع ولا تضرّ، وليس في وصفه

أباه بالضّلال ما ينافي البرّ بالوالدين، لأن دعوة الحق لا يمكن أن تجامل ولا أن تراوغ في الإعلان عن طبيعتها، وكل ما ينافيها فهو ضلال وماذا بعد الحق إلا الضّلال.

وليس في قولك لمن ضلّ سبيله: أنت ضالّ عن الطّريق، أية مجافاة ولا انتقاص من قدره، بينما أنت تريد إرشاده بدون تعنيف ولا شتم، وقد قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلاً فَهَدَى﴾ (الضحى:٧).

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾: وكما أرشد الله إبراهيم لرؤية الحق بفطرته السّليمة، فأدرك بها أن ما عليه أبوه وقومه من عبادة الأصنام هو الضّلال المبين، فكذلك أراه الله عظمة ملكه، وكشف له من أسرار خلقه في السّماوات والأرض ما يزداد به يقينا وإيمانا بعد ذلك الوعي المتفتح لحقائق الوجود، والإلهام الفطريّ المؤدّي إلى توحيد المعبود، فالفطرة السّليمة إذا نوّرها العقل الواعي فإنها بعد النّظر والتّأمّل في بديع صنع الله وتناسق خلقه فإن صاحبها -غالبا- ما يوفّق إلى الإيمان الحق كما حدث لكثير من العلماء والفلاسفة، فما بالك بالأنبياء والمرسلين حين يقتربون من سنّ الكمال العقلي، إذ ينصرفون إلى ذلك التّأمّل والنّظر في ملكوت الله، إرهاصا لتلقّي خبر السّماء، كما كان يفعل رسول الله في غار حراء بعد سنّ الخامسة والثّلاثين. وهذا ما حدث لإبراهيم عليه السلام بتوفيق الله ومشيئته في ذلك الإلهام وتلك الرّؤية. فكيف كانت تلك الرّحلة التّأمّلية لإبراهيم في ملكوت السّماوات والأرض؟.

إنها رحلة في الطّريق إلى الله، انطلق فيها بدافع من فطرته السّليمة، وهو يمتلك -بفضل الله- العقل الواعي والنّظر الحصيف، فبعد أن وجد ما يفعله أبوه وقومه ضلالا مبينا، استشرفت نفسه الزّكية إلى التماس الحق المكنون في صفحة الكون العجيب، ومع خلوص النّية وتوجّه العزيمة لمعرفة الحق بأدلته النّاصعة ومحاولة العبد

الصّالح لذلك بصدق وإرادة، فإن الله تعالى يوفّق ويرشد وييسّر الأسباب، فإذا بالحقائق تنكشف، وإذا بالأسرار تستبين للبصيرة، وقد توفّر لصاحبها التّأمّل الرّزين الواعي، والكشف اللّدنّي من الذي يعلم السّر وأخفى. ونتيجة ذلك كله إيمان جازم ويقين راسخ بالحق الذي هداه الله إليه: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾. وما بين تلك الانطلاقة التّأمّلية المباركة من إبراهيم إلى نهاية المطاف في الوصول إلى المعبود الحق، وإسلام الوجه إليه بوفاء وصدق، فإن مساره نموذج رائع للسالكين.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾: يقول المؤرّخون إن الكلدانيين -قوم إبراهيم- كانوا من الصّابئة يعبدون الكواكب، وقد يمثلونها في صورة الأصنام.

فرّع الله تعالى على ما رآه إبراهيم من ملكوت السّماوات والأرض جملة، فرّع هذه الرّؤية الخاصّة على صفحة السّماء وقد تبدّت له ناصعة عندما جنّ عليه اللّيل، أي أخفى من حوله الأشياء المرئية ولفّها بظلامه، فانحصرت رؤيته في صفحة السّماء، وكم يبدي اللّيل من أسرارها وعظمتها، وكم تستهوي نفوس العاشقين، وتهزّ عواطف المشوقين. وها هو ذا إبراهيم يلتمس طريقه إلى الحبيب الأعظم، بعد أن سفّه أحلام قومه في ما هم عليه من زيغ وضلال في تصوّرهم للمعبود.

ورؤيته لكوكب بصيغة التّنكير يدلّ على أنه كوكب يتميّز بإشراقه ولمعانه، ولعله من الكواكب التي يعبدها قومه، حتى قيل في التّفسير النّقلي أنه كوكب المشتري أو الزّهرة. واستعماله لاسم الإشارة: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ هو التّعبير عن تلك الميزة، ثم هو يدلّ أن هذا القول كان منه في مقام المناظرة لقومه وهو يستدرجهم بذلك للإنكار عليهم وإلزامهم الحجة وإعلان براءته منهم في نهاية المطاف بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

وهذا الأسلوب من المجادلة الرّزينة بوضع الفرضية المزعومة في نظر القوم ثم

نقضها بالحجة المنطقية، هي من الأساليب الحكيمة في إقناع الخصم والسّير معه خطوة فخطوة إلى حظيرة الصّواب. وليس في تصريح إبراهيم بقوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ ما يريب في إخلاصه ويقينه بربّه المعبود الحق، لأنه لا يقصد به تكريس الكفر في نفوس قومه، بل يريد إنقاذهم وإرشادهم بمثل ذلك الأسلوب الاستدراجي الحكيم، ألا ترى قوله بعد ذلك: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾، أي غاب ذلك الكوكب في الأفق، فإذا كانت العلاقة بين العابد والمعبود هو ذلك الحبّ المقدّس الذي هو أعلى الحبّ، فيجب أن يكون المعبود حاضرا لا يغيب ولا يأفل، ولا يُتسلّى عنه ولا يملّ، فالأفول والغياب أو التّحوّل والاضطراب ليس من شأن الإله المعبود، ولا من صفات العزيز المحبوب، والمحبّ لا يختار لنفسه من يجفوه ويغيب عنه وينساه.

﴿فَلَمَّا رَءا الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّآلِّينَ﴾:

انتقل إبراهيم متدرّجا من الأضعف إلى الأقوى في الكواكب، حسب المشاهدة البصرية البسيطة، وبزوغ القمر هو طلوعه من وراء الأفق، وهو أكثر إضاءة من الكوكب، ولكنه يعتريه الأفول كغيره من النّيرات، وهو يعرف ذلك، وأعطاه وصف الرّبّ: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ استدراجا لقومه، وفق ما كانوا يقولون ويعلنون، وتمهيدا لإبطال ذلك.

وجاء التّعبير بـــ"القمر" في هذه القصة كما ذكر بنفس اللّفظ في آيات أخرى، وللقمر أسماء مختلفة بحسب منازله في الأفق، فهو هلال فقمر فبدر، ويتعيّن أن يكون أفوله في جزء من اللّيل، لأنه قد يبدو نهارا في بعض منازله، ومن قديم الزّمان يسهر النّاس على ضوء القمر ويتفرقون عند أفوله، فيمكن بذلك أن تتمّ تلك الرّؤية لهذه النّيرات في ليلة واحدة ونهار واحد، وقد اعتورها الأفول كلها، فهي إذا

لا تصلح أن تكون ربّا معبودا، ولذا ينبّه إبراهيم قومه بأسلوب التّعريض: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾.

ينبّههم أنهم على ضلال في ما يفعلون، وهو يلتمس الهداية من ربّه حتى يجانب ضلالهم، وأن هذا الرّبّ لا يمكن أن يكون نجما ولا قمرا ولا شمسا، وإن كانت أعظم منهما، لأنها كلها لا تملك الثبات والاستقرار، والربّ المعبود في حسّ إبراهيم ونور بصيرته لا يتعب ولا يعجز ولا يغيب، فهو الذي يستمدّ منه الهداية، وقومه لا ينازعونه في هذا الرّبّ الذي يعتقد به، لأنهم يقولون بتعدّد الآلهة.

ويترقى إبراهيم في الاستدلال وإقامة الحجة لينتهي إلى الإعلان بالبراءة مما عليه قومه من الكفر والضّلال: ﴿فَلَمَّا رَءا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾:

لم يؤنث لفظ الإشارة مراعاة للفظ " الرّبّ" ولصيانته من شبهة التّأنيث، وقوله: ﴿هَذَآ أَكْبَرُ﴾ لتأكيد محاراته لقومه في ما يعتقدونه من تعدّد الآلهة، وإضفاء صفة الكبر للشمس حجما وضياء يجعلها في نظر القوم أحق بإعطاء الرّبوبية لها لو كان الأمر يرتكز بين الأجرام الثّلاثة على التّفاضل بينها ولكونها يعتريها كلها صفة الأفول، فقد سقط ذلك الاعتبار عنها وأصبحت هي الأخرى في حكم المخلوق العاجز.

وعند وصول إبراهيم إلى هذه النّتيجة الملزمة في إقناع القوم صرّح بحقيقة ما يعتقده حقا وصوابا في توحيد الإله، وتبرّأ من شرك قومه، ثم أعلنها مفاصلة تامّة بينه وبينهم بالإفصاح عن عقيدته والتّأكيد على براءته مما هم فيه. فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

فهو توجّه القلب السّليم إلى الرّبّ الخالق العظيم، وهو بمعنى إسلام الوجه، أي الخضوع في حبّ وإجلال للمعبود الحق، وهو توجّه ثابت مستقرّ لا ينحرف

إلى الشّرك قيد أنملة، ثم نفى نفيا قاطعا أن يكون من المشركين، وبذلك يكون قد تبرأ منهم أنفسهم بعدما تبرأ من شركائهم، واستحق إبراهيم بمثل هذا الإخلاص والوفاء لعقيدته أن يكون خليل الرحمن، ويبقى للمؤمنين الصّادقين أسوة حسنة. قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ (الممتحنة:٤).

صدق الله العظيم، وهو أعلم بمراده.

محاجّة إبراهيم لقومه، ويقينه بالله أمام تهديدهم

أ)- النص:

وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَحَآجَّهُ﴾: من المحاجة، وهي المجادلة لإقامة الحجة، وأصل المحجة وسط الطّريق المستقيم، والحجة هي ما يدلي به أحد الخصمين في إثبات دعواه. ﴿أَتُحَآجُّونِّى فِى ٱللَّهِ﴾: أصله أتحاجونني بنونين حذفت إحداهما للتخفيف في قراءة نافع، والتّقدير أن تكون المحاججة في صفات الله العلية لا في ذاته، أي في توحيد الله

وتنـــزيهه. ﴿إِلاَّ أَنْ يَّشَآءَ رَبِّي شَيْئاً﴾: استدراك بمعنى "لكن" على اعتبار أنه استثناء منقطع لئلا يتوهم السّامعون من إبراهيم أنه لا يخاف شيئا. ﴿أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً﴾: السّلطان هنا بمعنى الحجة، أي أن ما تشركون بالله لم يثبت ببيّنة من الوحي ولا بنظر العقل فهو افتيات على الله وافتراء. ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ﴾: الفريق: الطّائفة من النّاس المتميّزة عن غيرها وقيل: الفرقة أقلّ من الفريق، والمراد بالفريقين الموحدّون الحنفاء كإبراهيم ومن آمن معه، والملحدون المشركون، واستعمل الظّاهر مكان الضّمير هنا لتشمل هذه المقابلة كل موحّد ومشرك. ﴿بِالأَمْنِ﴾: ضدّ الخوف. ﴿لَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾: أي كانوا أوفياء في عقيدهم وعبادهم لله، لا يخلطون في عملهم ذاك أيّ شائبة للشرك.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَتُحَآجُّونِي﴾: قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر: ﴿أَتُحَآجُّونِي﴾ بنون واحدة خفيفة، وأصله "أتحاجّونني" بنونين، فحذفت إحداهما للتخفيف، والمحذوفة هي الثّانية التي هي نون الوقاية على مختار أبي عليّ الفارسيّ. قال: لأن الأولى نون الإعراب وأما الثّانية فهي موطنة لياء المتكلم فيجوز حذفها تخفيفا، وذهب سيبويه أن المحذوفة هي الأولى. وقرأ البقية بتشديد النّون لإدغام نون الرّفع في نون الوقاية لقصد التّخفيف أيضا، ولذلك تمدّ الواو لتكون المدة فاصلة بين التقاء السّاكنين. ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾: حذفت "ياء المتكلم" وصلا ووقفا في قراءة نافع من رواية قالون وفي الوقف فقط في قراءة بعض العشرة، كما تقدم في: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾.

د)- البيان والتّفسير:

لقد انتهى إبراهيم عليه السلام إلى النّتيجة الصّادقة في مناظراته لقومه، وأعلنها عقيدة جازمة في توحيد الله وتنـــزيهه مما يشرك به قومه، ونفيه القاطع من أن

يكون على معتقدهم الباطل، وعندما يفحم المتكبّر المعاند في مجال المناظرة وتلزمه الحجة يلجأ إلى تبرير موقفه بالرّكون إلى التّقليد في التّمسّك بما كان عليه الآباء والأجداد، وعندئذ يكون المقلد المغرور في موقف الرّفض التّامّ لما يعرض عليه، ولا يذعن للحجة إذا قامت عليه.

وقد عرضت سور من القرآن شطرا من تلك المحاجّة، كالأنبياء والشّعراء والصّافات، ويفعل الوهم فعله في نفس المقلّد وهو يواجه خصمه فيتوعّده ويهدّده بشرّ مستطير إن هو تمادى في تسفيه أحلام قومه والاستخفاف بتقاليدهم، فكان ردّ إبراهيم قويّا جازما: ﴿أَتُحَآجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾، فهو يؤكّد إنكاره عليهم بحال هداية الله له.

قال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَآجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾:

أكّد إبراهيم محاجّة قومه له في وحدانية الله بقوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾، فهو ينفي خوفه من إضرار آلهتهم له بسوء، لأنه يعتقد أنها لا تسمع ولا تبصر بله أن تضرّ أو تنفع، ثم استثنى من عموم ذلك الحكم عليها مشيئة الله إذا اقتضت أن يمسّه مكروه من جهة تلك الآلهة أو من جهة أخرى، وهذا الاستدراك من إبراهيم ينمّ عن مدى إخلاصه في عقيدته بربّه، وهو منه استخفاف بتلك الآلهة يزيد قومه غيظا وكمدا. ثم علّل ذلك الاستدراك في كمال علمه تعالى بما يمكن أن يصدر من مخلوقاته من النّفع أو الضّرّ.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾: استفهام إنكاريّ لعدم تذكّرهم مع قيام الحجة عليهم في كون تلك الآلهة تفتقر إلى صفات الألوهية الحقة، فهي معبودات باطلة، فإن المعبود الحق هو الغنيّ عن مخلوقاته إذ له السّلطة العليا في تدبير شؤونها.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾: استفهام تعجبي إنكاريّ، وهو يُشعر بأن القوم خوّفوا إبراهيم من انتقام آلهتهم منه إذا هو تمادى في شتمها، بينما هم لا يخافون من نقمة الله في إشراكهم به ما لم يقم به دليل نقليّ ولا عقليّ يفيد حقّية تلك الشّراكة، ممّا يؤذن أن القوم كانوا يعرفون الله، ولكنهم أساؤوا في تصوّرهم لحقيقة الإله، فاتخذوا له أندادا للشّفاعة والوساطة. وتلك هي صورة الكفر والشّرك من أقدم العصور تتناقلها الأجيال البشرية في غباوة وتقليد، وهكذا يقلب إبراهيم الحجة على قومه مبيّنا لهم أن الإله الحق في قدرته ووحدانيته هو الأجدر بالخوف.

ولما كانت صورة الشّرك متشابهة في كل العصور والأجيال، إذ يتشكّل في ذلك فريقان: فريق مؤمن موحّد، وفريق كافر مشرك.

فقد فرّع إبراهيم على ما تقدم مقابلته بين الفريقين ليعمّم الحكم، فيلجئ بذلك الخصم على الاعتراف بأنّه أولى بالخوف من الله المعبود الحق من خوفه هو من آلهتهم الباطلة. وفي مثل هذا الأسلوب لياقة تستدعيها أخلاقيات الدّعوة، وذلك بتجنّب التّصريح للخصم بخطئه حتى يتفادى عناده ولجاجه.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إلزام لهم بالإجابة إن كانوا يملكون في ذلك ما يقنع وإلا فالسّكوت أولى بهم.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾:

جمهور المفسّرين على أن هذه الجملة هي حكاية لكلام إبراهيم عليه السلام وهي تشكل الجواب الصّحيح للسّؤال المتقدم: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾. ولتركيز

مفهوم العقيدة الصّحيحة لم يكتف بذكر صفة الإيمان، بل أضاف لها قيدا آخر في كون ذلك الإيمان لا تشوبه شوائب الزّيغ والشّرك، وأعظم الظّلم هو الشّرك بالله كما ورد في سورة لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣). والتنكير في لفظ "ظلم" يفيد الاستغراق. ويدلّ له الحديث الصّحيح الذي رواه ابن مسعود قال: لمّا نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على المسلمين وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟، فقال لهم الرّسول: «**ليس كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**».[1]

وهذا النّوع من الإيمان الخالص هو صمام الأمن والنّجاة في اليوم الآخر، فكل زيغ في العقيدة مما يمارسه كثير من المسلمين اليوم من اللّجوء إلى أضرحة الأولياء والتّمسّح بها وغير ذلك مما قد نتلفّظ به من الدّعاء لغير الله، إنما هو ضلال يؤدي بصاحبه إلى غضب الله. يقول تعالى في سورة طه في هذا المعنى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً﴾ (طه:١١١-١١٢).

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾: الإشارة هي للذين آمنوا، وهي للتنبيه على أن هذا الفريق هو الأجدر بالأمن الحقيقي في الحياة الأبدية حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. والتّعبير بالجملة الاسمية: ﴿لَهُمُ الأَمْنُ﴾ يدلّ على ثبوت ذلك الأمن وأنه من خصوصيتهم، ثم أضفى عليهم صفة الاهتداء فقال تعالى: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾. وقيل إن الجملة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هي جواب من الله فصل به بين إبراهيم وخصومه، والله أعلم.

١- رواه البخاري من حديث ابن مسعود، كتاب استتابة المرتدين، باب ما جاء في المتأولين، حديث ٦٥٧١.

إبراهيم أبو الأنبياء، وهم عنصر الهداية

أ)- النص:

وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿ءَاتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾: أي أعطيناها وخوّلناها له ليتغلّب بها على قومه. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾: الدّرجات هي مراقي السّلّم، وتطلق على المراتب المعنوية في الخير والجاه والعلم، وهو تمثيل لرفعة الشّأن وعلوّ المنزلة. ﴿وَهَبْنَا﴾: الوهب والهبة: إعطاء الشيء بلا عوض. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾: هم من تناسل من الإنسان من أبناء أدنين، وهل يخصّ ذلك أبناء الأولاد الذّكور أم يشمل أبناء البنات أيضا، المسألة خلافية بين العلماء. ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾: الاجتباء هم الاصطفاء والاختيار مشتق من الجبي أي الجمع. ﴿فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: قيل: إن العالمين اسم لما سوى الله فيشمل النّاس والملائكة، وقيل: لا يراد منه إلا النّاس أو الأقوام، كما قال تعالى في تفضيل بني إسرائيل: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الجاثية:١٦). و لم يقل أحد من المفسّرين أنها تدلّ على تفضيلهم على الملائكة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بإضافة "دَرَجَاتٍ" إلى "مَن"، وذلك باعتبار ملابسة المرتقي في الدّرجة لها، لأنها إنما تضاف إليه إذا كان مرتقيا عليها. والإتيان بصيغة الجمع في "دَرَجَاتٍ" باعتبار صلاحية "مَن نَّشَآءُ" لإفراد كثيرين متفاوتين في الرّفعة. وقرأ البقية بتنوين: "دَرَجَاتٍ" فيكون تمييزا لنسبة الرّفع باعتبار كون الرّفع مجازا في التّفضيل. والدّرجات مجازا في الفضائل المتفاوتة. ﴿وَالْيَسَعَ﴾: قرأه الجمهور بهمزة وصل ولام ساكنة في أوله بعدها تحتية مفتوحة. وقرأه حمزة والكسائي وخلف: "اللّيْسع" بهمزة وصل وفتح اللام مشدّدة بعدها تحتية ساكنة، بوزن "ضيغم" فهما لغتان فيه.

د)- البيان والتّفسير:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾:

الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾، والإشارة هي إلى كل ما تقدم في سياق مجادلة إبراهيم لقومه في إثبات الحق وإقرار مبدإ التّوحيد لله، وإضافة "الحجة" إلى اسم الجلالة مع إسناد الإيتاء إلى الله فيه معنى الإشادة بتلك الحجة القاطعة، والتّكريم للذي أوتيها، وهو إبراهيم الذي أظهره الله على قومه في مقام المحاجّة والمناظرة.

وقد بيّن الله ذلك التّكريم والتّفضيل بقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾، فهي درجات في الكمال الإنساني وأعظمها وأجلّها قدرا عند الله وعند النّاس النّبوءة والرّسالة، ودلّ قوله تعالى: ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾ على القراءة بالإضافة إلى الموصول، دلّ على التّفاوت في الفضل بين أفراد كثيرين كما قال تعالى في شأن

الرّسل: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة:٢٥٣)، أو على اعتبار الفرد الواحد تتزايد درجاته في الفضل من حال إلى حال.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾: تذييل مستأنف لبيان منشأ ذلك التّفاضل، وأنه من حكمة الله البالغة وعلمه الشّامل بخلقه، فهو أعلم بمن يستحق ذلك: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ (الأنعام:١٢٤). وذلك من تمام صفات الرّبوبية، التي حبتك -أيها الرّسول- باختيارك لخاتمة الرّسالات، وإتيانك أعلى الدّرجات.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾: تكميلا للفضل الممنوح لإبراهيم في المجال الدّعويّ بإلزام الحجة على قومه عطف عليه فضلا آخر هو هبة من الله، بأن كرّمه في حسبه ونسبه أصلا وفرعا، فجدّه نوح عليه السلام قد هداه الله إلى مثل ما هدى له إبراهيم من إخلاص التّوحيد لله ربّ العالمين، ثم يتأصل هذا الهدى ويستمرّ في عقبه وذريّته، ويا ما أبلغ التّعبير في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ علما بأن إسحاق يعتبر إنجابه من "سارة" آية، إذ وهبه الله إياه بعد سنّ الشّيخوخة واليأس مما دعا امرأته "سارة" عندما بشرت به أن تقول: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (هود:٧٢).

فإسحاق -إذن- هو الهبة السّنية من الله تعالى لإبراهيم، ويعقوب ولد إسحاق لا يقلّ مكانة وحبّا في نفس إبراهيم الشّيخ، وهو الحفيد الذي متّعه بأنسه، حتى قيل: إن يعقوب كبر وتزوّج في حياة إبراهيم، والله تعالى قد امتنّ علينا بفضله حين قال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ (النحل:٧٢).

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي

﴿الْمُحْسِنِينَ﴾:

الوهب والهبة: إعطاء الشيء بلا عوض. وقد نوّه الله بشأن الهداية في أشخاص هؤلاء الأنبياء والرّسل، لإبطال ما يدّعيه المشركون من كونهم على ملّة إبراهيم بينما هو وذريته من المهتدين لا يشركون بالله شيئا.

ولما كان الحديث يتركز على فضائل إبراهيم فيتعيّن أن يكون الضّمير في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ راجعا إلى إبراهيم لا إلى "نوح" أقرب مذكور، وهو على اعتبار أنه جدّ لإبراهيم، ونصب داود على المفعولية لـــ"هَدَيْنَا" فيكون قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ حالا من داود.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾: فقد أثبت الله الإحسان لكل من نوح وإبراهيم وذريتهما، وجزاؤهم تلك الهبة الإلهية لهم بأن كرّمهم بالنّبوءة والرّسالة، كما نوّه الله بذكرهما في سورة الحديد:﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوءَةَ وَالْكِتَابَ﴾ (٢٦).

ثم عدّد الله أسماء أربعة عشر نبيّا من ذرية إبراهيم دونما مراعاة لترتيب أزمانهم ولا لمنازل فضلهم، فقال جلّ من قائل:

﴿وَزَكَرِيَّآءَ وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ، وَمِنْ -ابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾:

"مِن" للتبعيض في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ -ابَآئِهِمْ﴾ أي أن بعض الأصول والفروع لهؤلاء الأنبياء والرّسل لم يهتد بهدي آبائهم، والبعض الآخر سار على منهجهم فكانوا من المهتدين، كما قال تعالى في سورة الحديد: ﴿فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: ٢٦).

أما تفضيلهم على العالمين فقد تقدم توجيه ذلك في سورة البقرة، فهو تفضيل بالنّسبة للأجيال الأخرى في ذلك العصر، إذ لا يمكن أن يكون تفضيلا عاما على سائر الخلق، وإلا كان الرّسول محمد وأصحابه مفضولا عليهم، و لم يقل بذلك أحد.

وإتماما للفائدة نكمل هنا ترجمة بعض الأنبياء ممن لم يتقدم ذكره في ما سبق:

أ)- **أيوب** عليه السلام: يمتاز بالصّبر واليقين في ربّه إذ امتحنه بالبلاء في صحته، فنادى ربّه فاستجاب له وعافاه وردّ عليه أهله وماله. ورد ذكره في القرآن أربع مرات في السّور: البقرة، الأنعام، الأنبياء، ص. موطنه أرض "عوص" جنوب غرب البحر الميّت وشمال خليج العقبة، ويذكر ياقوت في معجم البلدان أن مسكنه كان بين دمشق وأذرعات.

ب)- **زكرياء** عليه السلام: كان كاهنا قدّيسا لهيكل "أورشليم" بشّره المَلَك بيحيى، ويشتغل نجارا. قيل أنه مات طبيعيا، وقيل: مات مقتولا مع ولده "يحيى" ورد ذكره في القرآن سبع مرات في السّور: آل عمران، الأنبياء، مريم، الأنبياء وتكرر اسمه في بعضها.

ج)- **إلياس** عليه السلام: من أنبياء بني إسرائيل ٨٧٥- ٨٣٥ ق.م، ذكر اسمه في القرآن مرتين في سورتي الأنعام والصّافات، وذكر بصيغة "آل ياسين" مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰٓ ءَالِ يَاسِينَ﴾ (الصافات:١٣٠). عاش في بلدة "بعلبك" من لبنان ومات فيها.

د)- **اليسع** عليه السلام: هو تلميذ لإلياس النّبي، خلفه في النّبوءة ووظيفة التّحكيم وورث عنه رداءه. ورد اسمه في القرآن مرتين أيضا في سورتي الأنعام وص. ومات حيث مات معلمه إلياس أي في بعلبك.

وجوب الإقتداء بهدي رسل الله

وهل شرع من قبلنا شرع لنا ؟

أ)- النص:

ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿هُدَى اللهِ﴾: هدى الله عامّ وخاصّ، فالعامّ يكون لجميع الخلائق كهدى الحواسّ والعقل والوجدان، والهدى الخاصّ يهبه الله لمن يشاء من عباده بالتوفيق إلى الحق والخير. والهداية الخاصة على درجتين: هداية وهبيّة لا تُنال بالكسب كالنّبوءة والرّسالة، وهداية كسبية تنال بالسّعي والاجتهاد مع توفيق الله. ﴿لَحَبِطَ﴾: يحبط عملهم: يفسد ويبطل، فلا يكون له أثر في تزكية نفوسهم. ﴿الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوءَةَ﴾: الكتاب يراد به جنس الكتب المنزلة من عند الله على الرّسل والأنبياء، والحكم يكون بمعنيين: العلم والحكمة والفهم لطرق الخير ودفع الشّرّ، ويكون بمعنى القضاء والحكم بالشّيء. ﴿وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾: وفقناهم للإيمان بها والقيام بها مثل صحابة رسول الله. ﴿اقْتَدِهْ﴾: والاقتداء من القُدوة وهي أن تعمل مثل عمل غيرك. ﴿لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾: أي لا أطلب على تبليغي للقرآن أجرا منكم مقابل جهدي بل هو لتذكيرهم بما يجب عليكم معرفته واتباعه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾: الهاء في "اقْتَدِهْ" ساكنة عند جمهور القراء. وهي "هاء السّكت" تجلب عند الوقف على الفعل المعتل اللام إذا حذفت لامه للجازم، وهي تثبت في الوقف وتحذف في الوصل. أثبتها جمهور القراء في الوصل، وذلك من إجراء الوصل مجرى الوقف، وهو وارد في الكلام الصّحيح. ما عدا رواية هشام عن ابن عامر فقد حرّكها بالكسر.

د)- البيان والتّفسير:

بعد أن ذكر الله جملة من عباده الأصفياء من الرّسل والأنبياء، ومن صلح من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، بيّن بصيغة الإشارة ما كان عليه أولئك الأخيار من الشّرع القويم والسّلوك الكريم، وأن ذلك هو هدى الله يهدي به من يشاء من عباده، فهم بذلك محلّ العناية الرّبانية، وهم معصومون من الغواية والضّلال.

والتّركيز على معنى الهدى والهداية في هذه الآيات يدلّ على الاهتمام بشأن هذه الحقيقة الخلقية التي انحرف المشركون في تصوّرها وإدراك مقوّماتها، وما أهلك المجتمعات البشرية قديما وحديثا إلا فساد التّصوّر لكثير من المفاهيم الخلقية والاجتماعية، ومشركو مكة يزعمون أن ما وجدوا عليه آباءهم وما يتلقونه من ساداتهم هو الهدى والحق.

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يدلّ على أن هذه النّوع من الهداية الخاصّة يرتكز على أساسين:

أ)- مشيئة الله وإرادته المطلقة في الخلق والاختيار لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص:٦٨). فإلى جانب الخصائص الخلقية التي تشترك

فيها الخلائق كلها في بديع صنع الله، هناك صفات امتيازية أخرى يختصّ الله بها من يشاء من عباده لا تنال بسعيهم، ولا تتقيّد بهواهم، ولو أنهم مطلوبون بالتعرّض لنفحاتها وتعلّق الرّغبة في الحصول عليها.

ب)- قابلية هؤلاء الأخيار واستعدادهم الفطريّ وتهيئة الظّروف لهم برعاية الله حتى يبلغوا من السّموّ الرّوحي والنّضج العقليّ ما يؤهلهم لأن يكونوا محلّ الاصطفاء والاختيار.

﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: أعقب الله هداية أولئك الأخيار بهذه الفرضية التي صدّرها بأداة "لَو"، وهي كما يقول اللّغويون حرف امتناع لامتناع، والفرضية لا تستلزم الوقوع، وإنما هي لتأكيد معنى الهدى في التّصوّر الصّحيح، وأنه ينافي أي نوع من أنواع الشّرك المفسد للأعمال مهما تبلغ من الفضيلة والكمال، ولو قام بها مثل هؤلاء الأخيار، فكيف بكم أيها المشركون؟، وفيه من التّعريض بهم ما لا يخفى. يقول تعالى في معنى هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (الزمر:٦٥).

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾:

الإشارة إلى أولئك الأفذاذ المهديين، وتشمل المخصصين بأسمائهم، والمذكورين إجمالا من الآباء والذّرية والإخوان الصّلحاء، أولئك هم الأعلام في موكب الإيمان والتوحيد، حباهم الله بأعظم نعمة وأعزّها شأنا ورفعة وشرفا، وهي النّعم الثّلاث المذكورة: الكتاب والحكم والنّبوءة.

ولفظ "الكتاب" يتناول كل ما ذكره القرآن من التّوراة والإنجيل والزّبور وصحف موسى وإبراهيم وغيرها مما أجمله الله تعالى في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد:٢٥).

والحكم يحتمل معنيين: الحكمة والعلم وفقه الأمور أو القضاء والحكم بمعنى السّلطة، والمُوتون منهم هذه الهبات الثّلاث هم على مراتب يختلفون في حظهم منها، فمنهم من جمع بينها كلها، ومنهم من أوتي بعضها كالحكم والنّبوءة، وربما انفرد بعضهم بالنّبوءة فقط.

﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾: تفريع على ما سبق بهذه الجملة الشّرطية، والضّمير في قوله: "بِهَا" يرجع إلى المذكورات في الجملة المفرّع عنها، والإشارة فيها: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إلى مشركي مكة. يقول الإمام ابن عاشور في تفسيره -وهو المتمكن من علوم القرآن رحمه الله- يقول: "وقد تقصيّت مواقع آي القرآن فوجدته يعبّر عن مشركي قريش كثيرا بكلمة: "هَؤُلَاءِ" كقوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾(الزخرف:٢٩)، ولم أر من نبّه عليه من قبل"[١]

والمعنى المفهوم من هذه الإشارة أن أهل مكة إذ هم أول من وجهت إليهم الدّعوة إلى الإيمان والاستجابة إلى أولئك الأخيار، وقد كفروا بها وقالوا: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ (الأنعام:٩١). إن هم فعلوا ذلك بهذه الدّعوة المباركة فلن يضرّها أبدا، لأن الآمر بها هو الله، وهو الذي يتولّى حفظها ورعايتها ويقدّر نصرها بقوم آخرين لا يميلون إلى الكفر والعناد.

وبما أن لفظ: "قَوْمًا" جاء نكرة موصوفة بنفي الكفر عنهم فقد اختلفت آراء المفسرين في المعنيين بها، فقيل: إنهم المهاجرون من أهل مكة ومن آمن من أهل المدينة في وقت نزول سورة الأنعام، وقيل: هم أصحاب رسول الله كلهم مطلقا. وقيل: اللّفظ عامّ يشمل كل من آمن برسول الله ونصر دعوته إلى قيام السّاعة

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٥٣/٧.

واستدلوا له بقوله ﷺ: «**إن الله تعالى ليؤيّد هذا الدّين بالرّجل الفاجر**».[١] وفي معنى الآية -والله أعلم- في سورة القتال: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد:٣٨). وفي هذا الأخبار الإلهيّ تسلية لرسوله وتثبيت وبشرى بأن الله ينصره وإن أعرض عنه قومه.

﴿**أُوْلَئِكَ الذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾: بعد التّقريرات الإلهية المشرفة لموكب أصفيائه بما حباهم به من الهداية إلى صراط مستقيم وبما آتاهم من الكتاب والحكم والنّبوءة، تكرر اسم الإشارة إليهم لتأكيد ذلك التّميز وأن مرتكزه هو هدى الله، مما يضفي عليهم سيما التّكريم والشّرف والجلال والمهابة، وأنهم المهديّون من البشر لا غيرهم من الأدعياء والكذابين، ثم فرّع الله على كمال ذلك الهدى بأن أمر رسوله بالإقتداء بهم، وفي تخصيص ذكر الرّسول وحظه من ذلك الهدى معنى لطيف يقول عنه الإمام ابن عاشور:

"وأمر النبي ﷺ بالإقتداء بهداهم يؤذن بأن الله زوى إليه كل فضيلة من فضائلهم التي اختصّ كل واحد بها، سواء ما اتفق منه واتحد، أو اختلف وافترق، فإنما يقتدي بما أطلعه الله عليه من فضائل الرّسل وسيرهم، وهو الخلق الموصوف بالعظم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤). ويشمل هداهم ما كان منه راجعا إلى أصول الشّرائع، وما كان منه راجعا إلى زكاء النّفس وحسن الخلق".[٢]

قلت: وأما الاقتداء في التّفاريع والجزئيات من الأحكام فيرد فيه خلاف

١- رواه البخاري من حديث طويل لأبي هريرة، كتاب الجهاد والسير، باب إنّ الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر، حديث ٢٩٢٥.

٢- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٥٦/٧- ٣٥٧.

كبير بين العلماء. وأساس الخلاف هو قاعدة: "هل شرع من قبلنا شرع لنا". يقول قطب الأئمة -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: "وليس ذلك تقليدا في الأصول والدّيانات، فإن العلماء اختلفوا فيه في توحيد المقلد واعتقاده أصول الدّيانة بلا دليل هل يجزى؟. وكيف يجزى رسول الله ﷺ ؟. فهو يقتدي بهم من طريق الوحي والأدلة العقلية. أو المعنى: كن ودم على ما أنت عليه، فإنك على ما هم عليه، أو اعتقد بالوحي منا ما اعتقدوه بالوحي منا إليهم".

ثم يقول في قاعدة "شرع من قبلنا شرع لنا": "استدل بالآية على أن شرع من قبلنا شرع لنا، فإنه ولو كان لا يمكن الاقتداء بهم جميعا لاختلافهم في الفروع، ولكن لا مانع من اقتدائه بالمختوم به المخالف لمن قبله، أو بما شاء الله من الفروع المتناقضة، أو شرع لنا فيما لا يتناقض من الفروع، أو فيما ذكر الله منها مثل قوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالاَنفَ بِالاَنفِ وَالاُذُنَ بِالاُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة:٤٥). وأنت خبير بما مر"[1]

قلت: ثم أورد الشّيخ تفصيلا ورد في "السّؤالات" يذكر فيه الخلاف بين العلماء في هذه القاعدة، فليراجع في الصفحة المذكورة.

﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً انْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾: الخطاب لرسول الله يأمره بأن يقول لمن بعث إليهم بأنه جاء ليذكّرهم بما أمره الله به، كما فعلت الرّسل من قبله، وأنه لا يسألهم على ذلك النّصح والتّبليغ أجرا من مال أو غيره من المنافع. بل إن هذا القرآن تذكير وموعظة لكل العالمين، وليس لكم وحدكم وذلك للتنبيه على أنه رسول للناس كافة بل للإنس والجن ممن كانوا أهل كتاب أو من

١- احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ٤/٣٧٠.

غيرهم. ومثله في هذا السّلوك العظيم مثل الرّسل من قبله فقد قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً انْ اَجْرِيَ إلاَّ عَلَى اللهِ﴾ (هود:٢٩). كما قال هود ذلك لقومه: ﴿يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً انْ اَجْرِيَ إلاَّ عَلَى الذي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (هود:٥١).

وبالنّسبة لرسول الله جاء نظير هذه الآية في سورة الشّورى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً الاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى:٢٣). وفي سورة سبأ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ اَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ اَجْرِيَ إلاَّ عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سبأ:٤٧).

والله أعلم

نفي إرسال الرّسل وإنزال الكتب انتقاص من قدر الله

أ)- النص:

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: قدرُ الشّيء: مقياسه وضابطه، قدر الشيء يقدرُه إذا قاسه، ويكون القدر بمعنى القوة والقدرة، ويكون بمعنى الغنى واليسار

فيكون معنى الآية: ما عرفوا الله حق معرفته، ولا عظموه حق تعظيمه. ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾: مفرده قرطاس، وهو ما يكتب عليه من ورق أو جلد، أي يجعلونه أجزاء متفرّقة قصد التّحكّم في إبدائها وإخفائها. ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾: اتركهم في باطلهم ولهوهم، أي بعد أن تبلّغ لهم ما أنزل إليك، فلا تعبأ بإنكارهم وعبثهم. ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: سميت مكة المكرمة "أم القرى" لأنها بمثابة الأمّ للقرى المجاورة، ولأنها قبلة المؤمنين، والمراد بمن حولها أهل الأرض كلهم لا جزيرة العرب كما يدّعيه اليهود، لأن الله قال قبل ذلك في شأن القرآن: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ (الأنعام:١٩).

ج)- أوجه القراءة:

﴿تَجْعَلُونَهُ﴾، ﴿تُبْدُونَهَا﴾، ﴿تُخْفُونَ﴾: قرأها بتاء الخطاب مَن عدا ابن كثير وأبا عمرو ويعقوب من العشرة. فهو إما خطاب لغير المشركين أي خطابا لليهود على طريق الإدماج، وإما أن يكون خطابا للمشركين. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: ﴿يَجْعَلُونَهُ﴾، ﴿يُبْدُونَهَا﴾، ﴿يُخْفُونَ﴾ بالتحتية فتكون ضمائر الغيبة عائدة إلى معروف عند المتكلم. ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾: قرأ الجمهور: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ بالخطاب. وقرأه أبو بكر وحده عن عاصم: ﴿وَلِيُنذِرَ﴾ بياء الغائب على أن يكون الضّمير عائدا إلى "كتاب".

د)- البيان والتّفسير:

ختم الله مبدأ الإيمان بتوحيد الله وطرق الاستدلال عليه بقصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، وبالتّنويه والإشادة بذريته في مسار موكب الإيمان بداية من حياته هو وجهاده، ونهاية بحفيده سيّدنا محمد ﷺ.

وفي هذه الآيات: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ينتقل السّياق إلى مبدإ

الإيمان بالرّسالة والنّبوءة، وافتتحه بالرّدّ على مشركي العرب في إنكارهم لظاهرة الوحي جملة وتفصيلا، على أن تكون هذه الآيات متناسقة مع التي قبلها في كونها متكاملة ومتساندة في إبطال مزاعم المشركين ترجيحا لمن ذهب من المفسّرين أن هذه الآية مما نزل على رسول الله في مكة من سورة الأنعام جملة واحدة، وليست مستثناة منها على قول من قال: إنها نزلت في شأن بعض اليهود في المدينة.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾:

ذكر المفسّرون في بيان أسباب التّنـــزيل روايات عن ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما تسند هذه المقولة في إنكار أن يكون هناك وحي منزل من عند الله على بشر تسند ذلك إلى اليهود عامّة أو إلى بعض المتعينين منهم خاصة. كما نقل عن ابن عباس أنها من مقولة مشركي مكة، ولذلك تواترت قراءتان للآية في جملة: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ بالتّاء على صيغة الخطاب وبالياء على صيغة الغائب. وبالتّالي اختلف المفسرون في مرجع الضّمير لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾: والأرجح -والله أعلم- أن الضّمير يرجع إلى مشركي قريش والجملة معطوفة على قوله تعالى في شأنهم من قبل: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ﴾، لأن اليهود لا ينكرون نزول الوحي جملة، وإنما ينكرون رسالة محمد ﷺ حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق.

ومشركو قريش بل العرب جميعا -ما عدا من آمن منهم في تلك الفترة- هم الذين كانوا ينكرون أن يتصل بشر بخبر السّماء كما خبّر الله عنهم في كثير من الآيات كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ (يونس:٢). سيما وهذه الآية الكريمة جاءت في سياق التّنويه والإشادة

بموكب الرّسل والأنبياء، وأن آخرهم محمد ﷺ لا يسألهم على تبليغ القرآن أجرا، والمعنى أن هؤلاء الذين ينكرون على الله أن يترّل وحيا على بشر مخلوق، هم لا يعرفون الله حق المعرفة ولا يدركون صفاته العلية من العلم والقدرة، ومن العدل والرّحمة بخلقه، إذ أنه يخلق ما يشاء ويختار ويقيض من علمه وحكمته على من يشاء من عباده، ويشرّع لخلقه ما من شأنه أن ينتشلهم من حضيض الفوضى والهمجية والتّخلف إلى مراقي الحضارة والتّمدّن والنّظام إن هم ساروا على منهج هداه، والتمسوا بذلك حبّه ورضاه.

وهذه المقولة المنكرة التي دلت على استغراق الجنس بالنّكرة في سياق النّفي يأتي الرّدّ الإلهي عليها بأسلوب الاستفهام الذي يدلّ على التّقرير والإلجاء، يوجهه الرّسول إليهم ثم يجيب عنه للاهتمام بتقرير هذه الحقيقة ونقض ذاك النّفي بإثبات ما يقرّون بوقوعه فقال تعالى: ﴿**قُلْ مَنَ اَنزَلَ الْكِتَابَ الذي جَآءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدىً لِّلنَّاسِ**﴾، والإقرار بما تنـــزّل على أهل الكتاب معروف ومتواتر لدى العرب بدليل قولهم: ﴿لَوَ اَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ (الأنعام:١٥٧). وكون التّوراة فيها هدى ونور للناس -أي الذين كانوا من قوم موسى- قد تقدم ذكره في سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ﴾ (المائدة:٤٤)

ثم قال تعالى: ﴿**تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً**﴾، والقراءة بـــ"تاء" الخطاب إذا كانت على رأي من ذهب من المفسّرين أن الآية في شأن اليهود، وأنها مستثناة مما نزل من سورة الأنعام، فليس فيها إشكال إلا في تكلّف عود الضّمير إليهم في: ﴿قَالُواْ مَآ أَنزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، وهم ليس لهم ذكر في ما سبق من الكلام.

ولكل من المفسرين الذين يقولون باستثناء هذه الآية، والذين يقولون إنها في مشركي قريش تأويلات وردود لا تخلو من التّكلّف. وللإمام ابن عاشور تخريج

لمعنى الآية في ترجيح أنها في مشركي قريش إذ يقول: "فإمّا أن يكون الخطاب لغير المشركين، إذ الظّاهر أن ليس لهم عمل في الكتاب الذي أنزل على موسى، ولا باشروا إبداء بعضه وإخفاء بعضه، فتعيّن أن يكون خطابا لليهود على طريقة الإدماج (أي الخروج من خطاب إلى غيره) تعريضا باليهود وإسماعا لهم وإن لم يكونوا حاضرين من باب: "إياك أعني واسمعي يا جارة"، أو هو التفات من طريق الغيبة الذي هو مقتضى المقام إلى طريق الخطاب، وحقه أن يقال: يجعلونه قراطيس بـــ"ياء" المضارع للغائب كما قرأ غير هؤلاء الثّلاثة القراء.

وإما أن يكون خطابا للمشركين، ومعنى كونهم يجعلون كتاب موسى قراطيس يبدون بعضها ويخفون بعضها أنهم سألوا اليهود عن نبوءة محمد ﷺ فقرأوا لهم ما في التّوراة من التمسّك بالسّبت أي دين اليهود، وكتموا ذكر الرّسول الذي يأتي من بعد، فأسند الإخفاء والإبداء إلى المشركين مجازا لأنهم كانوا مظهرا من مظاهر ذلك الإخفاء والإبداء".[1]

قلت: إن إخفاء اليهود لذكر الرّسول الذي يأتي من بعد قد صادف هوى في قلوب المشركين، ولعلّ إسناد الإخفاء إليهم من باب: "الرّاضي بالشّيء كفاعله". وجعلوا الكتاب قراطيس مجزأة، ليتأتى لهم إخفاء ما يريدون منها وإبداء ما يريدون، وفي ذلك تلاعب وخداع للأمانة التي أمروا بتبليغها والإعلان عنها. ومن ثم كره بعض علماء المسلمين تجزئة القرآن، وقد قال تعالى لرسوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (القيامة:١٦-١٧).

ولكن أغلب العلماء لا يرون بأسا في تجزئته إذا كان لغرض تلاوته وتحفيظه أو بيان معانيه.

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٦٤/٧.

﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾: واختلف المفسرون في "تاء" الخطاب هنا أهي لليهود على قراءة: ﴿يَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ على طريق الإلتفات من الغيبة إلى الخطاب، أم هي للعرب والمسلمين؟، يمتنّ الله عليهم بإنزال القرآن وتعليمهم به ما لم يعلموه هم ولا آباؤهم، ثم تزكيتهم بنصائحه وإرشاداته، على أساس أن يكون ضمير الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ يراد به كفار قريش، ثم خاطبهم في آخر الآية بـــ"تاء" الخطاب على طريق الإلتفات، وعلى قراءة: ﴿يَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ يمكن أن يكون الخطاب في آخر الآية، ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ موجّها إلى اليهود يمتنّ الله عليهم -أيضا- بما تعلّموه من القرآن من أخبار وعلوم لم يكونوا يعرفونها هم ولا آباؤهم كما قال تعالى في سورة النّمل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (النمل:٧٦).

﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾: أمر الله رسوله أن يجيب على السّؤال المطروح: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ بأن منزّله هو الله تعالى، وهو المعبود الحق الذي أدعوكم لتوحيده في العبادة، وهو البلاغ الذي اشترك فيه جميع الرّسل، قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٢٥).

ثم أمر الله رسوله أن يترك المشركين وشأنهم في ما يخوضون فيه من الباطل بعد ما تبيّن لهم الحق إذ أن مهمّته هي التّبليغ، أما إذعانهم لذلك الحق أو عدمه فهو من شأنه تعالى في التّوفيق والهداية لمن يشاء من عباده، غير أن إقامة الحجة على المتمرّد العاصي هي من تمام العدالة الإلهية لقطع معاذيره.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: بعد إلزام الحجة على المشركين واليهود بإنزال الله الكتاب

على موسى -والفريقان لا يماريان في ذلك- عطف عليه إنزال القرآن على محمد ﷺ وأشار إليه لأنه حاضر في أذهان السّامعين، مع تنكير الخبر: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ﴾ لتعظيم قدره وتفخيم شأنه، وإثبات إنزاله من الله بالجملة الخالية "أنزلناه" فيه تبكيت للمشركين، إذ صدّقوا بإنزال التّوراة وجحدوا إنزال القرآن، والتّفريق بين إنزال الكتابين إنما هو عناد واستكبار، ثم أردف الكتاب بخبرين مفردين: ﴿مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

أ)- ﴿مُبَارَكٌ﴾: من فعل "بارك" وهو بمعنى النّماء والزّيادة والسّعة، ومن معانيه الثّبات والاستقرار فيقال: برك البعير إذا حطّ على الأرض بكلكل جثته. وفي التّعبير بهذه المادة "بارك" يقال: بارك فيه، بارك له، بارك عليه. والقرآن كتاب من الله تعالى لما أودع فيه من العلوم النّقلية والعقلية، ومن المواعظ والإرشادات وتفصيل الأحكام الشّرعية بما يكفل للفرد والجماعة خيري الدّنيا والآخرة، ويضمن لهما السّعادة والاستقرار، فهو إمام وهدى ونور كما وصفه الله تعالى في سورة يونس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧).

ب)- ﴿مُّصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: والمقصود به الكتب السّماوية السّابقة، سيما تلك التي أشاد بذكرها القرآن كالتّوراة والإنجيل، كما تقدم وصفهما في سورة المائدة أن فيهما هدى ونورا، وأن القرآن الكريم قد صدّق ما فيها من أحكام وإرشادات، ونعى على أهلها إهمالهم لبعضها، وما أوقعوا فيهما من الخرافات، ثم ميّز الله القرآن بشمولية أحكامه وهيمنتها على سائر الكتب السّابقة، لأنه خاتمة الرّسالات السّماوية، ومساير للحياة البشرية إلى أن يشاء الله.

ج)- ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: والنّذارة تقابلها البشارة، واقتصر على الإنذار لأنه مناسب لواقع غالبية أهل مكة من الإنكار والجحود، ووعيد

الإنذار أنسب بحالتهم، وقد أورد صاحب المنار سبب العطف في هذه الجملة فقال: "ويجوز أن يكون عطفا على مقدّر حذف لدلالة القرينة عليه كفعل التّبشير الذي يقابل الإنذار".[1]

قلت: ويدلّ عليه عطف أهل البشارة المذكورين بعده، وأمّ القرى هي مكة، وهو من الإسناد المجازي، إذ المراد أهلها، وكنيت بذلك لكونها مجتمعا للناس في مواسم الحج والعمرة لوجود الكعبة المشرفة التي هي قبلة للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها. وسمّى العرب مكة "أم القرى" لأنها أول حاضرة استقرت على ماء زمزم من عهد إسماعيل وأمّه هاجر عليهما السلام، وكان العرب قبلها سكان خيام، وما حولها يعني القبائل العربية الأخرى الموجودة حول مكة.

وقد أغرق بعض المفسّرين في التّأويل للمقصود بقوله تعالى: "وما حولها" فقالوا بأن المقصود بـ"من حولها" أهل الأرض جميعا، وذلك للرّدّ على بعض المستشرقين وأشياعهم، إذ تمسّكوا بهذه الآية ليقولوا بأن محمدا بعث للعرب وحدهم في جزيرتهم متغافلين عن بقية الآيات التي تثبت شمولية الدّعوة الإسلامية كقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (٢٨). وقوله في مفتتح سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾

يقول الإمام ابن عاشور: "ووجه الاقتصار على أهل مكة ومن حولها في هذه الآية أنهم الذين جرى الكلام والجدال معهم من قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ (الأنعام:٦٦) إذ السورة مكية، وليس في التّعليل ما يقتضي حصر الإنذار بالقرآن فيهم حتى نتكلّف الادّعاء أنّ "مَنْ حَوْلَهَا" مراد به جميع أهل

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٧/٦٢٠.

الأرض".[1]

قلت: إن أي دعوة شاملة عامّة مهما تكن طبيعتها فإنها تنطلق في حيّز ضيّق، ثم تنداح دائرتها شيئا فشيئا إلى أبعد نقطة في مداها الزّمني والمكاني، وتلك هي سنة الحياة كما دبّرها خالقها، وفي غالب الأحيان لا يقدّر لصاحب الدّعوة الأول أن يشهد توسّعها، بل يتمّ ذلك على يد الأنصار والخلائف من بعده، وإلا فماذا يقول هؤلاء المستشرقون في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾. (الشعراء:٢١٤). هل يقولون: إن دعوة محمد خاصّة ببني عبد مناف؟، كلاّ بل هو الحسد أعمى بصيرتهم.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾: وفي مقابل الإنذار للجاحدين المستكبرين تأتي صفات المؤمنين الذين لا يشملهم ذلك الإنذار، لأنهم آمنوا بالقرآن بناء على إيمانهم بالجزاء الأخرويّ، إيمانا بالغيب وتصديقا وإذعانا لخبر السّماء، ويتجسّد ذلك الإيمان والإذعان في المحافظة على صلاتهم، إذ هي الصّلة الوثقى بينهم وبين معبودهم الحق والتّعبير الصّادق عن إيمانهم الخالص.

ولذا قال رسول الإسلام وقد ذكرت الصّلاة: «**من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورا ولا برهانا ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف**»[2].

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٧٢/٧.

٢- رواه أحمد في المسند من حديث عبد الله بن عمرو، مسند بني هاشم، حديث ٦٤١٦. ورواه ابن حبان في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو أيضا، كتاب الصلاة، باب الوعيد على ترك الصلاة، حديث ١٤٨٩.

ويقول أيضا: «لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها،وأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة» [1]

الافتراء على الله ظلم، وجزاء الظالمين يوم القيامة

أ)- النص:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: من الافتراء وهو الاختلاق والكذب على الله بادعاء الحكاية عنه، أو باتخاذ الشركاء والأنداد. ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾: مفرده غَمْرة، من غمر الماء إذا غطّاه، ويستعار للشدّة، ويقال: سكرات الموت إذا كان الإنسان في النزع يحتضر. ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾: بسط اليد يكون تمثيلا للشدة والإيذاء المطلق كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾ (المائدة:٢٨)، ويكون بمعنى الإسراف كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ (الإسراء:٢٩)، وتكون

١- رواه أحمد في المسند من حديث عبد الله بن عمرو، حديث ٦٤١٦.

بمعنى الجود والكرم كقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ (المائدة: ٦٤). ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾: أي أخرجوا أرواحكم من أجسادكم، كناية عن العنف والتشديد في الإرهاق. ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾: بالضّمّ الذلّة والهوان، وبالفتح "الهَوْن" اللّين والرّفق. ﴿جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾: أي متفرّقين فردا فردا، أو منفردين عن الشّركاء والأنداد. ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾: أي تركتم ما أعطيناكم من متع الدّنيا وفقدتم التّصرّف فيه. ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾: أي تقطّعت الصّلات التي كانت بينكم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾: قرأ نافع والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بفتح النّون، فـ"بين" على هذه القراءة ظرف مكان دال على مكان الاجتماع والاتصال فيما يضاف هو إليه. وقرأ البقية: ﴿بَيْنُكُمْ﴾ بضمّ النّون على إخراج "بين" عن الظّرفية، فصار اسما متصرّفا وأسند إليه التّقطع، على طريقة المجاز العقلي أي أنه فاعل لـ"تقطّع".

د)- البيان والتّفسير:

لم تقف مزاعم المشركين المستنكرين من البشر عند حدّ نفيهم لإنزال الكتب من عند الله وجحودهم لنبوءة رسله المختارين، بل ادّعى الكثير منهم النّبوءة وافتروا على الله كذبا، ولم تقتصر هذه الظّاهرة على فترات الرّسل والوحي، بل صاحبت المسيرة البشرية قديما وحديثا، فكم من مغامرين ادّعوا النّبوءة رجالا ونساء، وكم من حركات هدّامة شوّشت نصاعة الأديان وحرّفتها عن أصولها.

فبعد إبطال ما زعمه المشركون من نفي إنزال الوحي وإرسال الرّسل، وإثبات الله تعالى أن هذا القرآن منزّل من عنده كما أنزلت التّوراة والإنجيل من

قبله، عقّب ذلك بالتّهديد والوعيد على أدعياء الوحي والكاذبين على الله ظلما وافتراء فقال جلّ من قائل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ اللهُ﴾:

والاستفهام إنكاريّ، تكرر ثلاث مرات في هذه السّورة بنفس الصّيغة: "مَنْ أَظْلَمُ" بمعنى لا أحد أظلم ممن ذكر، وتتمثل مظاهر ذلك الظّلم في ثلاث حالات:

أ)- اختلاق الكذب على الله، بالإخبار عنه أو العزو إليه أو بادّعاء الأنداد والشّركاء له.

ب)- ادّعاء نزول الوحي عليه من عند الله.

ج)- ادّعاء الإتيان بمثل هذا القرآن في مبناه ومعناه.

ولكل حالة من هذه الحالات أدعياء من الكفار والمشركين أعلنوا عنها، حاول المفسّرون أن يجدوا لها أسماء معيّنة في وقت النّزول لبيان أسبابه، وإنما العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب، لأن الظّاهرة لا تخصّ زمان الوحي ولا حياة الرّسول، لأن "مَنْ" موصولة يراد بها الجنس. وفي القرآن آيات أخرى تعرضت لتلك الظّاهرة الخبيثة كما في الأعراف ويونس وهود والكهف ...إلخ.

وجاء في الأنفال قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (الأنفال:٣١). ونسب هذا الادّعاء إلى النّضر بن الحارث. ثم عطف الله على بيان تلك الأحوال وعيد أولئك الأدعياء المستهترين فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

وصف الله هؤلاء في كل زمان ومكان بالظّلم، وأي ظلم أشنع من الادّعاء

والافتراء على الله أو الإشراك به، والخطاب للرسول ثم لكل من تتأتى له تلك الرّؤية، وهي إمّا بصرية أو علمية، و"في" للظرفية المجازية تدلّ على شدة ملابسة الظّالمين لتلك الغمرات، فهي كثيرة ومتعددة تصوّر شدة المعاناة والآلام في مواقف عصيبة يقفها أولئك الظّالمون يجازون فيها بنقيض صفتهم في الدّنيا من الغرور والعجب والاستكبار يجازون بالذّلة والهوان.

ويا لهول تلك المواقف، سواء ما يكون منها في حالات النّزع والاحتضار، أو في موقف الحشر للحساب والجزاء، والجلاّدون يومئذ هم ملائكة الله، وهم مطلقو التّصرّف -بإذن الله- للإيقاع والإيلام في قبض أرواح الظّلمة.

وقد صوّر الله تعالى ذلك المشهد المفزع في سورة الأنفال فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الأنفال:٥٠). وقال في سورة القتال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ (محمد:٢٧).

وإمعانا في شدة الإيذاء والإيلام، يسلّط عليهم الألم النّفسي زيادة على الألم البدني، إذ يقول لهم الملائكة: ﴿**أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ**﴾ والأمر للتوبيخ والتّهكم، أي أنقذوا أنفسكم مما هي فيه إن استطعتم، أو اقضوا على أرواحكم كما يفعل المنتحرون في الدّنيا، ولكن هيهات، فيومئذ لا حرية ولا اختيار في التّصرّف، وقد صوّر الله هول ذلك المشهد في سورة إبراهيم فقال: ﴿مِن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ، يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (إبراهيم:١٦-١٧).

﴿**الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ -ايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ**﴾: إنها المحكمة الإلهية العادلة في ذلك اليوم المعهود، يوم القيامة الذي كان يكذّب به هؤلاء الظّلمة، وهاهم يرونه رأي العين وحولهم

ملائكة العذاب يعلنون بذلك الحكم الرّهيب، وهو الجزاء الوفاق لجريمتهم النّكراء، وهي ذات طرفين:

أ)- افتراء الكذب على الله بغير حق.

ب)- الاستكبار عن آياته النّاطقة وجحود قدرته ومشيئته في الآيات الصّامتة.

وما أقسى تلك اللّحظات التي يدان فيها المجرم ويقف مرتجفا مبهوتا ليسمع الحكم على جنايته، وقد جفّ القلم وطويت الصّحف.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾: وفي استئناف لدى (المحكمة العليا) يسمعون مثل هذا التّقريع، يسمعونه من لدن الخالق العظيم، يذكّرهم بما نسوه في مسيرهم بالحياة الأولى، كيف خرجوا إليها من بطون أمهاتهم فردا فردا حفاة عراة غرلا، لا يملكون ولا يعلمون شيئا.

وفي غمرة الزّهو والغرور بمتاع الدّنيا ينسى الإنسان تلك الحقيقة الوجودية، والتّذكير بها من طرف رسل الله وورثتهم من العلماء قد لا يجد له صدى في نفوس المستكبرين المعاندين. وما أبلغ التّعبير بالمجيء مؤكدة باللام المشعرة بالقسم، والإخبار بتحقيق المجيء بعد وقوعه إنما هو للتذكير بما كان من جحودهم وإنكارهم لتلك، وتشبيهها بالمجيء الأوّل في صورة الخلقة هو لإسقاط كل ما كان يغترّ به هؤلاء من متاع الدّنيا، إذ لا اعتبار له عند الله، ولتأكيد ذلك المجيء الفرديّ قال تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾: ولا خلود بالمال والجاه كما كانوا يتوهمون.

وإمعانا في التّخطئة والتّندم فؤلاء عطف على المقولة السّابقة جملة: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا﴾، فهي نفي لفكرة الشّفعاء والوسطاء التي تقوم عليها الوثنية الجاهلية.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾: أي انقطع ما كان بينكم وشركائكم من صلات وخابت آمالكم في ما كنتم تزعمون، وفي ذلك من التّهكّم والتّأييس ما يزيد الظّالمين آلاما وإعنانا.

فاللّهم لا تخزنا يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، والله أعلم.

مجالي قدرة الله في الأرض والسّماء

أ)- النص:

إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ۚ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾: الفلْق والفتق شق الشّيء وتفكيك بعض أجزائه عن بعض، ويسمّى الصّبح الفلَق لأنه يشق ظلمة اللّيل. و﴿الْحَبِّ﴾: مفرده حبّة والجمع حبوب، ما يثمره النّبت في السّنابل والأكمام كالحنطة. ﴿النَّوَىٰ﴾: مفردهُ نواة، اسم جمع، وهي عجمة التّمر والزّبيب وغيره مما يكون في قلب التّمرة. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤفَكُونَ﴾: من أين تصرفون عن عبادته وحده، لأن الإفك مصدر أفكه يأفكهُ إذا صرفه عن مكان أو عمل. ﴿الإصْبَاحِ﴾: فلق الإصباح عبارة عن شق الصّبح لظلمة اللّيل، والإصباح -بكسر الهمزة- مصدر أصبح إذا صار في الصّباح، -وبفتح الهمزة- الأصباح جمع صبح. ﴿سَكَنًا﴾: ما تسكن إليه النّفس وتطمئن كالزّوجة والبيت: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ (النحل:٨٠). ﴿حُسْبَانًا﴾: مصدر حسَب يحسُب من باب نصَر ينصُر، عدّ الأشياء أو الأوقات. وحسبانا -بالكسر- من حسِبَ يحسَب، يكون من أفعال الظّن. ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾: المستقر: حيث يكون القرار والإقامة، والمستودع: موضع الوديعة، قد يكونان مصدرين ميميين بمعنى الاستقرار والاستيداع، وقد يكون الثّاني بمعنى اسم المفعول أي الوديعة، بخلاف الأول لأنه لازم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَجَاعِلُ الَّيْلِ سَكَنًا﴾: قرأ الجمهور: "جَاعِلُ" بصيغة اسم الفاعل وجرّ اللّيل لمناسبة الوصفين في الاسمية والإضافة. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف: "وجعل" بصيغة فعل الماضي وبنصب اللّيل. ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾: قرأه الجمهور بفتح القاف على أنه مصدر ميميّ، ومستودع كذلك. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وروح بن يعقوب بكسر القاف على أنه اسم الفاعل، والمستودع اسم مفعول.

﴿انظُرُواْ إِلَى ثَمَرِهِ﴾: الثَّمَر هو الجَني الذي يخرجه الشّجر، قرأه الجمهور بفتح الثّاء والميم، وقرأه حمزة والكسائي وخلف بضمّ الثّاء والميم، وهو جمع تكسير كخشب ونوق.

د)- البيان والتّفسير:

بعد تقرير أصول العقيدة الإسلامية من الإيمان بالله واليوم الآخر، والإيمان بالرّسالة والنّبوءة وما تخلّل ذلك من الحجج والبراهين والمواعظ والإرشادات جاءت هذه الآيات مبيّنة لقدرة الله تعالى وبديع صنعه في الأرض والسّماء لتأكيد تلك الأصول العقدية وإثباتها ولإتمام معرفة الله من خلال ما خلق فقال جلّ من قائل:

﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤفَكُونَ﴾:

هذه الآية الكريمة المؤكدة بـــ"أن" في هذا الاستئناف الابتدائي جاءت لتفتتح مقطعا يشيد بعظمة الله وقدرته في الآفاق وفي الأنفس على طريقة أسلوب القرآن في الحجاج والإقناع بلفت الأنظار إلى الآيات الصّامتة المثبتة في أرجاء الكون، لأن عرض قضايا العقيدة التي هي في أغلبها من عالم الغيب سيما الإيمان باليوم الآخر وأحواله تقتضي مثل هذا الاستطراد للموازنة والمقارنة بين بديع صنع الله في عالم الشّهادة -إذ ليس محلّ إنكار وجحود- وبين ما أخبر الله به مما يكون في النّشأة الآخرة.

وتندرج هذه الآيات وما بعدها في هذا النّسق القرآني الذي هو من ميزات القرآن المكيّ الذي اهتمّ في أغلبه بتركيز العقيدة الصّحيحة، ومن تلك الاستدلالات بيان كيف تدبّ الحياة على وجه الأرض بعد أن كانت مواتا هامدة مثل قوله في سورة الحجّ: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ

وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ (٥-٦-٧).

وهذه الآية: ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ هي بيان لكيفية دبيب الحياة على وجه الأرض، ممثلة في فلق الحبّ والنّوى في عالم النّبات مما هو زرع أو شجر، فلكلّ بذرته الجامدة تنفلق في التّراب عن زرع أو شجر، فتتعدّد أنواع الحبوب والثّمار وتختلف في ألوانها وأشكالها وطعومها. فإذا كان وضع الحبّ والنّوى في التّراب بالعملية الفلاحية هو ربط للأسباب بالمسبّبات بصنع الإنسان، فإن ما ينتج عن ذلك من دورة الحياة بالخلق والإيجاد هو من بديع صنع الله وقدرته.

ثم بيّن ذلك بقوله تعالى: ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ**﴾، أي يخرج النّبات والشّجر النّامي، وهو يتنفس ويتغذى وتسري فيه روح الحياة، يخرجه من جامد هامد لا نماء فيه ولا حركة مثل أنواع الحبوب والبذور والنّوى، مثل هذا المظهر الحركي في دبيب الحياة من ميّت جامد في الحياة المشاهدة هو دليل قاطع على قدرة الله في إحياء الموتى ليوم البعث. قال تعالى في سورة الرّوم: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم: ٥٠).

وفي مقابل العملية الخلقية الأولى قال: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ وهي عملية أخرى أعجب، تتمثل في إخراج الميّت من الحيّ مثل الحبّ والنّوى من النّبات والبيضة من الحيوان، وقيل في التّفسير العلمي: هي الإفرازات مثل اللّبن والمسك واللّؤلؤ. كل ذلك دالّ على كمال قدرة الله تعالى، ولا يمكن أن يتمّ ذلك عن طريق الصّدفة في الطّبيعة كما يقول الماديّون الملحدون.

وفي مجال الإخراج المعنويّ نقل عن ابن عبّاس ﷺ أن معنى الجملتين: "يخرج المؤمن من الكافر، ويخرج الكافر من المؤمن، وكذا البارّ من الفاجر، والصّالح من الطّالح والعكس". على معنى قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام:١٢٢). ولكن الأرجح بمجموع الآيات في المقطع هو الأول.

﴿فَأَنَّى تُوفَكُونَ﴾: والإشارة إلى اسم الجلالة هي لتمييز الخالق بكمال تلك القدرة في الخلق والإيجاد وللتعريض بغباوة المنكرين المخاطبين.

"فَأَنَّى" للاستفهام التّعجّبي الإنكاريّ بمعنى: من أين أو كيف تنصرفون عن إقرار الحق في أن الله الذي تؤمنون بوجوده ينفرد بالإلهية الحقة وتعبدون معه غيره ممن لا يقدر على فعل شيء من ذلك؟.

﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً﴾: لمزيد بيان كمال القدرة الإلهية ورد هذا الخبر الرّاجع لـ"إن" أو صفة لاسم الجلالة في قوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾، وكثيرا ما تعرّض القرآن الكريم لهذه الظّاهرة الطّبيعية العجيبة في تقلّب اللّيل والنّهار وتعاور الظّلمة والضّياء على سطح الأرض بكونها مجالا زمنيا لتحقيق الفوائد الدّنيوية كقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص:٧٣). وقد يذكران لتحقيق الفوائد الدّينية كقوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ (الفرقان:٦٢).

وفلق الإصباح تشبيه لظهور الضّياء في ظلمة اللّيل عند بزوغ الفجر الصّادق فهو يشق سحب الظّلام فتبدّد رويدا رويدا حتى تنقشع وتزول، ويحدث ذلك بدوران الأرض حول محورها دورة كاملة في مدّة أربع وعشرين ساعة، كما تقرر في علم الجغرافية.

قال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾:

تتجلى قدرة الله في هذه الآيات الثّلاث: فلق الصّبح، وسكن اللّيل، والضّبط الحسابي بحركة الشّمس والقمر، وهي آيات نلاحظها في الآفاق الكونية، أي في الإطار الزّمني الذي نعيش فيه، وقد أعقبت الآيات الأرضية التي تعرّضت لحركية الحياة ودبيبها على وجه الأرض وهو الإطار المكاني لحياتنا.

وبذلك التّناسق والتّكامل في بديع صنع الله، وبتأمّلنا الواعي في تلك الظّواهر الكونية ندرك أن ذلك لا يتمّ جزافا ولا مصادفة كما يدعيه الماديّون، بل هو تقدير الخالق العزيز العليم، وقد أصبحت هذه الحقائق العلمية في العلوم الجغرافية والعلوم الفلكية شبه يقينية يعرفها الخاصّ والعامّ، وما يزال العلماء يواصلون جهودهم في العلوم الفضائية لاكتشاف المزيد من أسرار الكون العظيم، وذلك ما يزيد المؤمنين يقينا بوجدانية الخالق وعظمته، ثم هو يؤكد ما ورد في القرآن الكريم من إعجاز علميّ، وصدق مولانا إذ يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣).

﴿وَهُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾:

زيادة في التّذكير بعظمة الله وقدرته عطف هذه الجملة الاسمية وهي على صيغة القصر، أيّ الجاعل هو الله لا غيره، و"جعل" بمعنى خلق، ثم علّلها الله تعالى بذكر فائدة النّجوم، وهي مختلف النّيرات التي تنبث في صفحة السّماء، وتختلف في إشعاعها وأشكالها، مما عدا الشّمس والقمر. ففي هذه الآية الكريمة ذكر لها فائدة الاهتداء في ظلمات البرّ والبحر، فهي ظلمات متعددة أضيفت إلى البرّ والبحر، وهما مجال نشاط الإنسان للكسب والارتزاق، أو للمعرفة والاستكشاف، والإضافة

إليهما لمعنى الملابسة. ومن فائدة النّجوم كما ورد في آيات أخرى الزّينة ورجم الشّياطين، كما في قوله تعالى بسورة الملك: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (الملك:٥).

وذكر النّجوم بعد النّيرين العظيمين الشّمس والقمر، ارتقاء بمشاهدات الإنسان من الأدنى إلى الأعلى في أغوار الكون العظيم، وقد كان العرب يلمّون بمنازل النّجوم لمعرفة الأوقات ويهتدون بها في سراهم كما أشار إلى ذلك قوله تعالى في سورة النّحل: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (١٦). غير أن معرفة أبعاد النّجوم وكثافتها وأحجامها لم يهتد إليها الفلكيّون إلا في عصر النّهضة العلمية بفضل استعانتهم بالمراصد المجهزة بأدق الآلات المقربة للأبعاد وأنواع من الحسوب مما يتطلب تخصّصا في علوم الفلك، ولذا جاء التّعقيب بقوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، مما يوحي بإدمان النّظر والبحث في ملكوت السّماوات والأرض.

﴿وَهُوَ الذي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾:

الإنشاء إيجاد الشّيء وتعهّده بالتّربية والإنماء تدريجيا، وهو لفت للأنظار إلى بديع صنع الله في أنفسنا بعد ذكر صنعه في الآفاق، وهذا القصر: ﴿هُوَ الذي أَنشَأَكُم﴾ فيه تعريض بمن يعتقد بأن الله هو الذي خلقه ولكنه يشرك في عبادته غيره كما هي حال مشركي مكّة، والنّفس الواحدة في التّعبير تعني الإنسان الأول الذي خلقه الله ابتداء قبل السّنّة الزّوجية أي بدون أب ولا أمّ وهو أبونا آدم عليه السلام.

وفي سنة الخليقة من آيات قدرة الله ما يكفي لأولي الألباب، وفيها من الإرشاد والإيجاد ما يجعل البشر متآخين متعاونين، ولنعمة خالقهم شاكرين، لأنهم من أصل واحد وإن اختلفت ألسنتهم وألوانهم، فهم سواسية في الكرامة الإنسانية،

وما ذلك الاختلاف إلا مظهر من مظاهر قدرة الله. قال تعالى في سورة الرّوم: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (الروم:٢٢).

وقوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾، فعلى التخريج الصّرفي للكلمتين بين كونهما مصدرا ميميًا أو الثّاني منهما "مُسْتَوْدَعٌ" اسم مفعول، فإن المفسرين اختلفوا في تحديد مفهومهما اللّغويّ بين التوسيع والتّضييق.

أ)- فعن ابن مسعود: المستقرّ الكون فوق الأرض، ويؤيّده قوله تعالى في سورة غافر: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ (غافر:٦٤). والمستودع الكون في القبر بمعنى أن وضع الميّت في القبر هو استيداع مؤقت إلى يوم البعث.

ب)- وعن ابن عباس وفي قول لابن مسعود أيضا أن المستقرّ هو رحم الأمهات، والمستودع في أصلاب الرّجال. ومنهم من عكس، ولم يخصّص الله معنى دون غيره.

فأيًّا كان مكان الاستقرار والاستيداع فإن المراد -والله أعلم- أن الإنسان مهما استقرّ على ظهر الأرض فإنّ مرجعه إلى الله كما ترجع الوديعة إلى صاحبها. وبما أن إدراك هذه الحقيقة الوجودية تحتاج إلى فهم دقيق وإلى إمعان النّظر في أسرار الخليقة فقد اختار الله صيغة الفقه التي تتطلب الاهتمام والاعتناء أكثر من صفة العلم.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلَى ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾:

وبصيغة القصر: ﴿وَهُوَ الذي﴾ ينتقل النّص إلى بيان بديع صنع الله وتدبيره في توفير الأرزاق لمخلوقاته. ولما كان الإنسان هو المرتكز في السّعي والعمل على وجه الأرض لزرعها وإنباتها، فقد توجّه الخطاب إليه في آخر البيان، لينظر بتأمّل وتفكير كيف هيّأ الله تعالى أسباب الحياة بدءا بإنزال عنصرها الأساسي وهو الماء، وهو السّبب الأصلي في إخراج الله لذلك الغطاء النّباتي الخضر.

وقد انتقل التّعبير من ضمير الغيبة: ﴿وَهُوَ الذي﴾ إلى ضمير المتكلم: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ مع الإتيان بضمير العظمة لتركيز الانتباه على استجلاء قدرة الله في ما وفّر من تلك الأرزاق التي خصّص بالذّكر منها ما هو ضروريّ من مواد الغذاء كأنواع الحبوب من حنطة وشعير وذرة وأرزّ ...الخ، إذ تتراكب وتتنامى على السّنابل.

وبما أن النّخل له أهميته القصوى في بلاد العرب وهو معتمد أقواتهم والغالب على حوائطهم، فإن تخصيصه بالذّكر يأتي في موقعه المناسب، وخروج العراجين من الطّلع هو محلّ التّعجيب والتّنويه بصنع الله إذ جعلها سهلة التّناول دانية القطوف.

﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾: والتّقدير: نخرج من ذلك الخضر جنات، والأعناب: جمع عنب وهو شجر الكرم. ولكون هذا الشّجر غالبا ما تمدّ به عرائش الأجنة جيء بلفظ "جنات"، وهي إلى جانب ما تغلّه من الثّمار تكون مظهرا للزّينة والجمال.

﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾: منصوبان بالعطف على "جنّات"، وخصّصت هاتان الشّجرتان بالذّكر نظرا لأهمية ثمرهما، فهو معروف لدى المخاطبين في رحلتهم إلى الشّام واليمن، وفي ذكرهما إغراء بجلبهما إلى بلادهم.

وقوله تعالى: ﴿مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ حال إمّا أن يرجع إلى المذكورين

فهما مشتبهان في بعض الصّفات وغير متشابه في بعض الآخر، ويكون التّشابه أو عدمه في اللّون والشّكل وفي الطّعم مما يتطلبه النّاس على اختلاف أذواقهم.

وفي ذلك كله مجلى لقدرة الله وعجيب صنعه، وبعض المفسرين جعله حالا من الرّمان وبعضهم جعله حالا من الزّيتون. بينما توسّع آخرون فجعلوه حالا من جميع ما تقدم في الآية.

﴿انظُرُواْ إِلَى ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾: المأمور به هو نظر الاعتبار والتّأمّل إلى ناحيتين:

أ)- خروج الثّمر من النّبات والشّجر كيف يتنامى شيئا فشيئا حتى يصل مرحلة النّضج.

ب)- اليَنع: وهو الطّيب والنّضج حين يصبح مهيأ للجني أو الصّرم ثم الانتفاع به للأكل والادّخار. ففي كل ذلك تتجلّى قدرة الله وحسن تدبيره.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: ووصف الآيات بأنها لقوم يؤمنون يدلّ على أن المنتفعين بذلك النّظر والاعتبار إنما هم المؤمنون بالله المقدّرون لعظمته. أما غيرهم من المنكرين الجاحدين فإنهم كالأنعام لا ينتفعون بما وهبهم الله من عقل وحواسّ. وبالتّالي لا يهتدون إلى الإيمان مهما بلغوا من العزّ والجاه. ويأتي في هذا المعنى قوله تعالى في آية سورة فاطر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَآبِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَؤُاْ انَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (الروم:٢٧-٢٨).

أصناف من شرك العرب وتنزّهه تعالى عن ذلك

أ)- النص:

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿الْجِنَّ﴾: كلمة الجنّ تفيد الخفاء والستر، استعملها القرآن لما خفي من الخلق العاقل. واختلف المفسرون في المراد بها هنا فقيل: هم الملائكة، وقيل: هم الشّياطين عامّة، وقيل: هو إبليس وحده، وعن ابن عباس أن الآية نزلت في شأن الزّنادقة الذين فرقوا بين إله الخير وإله الشرّ. ﴿خَرَقُوا﴾: وقرئ "خرّقوا" بدون تشديد الرّاء، والخرق والخزق والخرم أصله القطع والشّق، وقال الرّاغب: هو قطع الشّيء قطعا عشوائيا. ﴿سُبْحَانَ﴾: مصدر منصوب بدل من فعله، يفيد التّنزيه. ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: من البدع -بفتح الباء- الإنشاء والإيجاد المبتدأ قال الراغب: الإبداع إنشاء صنعة بلا احتذاء ولا اقتداء، ويجوز أن يكون بمعنى مبدع أي خالقها على غير مثال سابق. ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾: "أنى يكون" بمعنى كيف ومعنى من أين، والصّاحبة هي الزّوجة لأنها تصاحب زوجها في كل أحواله. ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾: الإدراك: الوصول إلى المطلوب بطريق الحاسّة أو الجارحة أو العقل. ﴿اللَّطِيفُ﴾: وصف مشتق من لطف -بفتح

الطّاء- بمعنى رفق واحتفى به أو من لطُف -بضمّ الطّاء- بمعنى دقّ وخفّ ضدّ ثقل وكثف.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَخَرَّقُواْ﴾: قرأ الجمهور: ﴿وَخَرَقُواْ﴾ بتخفيف الرّاء. وقرأ نافع وجعفر بتشديد الرّاء.

د)- البيان والتّفسير:

الجملة معطوفة على ما سبق ذكره من أنواع الشّرك التي مارسها العرب في جاهليتهم، فضمير الرّفع في قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ (الأنعام:٦٦) وما استتبع ذلك من ذكر أنواع شركهم ومحاجّتهم لدحضها وإنكارها، وهنا تعرّض لنوع آخر من الشّرك تسرّب إليهم من أقوام آخرين كانوا يحتكون بهم في رحلاتهم للتجارة، وهي اعتقادهم بالجنّ وهو الخلق المستتر عن العيون، كان العرب ينسبون إليهم تصرّفات عجيبة، ويتقون غوائلهم بأنواع من التّمائم والرّقى، ويعتقدون أنهم يتشكّلون بأشكال مختلفة ويحلّون في ذوات بعض الأشخاص كالكهّان والشّعراء والمعتوهين... إلخ.

كما خلطوا بين الجنّ والملائكة اعتقادا منهم أن الملائكة بنات الله تخلّقت من أمهات سراة الجنّ إلى غير ذلك من تلك الخرافات التي ابتدعوها، والتي تعرّض القرآن لذكرها والتّشنيع عليها في غير ما آية كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ (الصّافات:١٥٨). وقوله: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ (الزّخرف:١٩).

وليس في القرآن نصّ قطعيّ يفيد بأن الملائكة هم من الجنّ صراحة، اللهم

إلا ما كان من التّعبير المجازيّ لكونهم من الخلق الخفيّ، وأما الشّياطين فقد نصّ القرآن بأن الشّيطان كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه، كما أنه فاصل بين الجنّ والملائكة في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ، قَالُواْ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ (سبأ:٤٠-٤١). على أن وصف القرآن للصنفين قد حسم القضية بإضفاء صفة الطّاعة والخضوع لله على الملائكة حين قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ، لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٢٦-٢٧). أما الجنّ فقال على لسانهم في سورة الجنّ: ﴿وَإِنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَداً، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ (١٤-١٥).

﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَآءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾: فيه تقديم وتأخير في المفعول الأول والمفعول الثّاني لفعل: ﴿جَعَلُواْ﴾ إذ أن طبيعة النّظم تقتضي أن يقول: "وجعلوا الجنّ شركاء لله" ليفيد أن المنكر هو أن يكون لله شريك من أي جنس كان، وفي معاد الضّمير في قوله: ﴿خَلَقَهُمْ﴾ احتمالان:

أ)- أن يعود لأولئك المشركين كما عاد إليهم ضمير: ﴿جَعَلُواْ﴾.

ب)- أن يعود للجنّ المجعولين شركاء لله، وكلا الصّنفين مخلوقون لله، وكون بعض الخلق ممتازا على بعض لا يعطيه صفة الألوهية والرّبوبية.

﴿وَخَرَّقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: ومن معاني كلمة "الخرق" الكذب، وقراءتها بالتّضعيف للدلالة على قوة حصول الفعل، فجعل البنات لله تكرر ذكره في القرآن كما تقدم، وأما جعل البنين له من طرف مشركي العرب فهو من تقليدهم لمعتقدات المجوس الذين يعتقدون بإله الخير وإله الشّر، وأن الشّيطان هو إله الشّرّ قد تولّد عن الله تعالى.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، أي أنه منزه متعال عما وصفوه به، بل ذلك من تصوراتهم الباطلة لاستغلال النّاس في عهود الوثنية المظلمة.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

ولتأكيد تنزهه تعالى عما يصفه به المشركون، انتقل السّياق إلى بيان عظيم قدرته تعالى في خلق تلك الأكوان العظيمة على غير مثال سابق، وهي أعظم من تلك المخلوقات التي عظّموها من الملائكة والجنّ، فهم يعترفون بأن الله تعالى هو المستقلّ بخلق السّماوات والأرض وأنه خالقهم، فكيف لم يوصفوا بأنهم من أولاده تعالى -وهم لا يقولون بذلك- فتقرر أن وصفهم للجن والملائكة بأنهم أولاد لله -حاشاه- هو كذب وافتراء ينمّ عن الجهل والضّلال.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾: وقد توالت الأحوال بهذه الجمل، لتأكيد مضمون التّنزيه، وقد علّل النّفي للولد بأن ليس له زوج ينشأ عنهما ذلك الولد، كما اقتضت سنّته تعالى في إيجاد الخلق، وهم لا يعتقدون بأن لله زوجة، فينتفي وجود الولد لانتفاء وجود الزّوج، بل صدور الكائنات عنه تعالى إنما هو صدور إبداعي أوّلي على غير مثال، مما تدل عليه كلمة: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾. وهل يخفى عن الخالق علم ما خلق؟ فعلمه تعالى ذاتيّ لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السّماء.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾:

المخاطبون هم المشركون وجميع المكلّفين، والمشار إليه هو الموصوف بالصّفات السّابقة من الخلق والإيجاد والتّنزه عن الولد والصّاحبة هو الله ربّكم،

ووصف اسم الجلالة بصفة "الرّبّ" للدلالة على معنى الرّعاية والإنعام والتي تقتضي إفراده بالوحدانية والرّبوبية وتخصيصه بعبادتكم.

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾: أي هو المتكفل بالأشياء كلها يتصرّف فيها بعلم وتدبير وحكمة فلا ترفعوا حاجاتكم إلى غيره.

﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾: زيادة التّنزيه للذات العليّة بنفي التّجسيد أو الحلول في الزّمان والمكان وهما مجال الرّؤية البصرية، لأن الوثنية تتعلق غالبا بالماديّ المحسوس، ولذلك رمزت بالأصنام للملائكة والجنّ، بل حتى لأرواح الزّعماء والشّيوخ ممن كانوا يقدّسونهم في حياتهم.

ولنفي هذه التّصوّرات الخاطئة في حق الإله الحق جاء النّفي لإدراك الأبصار له، وهو أشمل من الإبصار إذ يقول اللّغويون: إن الإدراك هو اللّحاق والوصول إلى الشّيء، وفسّر الجمهور الإدراك في الآية برؤية الإحاطة التي يعرف بها كنهه عزّ وجلّ، وذلك يستحيل في حقه تعالى.

ويبقى الخلاف بين المتكلمين، هل استحالة رؤية الله تعالى رهينة بالحياة الدّنيا أم هي تمتدّ إلى الحياة الأخرى ولكن بقوة أخرى ينشئها تعالى في من يشرّفهم بذلك من عباده الصّالحين؟، ولكل من النّافين والمثبتين للرؤية أدلّتهم تطلب من مظانّها.[1]

وفي مقابل نفي إدراك الأبصار له -سبحانه وتعالى- أثبت لذاته العليّة ذلك الإدراك المحيط الشّامل لأدق مخلوقاته، بما في ذلك سرّ الأبصار في العين، فإن العلم

١- أنظر رأي مشائخنا في مسألة الرؤية: احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ٤/٤٠٩-٤١٠-٤١١.

وإن أدرك تركيب العين في كل جزء منها وحدّد وظيفة كل جزء كما أحاط بسنن الله في النّور وارتسام المرئيات في شبكة العين وعمل خلية الأبصار في المخ، فإن العلم قد كشف ظواهر تلك الأشياء، أما معرفة كنهها وإدراك حقيقتها فلا يزال سرًا غامضا، فكيف بمن هو عاجز عن إدراك كنه مخلوق من المخلوقات يمكن أن يدرك كنه الخالق والأبصار لا تحيط به، والعقول لا تتطاول إلى مقامه السّامي. تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرا.

﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾: لطيف صفة مشبهة من فعل "لَطُف" بضم الطّاء أي دقّ وخفّ، ضدّه: ثقل وكثف. أي هو اللّطيف بذاته بحيث تعجز الأبصار عن إدراك حقيقته، ولكنه هو خبير بكل لطيف دقيق من مخلوقاته.

وتتناسق الصّفتان: ﴿اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ مع الجملة السّابقة تناسقا تامًا تزيد المعنى تمكنا في عجز المخلوقات عن إدراكه، مع إحاطة علمه بكل ما يدق ويخفى -سبحانه- وهو علام الغيوب وكاشف الأسرار، والله أعلم.

والله أعلم

موقف النّاس من تصريف آيات القرآن، وتقرير حرية الدّين يمنع سيطرة المبلّغين له على النّاس

أ)- النص:

قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ

الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿بَصَائِرُ﴾: جمع بصيرة، القوة القلبية التي تدرك بها الحقائق والمعاني، والمقصود بها هنا الأدلة والبيّنات الواضحة، ويقابلها البصر، وهو إدراك العين لما هو محسوس. ﴿مَنْ عَمِيَ﴾: استعير العمى للمكابرة والعناد والبقاء على الضّلال، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج:٤٦). ﴿نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾: أي نأتي بها على أوجه مختلفة لتوضيح المعنى. ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾: من دراسة الشّيء أو درسه، والدّرس: هو تكرار المعالجة للشيء حتى يذهب به أو يصل إلى الغاية منه، والمقصود به هنا القراءة بتدبّر وإمعان للحفظ والفهم. ﴿حَفِيظًا﴾: هو الحارس الذي يراقب الأعمال ويحفظها ليجازي عليها.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾: قرأ الجمهور "دَرَسْتَ" بدون ألف وبفتح التّاء. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو: ﴿دَارَسْتَ﴾ على صيغة المفاعلة وبفتح التّاء بمعنى: قرأت وقرئ عليك. وقرأ ابن عامر ويعقوب: ﴿دَرَسَتْ﴾ بصيغة الماضي وتاء التّأنيث أي تكررت الآيات.

د)- البيان والتّفسير:

بعد إثبات قدرة الله تعالى في الآفاق وفي الأنفس وتقرير وحدانيته في اختصاصه بالألوهية والرّبوبية انتقل النّصّ إلى مكانة الدّعوة الإسلامية والرّسالة

المحمدية والمهمة الأساسية للرسول في التبليغ، ثم مسؤولية التكليف في المبلّغ إليهم قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

الخطاب للمشركين وللمكلفين عامّة، وهو وارد على لسان الرّسول، بتقدير: قل يا محمد ﴿قَدْ جَآءَكُمْ بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾، والمقصود بالبصائر هو ما ورد في هذه السّورة الكريمة من الحجج والبراهين لإثبات وحدانية الله وتركيز أسس العقيدة، أو هو ما جاء في القرآن كله لإثبات حقائق الدّين، وهو المنزل بحق من عند الله سبحانه وتعالى وهو ربّكم وخالقكم، ومن شأن تلك البيّنات أن تهدي قلوبكم وتطهّر نفوسكم فيتناسق بذلك مظهركم ومخبركم.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾: استعير العمى والإبصار في كثير من آيات القرآن للهداية والضّلال كالنور والظّلمات بالنّسبة للمحسوسات كما قال تعالى في ما يأتي من هذه السّورة: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام:١٢٢). أي فمن أبصر منكم الهدى وأذعن للحق فقد أحبّ الخير لنفسه وجلب لها النّفع بما يحظى به من السّعادة في الدّنيا والأخرى، ومن أعرض وتولّى واستكبر فهو المخذول المحروم، وقد جنى على نفسه وأضرّها وحدها، لأن الله تعالى لا تضرّه معصيتكم ولا تنفعه طاعتكم.

﴿وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾: نفي محاسبتكم عن الرّسول، إذ لم يكلّفه الله تعالى إلا بحسن التّبليغ، وما عليه من أذى ولا تبعة إن هم أعرضوا عنه عنادا واستكبارا: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية:٢١-٢٢). فالله تعالى هو الرّقيب الحفيظ، وهو الحسيب المجازي.

﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: المشار إليه هو تصريف الآيات، أي ومثل ذلك التّصريف نصرّف الآيات، أي

التَّفنّن في بيان الحجج والبراهين بمختلف الأساليب لإثبات حقائق الدّين وأصول الهداية حتى تتضح للجاهلين الغافلين، وحتى يقول المشركون ويروّجوا بأنك -أيها الرّسول- قد تعلمت ذلك من قبل ودرست هذه الأقوال على بعض الأعجمين.

وهذه المقولة قد تكرّر تسفيهها في القرآن الكريم، لأن المشركين اختلقوها لينكروا ما يقوله الرّسول بأن هذا الكلام يوحى به من عند الله، قال تعالى في سورة النّحل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٠٣). وقال في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُو ظُلْمًا وَزُورًا، وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٤-٥). و"اللام" في قوله: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ هي للصيرورة لا للتعليل، وقيل: إنها في الآية بمعنى النّفي أي لئلا يقولوا، وهو قول مرجوح.

﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: أما "اللاّم" هنا فهي للتعليل، وفي ذكر انتفاع الذين يعلمون ببيان القرآن وتصريف آياته تعريض بمن يقول للرسول: (درسته أو دارسته العلماء) بأنهم قوم لا يعلمون، أعماهم الجهل والعناد، وأضلّهم الكبر والفساد.

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾: بعد أن بيّن الله تعالى طبيعة البشر وموقفهم إزاء الدّعوات وأنهم على فريقين: فريق هدى وفريق حقّ عليهم الضّلالة، وجّه الخطاب لرسوله آمرا إياه أن يستمسك بالذي أوحي إليه من ربّه، وأضيف ضمير المخاطب إلى اسم الرّب تعظيما وإكبارا وتأكيدا لمعنى العناية الرّبانية بالرّسول، وقرن الأمر بجملة التّوحيد: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لتركيز معناها وإغاظة جاحديها.

والأمر باتّباع الوحي المنزل يعني -والله أعلم- ملازمة الدّعوة إليه قولا وفعلا

حتى لا يضيق الرّسول ذرعا بإعراض المشركين، ولذلك عطف عليه الأمر بالإعراض عنهم، لأنه من شأن ذلك أن تقوى عزيمة الرّسول في متابعة دعوته فلا يعبأ لمكابرتهم وعنادهم. ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾، وفيه تلطّف وتسلية للرسول بتذكيره بطبيعة الأحوال عند البشر كما اقتضت حكمته تعالى أن يخلقهم مستعدّين للإيمان والكفر والصّلاح والفساد، ولو شاء الله لجعلهم مهتدين بفطرتهم كالملائكة، وتلك حكمة الله في تكليف عباده ليميز الخبيث من الطيّب ولله الحكمة البالغة في ما قضى به.

وما أنت أيها الرّسول بمكلّف عن مراقبتهم ومحاسبتهم، ولا أنت بوكيل تتولّى أمورهم وتتصرّف في شؤونهم، بل مهمّتك أن تبلّغ وتدعو، والنّاس بعد ذلك أحرار في ما يختارونه لأنفسهم، وقد تردّد هذا المعنى كثيرا في آيات القرآن مما يقرّر بحق حرية المعتقد والدّين، كقوله تعالى:

أ)- ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية:٢١-٢٢).

ب)- ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ (الشورى:٤٨).

والله أعلم

من أخلاقيات الدّعوة الكفّ عن سبّ آلهة الخصم

أ)- النص:

وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ

يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا
قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ
أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿تَسُبُّوا﴾: السّبّ كلام يدلّ على تحقير أحد، أو نسبه إلى نقيصة بالباطل أو بالحق، يرادفه الشّتم، وهو من النّقائص. ﴿عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: أو عُدوا، مصدران بمعنى الظّلم والعدوان. ﴿زَيَّنَّا﴾: التّزيين: جعل الشّيء ذا زينة أو إظهاره زيّنا. ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾: الإنباء: الإعلام. ﴿وَمَا يُشْعِرُكُم﴾: الإشعار: هو الإعلام بمعلوم من شأنه أن يخفى ويدقّ، و"ما" استفهامية لمعنى التّشكيك والإيقاظ، وشاع في الاستعمال العربّي أيضا جملة "وما يدريك". ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾: أي نحول بينها وبين معرفة الحق. ﴿يَعْمَهُونَ﴾: يتردّدون متحيّرين.

ج)- أوجه القراءة:

﴿عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: قرأ الجمهور: "عَدْوا" بفتح العين وسكون الدّال وتخفيف الواو وهو مصدر بمعنى العدوان، والظّلم منصوب على المفعولية المطلقة. وقرأه يعقوب: ﴿عُدُوًّا﴾ بضمّ العين والدّال وتشديد الواو وهو مصدر أيضا. ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: قرأ الأكثر: "أنّها" بفتح همزة "أن". وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وخلف وأبو بكر عن عاصم في إحدى روايتين عن أبي بكر قرأوا بكسر همزة "إن". وقرأ الجمهور: "لَا يُؤْمِنُونَ" بياء الغيبة. وقرأه ابن عامر وحمزة وخلف بتاء الخطاب أي للمشركين.

د)- البيان والتّفسير:

يندرج النّهي عن سبّ آلهة المشركين في بيان أخلاقية الدّعوة إلى الله، وذلك بعد أن أمر الله تعالى رسوله أن يبلّغ ما أنزل إليه بالحكمة والموعظة الحسنة قولا وفعلا، وأن يعرض عن المشركين ويقابل عنادهم بالأناة والحلم، فإذا كان الرّسول الدّاعية قد حباه الله من علّو الهمّة ومن السّمّو الرّوحيّ ما يجعله حليما صبورا، فلا يكون فحّاشا ولا سبّابا، فإن أصحابه من حوله، لا يملكون تلك الخصائص الرّوحية ولا الصّفات الخلقية العظيمة التي للرسول، ولذا فهم يغضبون لأية حماقة يرتكبها المشركون نحوهم، بل يثورون لكل ما تشتمّ منه إهانة لدينهم غيرة وحماسا، وليس ببعيد أن يودّي بهم ذلك إلى سبّ آلهة المشركين عند المغضبة والملاحاة.

وقد روي عن قتادة في أسباب النّزول قال: "كان المسلمون يسبّون أوثان الكفّار فيردّون ذلك عليهم، فنهاهم الله تعالى أن يستسبّوا لربهم قوما جهلة لا علم لهم بالله".

قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَسُبُّواْ الذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّواْ اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾: والجملة معطوفة على ما سبق، وهو أمر الله لرسوله بالإعراض عن المشركين، وهنا يخاطب المسلمين وينهاهم عن سبّ آلهة المشركين، وإن كان دافعهم لذلك هو الغيرة لدين الله الحق والتّشنيع على الباطل والضّلال حتى يعرفه النّاس، لأن هذه المصلحة الجائزة في المنهج الدّعوي سوف تؤدي إلى مفسدة أعظم وأخطر، وهي أن يردّ المشركون عليهم بسبّ إلههم الحق ظلما وعدوانا وجهلا منهم بجلال الله وقدره. والسّبّ من شأنه أن يثير حفيظة المشركين لنصر آلهتهم فلا يزيدون إلا علوّا واستكبارا.

ولا يعتبر من السَّبّ والشتم ما يستدعيه الجدال والحجاج من ذكر بعض النقائص والعيوب في الشيء المذموم كقوله تعالى على لسان إبراهيم في محاجة قومه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ، قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ، قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ، قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء:٦٩-٧٤).

ومن أبلغ الإرشاد الإلهي في أخلاقيات الدّعوة قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٦). وقوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طـه:٤٤). وقد أثبت العلماء بهذه الآية أصلا من أصول الفقه وهو "سدّ الذّريعة"، أي منع ما هو جائز إذا كان يتوصلّ به إلى المحظور، وقد بنى كثير من علمائنا بعض فتاويهم على هذه القاعدة الأصولية.

﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: الإشارة إلى ما حكى الله عن المشركين من اتخاذهم لله شركاء الجنّ، وادعائهم أن الرّسول تقوّل على الله هذا القرآن وليس هو بوحي منزل، فمثل هذا التزيين لكل قوم عملهم هي سنة الله في خلقه في تفاوت عقولهم واستعداداتهم الفطرية، فيستحسنون ما تعوّدوا عليه ويستمسكون بما يعتبرونه من تراث آبائهم وأجدادهم وإن كان باطلا وفسادا، وهم في ذلك مختارون لا مجبرون، إذ أن ذلك التزيين للإيمان أو الكفر ليس خلقا ابتدائيا من الله لا يكون لهم فيه كسب ولا اختيار، وإلا فما معنى التكليف للإنسان؟. وأين العدل الإلهي في جزائه وعقابه؟. كما يفيده قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وفي التعبير بصفة "الرّب" معنى المالك والسّيّد الحقيقي.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾: وبعد إنكار المشركين بأن ما يقوله محمد وحي من عند الله، وقد عجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثل ذلك القرآن، فهم إذ يلجوّن في عنادهم يقسمون بأشدّ الأيمان، إن جاءهم محمد بآية محسوسة كما جاء بها غيره من الرّسل ليومنن بها أنها من عند الله وبالتالي يصدّقون بما جاء به محمد، فجاء هذا الرّد الإلهي الحاسم: ﴿قُلِ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ﴾ آمرا رسوله أن يبيّن لهم أنما ذلك من شأن الله وحده يصرّف الأمر كيفما شاء فليس للرسول ولا لأيّ مخلوق القدرة على الإتيان بها: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِئَايَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ (الرعد:٣٨). ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (الشعراء:٤).

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾: الخطاب للمؤمنين والرّسول، وهم أمام أمر غيبي لا يعلمه إلا الله تعالى من أحوال قلوب عباده، إذ ربما تمنّوا تحقيق مطلوب المشركين رغبة منهم في إيمانهم، سيما عندما أقسموا بالله جهد أيمانهم ليومنن بالآية إذا تنزلت. فأخبرهم الله تعالى بأن علم ذلك عند الله، وأنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، وأنتم لا تدرون ذلك، وما يشعركم أننا نحول بين قلوبهم وبين إدراك الحق، مثل ما حُلنا بينها وبين الإيمان بالقرآن أول مرّة.

فليس طلبهم لآية حسيّة بعد عدم إيمانهم بالآيات المعنوية والعقلية من القرآن الكريم إلا تماديا في العناد والكفر إذ هم في علم الله باقون في تردّد وحيرة متجاوزين الحدّ في المكابرة والعناد.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾:

وتقليب الأفئدة والأبصار يعني الختم عليها بحيث لا ينفذ نور الهداية إليها

بالمرة، فهم وإن يروا تلك الآية مما يطلبون فإنهم لا يتوصّلون إلى إدراك وجه الدّلالة فيها. والضّمير في: "به" يرجع إلى القرآن بمعنى هم سواء في الإعراض والجحود قبل مجيء الآية المقترحة أو بعدها فهم باقون في تردّدهم وحيرتهم متجاوزين كل الحدود في الكفر والطّغيان.

وفي الحديث الشّريف: «**القلوب بين إصبعين من أصابع الرّحمن**».[1] فاللّهم يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك.

والله أعلم

الإياس من إيمان المشركين،

وسنة الله في فتنة الشّياطين

أ)- النص:

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

١- الجملة لفظ من حديث رواه الترمذي من حديث أنس، كتاب الذبائح، أبواب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، حديث ٢١٦٠.

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾: جمعنا كل الأشياء التي طلبوها حتى رأوها معاينة أمامهم. ﴿عَدُوًّا﴾: ضدّه الصّديق والحبيب، وهو يقع على الواحد والمتعدّد. ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ﴾: أي من بني الإنسان ممن يفعلون فعل الشّياطين في الشّرّ والمكر والخديعة. ﴿يُوحِي﴾: من الإيحاء: إلقاء الوسوسة في النّفس. ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾: الزّخرف: الزّينة القول المزخرف، هو الذي يحتاج قائله إلى تزيينه وتزويقه لإخفاء ما فيه من شرّ. ﴿غُرُورًا﴾: الخداع والإطماع، والغرُّ: من تنطلي عليه الحيل، ويقال: طويته على غرّة، يضرب مثلا لكل شيء يترك على حاله وسجيّته. ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ﴾: تميل إليه، يقال: صغى يصغى صغيا، وصغا يصغو صغوا وأصغى: استمع، وفيه معنى ميل الأذن إلى سماع الحديث. ﴿مُّقْتَرِفُونَ﴾: اكتسبوا السّيئات، ويقال: اجترحوا السّيئات.

ج)- أوجه القراءة:

﴿قِبَلًا﴾: قرأه نافع وابن عامر وأبو جعفر بكسر القاف وفتح الباء. وهو بمعنى المقابلة والمواجهة، أي حشرنا كل شيء من ذلك عيانا. وقرأه الباقون ﴿قُبُلًا﴾ بضمّ القاف والباء. وهو لغة في "قِبل" بمعنى المواجهة والمعاينة.

د)- البيان والتّفسير:

بعد أن بيّن الله تعالى تعنّت المستهزئين برسول الله وتأكيد قسمهم بالله أنهم يؤمنون إذا جاءتهم آية من الله محسوسة لتدلّ على صدق نبوءة محمد ﷺ وبعد بيان سنّته تعالى في خلقه وجهلهم بها، ردّ عليهم بما هو أصرح في ذكر بعض تلك المقترحات فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا

عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾:

وفي سبب النّزول يذكر ابن عباس ﷺ أن المستهزئين بالقرآن كانوا خمسة: الوليد بن المغيرة المخزومي، والعاصي بن وائل السّهمّي، والأسود بن عبد يغوث الزّهري، والأسود بن المطّلب، والحارث بن حنظلة، أتوا الرّسول في رهط من أهل مكة وقالوا له: أرنا الملائكة يشهدون بأنك رسول الله، أو ابعث موتانا حتى نسألهم أحق ما تقوله أم باطل؟ أو ائتنا بالله والملائكة قبيلا أي كفيلا على ما تدّعيه. فنزلت الآية.

إن الإنسان خلق من عجل كما وصفه خالقه، فلا عجب أن تراود بعض المسلمين آمال في إيمان أولئك المتعجرفين، سيما وهم من السّادة الكبراء، والمؤمنون حول رسول الله -وهم يخوضون معركة الحق باندفاع وحماس- تنقصهم الخبرة والمعرفة لطبيعة الدّعوات، وعلى قوة إيمانهم بالله ورسوله وثقتهم بوعد الله في النّصر والتّمكين، فهم لا يدركون بعمق حكمة الله وسنّته في خلقه في تنازع البقاء وصراع الحق والباطل.

فتجيء هذه الآيات لتقرّر بعض الحقائق التي يجب أن لا تغيب عن البال عند التّحليل لطبيعة أية دعوة صالحة وموقف النّاس إزاءها، وهي تكملة لما سبق في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، فبعد ذلك التّشكيك للمؤمنين في إمكانية إيمان أولئك المستهزئين، لأن أمرهم بيد الله وحده جاءت هذه الجملة المعطوفة لتذكر ثلاثة من مقترحات القوم، وكلها من خوارق الغيب وهي:

أ)- إنزال الملائكة، وقد تقدم الرّدّ عليهم في أول السّورة.

ب)- إحياء موتاهم ليكلّموهم في حقيقة محمد وما جاء به.

ج)- جمع كل شيء مما طلبوه من غير الملائكة والموتى فيكون مقابلا لهم عيانا.

﴿مَّا كَانُواْ لِيُومِنُواْ إِلاَّ أَنْ يَّشَآءَ اللهُ﴾: تأكيدا لنفي إيمانهم، أي ليس ذلك من شأنهم ولا من مقتضى استعدادهم، لأنهم ما اقترحوا ذلك لتدبّره والنّظر في عجائبه، ولكنهم طلبوا ذلك معاداة واستهزاء، فهم لا يؤمنون ما داموا متلبّسين بالكفر والعناد، إلا أن يشاء الله إزالة تلك الحالة من قلوبهم، أي وفق اختيار الإنسان بإرادته وحريته.

ولمزيد من بيان التّوازن بين قدر الله وكسب الإنسان ننقل ما قاله السّيد قطب -رحمه الله- خلال تفسير هذه الآية الكريمة. قال: "إن الإيمان حدث والضّلال حدث وما يقع في هذا الوجود لا يحدث إلا بقدر من الله ينشئه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر:٤٩). فأما السّنة التي يجري على أساسها ذلك القدر بوقوع إيمان فلان وضلال فلان فهي التي تبيّنها مجموعة النّصوص. وهي أن الإنسان مبتلى بقدر من الاختيار في الاتّجاه، فإذا اتّجه إلى الهدى وجاهد فيه هداه الله ووقع هداه وتحقق بقدر من الله، وإذا اتّجه إلى الضّلال وكره الهدى أضلّه الله ووقع ضلاله وتحقق بقدر من الله، وهو على الحالين في قبضة الله وسلطانه، وحياته تجري بقدر الله وعلى مشيئته الطّليقة، وسنته التي وضعتها مشيئته الطّليقة".[1]

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾: الضّمير راجع إلى المشركين لأنهم يجهلون تلك السّنن المركّزة في طباع البشر، كما يجهلون قدر الله ومشيئته في تصريف شؤون خلقه، والتّعبير بـ"أكثر" لإخراج البعض ممن هداه الله إلى الإسلام بعد ذلك، وممن استثنتهم مشيئة الله في نفس الآية.

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، ٨/٣٥٥.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾: بعد التيئيس من إيمان ذلك الصّنف ممن جعل لله شركاء، ينتقل السّياق إلى أسلوب التّسلية لرسول الله ﷺ وكان يحزن لموقف الكفار: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف:٦). والإشارة في أول الآية إلى وضعية القوم من رسول الله، فهي مماثلة لما حدث لكل نبي مع قومه بوجود أعداء له بالإعراض والمكر والكيد.

والشّيطان رمز للكيد والشّرّ والتّمرّد عن الحق والمعروف. وهي حالة يتصف بها بعض الإنس والجنّ، والشّيطنة في الإنس من بني البشر ظاهرة نعيشها في واقعنا اليوميّ، وهي وراء كل صراع حسيّ أو معنويّ لا تكاد تهدأ عواصفه أو تخبو نيرانه. وفي نفوس شياطين الإنس وفي مجاري دمائهم تدبّ شياطين الجن بإغراءاتها ووساوسها كما وصف ذلك رسول الله حين قال: «**إن الشّيطان يجرى من بني آدم مجرى الدّم في العروق فضيقوا مجاريه بالصّوم**»[1].

لقد أخبرنا ربنا -وهو علاّم الغيوب- بطبيعة هذا النّوع من الخلق الجلّي والخفيّ وأنهم متعاونون في تكثير وسائل الإغراء والفتنة، فهم يزخرفون الكلام ويزيّنونه بأنماط من الأراجيف والأكاذيب. ونحن أبناء اليوم قد تاهت أحلامنا، ودوّت أسماعنا بما نشاهده ونسمعه من تلك الدّعايات الرّنانة والشّعارات البراقة يتفنن في إذاعتها هؤلاء الشّياطين لترويج باطلهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾: ومرّة أخرى تتأكد مشيئة الله في تصرّفات خلقه، وهي مشيئة اقتضتها الحكمة الإلهية في جعل الإنسان مستعدًا للخير والشّرّ مختارا في سلوكه. وما أروع اختيار صفة الرّبوبية في هذا

١- رواه البخاري من حديث علي بن الحسين، كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، حديث ١٩٥٤، ولفظه: «إنّ الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم».

المقام، والتي تنضح بمعنى العناية والرّعاية لرسول الله وهو يجابه ذلك الواقع المرير من قومه المستهترين. وإذا كانت العناية الرّبانية هي ملاذك -أيها الرّسول- ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ من أنواع الكذب والإفك، لأن حسابهم في ذلك على الله، ولسوف يجزون بما كانوا يقترفون.

﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾: ويترتب على ذلك الغرور بزخرف القول، أن تميل إلى وحي الشّياطين قلوب أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة، ومن بلاغة القرآن أن لم ينف عن هؤلاء الإيمان كلية، إذ أن الإيمان الصّادق باليوم الآخر هو مفرق الطّريق بين الصّالحين ومن هم دون ذلك، وإن كان الإيمان باليوم الآخر هو من مقتضيات الإيمان بوحدانية الله، غير أن ضعف الوازع الإيماني باليوم الآخر على الخصوص قد يصيّر المؤمن به إيمانا سطحيًا كالذي لا يؤمن به إطلاقا في سلوك كل منهما ارتكابا للفواحش وطاعة لهوى النّفوس ووسوسة الشّياطين، فحصول الرّضى في ما يقترفه كل فريق منهما إنما هو نتيجة لذلك الاغترار وذلك الميل القلبيّ إلى المعاصي والآثام.

والمؤمن الوقيّ النّقيّ لا يتمادى في الغفلة والنّسيان، بحيث يزيّن له الشّيطان عمله، وتغرّه الأماني الكاذبة في عفو الله ومغفرته أو شفاعة الشّافعين، والله تعالى يقول في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (٢٠١). بل إن عباد الله الأوفياء هم أولئك الذين يعرفون أنهم سيموتون، وهم من السّاعة مشفقون لأنهم يعلمون أنها الحق، وهؤلاء لا تجد الشّياطين إلى قلوبهم سبيلا: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر:٤٢).

يقول الإمام ابن الجوزي في هذا المعنى: "من عاين بعين بصيرته تناهي الأمور

في بداياتها نال خيرها ونجا من شرّها، ومن لم ير العواقب غلب عليه الحسّ، فعاد عليه بالألم ما طلب منه السّلامة، وبالنّصب ما رجا منه الرّاحة، وبيان هذا في المستقبل يتبيّن بذكر الماضي، وهو أنك لا تخلو أن تكون عصيت الله في عمرك أو أطعته فأين لذة معصيتك؟ وأين تعب طاعتك؟. هيهات رحل كل بما فيه، فليت الذّنوب إذا تخلّت خلت. وأزيدك في هذا بيانا: تمثل ساعة الموت، وانظر إلى مرارة الحسرات على التّفريط، ولا أقول: أين ذهبت حلاوة اللّذات لأن حلاوة اللّذات استحالت حنظلا فبقيت مرارة الأسى بلا مقاوم، أتراك ما علمت أن الأمر بعواقبه، فراقب العواقب تسلم".[1]

احتكام الرسول لله، وآياته في التّدليل على صدق نبوءته

أ)- النص:

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿حَكَمًا﴾: هو الذي يتحاكم النّاس إليه ويرضون بحكمه الذي لا ينقض، والحاكم: المسؤول في تدبير شؤون الدولة. ﴿أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾: أي أنزل القرآن مبيّنا لسنن الله في خلقه وما يتلاءم معها من الآداب والأحكام.

---

[1]- عبد الرحمن ابن الجوزي، صيد الخاطر، ص ١٣.

﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾: الأرجح أن المقصود منهم -والله أعلم- أحبار اليهود وعلماؤهم، ومن المفسّرين من يرى أن المقصود هم أهل الكتاب عامّة من يهود ونصارى. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾: أي الشّاكين في ذلك. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾: التّمام: هو إما بمعنى بلوغ الشيء إلى أحسن ما يبلغه، ويكون بمعنى التّحقّق وحصول المطلوب، والكلمة تطلق على الجملة والطّائفة من القول في معنى واحد وغرض واحد طال أو قصر. والمراد بها -والله أعلم- القرآن الذي جاء وافيا بكل المقاصد وقيل: المقصود هو أمر الله ونهيه ووعده ووعيده. والصّدق أي المطابقة للواقع في الإخبار عن شؤون الله وشؤون الخلائق. والعدل هو إعطاء من يستحق ما يستحقه من جزاء أو عقاب ودفع الظّلم وتدبير شؤون النّاس بما فيه صلاحهم. ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾: التّبديل: جعل شيء مكان شيء آخر ويكون في الذّوات وفي الصّفات، وفي المعنى المجازي يكون بمعنى إبطال الشيء ونقضه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَنَّهُ مُنَزَّلٌ﴾: قرأ الجمهور: "مُنَزَّلٌ" بتخفيف الزّاي وقرأ ابن عامر وحفص بالتّشديد والمعنى متقارب أو متّحد. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾: قرأ الجمهور: "كَلِمَاتُ" بصيغة الجمع، وقرأه عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف: "كَلِمَةُ" بالإفراد.

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان مقترحات المشركين لرسول الله أن يأتيهم بآية مادية خارقة للعادة تكون حكَما بينهم وبين الرّسول ﷺ، وبعد بيان سنة الله في مسار الرّسل مع أعدائهم من شياطين الإنس والجن تجيء هاتان الآيتان، يلقّن الله فيهما لرسوله

كيف يردّ على أولئك المتعنتين في صيغة الاستفهام الإنكاري أنه لا يطلب حكما غير الله بينه وبينهم فقال جلّ من قائل: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الذي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾.

من طبيعة البشر أن تشتبه عليهم المقاصد والأحكام في كثير من شؤونهم، وتتشعّب عليهم المسالك في مسار حياتهم فيتقاضون إلى من يدلّهم على الصّواب، ويحتكمون إلى من بيده زمام الأمور، وعندما يعمّ الجهل والضّلال يستشري الفساد وتفشل تجارب الإنسان في تحقيق السّعادة والهناء، فمَن غير الله حَكَما عدلا في الفصل والقضاء؟، وهل في غير أحكامه وآياته مخرجٌ للعباد من أزماتهم وأوصابهم؟.

وهكذا أمر الله رسوله أن يخاطب المشركين، وينكر عليهم طلبهم للآيات المادية، وهو في دعوته لا يطلب حَكَما غير الله الذي بعثه بالحق ليقضي بينه وبينهم، وحكم الله ظاهر وشهادته على صدق نبوءة رسوله يدعمها برهانان قاطعان:

أ)- إنزال القرآن مبيّنا للحق بما لا مرية فيه، وقد تحدّاهم الله أن يأتوا بسورة مثله، ودلّ إعجازه وبلاغته وما اشتمل عليه من علوم وأحكام وأخبار، دلّ ذلك بأنه كلام الله، ليس في وسع رسول أمّيٍّ أن يأتي به كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٤٨).

ب)- علم الذين أوتوا الكتاب من علماء اليهود والنّصارى بصدق القرآن ونزوله بالحق، وأنه من جنس الوحي الذي أنزل على أنبيائهم ورسلهم، يؤيده ما يجدونه مكتوبا عندهم في التّوراة والإنجيل من البشارات بالرّسول الخاتم، قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَآؤُاْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ (١٩٧).

وهنا قال تعالى: ﴿وَالذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ

﴿بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، وماذا بعد الحق إلا الضّلال؟. ويبقى الشّاكون في حيرتهم يعمهون، فحذار أن تكون منهم.

وقد اختير أسلوب الخطاب على طريق التّعريض، فيكون موجّها لكل سامع على حدّ قولهم: "إياك أعني واسمعي يا جارة"، ويزيد الإمام ابن عاشور احتمالا آخر لقاء التّفريع: ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ﴾ فيقول: "يحتمل أن يكون خطابا للنبي ﷺ فيكون التّفريع على قوله: ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي فلا تكونَنّ من الممترين في أنهم يعلمون ما لا شكّ فيه، فالامتراء المنفي هو الامتراء في أن أهل الكتاب يعلمون ذلك، لأن غريبا اجتماع علمهم وكفرهم به".[1]

ثم قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾: كلمات الرّبّ هي هذا القرآن الكريم باعتبار ما يشتمل عليه من الألفاظ والجمل والآيات في مبناه، وباعتبار ما يشتمل عليه من أحكام الحلال والحرام والآداب والأخلاق والأخبار والعلوم في معناه، والمقاصد الشّرعية مما يتطلبه المجتمع البشري في تحقيق الهناء والسّعادة كما قال في نفس السّورة: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (٣٨). ويتمثل صدق القرآن وعدله في:

أ)- مطابقته لواقع ما أخبر به من مصائر الأمم وتقلّبها بين الخير والشّرّ وبين القوة والضعف وفق سنن الله في الخلق، ثم مطابقة ما تحدّث به عن بعض الكشوفات العلمية في مجال بيان قدرة الله في الأنفس والآفاق.

ب)- وتمام عدله يتمثل في ما قرره من جزاء أو عقاب لمن يستحقهما في الدّنيا والآخرة، وفي سنّ الأحكام والآداب التي تحقق الخير والصّلاح في تدبير شؤون الخلق.

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٧/٨.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾: أي في آيات القرآن، إذ حفظها الله من التحريف والتبديل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، ولا في سننه وأقداره، إذ هو الفعال لما يريد، فلا رادّ لقضائه ولا معقّب لحكمه.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: تذييل لكل ما سبق، ويحتمل أن يكون للآية الأخيرة، فهو المطّلع على الأقوال، بل على وسوسة النفوس، وتتضمن هاتان الصّفتان للذّات العليّة الوعيد والتهديد لمن ورد ذكرهم في السّياق من شياطين الإنس والجنّ أعداء الرّسل، ولأولئك المعاندين ممن يريدون الاحتكام لغير الله.

والله أعلم

ضلالات المشركين، وحُكم الله في ذبائحهم

أ)- النص:

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿تطع﴾: من الإطاعة: والطّاعة اسم للطوْع، وهو من طاع يطوع أي انقاد

وفعل ما يؤمر به عن رضى وطواعية. ﴿الأَرْض﴾: تطلق على الكرة الأرضية بكل ما فيها ومَن فيها، وقد تطلق على جزء منها معهود لدى المخاطبين كأرض مكة وأرض فلسطين ...إلخ. ﴿الظَّن﴾: هنا هو الاعتقاد المخطيء عن غير دليل، قال تعالى: ﴿انَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ (يونس:٣٦). ﴿يَخْرُصُونَ﴾: من الخرص، أي الظّن التّقريبي، ويرادفه الحزر والتّخمين في تقدير الشيء كما يفعله أصحاب النّخيل والكروم في تقدير الغلة. ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾: المقصود به الذّبائح.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم﴾: قرأه نافع وحمزة والكسائي وعاصم وأبو جعفر وخلف: "وَقَدْ فَصَّلَ" ببناء الفعل للفاعل. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالبناء للمجهول. وقرأ نافع وحفص عن عاصم وأبو جعفر: ﴿مَّا حَرَّمَ﴾ بالبناء للفاعل. وقرأه الباقون بالبناء للمجهول، والمعنى في القراءات فيهما واحد.

د)- البيان والتّفسير:

بعد الرّدّ على شبهات المشركين، وتثبيت رسول الله في دعوته، وأنه لا يبتغي حكَما غير الله بينه وبين قومه في ما يطالبونه به، وبعد طمأنة الرّسول بأن عداء شياطين الإنس والجن لدعوات الرّسل والأنبياء هي السّنة التي اقتضتها حكمة الله في تصريف شؤون خلقه ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيي عن بيّنة، بعد تلك الجولة وما تضّمنته من التّنبيه والتّحذير للمسلمين حتى لا يغترّوا بمكايد الشّياطين والضّالّين، ينتقل السّياق إلى ذكر واقع أكثر الأمم الأرضية في ما هي عليه من الكفر والضّلال حتى يتأكّد الرّسول والمسلمون معه بأن كفّار قريش ليسوا بدعا في عنادهم وكفرهم فلا يغترّون بكثرة الخبيث، لأن نصرة الدّعوات الصّالحة

ترتكز على الفئة الممتازة في نوعيتها، التي تتربّى على الاستقلالية في شخصيتها وفق هداية السّماء كما أرادها الله فقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾.

ومن الرّوايات النّقلية في أسباب النّزول ما روي عن ابن عباس ﷺ أن المشركين قالوا: "يا محمد أخبرنا عن الشّاة إذا ماتت مَن قتلها؟ -أي دون ذبح- قال: الله قتلها. قالوا: فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال، وما قتل الصقر والكلب حلال، وما قتله الله حرام؟. فوقع في نفس ناس من المسلمين من ذلك شيء فنزلت الآية.

قلت: ولا يُستبعد من أهل الضّلال والأهواء أن يلقوا مثل هذه الشّبه ليزرعوا الشّكوك والأوهام في قلوب المؤمنين وليحدثوا البلبلة في الصّفوف، بعدما أعيتهم الحيل في الصّدّ عن سبيل الله، سيما في ما يتعلق بكثير من العادات والطّقوس المألوفة مثل الذّبائح، وما يتعلق بها من أمور اعتقادية في التّقرب بها إلى الآلهة الباطلة، وذلك من أعظم أصول الشّرك، وهي ضرب من وسوسة شياطين الإنس والجن التي حذّر الله منها رسوله والمسلمين، وأرشدهم إلى التزام أحكام وحي الله، التي جاءت مفصّلة لكل ما يحتاج النّاس إليه في أمور دينهم ودنياهم.

فبيّن في هذه الآية المعطوفة على ما قبلها أن إطاعة أولئك الضّالّين -وإن كانوا هم الأكثرين في الأرض- تؤدي لا محالة إلى ضلالكم وانحرافكم عن سبيل الحق والهدى، ذلك لأن هؤلاء لا يصدرون في وضع تقاليدهم وأعرافهم وفي معتقداتهم إلا عن الظّن والتّخمين الكاذبين، والخطاب في الآية للنبي والمقصود به المسلمون، وحاشا لرسول الله أن ينصاع إلى الضّلال.

وترد في القرآن الكريم آيات أخرى في بيان نسبة الضّالين من المهتدين، وهي توضّح الواقع التّاريخي في عهد رسول الله والعهود السّابقة واللاحقة فيقول تعالى في

سورة المائدة: ﴿قُل لاَّ يَستَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ اَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾(١٠٠) وقوله في سورة الصّافات: ﴿وَلَقَد ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الاَوَّلِينَ﴾ (٧١). وقوله في سورة يوسف: ﴿وَمَا يُومِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (١٠٦).

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَّضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾: أي إن الذي أنزل عليك الهدى -أيها الرّسول- وأحاطك بعنايته هو العليم بخلقه، من هم على الهدى أو على الضّلال مهما يكن زعمهم، وفي ذلك من تأكيد التّحذير ما فيه.

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِئَايَاتِهِ مُومِنِينَ﴾: جاء أمر الأكل مما ذُكر اسم الله عليه بـ"فاء" التّفريع على ما سبق، ليخلص السّياق إلى بيان سبيل المهتدين في ما يُعتبر من مقتضيات الإيمان وأصول الاعتقاد في قضية الذّبائح التي يُتقرَّب بها إلى الأوثان وما ابتدعه المشركون فيها، بتصنيفها إلى حلال وحرام وفق أهوائهم و إيحاءات شياطينهم.

أمر الله المؤمنين أن يأكلوا مما ذكر اسم الله عليه، والأمر للإباحة، وتقييد المذبوح بما ذُكِر اسم الله عليه لتمييزه عمّا لم يُذكر عليه اسم الله كالميتة التي تقدّمت شبهتهم فيها، وما ذُبح على النُّصُب والأوثان، وذكر اسم الله عليه هو لترسيخ الاعتقاد بالله، ويسنده الشّرط بعد الأمر في قوله: ﴿**إِن كُنتُم بِئَايَاتِهِ مُومِنِينَ، وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَاكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ**﴾.

عطف الله على إباحة الأكل ممّا ذُكر اسم الله عليه هذا الاستفهام الإنكاريّ: "مَا لَكُم"، وتقديره : أيّ شيء ثبت لكم من الفائدة في ترك الأكل ...إلخ.

ولعلّ في ما روي عن ابن عباس من وقوع شيء في نفوس المسلمين من شبهة المشركين في قتل الميتة ما يبرّر هذا اللّوم الذي دلّ عليه مثل هذا التّعبير: ﴿مَا لَكُمْ﴾، ويسنده جملة الحال المرتبطة به: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾.

يقول الإمام ابن عاشور في هذا المعنى بعد سوقه لرواية ابن عباس: "أنبأهم الله -أي المسلمين- بإبطال قياس المشركين المموّه بأن الميتة أولى بالأكل مما قتله الذّابح بيده، فأبدى الله للناس الفرق بين الميتة والمذكّى، بأن المذكّى ذُكر اسم الله عليه، والميتة لا يُذكر اسم الله عليها، وهو فارق مؤثر".[1]

وتفصيل ما حرّم الله في ذكره هنا يقتضي أن يكونوا عارفين به، والمقصود به ما بيّنه الله في نفس السّورة من قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنُ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام:١٤٥).

﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾: تحذير من ضلالة المشركين في التّحليل والتّحريم بمحض أهوائهم، لا مستند لهم في ذلك من علم ولا يقين. والتّحليل والتّحريم من خصوصية الله، فهم في ضلالهم وإضلالهم معتدون، والله تعالى يجازيهم على ما اقترفوه، فاستمسك أيها الرّسول بهدي ربّك لأنك على الحق المبين.

والله أعلم

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٨/٣٤.

النهي عن ذبائح المشركين

أ)- النص:

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾: ذروا: اتركوا. والإثم: هو القبيح الضارّ، وشرعا هو ما حرّمه الله مما يضرّ البدن أو النفس أو المال أو العقل أو العرض، ما يسميه الفقهاء الكليات الخمس، ظاهره ما يقترف جهرا وباطنه ما يرتكب سرّا ولا يطّلع عليه الناس. ﴿يَقْتَرِفُونَ﴾: ما يكتسبونه من الآثام. الفسق: الخروج عن دائرة أحكام الدين. ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾: المنازعة بالقول للإقناع بالرأي. ﴿إِنَّ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾: أي جاريتموهم في ما يوسوسون لكم به من أكل الميتة وما ذبح لغير الله.

ج)- البيان والتفسير:

في سياق النهي عن أكل الميتة وما أهلّ به لغير الله تأتي هذه الجملة المعترضة، لتعمّم الأمر باجتناب كل ما نهى الله عنه من أنواع الآثام التي تضرّ بالأفراد والجماعات. وقوله تعالى: ﴿ظَٰهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ لتعميم أفراد الإثم حتى يتناول كل أنواعه مما يُقترف بالجوارح ويظهر للناس، أو ما يقترف منها في الخفاء وما هو من الآثام الباطنية من أمراض القلوب والنفوس، سيما ما يقتضيه السّياق في الذّبائح

والأطعمة المحرمة، فلا داعي لتخصيص أنواعٍ من الآثام الظّاهرة والباطنة بعينها مما ذكره بعض المفسّرين، لأنه ليس في مراقبة الله تعالى لعبده ما يخفى وما يظهر، والمؤمن الوفيّ هو ذلك الذي يستحي من الله حق الحياء فيحفظ الرأس وما وعى، ويحفظ البطن وما حوى، ويذكر الموت والبلى كما قال رسول الله ﷺ[1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾: أكّد الله حكم الجزاء على الإثم، فأظهر في مقام الإضمار لزيادة الاهتمام واستقرار المعنى في ذهن السّامع بأنّ الله تعالى لا يفلت الآثمين، فيجازيهم على جرائرهم أوفى جزاء إذا ماتوا على غير توبة، لأن اختيار صيغة المضارع: ﴿يَقْتَرِفُونَ﴾ يدلّ على الاستمرار، إذ لا توبة مع إصرار كما يقول العلماء، كما أن الفعل: ﴿يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ﴾ يدلّ على ما للمكلّف من الاختيار والكسب لأفعاله، فلا جبرية ولا اضطرار.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾: بعد أمر الله تعالى بالأكل مما ذُكر اسمه عليه للتفرقة بينه وبين الميتة -كما تقدم- عطف عليه النّهي هنا عن أكل ما لم يُذكر اسم الله عليه، والنّهي وإن كان شاملا لكل المأكولات ولكن قرينة السّياق تحدّد المقصود من النّهي وهو موضوع الذّبائح، سواء ما كان المشركون يذبحونه لأوثانهم، أو الميتة، أو ما ذُكّي و لم يُذكر اسم الله عليه.

ويبقى الخلاف بين العلماء في ترك التّسمية عمدا أو نسيانا أو استخفافا أو تجنّبا لها لسبب أو لآخر تؤكل أو لا تؤكل، سيما إذا قام بالتّذكية مسلم، يبقى خلافا كبيرا يطلب من مظانّه في موسوعات الفقه الإسلامي.

﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾: من المفسرين من جعلها معطوفة على جملة ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾

١- رواه الحاكم في المستدرك من حديث عبد الله بن مسعود، كتاب الرّقاق، حديث ٨٠٣٢، وقال: صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

ومنهم من جعلها حالية، أي لا تأكلوا مما لم يُذكر اسم الله عليه من الذّبائح عند تذكيته والحال إنه لفسق أهلّ به لغيره كما قال في آية المحرمات: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾.

ولزيادة التّحذير من إشراك غير الله في ما يُتقرب به إليه، ومن الوقوع في وسوسة المشركين وتخيّلهم على المسلمين لترك ذكر الله قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي احذروا ما يوسوس به الشّياطين لبعضهم البعض من الكلام الخادع وإلقاء الشّبه، مثل ما تقدم ذكره في قضية الميتة، لأن ذلك يعرّضكم إلى مزالق الشّرك، ولأن مجادلة هؤلاء لا يقصدون بها معرفة الحق أو الإذعان لحكم الله، وإنما يقصدون الطّعن والتّشويه لأحكام الإسلام، وكل طعن أو تشويه أو تشكيك في أحكام الله يساوي الشّرك والكفر.

وهذه التّأكيدات في أسلوب هذا السّياق تبيّن مدى الصّراع المحتدم بين الفريقين: أنصار الدّعوة الإسلامية، وطغاة الجاهلية في محاربة كل مظاهر الشّرك وتأصيل عقيدة التّوحيد وتمحيض الحاكمية لله تعالى.

يقول الشّيخ رشيد رضا في تفسير الآية: "فإن التّعبّد بالذّبح لغير الله شرك كدعاء غير الله وسائر ما يُتوجه به من العبادات لغيره، وإن كان لأجل التّوسّل بذلك الغير إليه ليقرب المتوسّل إليه زلفى ويشفع له عنده كما يفعل أهل الوثنية"[1]

قلت: لقد وفّقنا الله تعالى في محاربة الظّاهرة التي أشار إليها الشّيخ رشيد رضا من ذبح القرابين في ضريح "الشّيخ إبراهيم بن مناد" دفين العطفاء، من علماء القرن الخامس الهجري، وهو يعتبر من أولياء الله الصّالحين في منطقة "ميزاب". إذ

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٨/٢٢.

كانت هذه الظّاهرة حتى منتصف هذا القرن العشرين تقام لها مهرجانات شعبية كبيرة يجتمع لها حشد غفير من بلدة العطف ومن قرى وادي ميزاب، ومن غريب الأمور أن لا يُعتبر في هذه الظّواهر الجاهلية الخلاف المذهبي إطلاقا.

لا يستوي المؤمن والكافر،

وسنّة الله في عاقبة الماكرين

أ)- النص:

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۚ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاه﴾: تعبير تصويريّ لتشبيه المهتدين بالإسلام بالحيّ الذي أبصر النّور وهو يسير على هديه، وأما الباقون في الكفر فهم كالميّت الذي أطبقت عليه الظّلمات، لأن الكفر والضّلال موت معنوي كما قال الشّاعر:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميّت ميّتُ الأحيـــاء

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾: "جعلنا" يأتي بمعنى الخلق والإيجاد للسنن الكونية، وتأتي بمعنى التّصيير، والأولى تنصب مفعولا واحدا، والثّانية تنصب مفعولين. "أَكَابِرَ": جمع أكبر، وهم سراة القوم وعظماؤهم، "القَرْيَة": تجمع على

قُرى: البلد الجامع للناس، وتسمّى أمّ القرى إذا اتسع عمرانها وثوى فيها أكابر القوم. "مُجْرِميهَا": الإجرام الإفساد والإضرار بمختلف الوسائل. ﴿يَمْكُرُونَ﴾: والمكر تدبير الحيل لصرف الغير عما يريده، ويستعمل -غالبا- في الصّرف عن الحق والخير.

ج)- البيان والتّفسير:

على ذكر ضلال أكثر أهل الأرض باتباعهم الأهواء، وتمسّكهم بالأوهام والظّنون، ثم تحذير أهل الحق من الاغترار بهم عندما يجادلونهم في دين الله، عطف عليه هنا هذا المثل البليغ في صورته التّشبيهية مصدّرا بالاستفهام الإنكاريّ لنفي تماثل حالة المهتدي وحالة الضّالّ التائه فقال تعالى: **﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾**.

من أروع التّصوير الفني في أسلوب القرآن الكريم ضرب الأمثال، ومن شأن ذلك تقريب المعاني الدّقيقة في قوالب حسّية توضّح معناها، قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (إبراهيم:٢٥). وقال في سورة البقرة: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (٢٦).

وجدال أهل الباطل بما يتذرّعون به من ضروب الحيل والمكر غايته تشويه الحق وتقبيحه في أعين أنصاره، بتزيين الباطل وتحسين أتباعه عند من تكون له القابلية للانخداع للتقليد والاتّباع. فشبه الله تعالى المؤمنين المهتدين بنور الإسلام بحال من كان ميّتا تلفّه ظلمات العدم وظلمات القبر، فأحياه الله وأصبح في نور غامر ينير دربه ويمشي به بين النّاس وهو على بيّنة من أمره، وشبّه حالة المشرك الضّال بالميّت الذي لا تنفكّ عنه الظّلمات، فهي ظلمات كثيرة بعضها فوق بعض.

فهل تصح المقارنة بين الحالتين؟.

واستعمل الاستفهام الإنكاريّ لنفي المشابهة بين الحالتين، وفي هذا المعنى وبأسلوب التّعبير التّصويري جاء قوله تعالى في سورة الملك: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الملك:٢٢). وقوله في سورة الرّعد: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ (الرعد:١٦). وقوله في سورة فاطر:﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ (١٩-٢٢).

ولمزيد من التّذوق الفنّي لهذه الصّورة البليغة ننقل ما قاله السّيد قطب -رحمه الله- في ظلاله: "إن الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية التي لا تفنى ولا تغيض ولا تغيب، فهو موت وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة في الوجود كله فهو موت وانطماس في أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية فهو موت. والإيمان اتصال واستعداد واستجابة فهو حياة، إن الكفر حجاب للروح عن الاستشراف والإطلاع فهو ظلمة، وختم على الجوارح والمشاعر فهو ظلمة، وتيه في التّيه وضلال فهو ظلمة".[1]

قلت: النّور هو الحقيقة الواضحة القارة، جاء بصيغة الإفراد لأنه يستمدّ أحاديثه من وحدانية مصدره وهو الله جلّ جلاله، وأما الظّلمة فجاءت على صيغة الجمع لأنها من تعددية الآلهة ومن تعددية المشارب والأهواء، ولعلّ من الإيحاءات الرّبانية في هذا المثل البليغ أن تذكر نعمة الهداية بنور الإسلام مقرونة بنعمة الحياة والإيجاد لتدلّ على أن الحياة الإنسانية لا قيمة لها إذا ما خلت من نور الهداية.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: والتّزيين المشار إليه هو تزيين

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، ٣٧٤/٨.

الشّياطين وأوليائهم، فهم مصدر الشّرّ والفساد في كل زمان ومكان، فكما زيّنوا الشّرّ والضّلال لمشركي مكة فقد زيّنوا ذلك من قبل لأمم قد خلت، ولا يغترّ بذلك التّزيين إلا من انطمس نور بصيرته حين يلجّ في الضّلال ويختار الظّلمات على النّور، ومشيئة الخالق اقتضت أن تكون في الإنسان تلك القابلية للخير والشّرّ، وليس مشركو مكة ببدع من البشر، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات أيها الرّسول.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: وعلى تلك السّنة الاجتماعية في حياة البشر لتدافع الخير والشّرّ، وعلى غرار ذلك التّزيين لمشركي مكة، جعل الله بعض أكابرها وساداتها هم المجرمين والأعداء الألداء لرسول الله، كما جرت سنة الله في كل تجمّع بشري كبير مما يشكل الحواضر الكبرى للأمم والشعوب؛ إنها سنة الصّراع المرير بين قوى الخير وقوى الشّرّ.

وسبب وقوف أغلب الأكابر من الدّعوات الصّالحة موقف العداء والمعارضة هو أن أغلب تلك الدّعوات تقوم على أكتاف الضّعفاء المغمورين، الذين يستغلّهم الأكابر والسّادة، ويخشون إذا انتصرت تلك الدّعوة أن تنتزع منهم امتيازاتهم فيزحزحون عن مكانة الصّدارة وتتلاشى بذلك منافعهم، ووسيلتهم في ذلك المكر والكيد: ﴿لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾، وما يدرون أن ذلك المكر سوف يحيق بهم في نهاية المطاف، ولكنهم لعتوّهم وبغيهم لا يدركون أن المكر والكيد -مهما قويت شوكته- فهو إلى اندحار وانهزام، ذلك لأن البغاة الماكرين لا يملكون القيم الرّوحية ولا عقيدة يؤمنون بها، تسندهم عند احتدام الصّراع.

وفي القرآن الكريم آيات أخرى تقرّر هذه القاعدة الاجتماعية في تنازع البقاء وصراع الحق والباطل قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً

أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (١٦).

وأما الآية الصّريحة في أهل مكّة وموقفهم من رسول الله فهي قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا، اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (٤٢-٤٣).

وفي سورة الأحزاب صورة بديعة لمشهد العذاب يتغبّن فيه أتباع السّادة الكبراء، ويطلبون من الله مضاعفة العذاب لهم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا، وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ (الأحزاب:٦٦-٦٨).

الرّسالة فضل من الله،

وقابلية الإيمان بها أو عدمها

أ)- النص:

وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَٰلَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿نُوتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾: قد يكون المراد به المعجزات الخارقة للعادة مثل ما أوتي موسى وعيسى، وقد يراد به الوحي كما قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ (المدثر:٥٢). ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ﴾: الصَّغار والصَّغرُ: الذلّة والهوان. ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾: انشرح الصّدر إلى كذا سكن وارتاح واطمأن في يقين لا تردّد فيه. ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾: الضّيّق ضدّه واسع، والحرج: صفة مشبهة من الحرجة، وهي الشّجر الكثيف الذي لا تصل إليه الحيوانات الرّاعية، يصّعّد أو يصاعد: تكلف الصّعود، أي يلاقي في ذلك شدّة ومشقة. ﴿وَيَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: الرّجس: الخبث والفساد وكل ما يستقذر حسّا ومعنى.

ج)- أوجه القراءة:

﴿رِسَالَاتِهِ﴾: قرأ الجمهور بالجمع، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم بالإفراد. ولما كان المراد به الجنس استوى الجمع والمفرد. ﴿يَصَّعَّدُ﴾: قرأه الجمهور بتشديد الصّاد وتشديد العين على أنه "يتفعّل" من الصّعود أي يتكلف الصّعود قلبت فيه تاء التّفعّل صادا، لأن التّاء شبيهة بحروف الإطباق، فلذلك تقلب طاء بعد حروف الإطباق في الافتعال قلبا مطردا، ثم تدغم تارة في مماثلها أو مقاربها، وقد تقلب فيما يشابه الافتعال إذا أريد التّخفيف بالإدغام فيدغم في أحد حروف الإطباق كما هنا. فإنه أريد تخفيف أحد الحروف الثّلاثة المتحركة المتوالية من "يتصعّد" فسكنت التّاء ثم أدغمت في الصّاد إدغام المقارب للتخفيف. وقرأه ابن كثير: "يَصْعَدُ" بسكون الصّاد وفتح العين مخففا. وقرأه أبو بكر عن عاصم: "يصاعد" بتشديد الصّاد بعدها ألف وأصله: "يتصاعد".

د)- البيان والتّفسير:

بعد ذلك البيان الشّافي لسنة الله في البشر، وكيف أن أكثرهم يختار الضّلال على الهدى ويتحدّى الدّعوات الصّالحة بالإنكار والإعراض، وأن الكبراء والسّادة في كل قرية هم أكثر الناس إجراما، وأسبقهم إلى المكر والكيد والخديعة، بعد تلك الجولة التي تبتدئ بقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ (الأنعام:١٠٩).

وعلى ذكر أكابر مجرمي مكة وانضوائهم في تلك السّنة الاجتماعية العامّة لمواقف السّادة والكبراء في كل قرية، تأتي هذه الجملة المعطوفة لتشنّع على مقولتهم الدّالّة على الحسد والغيرة والكبرياء، وقد روي في سبب النّزول حادثتان:

أ)- أن الوليد بن المغيرة قال للنبي ﷺ: لو كانت النّبوءة لكنت أولى بها منك لأني أكبر منك سنّا وأكثر مالا وولدا.

ب)- أن أبا جهل قال: زاحمنا بنو عبد مناف في الشّرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يوحى إليه، والله لا نرضى به ولا نتبعه أبدا إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه.

وقد وردت آيات أخرى في القرآن تذكر هذه المواقف التّعنّتية من مشركي مكة أو تذكر مقولاتهم أحيانا، منها قوله تعالى:

أ)- في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ (٢١).

ب)- في سورة الزّخرف: ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ، أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ (٣١-٣٢).

ج)- في سورة المدثر: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ (المدثر:٥٢).

وكان مبعث هذه الأقوال وتلك المواقف هو الحسد والكبر كما علّل الله ذلك في سورة الفرقان في الآية فقال: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (الفرقان:٢١). وهم بذلك يقصدون السّخرية من رسول الله، إذ عزّ عليهم أن يروا رجلا يتيما فقيرا يدّعي خبر السّماء، كما حكى الله عنهم ذلك في سورة الفرقان أيضا فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (٤١).

﴿قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾: والمقصود به وحي السّماء وما يصحبه من المعجزات، إذ الآية تحتمل المعنيين: الوحي المنزل، والآيات الكونية الخارقة للعادة.

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾: جاء الرّدّ الإلهي بأمرين:

أ)- بتقرير أنّ منصب الرّسالة مقدّس عظيم له مقوّماته ومؤهلاته، لا ينالها أحد من الخلق بكسبه ولا بحسبه ونسبه، بل الله تعالى هو الذي يختار له من يشاء من عباده، فيكونون محلّ فضله وعنايته، وينشّئهم الله على عينيه فتتطهر نفوسهم من الحسد والغلّ والمكر الذي يتصف به أولئك الكبراء الطّغاة، وقد وصف الله رسوله بذلك الوصف الجامع للكمال الإنساني حين قال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤). ثم نفى عنه ذلك التّطاول إلى المقامات التي لا تنال بالكسب: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ (القصص:٨٦).

ب)- بتهديد أولئك الكبراء المجرمين بما ينالونه من جزاء عند الله خزي وهوان وذلّة مقابل ذلك التّطاول، وقد يحصل لهم ذلك في الدّنيا قبل الآخرة كما

حدث لكثير منهم في حياة الرّسول، ولهم في الآخرة عذاب شديد جزاء مكرهم وعنادهم.

وفي مقابل هؤلاء الطّغاة والرّدّ على مزاعمهم تفرّع بيان حقيقة أن الله تعالى هو الموفق للأسباب الدّاعية إلى الهدى أو الضّلال حسب تقديره الأزلي في تصريف شؤون خلقه فقال جلّ من قائل: ﴿**فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ، يَشْرَحْ صَدْرَهُ، لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ اَنْ يُضِلَّهُ، يَجْعَلْ صَدْرَهُ، ضَيِّقاً حَرِجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَآءِ**﴾:

تقرر الآية حقيقتين كبيرتين وقع فيهما جدال كبير بين المتكلمين بين الإفراط والتّفريط وهما:

أ)- مشيئة الله وإرادته في تدبيره شؤون خلقه وفق ما قدّره في علمه الأزلي.

ب)- استعداد الإنسان وقابليته للهدي والضّلال وللخير والشّرّ، وكسبه واختياره لاتّجاهاته وتبدو هاتان الحقيقتان في المنطق الذهني متعارضتين ولكنهما ليستا كذلك، إذا ما أدركنا قانون الأسباب والمسبّبات في الواقع الفعلي المعيش، ثم حاولنا أن ندرك بعقولنا وأرواحنا معا قدرة خالق الأسباب ومطلق إرادته ومشيئته في تدبير شؤون ملكه، فإننا بذلك لا نجد ذلك التّعارض المزعوم.

ويعجبني في هذا المجال البيان الضّافي الذي قرره سيد قطب في ظلاله عند تفسيره لهذه الآية الكريمة في صفحتين يقول في فقرة منهما: "إن تصوّر هذه الحقيقة يحتاج إلى استخدام منطقة أخرى من مناطق الإدراك البشري وراء منطقة المنطق الذّهني، وكذلك يقتضي التّعامل مع الواقع الفعلي لا مع القضايا الذّهنية، فالقرآن يصوّر الحقيقة الفعلية في الكينونة البشرية وفي الوجود الواقع، وهذه الحقيقة يتراءى فيها التّشابك بين مشيئة الله وقدره وبين إرادة الإنسان وعمله في محيط لا يدركه المنطق الذّهني كله، فإذا قيل: إن إرادة الله تدفع الإنسان دفعا إلى الهدى أو الضّلال،

لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية. وإذا قيل: إن إرادة الإنسان هي التي تقرّر مصيره كله، لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية كذلك. إن الحقيقة الفعلية تتألف من نسب دقيقة -وغيبية كذلك- بين علاقة المشيئة الإلهية وسلطانها الفاعل، وبين اختيار العبد واتجاهه الإرادي، بلا تعارض بين هذه وتلك ولا تصادم" اه.[1]

ومعنى الآية الكريمة أن هناك أسبابا غيبية خفية غير التي علّق المجرمون إيمانهم على حصوله من اتيانهم مثل ما أوتي رسل الله، لأنهم في واقعهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، ذلك لأن الله تعالى لم يشرح صدروهم للهداية الإسلامية التي تتطلب سلامة الفطرة وطهارة النّفس، ولأنهم بأخلاقهم الفاسدة تلك قد دسّوا نفوسهم وطمسوا بصائرهم فلم تعد مستعدة لتلقي أنوار الهداية.

وشرح الصّدر كناية عن ذلك الاستعداد لتلقي أنوار الهداية، وقد وضّحه رسول الله عند ما سئل عن معنى الشّرح في هذه الآية فقال: «**هو نور يقذفه الله في القلب، قالوا يارسول الله. فما علامته؟، قال: «التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود»**».[2]

وقد وردت عبارة شرح الصّدر في آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الزمر:٢٢). وقال لنبيه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الشرح:١). ودعا موسى عليه السلام ربّه عندما أمره بالذّهاب إلى فرعون فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي﴾ (طـه:٢٥-٢٦).

أما الذي تتجه فطرته إلى الضّلال ويختار الغواية بما تدنّست به نفسه من الغلّ

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، ٨/٣٨٠-٣٨١.

٢- رواه الحاكم في المستدرك من حديث عبد الله بن مسعود، كتب الرّقاق، حديث ٧٩٧٤.

والكبر والغرور فإنه يجد في صدره ضيقا وعنتا، فلا يتسع قلبه لهداية الإسلام ولا يجد نوره إليه سبيلا. وللمبالغة في تصوير شدّة الضّيق أتبع الله الضّيق بالحرج، ثم شبّهه بمحاولة من يريد الصّعود إلى السّماء، وزيادة على ما عرفه النّاس قديما من أنواع المشاق والمتاعب في صعود المرتفعات والجبال، أو حتى في الوسائل التي اتخذها الإنسان لصعود طوابق البناءات كالدّرج والسّلاليم، زيادة على ذلك فإن اختيار لفظي "الضّيق" و"الحرج" للصدر بدل المشقة والتّعب مثلا يدلّ على جانب من الإعجاز العلمّي في القرآن، وذلك بعد ما كشف العلم وحدّد الغلاف الجويّ للأرض، وبعد أن مارس الإنسان الطّيران وشق الفضاء الخارجي للأرض، حيث ينعدم الأكسجين كلّية أو يقلّ كلما ارتفع الإنسان في طبقات الجوّ، فيشعر بذلك الضّيق والحرج، ويضطر إلى التّنفّس الاصطناعي، وما كان محمد رسول الله يعلم تلك الظواهر الطّبيعية لو لم يكن القرآن العظيم منزلا من خالق الطّبيعة ومسخّر قوانينها.

﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الذِينَ لاَ يُومِنُونَ﴾: أي بمثل اطّراد سنّة الله وتقديره في توفيق عبده للهداية أو عدم توفيقه، فإنه تعالى يجعل الذين لا يؤمنون في رجس مستمرّ لفساد فطرتهم، والرّجس هو الخبث الذي تتدسّى به نفوسهم، والتّعبير بـــ"على" يفيد التّمكّن واللّزوم لذلك الخبث، بحيث يتجلّى ذلك في أعمالهم وتصرّفاتهم، والعلة في وضعيتهم المزرية هي عدم إيمانهم.

﴿عَلَى الذِينَ لاَ يُومِنُونَ﴾: لأن توفيق الله للإنسان إلى نعمة الهداية والرّشد لا يتأتى إلا باستعداد قلبه للإيمان كمرحلة أولى تتبعه فيوض الهداية حتى يصير من المقربين، ومن هنا تكون إرادة الإنسان واختياره، قال تعالى في هذا المعنى: ﴿وَمَنْ يُومِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن:١١).

والله أعلم

الإسلام صراط الله المستقيم،
جزاء المهتدين والضالين من الجنّ والإنس

أ)- النص:

وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً﴾: المشار إليه "صراط" حاضر في ذهن السّامع وهو دين الإسلام، ويجوز أن تكون الإشارة إلى حاضر في الحسّ وهو القرآن المسموع والمقروء. والمستقيم: هو السّالم من العوج، وقد قال الرّسول عن القرآن بأنه الصّراط المستقيم. ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: الدّار هي مكان الحلول والإقامة، والسّلام: الأمان الكامل الذي لا يعتري صاحبه خوف، وذلك لا يكون إلا في الجنة، والسّلام من أسماء الله الحسنى، وإضافة دار الجنة إليه هو تشريف وتعظيم لها. ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ﴾: المعشر: يجمع على معاشر: الجماعة الذين يجمعهم أمر واحد، مشتق من المعاشرة والمخالطة. وقال اللّغويون: لا يقال "معشر" إلا للرجال، وفي معناه ألفاظ النّفر، الرّهط، القوم. ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ﴾: أي أغويتم الكثير منهم، ﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾:

فاستمتاع الإنس بالجنّ هو اتباعهم للشهوات وانتفاعهم باللّذات العاجلة التي زيّنها لهم الجن، وأما استمتاع الجن بالإنس فهو بتكثير أتباعهم وتعاونهم على إضلال النّاس ومحاربة الخير والصّلاح. ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾: اسم مكان للإقامة من ثوى يثوي ثواء، والخلود: المكث الطّويل غير المحدّد بوقت.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾: قرأ الجمهور: "نَحْشُرُهُمْ" بنون العظمة على الإلتفات. وقرأه حفص عن عاصم وروْح عن يعقوب بياء الغيبة.

د)- البيان والتّفسير:

على ذكر شرح الصّدر للإسلام أو ضيقه وتحرّجه منه وفق إرادة الله واختيار الإنسان، يشير الله تبارك وتعالى إلى ما به تكون الهداية والتّوفيق وهو الإسلام أو القرآن يشرح له صدور من أراد الله هدايته من عباده، وهو الطّريق المستقيم السّويّ الذي شرّفك به ربك -أيها الرّسول- فاستقم عليه كما أمرت، وقد وضحت معالمه واستبانت أحكامه ووصاياه لأولي الألباب، فلا غموض فيه ولا التواء.

فهؤلاء العالمون العاقلون هم الذين يدركون ما فيه من الحكم البليغة والأدلة القاطعة التي تثبت استقامته وصلاحه، وأن غيره من السّبل لا يسلم من الاعوجاج والضّلال، فلهؤلاء الصّالحين الذّاكرين لجلال الله وعظمته والملتزمين لذلك المنهج السّويّ دار السّلام حيث الأمن والطّمأنينة في كنف الله ورضاه، وهو وليّ نعمتهم ومدبّر شؤونهم على نهج الهداية والرّشاد، منّة منه وفضلا وجزاء لهم بما كانوا يعملون.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ

أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا الذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾:

تقدم في سياق هذه الجولة من قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ تقدم ذكر شياطين الجنّ والإنس وتعاونهم على المكر والكيد، ثم بيان موقف المهتدين من خلق الله أو الضّالّين منهم وجزاء الفريقين عند الله.

وعلى ذكر الجنة -دار السّلام- مقرّا للصّالحين الأبرار عطف الله عليها هذه الآيات: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ ليبيّن ما يكون قبل ذلك من هول الحشر ويوم الحساب، وهو اليوم الذي كان ينكره أولئك الشّياطين من الجنّ والإنس ويسخرون من رسول الله إذا هدّدهم به بمثل قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (المؤمنون:٣٧).

وتقدير معنى الآية: اذكر يا محمد في ما تتلوه عليهم يوم كذا وكذا. والمنادي هو الله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ (الأنعام:١٣٠) والمقصود به شياطينهم، وقد لزّهم الله تعالى في قرن واحد بما كانوا يزيّنون للناس ويغرونهم لاتّباع الشّهوات والاستخفاف بيوم الحساب.

وتوجيه الخطاب إلى الجنّ من الشّياطين لأنهم مصدر الشّرّ والفساد بالإغراء والإفتان، وجريرتهم المعلن عنها أمام الخلائق أنهم أضلّوا الكثير من الإنس، والإضلال ظلم وتعدية على حرمة الغير، فهو أشدّ جرما ممن ضلّ في نفسه وحده.

وقد حذّر الله تعالى خلقه بني آدم من عداوة إبليس وذريته، وأخذ عليهم العهد أن لا يتبعوه فقال جلّ من قائل: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ، وَأَنُ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ، وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ (يس:٦٠-٦٢).

ومن عجيب التّصوير للخصائص النّفسية البشرية في القرآن الكريم أن يكون

ذلك النّمط من جواب الإنس لله تعالى: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾، فالجنّ في موقف الإدانة من الله تعالى، وقد تحققت جريمتهم في إغواء الإنس بكثرة، ولكن ما بالهم لا يجيبون الله دفاعا عن أنفسهم بنفي ما اقترفوه، بل بادر أولئك المفتونون من الإنس بالإجابة عنهم.

وقد وصفهم الله بأنهم موالون للجنّ، والمتولّى عليهم يكونون في موقف الخضوع والطّاعة لأوليائهم، ولذا كان جوابهم ينمّ على نوع من الرّضى والقناعة بالنّفع المتبادل بين الفريقين: ﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾.

إنها لذة النّجاح في الإغراء والإفتان من الجن، ولذة الإكثار من الأتباع والأشياع. ولذة الإنس في تحقيق الرّغبات والشّهوات والانغماس في الفواحش والمنكرات، وهنا تبرز الطّبيعة البشرية في أوهى ضعفها ووهنها حين ترضى لنفسها بالحطة والهوان أمام من يستذلها ويستغلّها:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميّت إيلام

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾: اعتراف منهم بما ينكرونه من البعث والجزاء، ومع الاعتراف الحسرة والندامة على ما فرّطوا في جنب الله، وأن الولاية التي كانت بينهم في الدّنيا لم تغن عنهم من الله شيئا، فهم الآن مستسلمون لأمر الله.

﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ﴾: فما أحرج السّاعة التي ينتظر فيها المجرم قرار الحكم، إنه الجزاء الأوفى من الله العليم الحكيم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾:

حكيم يضع الأشياء في مكانها المناسب بحكمة وعدل، عليم بخبايا نفوس عباده وما تستحقه من ثواب أو عقاب، والنّار هي المأوى المناسب لهؤلاء الضّالين

وهي مثواهم الأبديّ، يذوقون فيها ألوانا من العذاب بمشيئة الله، وهي أطباق ودركات.

والاستثناء المثبت لمشيئة الله بعد إثبات الخلود كما ورد ذلك في غير هذه الآية، قال عنه سيد قطب -رحمه الله-: "إلا ما شاء الله، لتبقى صورة المشيئة الطّليقة هي المسيطرة على التّصوّر الإعتقادي، فطلاقة المشيئة الإلهية قاعدة من قواعد هذا التّصوّر، والمشيئة لا تنحبس ولا تتقيد".[1]

وفي هذا المعنى روي عن ابن عباس قوله: "إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، فلا يترلهم جنة ولا نارا".

قلت: إن الآية بما ورد فيها من الاستثناء: ﴿إِلاَّ مَا شَآءَ اللَّهُ﴾ كانت مجالاً لمجادلات المتكلّمين في شأن الخلود في النّار.

ومن تأويلات ابن عباس لهذا الاستثناء أنه قال أن "مَا" هي هنا بمعنى "من" المصدرية، أي إلاّ من شاء الله إيمانه فقد آمن فلا يدخل النّار.

ويقول قطب الأئمة -وهو من القائلين بالخلود- يقول: "ولا يصّح ولا يجوز ما قيل: إنهم يخرجون من دار العذاب كلها إلى جهة الجنة فيرونها ويقربون منها فيردّون إلى دار العذاب ليشتدّ تأسفهم، وأن هذا هو ﴿مَا شَآءَ اللَّهُ﴾ في الآية."[2]

وما أروع توجيه ابن عباس للآية بأنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه فلا يترلهم جنة ولا نارا. وهو الأوفق لما يجب أن يكون عليه موقف المسلم في مثل هذه الأمور الغيبية، لأن الله هو العليم الحكيم في كل ما يتعلق بمشيئته في الحساب والجزاء، والله أعلم.

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، ٣٨٦/٨.

٢- احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التّفسير: ٤٥٨/٤.

ولاية الظّالمين لبعضهم بعض

هي من حكمة الله وتقديره وعدله في الجزاء

أ)- النص:

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿نُوَلِّي﴾: نوليه، وهي من الولاء ومن الولاية أي الإمارة فيقال ولّى فلانا أي جعله وليّا، والولاية تكون للسلطة أو النصرة. ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾: أي من أنفسكم تعرفونهم وتفهمون لغتهم، والمقصود بهم الرّسل من الإنس على طريقة التّغليب، لأن النّصوص لا تبيّن على أن للجنّ رسلا. ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾: أي يخوّفونكم من عذاب يوم القيامة. ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾: اعترفنا بتبليغ الرّسل لنا. ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾: خدعتهم الدّنيا بفتنتها. ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾: أي بعدم إرسال رسول إليهم ينبّههم من غفلتهم. ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾: أي لكل عامل جزاؤه الأوفى من خير أوشرّ.

ج)- أوجه القراءة:

﴿عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾: قرأ الجمهور: "يَعْمَلُونَ" بياء الغيبة فيعود الضّمير إلى أهل

القرى أي مشركو مكة، وقرأه ابن عامر بتاء الخطاب فهو للرسول ومن معه من المسلمين وعدا بالجزاء.

د)- البيان والتفسير:

بعد أن بيّن الله تعالى استمتاع الجنّ والإنس بعضهم ببعض في المنافع العاجلة لتماثلهم في التوجّه والغايات أوضح هنا بأن ذلك يتمّ وفق تقديره وقضائه كما هو مرسوم في علمه الأزليّ، وأن ذلك يجري وفق الأسباب والوسائل التي يختارها الخلق لأنفسهم في الصّلاح والتقوى أو الفساد والشّر، فقال جلّ من قائل: ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ**﴾.

الإشارة إلى التولية الحاصلة بين الجن والإنس بأن يحصل مثلها بين الظّالمين، وذلك بأن يكون بعضهم أنصار بعض، كما جرت سنة الله تعالى في خلقه أفرادا وجماعات، إذ يميل كل منهم إلى من يكون على شاكلته خيرا أو شرّا، فيتحالفون ويتعاونون في ما اختاروه لأنفسهم، ويناوئون من يخالفهم في ذلك؛ قال الشّاعر: إن الطّيور على أمثالها تقع.

وقد فصّل القرآن تلك التولية، فقال في شأن المؤمنين: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة:٧١). وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ (الأنفال:٧٣). وقال في اليهود والنصارى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ (المائدة:٥١).

ولفظ: "الظّالمين" عامّ يتناول كل أنواع الظّلم من أعظمه جرما -وهو الشّرك بالله- إلى ما هو أدنى من ذلك بما فيه ظلم الإنسان لنفسه أو ظلمه لغيره. ومن هنا قرّر مشائخنا -رحمهم الله- في الولاية والبراءة أن تتفرعا إلى ما هو عامّ وما هو خاصّ يتناول كل شخص يظلم نفسه بمعصية الله مجاهرا ومتحدّيا، فالله

تعالى يملي للظالم ولا يهمله، وقضت سنته أن يبلو النّاس بعضهم ببعض، فيسلّط على الظّالم من هو أظلم منه، يقول الشّاعر:

وما من يد إلا ويد الله فوقها ولا ظالم إلا سيبلى بظالـــم

وقال رسول الله محذّرا من عواقب الظّالم: «**اتق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب**»[1]

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾: "الباء" للسببية، أي بسبب كفرهم وظلمهم يسلّط الله بعضهم على بعض بغيا وانتقاما. فعلى المجتمع المسلم أن يحذر من مشايعة الظّالمين، سيما من بيدهم مقاليد الأمور من الحكام والأمراء كما قال ابن عباس ﷺ في هذا المعنى: "إذا رضي الله على قوم ولي أمرهم خيارهم، وإذا سخط على قوم ولى أمرهم شرارهم".

﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا**﴾: ولمزيد من تقريع هؤلاء الظّالمين بيّن الله تعالى وضعيتهم المخزية يوم القيامة بندائهم مع الاستفهام التّقريريّ وهم يسألون عن دعوة رسلهم هل بلّغوا لهم آيات الله الدّالة على وحدانيته وأنذروهم من عذاب يوم القيامة؟. فتكون هذه المساءلة إبطالا لمعذرتهم، وإقرار بجريرتهم.

﴿**قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ**﴾:

وقد اختلف العلماء في إتيان الرّسل لكل من الإنس والجنّ لأن ظاهر هذه الآية يدلّ على أن كلاً من الفريقين قد أرسل الله منهم رسلا غير أن الجمهور

١- رواه البخاري من حديث ابن عباس، كتاب المظالم والغصب، باب الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم، حديث ٢٣٤٣.

على أن الرّسل كلهم من الإنس كما ينصّ القرآن في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلآئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج:٧٥).

وكما حصر الله النّبوءة في ذرية نوح وإبراهيم، والجنّ إنما يؤاخذهم الله بمخالفة الرّسل إذا بلغتهم الدّعوة، كما ثبت ذلك بالنّسبة لسيّدنا محمد ﷺ في سورة الجنّ وسورة الأحقاف فقال جلّ من قائل:

أ)- ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَاناً عَجَباً، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ (الجـــن:١-٢).

ب)- وقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ﴾ (الاحقاف:٢٩).

يقول الإمام ابن عاشور في هذه الآية: "فيجوز أن يكون "من" اتصالية مثل التي في قولهم: لست منك ولست مني، وليست للتبعيض، فليست مثل التي في قوله: ﴿هُوَ الذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ (الجمعة:٢). وذلك أن رسل الله لا يكونون إلا من الإنس، لأن مقام الرّسالة عن الله لا يليق أن يجعل إلا في أشرف الأجناس من الملائكة والبشر، وجنس الجن أحطّ من البشر لأنهم خلقوا من نار".

ثم قال في وسيلة بلوغ دعوة الله إلى الجنّ ليكون ذلك حجة عليهم قال: "فأما مؤاخذة الجنّ بمخالفة الرّسل فقد يخلق الله في الجنّ إلهاما بوجوب الاستماع إلى دعوة الرّسل والعمل بها".[1]

قلت: ويؤيّده قوله تعالى في تعاون شياطين الجن والإنس للسفاهة والإغراء: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ (١١٢). فيمكن أن يحدث ذلك التّعاون على البرّ والتّقوى بين صلحاء الفريقين، وقد دلّ

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٧٦/٨.

القرآن على أن في الجنّ صلحاء ومن هم دون ذلك، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ (الجن:١١).

﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ﴾: هكذا يكون جوابهم بالإقرار على أنفسهم والاعتراف بتبليغ الرّسل، وأنهم كذّبوهم وعصوا أمرهم كبرا وعنادا واغترارا بمتاع الدّنيا وزينتها، فكانوا بذلك في زمرة الكافرين، وهم يشهدون على أنفسهم بذلك، لأنه لا مجال يومئذ للكذب والعناد والمكابرة، وفي الآية تبكيت وإنذار للأتباع المغرورين الذين استهوتهم شياطين الإنس والجنّ، بأن هؤلاء الأولياء المتبوعين لا ينفلتون من قبضة الله.

﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾: الإشارة إلى المذكور من إتيان الرّسل للأمم مبشرين ومنذرين، بأن فائدة ذلك هي ما جرت به سنة الله تعالى أنه لا يهلك القرى أو الأمم إلا بعد تذكيرها وتنبيهها من غفلتها بالدّعوة إلى الله واتباع سبل الرّشاد والتّقوى كما قال تعالى في هذا المعنى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء:١٥). وقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر:٢٤). وذلك مقتضى رحمة الله وعدله، وشأنه في إرادة الخير والصّلاح لخلقه، وما ربّك بظلاّم للعبيد. وهذه الآية نظير قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١١٧).

وقد اختير في كليتهما لفظ "ربك" لما فيه من معاني التّربية والرّعاية، وتشريف الرّسول بالإضافة.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾: وعلى ذكر جزاء المعتدين الظّالمين من الجنّ والإنس، أي لكل أهل القرى درجات لتفاوت أعمالهم في حظيرة الكفر أو الإيمان، لأن القرى المهلكة لا يعني أن أهلها كانوا

كلهم كافرين، بل يذكر الله بأنه ينجّي المؤمنين قبل عذاب الاستئصال، وتلك كرامة نالوها في الدّنيا ولهم في الآخرة مقام محمود، وعلى عكس ذلك الطّغاة الظّالمون، فهم في الدّركات يتدحرجون في النّار، والدّرجات إنما هي للمؤمنين، واستعمالها للفريقين جاء على قاعدة التّغليب.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾: خطاب للرسول وتسلية له ولجماعة المؤمنين بأن نصر الله آت لا ريب فيه، وتعريض بالكافرين لما ينتظرهم من وعيد الله.

تهديد المشركين بعذاب الاستئصال، ونصر الله لأهل الحق والعدل

أ)- النص:

وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۙ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾: الْغَنِي: هو الذي لا يحتاج إلى غيره، وهذه الصّفة بالنّسبة إلى الخلق هي صفة نسبية، إذ المخلوق يحتاج لغيره، والغني الحقيقي المطلق لا يكون إلا للخالق. ذُو: بمعنى صاحب الرّحمة، وهي أبلغ من وصف رحيم، لأنها تشعر بقوة ما تضاف إليه. ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾: أي يهلككم بالمحق والإعدام.

﴿يَسْتَخْلِفْ﴾: الخلف هو العوض عن الشيء الفائت ﴿مِن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾، أي من نسل قوم مغايرين، أي ليسوا من قبائل العرب، علما بأن الله تعالى أعاد نشأة البشر بعد الطّوفان من ذرية نوح عليه السلام. ﴿تُوعَدُونَ﴾: فعل مجهول يصحّ أن يكون من وعد يعد بالخير، أو من أوعد يوعد بالشّرّ. ﴿مَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾: أي ما أنتم بمفلتين من وعيدي، أو بخارجين عن قدرتي. ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: المكانة تكون بمعنى المكان، فيقال: مكان ومكانة، كدار ودارة، وتكون بمعنى الحالة التي يتلبّس بها المرء، فيقال: يا فلان على مكانتك أثبت على ما أنت عليه. ﴿عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾: عاقبة الشيء هي ما ينجلي عنه الشيء ويظهر في آخره من الآثار، وهي تختصّ بالثّواب، وقد تستعمل في العقوبة كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَآءُوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ (الروم: ١٠).

ج)- أوجه القراءة:

﴿مَن تَكُونُ﴾: قرأ الجمهور: ﴿مَن تَكُونُ﴾ بتاء فوقية وقرأه حمزة والكسائي بتحتية، لأن تأنيث "عاقبة" غير حقيقي، فلما وقع فاعلا ظاهرا فيجوز فيه أن يقرن بعلامة تأنيث وبدونها.

د)- البيان والتّفسير:

تتكامل هذه الآيات الثّلاث مع التي قبلها، وذلك أن الله تعالى بعد أن بيّن حجته على المكلفين بإتيان الرّسل لتبليغ رسالته إليهم -وهم يقرّون بذلك يوم الحساب-، وأن الله لا يهلك الأمم بظلم، ولا يبخس حق العاملين في مجازاتهم على أعمالهم. بعد بيان كل ذلك قفّى عليها في هذه الآيات بأنه هو الغني المطلق وأن رحمته اقتضت أن لا يتعجّل بهلاك الأمم على عصيانها وتمرّدها، وليس بعاجز أن يستبدلها بقوم آخرين، لأن عدله في إحقاق الحق مقرون بالرّحمة والفضل فقال

تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾.

جملة: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ معطوفة على قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، عطف وعد على وعيد، وهو أسلوب حكيم في النّصح والإرشاد، وتعريف المسند فيه لإفادة الحصر، والخطاب لرسول الله، وتكرّر لفظ "الرّب" لتأكيد الدّلالة على العناية والرّعاية؛ أي: وربّك -يا محمد- هو الغني الحقيقي لا غيره، وأنه صاحب الرّحمة القوية الغامرة. والغنى والرّحمة من صفات الذّات العلية تكررت في القرآن الكريم لمناسبات مختلفة كما أكدتهما نصوص السّنة.

أ)- فمن القرآن قوله تعالى:

﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر:١٥).

﴿وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ﴾ (محمد:٣٨).

﴿وَمَنْ يَّتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الممتحنة:٦).

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ (الأنعام:١٤٧).

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف:١٥٦).

ب)- ومن السّنة ما جاء في الحديث القدسي الذي رواه أحمد ومسلم والتّرمذي في بيان غنى الله وسعة ملكه: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر**».[1]

١- رواه مسلم من حديث طويل لأبي ذر، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث ٤٨٠٢.

وأما في صفة الرّحمة فجاء قوله ﷺ عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**جعل الله الرّحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا، وأنزل إلى الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**».[1]

والمؤمن الوفيّ هو الذي يلتزم بواجباته الدّينية ويجتهد في الصّالحات، وهو مشدود إلى ربّه بين الخوف والرّجاء حتى لا يقع في غرور الأماني على الله.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ اخَرِينَ﴾:

كان المشركون يستخفّون بوعيد الله، ويستبعدون وقوعه، بل ويتعجّلون إنزاله عليهم بمثل قولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال:٣٢). وحتى لا يغترّ المشركون برحمته وسعة غناه جاء هذا التّهديد بالإهلاك والمحق كما حدث للأمم الخوالي بعذاب الاستئصال، فالله قادر على أن يفعل ذلك بكم ويستبدلكم بقوم آخرين يعبدونه ويطيعونه، كما قدر على إنشائكم أنتم من سلالات غيركم من الأقوام لا يمتّون إليكم بصلة جنس ولا لغة ولا عادات، فهو القادر على الإنشاء والإيجاد، وعلى الإهلاك والإفناء، وهذا الوعيد تكرّر في آيات مختلفة كقوله تعالى:

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ (النساء:١٣٣).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مائة جزء، حديث ٥٦٧٧.

بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ (إبراهيم:١٩-٢٠).

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ (محمد:٣٨).

هذا وإذا كان الله تعالى رفع عذاب الاستئصال عن أمّة رسول الله كما ثبت ذلك بالأحاديث الصّحيحة، فإن وعيده لمشركي مكة قد تحقق في مختلف الغزوات سيما في غزوة بدر حيث هلك رؤساء الكفر وأشدّهم عداء لرسول الله فقال تعالى: **﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾**:

ونظرا لتردّد المشركين وشكّهم في وقوع ذلك العذاب جاءت الجملة مؤكدة بـــ"إن" و"لام" الابتداء، وأن المقصود بـــ"توعدون" هم هؤلاء المشركون. وإن كان بناء الفعل للمجهول يصلح للوعد والوعيد، يقول: وما أنتم بمعجزين لله، ولا بقادرين على تعطيل إرادته وقدرته. والمقصود بالإتيان للوعيد والوعد هو الجزاء الأخرويّ الذي ما انفكّ هؤلاء الطّغاة يسخرون منه وينكرون وقوعه.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾:

أمر الله رسوله بنداء قومه استمالة لهم وتحريكا لعاطفتهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ حتى يكون ذلك باعثا لهم على حسن الإصغاء، لما يتمخض لهم من الوعيد والتّهديد في هذه الآية، إذ أمرهم أن يثبتوا على مكانتهم وشاكلتهم لأن هدايتهم أصبحت كالميئوس منها؛ وفي هذا الأمر تهكّم واضح كقوله تعالى في شأن الكفّار المعاندين: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ (فصلت:٤٠). وقوله في عذاب المجرمين بجهنم: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ (المرسلات:٤٦). يقول الإمام الزّمخشري في توجيه معنى الآية: "يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله: "على مكانتك يا فلان أي أثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه".

﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾: على مكانتي التي أنا عليها، والمعنى أثبتوا على كفركم وعداوتكم فإني ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: أينا تكون له العاقبة المحمودة، وطريقة هذا الأمر طريقة قوله: ﴿اعْمَلُواْ مَا شِئْتُم﴾، وهي التّحلية والتّسجيل على المأمور بأنه لا يأتي منه إلا الشّرّ، فكأنه مأمور به، وهو واجب عليه حتم ليس له أن يتقصّى عنه ويعمل بخلافه"اه.

قلت: النّداء بـــ"يا قوم" بما فيه من الاستمالة والاستعطاف يناسبه مثل هذا الأسلوب الحكيم في الخطاب مع ما يتضمن ذلك من التّهديد والوعيد والإنذار بسوء العاقبة في الدّنيا والآخرة، وكل ذلك بالنّسبة للمخاطبين إخبار بالغيب، ولذا جيء بـــ"سوف" مع الفعل المضارع.

وقد تحققت تلك العاقبة في مسيرة الدّعوة الإسلامية، فكانت نصرا وتمكينا لرسول الله ومن اتّبعه، وكانت خزيا وهلاكا لأعدائه، وفي الآخرة الجزاء الأوفى لكلا الفريقين.

﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾: بيان لسبب تلك العاقبة السّيئة، بأنه الظّلم والجبروت، والظّلم ظلمات إلى يوم القيامة، لا تقوم عليه حياة، ولا يستقرّ به ملك، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسِبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ (إبراهيم:٤٢).

وكما يذلّ الله الظّالمين فهو يعزّ رسله ومن اتبعوهم، قال تعالى في نفس السّورة: ﴿فَلاَ تَحْسِبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (٤٧).

والله أعلم

حكم الله في بعض العادات الجاهلية مما يتعلق بالحرث والأنعام

أ)- النص:

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ﴾: "الجعل" بمعنى صرفوا ووضعوا لله. ﴿ذَرَأَ﴾: خلق على وجه الإبداع والإتقان. ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾: الزَّعم: الاعتقاد الفاسد أو القريب من الخطأ. ﴿لِشُرَكَائِنَا﴾: الشّركاء: قد يكون لها معنى الأوثان التي يعبدونها من دون الله، وقد تعني سدنة الآلهة، أو الشّياطين الذين يوسوسون لهم. ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾: يردوهم من الرّدى وهو الإهلاك، وذلك بإغرائهم وإغوائهم. واللّبس: الخلط. والمقصود بالدين ما يعتقدون أنهم عليه من ملة

إبراهيم، أو الدين الذي يدعوهم إليه الرّسول. ﴿حِجْرٌ﴾: ممنوع حرام. ﴿حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾: لا يركبونها. ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾: بمعنى مباحة سائغة يقابلها معنى محرّم ممنوع. ﴿أَزْوَاجِنَا﴾: جمع زوجٌ، وهو وصف للشيء الثّاني لغيره، وهو يلازم حالة واحدة لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع، فالرّجل زوج للمرأة، والمرأة زوج للرجل. قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(الذاريات:٤٩) ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾: على تقدير مضاف، أي يجزيهم جزاء وصفهم. ﴿سَفَهاً﴾: جهلا.

ج)- أوجه القراءة:

﴿بِزَعْمِهِمْ﴾: قرأه الجمهور بفتح الزّاي وقرأه الكسائي بضمّ الزّاي. ﴿زَيَّنَ﴾: قرأ الجمهور "زَيَّنَ" بفتح الزّاي ونصب "قتل" على المفعولية لـ "زَيَّنَ"، ورفع "شركاؤهم" على أنه فاعل "زَيَّنَ"، وجَرّ "أولادهم" بالإضافة. وقرأه ابن عامر: ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ ببناء فعل "زَيَّنَ" للنائب ورفع "قَتْلُ" على أنه نائب الفاعل ونصب "أولادهم" على المفعولية وجرّ "شركائهم" على الإضافة. ﴿وَإِنْ﴾: قرأ الجمهور بالتّحتية ونصب "مَيْتَةً". وقرأ ابن كثير برفع "مَيْتَةٌ". على أن "كان" تامّة وقد أجرى ضمير "يكُن" على التّذكير لأنه جائز في الخبر عن اسم الموصول المفرد اعتبار التّذكير. وقرأ ابن عامر بالفوقية على إتباع تأنيث "خالصة" أي إن تكن الأجنة وقرأ "ميتة" بالنّصب. وقرأه أبو بكر عن عاصم بالتّأنيث والنّصب. ﴿قَتَلُواْ أَوْلَادَهُمْ﴾: قرأ الجمهور "قَتَلُواْ" بتخفيف التّاء وقرأه ابن عامر بتشديد التّاء لأنه قتل بشدّة. وليست قراءة الجمهور معيّنة هذا المعنى، لأن تسليط القتل على الأولاد يفيد أنه قتل فظيع.

د)- البيان والتّفسير:

بعد التّدليل على أصول الدّين من وحدانية الله والرّسالة والبعث والجزاء،

وما تخلّل ذلك من محاجّة المشركين، انتقل السّياق إلى ذكر صور من عاداتهم الفاسدة واحكامهم الباطلة في الحرث والأنعام وكيف يحلّلون ويحرّمون بدافع من أهوائهم وخرافاتهم الجاهلية، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾:

الضّمير في: ﴿جَعَلُواْ﴾ يرجع إلى المشركين وكذا في قوله: "قَالُواْ" وهو معطوف على نظائره مما سبق ذكره من أقوالهم وأفعالهم، ومنها ما تقدم قريبا من قولهم: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ (الأنعام:١٢٤).

وفي هذا المقطع الكريم يعدّد الله تعالى بعضا من تشريعاتهم الباطلة، إذ يراعون فيها جانب الله -وهم يؤمنون بوجوده- ويقابلونه بآلهتهم المزعومة في معادلة غير عادلة، فهم يوجبون في أموالهم من الحرث والأنعام حقا لله وحقّا لشركائهم من معبوداتهم الباطلة أو سدنتها فيعتبرونها كالصّدقات يتقربون بها، ولكنّهم يخلطون في وجه القربى ما بين الله وآلهتهم المزعومة، فيعطون لأنفسهم حق التّشريع، وكل ذلك باطل لا يستندون فيه إلا على الزّعم والوهم.

وفي التّفسير المنقول أنهم كانوا يجعلون نصيب الله لقرى الضّيفان وإكرام الصّبيان والتّصدّق على المساكين، ونصيب آلهتهم لسدنتها، كما نقل عن ابن عباس ﷺ أنه قال في تفسير الآية: "إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثا أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءا وللوثن جزءا، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سمّي للصمد ردّوه إلى ما جعلوه للوثن، وإن سبقهم الماءُ الذي جعلوه للوثن فسقى شيئا مما جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن، وإن سقط شيء من الحرث والثّمرة الذي جعلوه لله فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا هذا فقير و لم يردّوه إلى ما جعلوه لله، وإن سبقهم الماء

الذي جعلوه لله فسقى ما سمّي للوثن تركوه للوثن".

والخلاصة أنهم في قسمتهم سوّوا بين ما لله وما لشركائهم، وتلك قسمة ضيزى وجحود لنعمة الله، وفي معالجتهم لتلك القسمة وما يطرأ عليها جعلوا لله تعالى الصّنف الأضعف والنّصيب المنقوص، ولذلك قال تعالى في هذا الحكم الجائر: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

والنّوع الثّاني من أعمال شركهم وضلالتهم مثل سابقتها هو قوله تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾**:

وقتل الأولاد يراد به في الأغلب عادة وأد البنات عند العرب، وقد ندّد القرآن بهذه العادة الشّنيعة التي تنمّ عن غلظة في الطّبع وقساوة في القلوب وفساد في الفطرة وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَٰرَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي التُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل:٥٨-٥٩).

ولهم في ذلك دوافع كثيرة منها خوف الفقر الواقع أو المتوقع أو خوف العار بارتكابها الفاحشة أو بسبي الأعداء لها أو بزواجها ممّن دونها في الشّرف والكرامة. وقد يكون قتل الولد ذكرا أو أنثى تديّنا بنحرها للآلهة بنذر أو غيره كما روي ذلك عن جدّ الرّسول عبد المطلب.

ويحصل ذلك التّزيين في قتل الأولاد من الشّركاء، وهم إما سدنة الآلهة إخضاعا لأولئك الأتباع، واستبقاء للاستغلال والانتفاع، وإمّا الشّياطين بوسوستهم وإغرائهم.

﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾: أي زيّنوا لهم تلك المنكرات

لإيقاعهم في الهلاك بقطع نسلهم وإفساد فطرتهم، وليخلطوا عليهم أمر دينهم، فلا يهتدون إلى سبيل الرّشد في ما يكون عليه المعتقد الصّحيح في الله، كما دعا إليه إبراهيم الذي يزعمون أنهم على ملّته، وكما دعاهم الرّسول إليه، وهم يجحدون وينكرون.

﴿وَلَوْ شَآءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾: أيّ دعهم -أيها الرّسول- وما اختاروه لأنفسهم من تلك البدع والضّلالات، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، إذ لو شاء الله لخلقهم مطبوعين على عبادته كالملائكة، ولكن حكمته ومشيئته اقتضت أن تجري سننه في خلائقه في الكسب والاختيار للتمحيص والاختبار.

﴿وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَآ إِلاَّ مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾:

عطف الله على ما تقدم من تصرفهم الفاسد في أولادهم، عطف ضربا آخر من آرائهم الباطلة في تصنيفهم للأنعام والحرث إذ جعلوها ثلاثة أقسام:

أ)- صنف ممنوع على مالكه أن ينتفع به، فقد روي عن جابر بن زيد ﷺ وعن غيره أن المشركين كانوا يعيّنون من أنعامهم وزروعهم وثمارهم شيئا يحجّرون على أنفسهم الانتفاع به، ويعيّنونه لمن يشاؤون من سدنة بيوت الأصنام، فهم يسمّونها ويمتنعون من التّصرف فيها تعبّداً وتديّناً للآلهة.

وقولهم: ﴿إِلاَّ مَن نَّشَآءُ﴾ أي الكهان والرّجال، وهذا الحكم يشمل الأنعام والزّروع والثّمار.

قوله: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾: "الباء" للملابسة أي أن هذا المعتقد منهم باطل ليس

يقوم عليه دليل.

ب)- ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾: بمعنى أنهم يمتنعون عن ركوبها أو الحمل عليها كما تقدم بيان هذا النوع في سورة المائدة.

ج)- ﴿وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا﴾: أي عند الذبح بل يذكرون اسم آلهتهم، وكذلك هم لا يركبونها إذا حجّوا أو اعتمروا فلا يلبّون على ظهورها، وهم يعتقدون أنهم بذلك يمحّضون قربانها لما عيّنت له ويزعمون أنّه تعالى أمر بذلك -حاشاه- ولذلك قال: ﴿افْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ أي كذبا وزورا الله منه بريء. لأن التّحليل والتّحريم هو من حقه تعالى لا يكون إلا عن طريق الوحي من عنده قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّآ أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾ (يونس:٥٩).

﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾: تهديد لهؤلاء المفترين بما ينالهم من جزاء، لم يبيّن الله نوعه للتهويل بأنه جزاء أليم.

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾:

وهذا نوع آخر من افتياهم على الله في التّحليل والتّحريم ويدلّ على ذلك الافتيات تكرار فعل "قَالُوا" معطوفا على ما سبق، والإشارة هي إلى نوع معروف لديهم.

ويلخّص الشّيخ المراغي هذا النّوع بقوله: "المراد بالأنعام هنا "البحائر" أي المشقوقة الآذان، والسّوائب التي تسيّب وتترك للآلهة فلا يتعرض لها أحد، وكانوا يجعلون لبنها للذكور ويحرمونه على الإناث، وإذا ولدت ذكرا جعلوه خالصا للذكور لا يأكل منه الإناث، وإذا كان ميتا اشترك فيه الذّكور والإناث، وإذا

ولدت أنثى تركوها للنتاج".[1]

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾: واختيار كلمة "وَصْفَهُم" للدلالة على أنه تقوّل على الله بالكذب والافتراء على معنى قوله: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ (النحل:١١٦). فهم يجازون وفق ما اعتقدوه وما اجترحوه بأنفسهم.

﴿قَدْ خَسِرَ الذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَآءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾:

تقع هذه الآية موقع الفذلكة لما تقدم، إذ ينكر الله تعالى على المشركين:

أ)- قتل الأولاد، ومنه وأد البنات، وهم يفعلون ذلك حمقا وسفها وجهلا، والجاهل يفعل بنفسه ما لا يفعله العدّو بعدوّه، ولا أدلّ على تلك السّفاهة والجهالة مما بيّنه الله تعالى في هذه الآيات.

ب)- تحريم الطّيّبات على أنفسهم ممّا لم يحرّمه الله على عباده، وقد تحقق خسرانهم بهذا التّصرّف المعكوس إذ يعتقدون أنهم بذلك يطلبون مرضاة الله، ولكنهم يقعون في سخطه وغضبه.

وبما أنهم متمادون في ضلالهم فهم لا يجدون بذلك سبيلا إلى الهداية، لأن كثيرا من الضّالين قد يرشدون ويهتدون إذا وفقهم الله لذلك.

وقد أخرج البخاري عن ابن عباس أنه قال: "إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثّلاثين والمائة من سورة الأنعام".

والله أعلم

١- تفسير المراغي، ٣/٤٦.

قدرة الله تعالى في توفير الأرزاق

أ)- النص:

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ﴾: أنشأ: خلق وأوجد خلقا من بعد خلق، أي بالتطوّر والتدريج. و﴿جَنَّاتٍ﴾: جمع جنّة: البساتين الملتفّة الأشجار بحيث تستر ما تحتها. ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾: أي مرفوعات على العرائش، وهي أعمدة تتسلق عليها أشجار الكروم وغيرها من النوع المتسلّق. ﴿مُخْتَلِفاً أُكُلُه﴾: يقال: الأَكْل والأُكُل بضمّ الهمزة والكاف، أي الشيء يؤكل يختلف في طعمه ورائحته. ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾: إذا ظهر ثمره قبل حصاده. ﴿حَصَادِه﴾: الحصاد -بفتح الحاء وكسرها- هو قطع

الثمر أو الحبّ من أصوله. ﴿حَمُولَةً وَفَرْشاً﴾: الحمولة من الأنعام هي التي يحمّل عليها فتركب وتحمل الأثقال. ﴿وَفَرْشاً﴾: هي الصّغار التي لا تطيق الحمل، فهي كالفرش قريبة من الأرض، أو تفرش على الأرض حين ذبحها. ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾: تمثيل لما يوسوس به من أمور الشّرك والتّحليل والتّحريم بغير ما أنزل الله.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يَوْمَ حِصَادِهِ﴾: قرأ نافع وابن كثير وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف: "حِصَادِهِ" بكسر الحاء. وقرأ أبو عمرو وعاصم وابن عامر ويعقوب بفتح الحاء.

د)- البيان والتّفسير:

في إطار تركيز وحدانية الله وبيان قدرته في الآفاق وفي الأنفس -وهو المحور الأساسّي في السّورة-، وأنه تعالى هو المتفرّد بالألوهية والرّبوبية وله وحده حق التّشريع لخلقه في العبادة والتّحليل والتّحريم، يجيء هذا المقطع معطوفا على ما افتراه المشركون على الله في التّحليل والتّحريم فقال تعالى: **﴿وَهُوَ الذي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾**.

يمتنّ الله علينا بما خلقه لضمان أقواتنا بالثّمار والزّروع والأنعام، وأنّ ما درج عليه المشركون بالتّصرّف في شأنها تحريما وتحليلا وفق أهوائهم ووفق ما يمليه عليهم شركاؤهم ينافي شكر المنعم، لأن الله وحده هو الذي أنشأ ذلك وأبدعه.

ويلاحظ في هذه الآيات أنها تضمّنت كل ما تقدم في نظيرتها من قبل في هذه السّورة مع تغيير بسيط، وهي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الذي أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً

فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾.

يقول الإمام ابن عاشور في التنظير بين الآيتين: "المقصود من الآية الأولى الاستدلال على أنه الصّانع وأنه المنفرد بالخلق فكيف يشركون به غيره، ولذلك ذيّلها بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾، وعطف عليها قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾؛ والمقصود من هذه الآية الامتنان وإبطال ما ينافي الامتنان، ولذلك ذيّلت هذه بقوله: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾".[1]

والمعنى أن الله تعالى هو الذي أنشأ لكم البساتين والحقول ووفّر للأشجار والنّباتات بقدرته ما يضمن لها النّماء والإزهار وما يهيّئها للإثمار، وجعلها مختلفة الأشكال والألوان والطّعوم، فمنها ما هو متسلّق تتخذون له عرائش تتفيّأون ظلالها وتستلذون منظرها ومنها ما هو غير معروش تنبسط على وجه الأرض مخضرّة زاهية. وكم للإنسان من تفنّن وإبداع في تنسيق تلك الجنات، وكم له من طرق ووسائل في استنبات أنواع من الخضر والفواكه غذاء لجسمه وعلفا لأنعامه، أو استحداث أنواع من الزّهور والورود استمتاعا لحاسّته الجمالية كما قال تعالى في سورة ق: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ، وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ (٦-٧-٨).

ثم خصّ بالذّكر أنواعا من الأشجار والنّبات كالنّخل والزّرع والزّيتون والرّمان مما هو معروف لدى العرب، فقدم ذكر النّخل لما لها من فوائد جمّة طعاما وشرابا ومسكنا وأثاثا، وثنّى بالزّرع أي البرّ والشّعير وغيرهما من الحبوب المعروفة، والجامع بين هذه النّوعين "النّخل" و"الزّرع" هو الادّخار للأقوات.

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتنوير، ١١٧/٨.

وقوله: ﴿مُخْتَلِفاً أُكُلُه﴾ حال لإفادة بديع صنع الله في اختلاف طعمها وإن كانت من فصيل واحد كما قال تعالى في الرّعد: ﴿تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٤). كما خصّ الزّيتون والرّمان بقيد ﴿مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ لمزيد من إلفات النّظر، وهو قيد عام يتناول كل أنواع التّشابه أو عدمه في الشّكل واللّون والطّعم، سواء في النّوع الواحد أو بين النّوعين.

﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾: أمر الله خلقه بالأكل من هذه الخيرات، حتى لا يحجّر المؤمنون على أنفسهم التّمتع بها، وقد أباحها الله رزقا حلالا طيّبا، فليس لأحد أن يحرّمها كذبا على الله وافتراء.

وقوله تعالى: ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ مرجع الضّمير يتناول كل ما تقدّم ذكره، وفائدة هذا القيد لإباحة الأكل منها عند ظهورها ولو لم يحن أوان حصادها، لأن حاجة النّاس تدعو إلى الانتفاع بمختلف الثّمار والخضار والحبوب ولو قبل أن تينع، فلا يترتب عليه حق قبل أوان حصاده، ولذلك قال: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾.

والأمر بإتيان الحق منه بصفة مجملة لتكريس العادة المألوفة عند العرب أنهم كانوا إذا جنوا ثمارهم أعطوا منها للفقراء والمساكين ولقرابتهم، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدريّ ﷺ عن النبي ﷺ في تفسير هذه الآية أنه قال: قوله: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾. قال: «**ما سقط من السّنبل**».

وقد اختلف المفسرون في المقصود بالحق الذي يؤتى منه، أهو الزّكاة المفروضة أم هو صدقة التّطوّع؟، لأن مقادير الزّكاة لم تتحدّد إلا في المدينة المنورة، وبعض المفسّرين جمعوا بين الرّأيين فقالوا: إن الزّكاة فرضت مع الصّلاة في انطلاق الإسلام بمكة، لأنها ذكرت في كثير من الآيات المكية، إذ كانت وضعية المسلمين الاجتماعية تدعو إلى ذلك، ثم ضبطت مقاديرها بالسّنة في المدينة المنوّرة.

والتّعبير بلفظ "الحق" يؤيّد فرضية الصّدقة فلا تكون بمجرّد التّطوّع. وعلى ذكر الأكل والإنفاق نهى الله تعالى عن الإسراف فقال: ﴿وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، وللعلماء أقوال في تحديد المعطوف عليه.

أ- هو معطوف على: ﴿كُلُواْ من ثَمَرِهِ﴾ أي كلوا غير مسرفين في معنى قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف:٣١).

ب- هو معطوف على قوله: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أي لا تسرفوا في الصّدقة حتى تتركوا عيالكم عالة يتكفّفون النّاس، كما روي في سبب النّزول أن ثابت بن قيس جذّ نخلا فقال: لا يأتيني أحد إلا أطعمته، فأطعم حتى أمسى و لم يبق شيئا لبيته.

ولكن بعض العلماء يرون أن لا إسراف في الخير اعتمادا على ما في الأثر: لا خير في سرف، ولا سرف في خير.

ج- أن اللّفظ عام يشمل كل إسراف يتعوّد عليه الإنسان، لأن عادة الإسراف تجرّه إلى ضوائق يتعذر عليه فيها أن يحافظ على دينه وكرامته إذا كان متلافا لماله ولو في سبل الخير، إذ لابدّ للإنسان أن يدّخر من ذلك المال، والوسطية محمودة في هذا المجال كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾ (الإسراء:٢٩).

﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾: تذييل مؤكد بـــ"إنّ" ليكون حكما عامّا بعد امتنان الله على خلقه بما ذرأ لهم من الحرث عطف عليه نعمة خلقه للأنعام فقال تعالى: ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

والأنعام هي الإبل والبقر والضّأن والمعز، والتّقدير: أنشأ لكم من الأنعام

حمولة وفرشا. وقد صنفها إلى صنفين:

منها الحمولة وهي التي تحمل عليها الأثقال وتركبها، ومنها الفرش أي الصّغار القريبة من الأرض، أو التي تفرش للذبح، أو تنسج الفرش من أصوافها وأوبارها أو تتخذ من جلودها. وجاء هذا التّصنيف في أول الآية لبيان عظم المنة في تسخير تلك الأنعام كما ورد في آيات أخرى بتفصيل كقوله تعالى في سورة النّحل: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٥-٧).

وتكرّر الأمر الإلهيّ بالأكل: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ هناك في الزّروع والثّمار، ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ هنا في الأنعام، لأن المقصود هو إبطال مزاعم المشركين وافتياتهم على الله بالتّحليل والتّحريم وحرمان أنفسهم مما وفّره الله لهم من تلك النّعم والأرزاق، تغريرا للناس واتّباعا لوساوس الشّياطين.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: لأن ذلك يؤدي بكم إلى متاهات الشّرك والضّلال، وهو ما أقسم به الشّيطان لله تعالى عندما طرده من رحمته فقال متحديًا مستكبرا: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر:٣٩). وقال في سورة النّور: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (٢١). وهنا في هذه الآية علّل ذلك النّهي بقوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وعداوة الشّيطان للإنسان ظاهرة مبيّنة، وهي متركزة في حقيقة الوجود منذ بدء الخليقة إلى نهايتها كما شاءت حكمة الخالق عندما قدّر هبوط آدم وزوجه من الجنة وقال: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (الأعراف:٢٤).

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾: نصب "ثمانية" على

الحال من "الأنعام"، أو البدلية من "حمولة"، والزّوج يطلق على الواحد المقارن للآخر على وجه الملازمة، ويطلق -غالبا- على الذّكر والأنثى من بني آدم، وتوسّع فيه فأطلق على الأنثى والذّكر من الحيوانات، وعلى كل ما يقترن بآخر مماثلا أو مضادا.

ثم أخذ في تفصيل الأزواج الثّمانية بدءًا بالضّأن والمعز -وهما أزواج متقاربة- من صنف الفرش المذكور ثم أزواج الإبل والبقر، ففي الأنواع الأربعة ذكر وأنثى، ففي الضّأن: النّعجة والكبش، وفي المعز: العنزة والتّيس. وفي الإبل: النّاقة والجمل، وفي البقر: البقرة والثّور.

وعلى طريقة الجدال والمناظرة، ولقصد تبكيت المشركين وإلزامهم الحجة، أمر الله رسوله بأن يجادلهم ويبيّن كذبهم على الله في ما حرّموه على أنفسهم من بعض تلك الأنعام أو مما في بطونها فقال تعالى: ﴿**قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ**﴾:

تكرّر السّؤال في كل من الصّنفين المتقاربين الضّأن والمعز والإبل والبقر، والضّمير في "حَرَّمَ" عائد إلى الله في قوله: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، والاستفهام للإنكار والتّوبيخ، أي قل لهم يا محمد: ما علة تحريمكم أهي الذّكورة في هذه الأزواج أم هي الأنوثة؟، أم هي ما اشتملت عليه الأرحام سواء أكانت ذكورا أم إناثا؟.

وفي كل حالة يكون ترتيب حكم التّحريم على الأوصاف الثّلاثة: الحمل والذّكورة والأنوثة عبثا ولغوا وباطلا ينمّ عن جهالة عمياء يتعطل فيها حكم العقل والمنطق: ﴿**نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾.

وهل العلم يقرّ مثل هذه الخرافات؟، سواء العلم الموهوب عن طريق الوحي أو العلم المكتسب عن طريق العقل؟ كلاّ، بل هو الافتراء والكذب على الله،

وتعالى الله عن هذا العبث في تعطيل وتيرة الخلق والإيجاد في تلك المخلوقات التي سخّرها لمنفعة الإنسان، لأن التّحريم بأحد تلك الأوصاف تعطيل لسنة الحياة في تكاثر الأنواع واستمرارها إلى ما يشاء الله، وقد روي أن الذي ابتدع هذا التّصنيف في التّحليل والتّحريم هو عمرو بن لحيّ بن قمعة الجاهلّي، فشوش بذلك على العرب الجاهليين ما يزعمون أنهم فيه على ملّة إبراهيم، وهكذا تزيغ المجتمعات البشرية إذا طال عليها الأمد في فترة من الرّسل، ومن هنا يتضح المسلك الإسلامّي في تقويم ذلك الانحراف بالدّعوة إلى منهج الله السّويّ.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ اِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا﴾: أضيف هذا الاستفهام لزيادة الإنكار على المخاطبين من طرف الرّسول، والاستفهام دلّ عليه السّياق، والتّقدير: أعندكم علم بهذا التّحريم فتنبّئوني به، أم كنتم حضورا إذ وصّاكم ربّكم بهذا مباشرة؟. وبما أنهم لا يستطيعون ادّعاء وقوع الأمرين، فقد ثبت عليهم الكذب والافتراء على الله، وذلك من أفدح الظّلم.

﴿فَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: والكذب من أقبح آفات اللّسان وأفظعها جرما في معاملة الخلق، فكيف بالكذب على الله في مجال شريعته وأحكامه حين يدّعي أحد أنّ ما يرشد إليه له مستند من دين تغريرا بمن يستمع إليه، وإضلالا لغيره من النّاس الذين لا تنبني عاداتهم وأعرافهم إلا على التّقليد الأعمى، سيما إذا أضفى عليها طابع الدّين، كما قال تعالى في شأن هؤلاء: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ اِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ اَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٢٨). وبعد التّهكّم الذي تضمنه الاستفهام الإنكاريّ في السّياق يجيء هذا التّعليل تذليلا يأخذ الحكم العامّ مؤكدا بـــ"إن".

﴿اِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: أي أن هؤلاء في ادعائهم النّصح

والإرشاد وهم جاهلون لإحكام الشّريعة ومقاصدها هم ضالّون في أنفسهم وظالمون لغيرهم بالتضليل إذ يوقعونهم في الحيرة والتّذبذب، فلا يكادون يميزون بين الخطأ والصّواب. والله تعالى أغير على حرماته فلا يهدي الظّالمين إلى الحق والصّواب، مهما اغتروا بأنفسهم ومهما يملكون من وسائل الإفتان والإغراء. يقول أمير الشّعراء أحمد شوقي:

وإذا أتى الإرشاد من سبب الهوى ومن الغـــرور فسمّه التّضليـــلا

والله أعلم

بيان ما حرّمه الله على المسلمين وعلى اليهود من الأطعمة

أ)- النّص:

قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أجِدُ﴾: بمعنى أظفر وأحصل على الشّيء، مصدره الوجد والوجدان الطّاعم اسم فاعل من طعِمَ يطعَم، أكل يأكل. ويستعمل في الذّوق للمطعومات والمشروبات

قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ (البقرة:٢٤٩). ﴿مَيْتَةً﴾: البهيمة تموت حتف أنفها. ﴿دَماً مَسْفُوحاً﴾: المصبوب السّائل، وهو ما يخرج من المذبح أو المنحر، أو من الفصد في بعض العروق. ﴿أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾: الفسق: الخروج عن الشيء. وفي المعنى الشّرعي هو الخروج عن الإيمان وعن الطّاعة الشّرعية. ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾: الإهلال هو رفع الصّوت، أي ذبح للأصنام وما في معناها ولا يذكر اسم الله عليه. ﴿اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ﴾: أي دعته ضرورة للأكل مما ذكر، والضّرورة كالجوع والعطش. ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ﴾: غير قاصد لذلك ولا متجاوز قدر الضّرورة. ﴿الَّذِينَ هَادُواْ﴾: هم اليهود، وهو من قولهم في سورة الأعراف: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ (١٥٦)، أي رجعنا إليك يا ربنا وتبنا. ﴿كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾: الظّفر جمعه أظفار ويقال: أظفور جمع أظافير، هو كل شيء لم تفرج قوائمه من البهائم. قال ابن عباس في ما روي من تفسيره لذلك بالبعير والنّعامة. والظّفر يقابل الحافر والظّلف فيدخل فيه ذوات المخالب والبراثن من أنواع السّباع والكلاب والسّنانير والطّيور التي تصيد. ﴿شُحُومَهُمَا﴾: الشّحوم جمع شحم: مادة ذهنية تكون مع اللّحم في الحيوان السّمين. ﴿الْحَوَايَا﴾: مفرده حويّة أو حاوية: الأكياس الشّحمية التي تحوي الأمعاء والمباعر. ﴿مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾: أي ما يلتفّ على العظم ولا يمكن تجريده. ﴿جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾: أي كان ذلك عقوبة لهم بسبب بغيهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿إِلاَّ أَنْ يَكُونَ﴾: قرأ الجمهور: "يَكُونَ" بياء تحتية ونصب "ميتة" وما عطف عليها. وقرأه ابن كثير وابن عامر وحمزة بتاء فوقية ونصب "ميتة" وما عطف عليها عند من عدا ابن عامر. وقرأه ابن عامر وأبو جعفر بتاء فوقية ورفع "ميتة".

د)- البيان والتّفسير:

بعد ردّه تعالى وإنكاره على المشركين ما حرّموه من الحرث والأنعام على أنفسهم بحسب أهوائهم أو تزيين شياطينهم، وأن التّحليل والتّحريم ليس من شأن البشر، وإنما هو من شأن الخالق المدبّر الحكيم.

بعد تلك الجولة المركزة على الأدلة الواضحة ينتقل السّياق إلى بيان ما حرّمه الله من الطّعام محصورا في أربعة أشياء فقال جلّ من قائل:

﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً اَوْ دَماً مَّسْفُوحاً اَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ اَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِۦ﴾: أمر الله رسوله -وهو بصدد الرّدّ على المشركين- أمره أن يقول لهم ولغيرهم من النّاس: إن الله الذي أنزل الوحي عليّ كما نزّله على من قبلي من الرّسل لم يحرّم طعاما على آكليه مما يتناوله النّاس عادة إلا أن يكون ذلك الطّعام أحد الأنواع الأربعة:

أ)- **الميتة**: أي بهيمة ماتت حتف أنفها بأيّ سبب كان غير التّذكية الشّرعية، ومن تلك الأسباب ما فصّله الله في سورة المائدة بعد ذكر الأنواع الأربعة فقال: ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ السَّبُعُ﴾ (المائدة:٣)، لأن العرب اعتادت أكل تلك الأنواع، وفي الذّكاة الشّرعية حكمة في خروج الدّم من الذّبيحة إلا ما يبقى في اللّحم والعروق الذي لا يفسد بالتّسمّم.

ب- **الدّم المسفوح**: أي المصبوب السّائل لما في ذلك الدّم من تعرّض للهواء إذ يتلوّث بالجراثيم ويتعفّن، وأما الدّم المتجمّد طبيعة كالكبد والطّحال فلا يتناوله التّحريم لما ورد عن رسول الله أنه قال: «**أحلّت لكم ميتتان ودمان: فأما الميتتان**

فالحوت والجراد، وأما الدّمان فالكبد والطّحال».[1]

ج)- **لحم الخنزير**: والمقصود به ما يتبع اللّحم من شحم وعصب وكل الأجزاء في جسده، والله أعلم بما في هذا الحيوان من مضرّة للإنسان بأكل لحمه -وإن كان من أجمل اللّحوم منظرا- وقد بينت الأبحاث الطّبية الحديثة جوانب تلك المضرّة.

وتعترض تلك المحرمات جملة قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾، والرّجس هو الخبيث القذر من الأشياء.

والضّمير في قوله: "فَإِنَّه" إمّا أن يكون عائدا إلى لحم الخنزير خاصّة تنبيها على استقذاره وتحذيرا من تناوله زيادة على تحريمه، وإما أن يكون الضّمير عائدا إلى الثّلاثة المذكورة لبيان علة التّحريم، والأول هو الأرجح لقاعدة رجوع الضّمير لأقرب مذكور.

د)- **﴿أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾**: والفسوق في المصطلح الشّرعي هو الخروج عن الإيمان والطّاعة، وقوله: ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ صفة لـــ"فسق" لبيان وجه تحريمه أي ليس لذات اللّحم وإنما لكونه قُصِد به غير وجه الله وذلك كفر.

﴿فَمَنُ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

يعلّق قطب الأئمة على هذه الآية التي أفادت الحصر فيقول: "فلا يرد أنّ لنا أشياء محرمات كالمنخقة والموقوذة والمتردية والنّطيحة وما أكل السّبع، بل دخلت هؤلاء في الميتة وما يكون بالأزلام والخمر والرّبا وسائر المحرمات وذي ناب وذي

١- رواه ابن ماجة من حديث عبد الله بن عمر، كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال، حديث ٣٣٣٣. ورواه أحمد في المسند من حديثه أيضا، مسند بني هاشم، حديث ٥٥٨٠ بلفظ: «أحلت لنا...».

مخلب، أو يقال: تحريم غير ما ذكر أتى بعد سورة الأنعام، وأما ما قبلها فعلى أصل الحق، أو أفاد تحريم تلك الحيوان نجاستها المعلّل بها تحريم الخنزير".[1]

وجيء بوصف: "ربّك" في هذه الجملة الشّرطية التي رفعت الحرج عن المضطرّ ليفيد معنى الرّأفة والرّحمة بالخلق سيما المؤمنين به تيسيرا لهم شريطة أن لا يتجاوزوا حدّ الضرورة لإنقاذ حياتهم، وقد أكّد تلك الرّخصة بوصف ذاته العلية بأنه غفور رحيم للدلالة على رفع حرج التأثم.

﴿وَعَلَى الذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ الْحَوَايَآ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾:

الجملة معطوفة على الآية السّابقة بما حرّم في الإسلام، والتّقدير: أذكر لهم يا محمد ما حرّمنا على اليهود قبل الإسلام. فبالمقارنة تتضح سماحة الإسلام ويسره مصداقا لقوله تعالى في شأن رسوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ التِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف:١٥٧).

وتقديم الجار والمجرور: ﴿وَعَلَى الذِينَ هَادُواْ﴾ هو لإفادة الاختصاص، وفي تحديد: ﴿ذِي ظُفُرٍ﴾ خلاف بين المفسرين. وقد حدّده القطب بقوله: "فالأولى حمل الظفر على مخالب الطّير وبراثن السّباع. وعرّفه ابن عباس ومجاهد وغيرهما بأنه ما ليس منفرج الأصابع كالإبل والنّعام والأوزّ والبطّ".

وينقل الإمام ابن عاشور ما في الإصحاح الرّابع عشر من سفر التّثنية: "الجمل والأرنب والوبر فلا تأكلوها".[2]

١- احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ٤٩٢/٤.

٢- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٤٢/٨.

﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ الْحَوَايَآ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾:

أي وحرّمنا عليهم من البقر والغنم شحومهما إلا ما كان في الظهر، أي ترك الله لهم البقر والغنم على التّحليل، ولم يحرّم عليهم إلا الشّحوم الخالصة الزّائدة التي تنتزع بسهولة إلا ما كان على ظهورها أو الحوايا، وهي جمع حوية أي الأمعاء من مصارين ومباعر.

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾: أي إنما حرّم الله ذلك عليهم جزاء لبغيهم وبعنتهم، وهو تعليل لذلك التّحريم بأنه عقوبة لهم، وليس هو بالخبيث لذاته.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾:

فإن كذّبوك في ما أخبرتهم به عن الله تعالى فإن الله صادق ولا يقول إلا الحق. والضّمير في: ﴿كَذَّبُوكَ﴾ إما راجع إلى اليهود أو إلى مشركي مكة. فعلى كلا الاحتمالين فإنّ الإجابة لمشركي مكة تشمل إبطال ما حرّموه على أنفسهم من كل ما سبق ذكره من قوله تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾.

والمعنى إن لم يرعووا عن التّكذيب فذكرهم يا محمد برحمة الله الواسعة وأن ليس ذلك الإمهال في عقابهم إلا استدراج وإلا فإن بأسه شديد، وكذلك تصلح تلك الإجابة على اليهود.

والله أعلم

نفي حجج المشركين

في نسبتهم شركهم وتحريمهم إلى الله

أ)- النص:

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿لَوْ شَآءَ اللهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾: يقول المشركون محتجّين على الرّسول: إن إشراكنا بالله وتحريمنا لبعض الأشياء كان بمشيئة الله فهو راض بذلك. ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾: الذّوق مستعمل هنا مجازا للدلالة على الإحساس والشّعور. و﴿بَأْسَنَا﴾: الإضافة إلى ضمير الجلالة للتهويل، والمقصود ببأس الله هو عذاب الاستئصال. ﴿تَخْرُصُونَ﴾: أصل الخرص هو الحزر والتّخمين كخرص منتوج النّخل، والمقصود به الكذب. ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾: الحجة: الدّليل المؤيد والمصدّق للدعوى، والبالغة: أي البلوغ إلى القصد من إفحام الخصم. ﴿هَلُمَّ﴾: اسم فعل أمر للحضور. ﴿يَعْدِلُونَ﴾: يتخذون له عدلا مساويا أي الإشراك بالله قال شوقي:

ومن يعدل بحبّ الله شيئا كحبّ المال ضلّ هوىً وخابا

ج)- البيان والتّفسير:

يعود السّياق إلى مجادلة المشركين والتّنديد عليهم في ما يحتجّون به على الرّسول ويرون فيه عذرا لكفرهم وتحريمهم لبعض ما رزقهم الله جهلا وضلالة وتحريفا لمعنى القضاء والقدر في علم الله ومشيئته فقال: ﴿**سَيَقُولُ الذينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ اللهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلاَ ءَابَآؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ**﴾: أي إن الله عليم بما سنقوله وما نفعله نحن وآباؤنا، وبما أنه قد قدّر في علمه أن نفعل ذلك و لم يمنعنا عنه فذلك دليل أنه راض بما قلناه وما فعلناه لأنه لو لم يكن راضيا به لصرفنا عنه ولما يسّره لنا.

هذه هي الشّبهة التي يتشبّث بها أهل الضّلال والانحراف قديما وحديثا، وذلك أنهم عندما ينصحهم ناصح، أو عندما ينتبهون من غفلتهم يعتذرون لأنفسهم بأن ذلك هو المكتوب عليهم في علم الله، جاهلين الفرق الكبير بين علم الله وتصرّفه في أحوال مخلوقاته بعلمه التّكويني وبين تصرّفهم هم في أحوالهم بمقتضى إرادتهم وبمقتضى أمر الله التّكليفي الجاري على قانون ارتباط المسبّبات بأسبابها.

وقد وردت هذه الشّبهة متكررة في القرآن الكريم بمختلف الأساليب منها:

أ)- ﴿وَقَالَ الذينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلاَ ءَابَآؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النحل:٣٥).

ب)- وقال عز وجلّ في سورة الزّخرف: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ (الزخرف:٢٠).

ج)- وحتى في مجال البرّ والإحسان بالفقراء والمساكين يعتذرون لبخلهم

بمثل هذه الشبهة في التذرع بمشيئة الله قال تعالى في سورة يس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤٧).

يقول الإمام ابن عاشور موضحا الفرق بين مشيئة الله ومشيئة العباد: "وهذا ظهر تخليط أهل الضلالة بين مشيئة العباد ومشيئة الله فلذلك ردّ الله عليهم هنا قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ لأنهم جعلوا ما هو مشيئة لهم مشيئة لله تعالى. ومع ذلك فقد أثبت مشيئته في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ (الأنعام:١٠٧)، فهي مشيئة تكوين العقول وتكوين نظام الجماعة.

فهذه المشيئة التي اعتلوا بها مشيئة خفيّة لا تتوصّل إلى الاطّلاع على كنهها عقول البشر، فلذلك نعى الله عليهم استنادهم إليها على جهلهم بكنهها فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾".[1]

هذا ردّ لتلك الشبهة يصحبه التهديد والوعيد ضمنيًا، أي مثل ما كذّبك هؤلاء القوم -وأنت رسول تبلّغ إليهم- فقد كذّب الذين من قبلهم أنبياءهم، ولجّوا في ذلك التكذيب حتى أنزل الله عذاب الاستئصال، ووجه الاستدلال بهذا الردّ الإلهي أنه لو كانت شبهتهم صحيحة لما نزل بهم عقاب الله -وهو الحكيم العادل- وهو القائل: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٠). وبالتالي فإن الله الذي أنزل العذاب بأولئك الأقوام قادر أن ينتقم منكم إن بقيتم على غيّكم وضلالكم.

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾:

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٨/١٤٨.

أمر الله رسوله أن يطالب الكفّار بدليل علميّ يثبت ما زعموه، فجيء بالاستفهام التّعجيزي إفحاما وتهكّما، لأنه يستحيل عليهم أن يأتوا بالمطلوب، والرّسول مدرك لمدى جهلهم وضلالهم، وإنما هو الإفحام والتّوبيخ، وجيء بفعل: ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ بمعنى الإظهار والبيان في مقام التّوضيح والتّفهيم للمحاجّة والمجادلة، أي تبيّنونه لنا لنفهمه، حتى لكأن ذلك الدّليل العلميّ المطلوب من عندهم كان خفيّا مستورا عن السّائل: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾: أي لا علم لكم ولا دليل في الحقيقة والواقع بل ما تتبعون إلا الوهم والظّن الباطل، وقصارى أمركم أنكم تخرصون، والخرص والتّخمين لا يثبت معه حكم، وكثيرا ما يفضي إلى الكذب، وفي مقابل موقفكم الدّنيء في إفلاسكم من الحجة، قل لهم يا محمد: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾:

والحجة البالغة هي الدّليل المقنع والموصل إلى القصد، وقد أثبت الله لذاته العلية أعلى درجات العلم، وله وحده الحجج المقنعة في إحقاق الحق وإبطال الباطل، وقد بيّنها على ألسنة رسله سيما في القرآن الكريم، إذ يعتمد في منهجية دعوته إلى الله وإلى صراطه المستقيم على الحوار والإقناع، ويدعو إلى النّظر العقلي والتّأمّل الواعي، ثم يترك النّاس لحريتهم واختيارهم للرشاد أو الغي ويقول للرسول: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩). فلا قهر ولا إلزام، وتلك هي سنة الله في خلقه، فلو شاءت قدرته أن يجعلكم على أتقى قلب رجل واحد كالملائكة لما أعجزه ذلك.

وقد تكرّر هذا المعنى في القرآن بأساليب مختلفة ليترسّخ في الذّهن، أما علم الله الأزلي وقضية القضاء والقدر والجدل العقيم في ذلك فأمر لا نملك فيه الوسائل المعرفية في حدود عقولنا القاصرة.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾: ولما كان الإتيان

بالشّهداء من وسائل إثبات الدّعوى، وقد أفلسوا في الإتيان بالدّليل والبرهان، أمر الله رسوله أن يطالبهم بالإتيان بمن يشهدون أن الله هو الذي حرّم ما نسبوا إليه من تقاليدهم الباطلة، وهذا الطّلب من باب التّعجيز لغلق الطّريق على الخصم.

﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعَ أَهْوَآءَ الذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا وَالذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾:

أي وعلى فرض أنهم شهدوا أو أحضروا من يشهد على زعمهم أن الله حرّم هذا الذي يدّعونه فكذّب أيها الرّسول تلك الشّهادة لأنها زور وكذب على الله، و"إن" تفيد الشّكّ في حصول الشّرط، ثم لتسجيل تكذيبهم بآيات الله أظهر في مقام الإضمار فقال تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعَ أَهْوَآءَ الذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا﴾. والأهواء: جمع هوى وهو الميل إلى ما عاقبته الضّرر، وحاشا لرسول الله أن يشهد على الباطل وإنما النّهي على قاعدة: "إياك أعني واسمعي يا جارة"، وأنه لا يكفي للداعية أن يكتفي بالسّكوت على الباطل، بل لابدّ من التّنديد به حتى لا يظن النّاس أن السّكوت يعني الرّضى بالأمر الواقع، إذ أن كل انحراف عن إرشاد الله فهو من الهوى المتبع والله تعالى يأمر رسوله بالاستقامة على نهجه فيقول: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ (الشورى:١٥). ويقول: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:١٤٥).

﴿وَالذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾: تكررت الصّلة لإفادة أن المتصفين بهما هم صنف واحد أي المشركون أو اليهود على الاحتمال المتقدم في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾. ونفي إيمانهم باليوم الآخر زيادة على وصفهم بالتّكذيب هو لزيادة التّنديد بهم ولإثبات الضّلال لهم لقوله تعالى: ﴿الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ﴾ (سبأ: ٨).

وبعض المفسّرين وزّعوا الصّلتين ما بين أهل الكتاب والمشركين، فجعلوا

الذين كذّبوا بالآيات لأهل الكتاب: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ للمشركين أي هم يسوّون الأصنام بربّهم -سبحانه وتعالى- في عبادتهم لها، أي يجعلون له عديلا، والعبادة الحقّة لا تكون إلا لله تعالى، والله أعلم.

الوصايا العشر

أ)- النص:

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿تَعَالَوْا﴾: أقبلوا، فيه ترفق بالمخاطبين وإشعار بمعاني العطف والرّحمة. ﴿اتْلُ﴾: بمعنى أقرأ وأقصّ بمجرّد التبليغ. ﴿إِمْلَاقٍ﴾: الفقر. ﴿الْفَوَاحِشَ﴾: جمع فاحشة، ما عظم ذنبه من الكبائر. ﴿وَصَّاكُم بِهِ﴾: الوصية والإيصاء الأمر بشيء يفعل في غيبة الآمر فيؤكّد على المأمور بفعله. ﴿يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾: يبلغ كمال رجولته

فيستطيع تدبير شؤونه بنفسه. ﴿بِالْقِسْطِ﴾: بالعدل، أي لا يبخس حق غيره بأية وسيلة كانت. ﴿وُسْعَهَا﴾: الوسع: أي الطّاقة والجهد. ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾: أي تفرّقكم السّبل الأخرى المخالفة لسبيل الله.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر وأبو جعفر ويعقوب قرأوا: "تَذَّكَّرُونَ" بتشديد الذال لإدغام التّاء الثّانية في الذال بعد قلبها. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص وخلف بتخفيف الذّال على حذف التّاء الثّانية تخفيفا. ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر "أَنَّ" بفتح الهمزة وتشديد النّون. وقرأ حمزة والكسائي وخلف "وَإِنَّ" بكسر الهمزة وتشديد النّون، فلا تحويل في نظم الكلام. وقرأ ابن عامر ويعقوب: "وَأَنْ" بفتح الهمزة وسكون النّون على أنها مخففة من الثّقيلة واسمها ضمير شأن مقدر والجملة بعده خبره، والأحسن تخريجها بأنها تفسيرية.

د)- البيان والتّفسير:

بعد إبطال المحرّمات التي ابتدعها المشركون من لحوم الأنعام والتّنديد عليهم في ذلك انتقل السّياق إلى بيان أصول المحرّمات التي نهى الله عنها، والتي بلّغها كل رسول ونزل بها كلّ كتاب وصية من عند الله تبارك وتعالى لما فيها من حق وعدل هما أساس الحياة الطّيبة.

وقد بدأت بـــ"قل" وهي كلمة تتكرر في القرآن سيما في المكيّ منه، وتحظى سورة الأنعام منها بالنّصيب الأوفر، وتأتي لزيادة الاهتمام بالمقول عندما يتعلق الأمر بموضوع ذي أهمية في التّشريع والإرشاد والتّوجيه، وسمّيت الآيات

الثّلاث بالوصايا العشر لتذّييلها بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ ولها فضل عظيم في مجال الدّعوة الإسلامية، أثبتته عدة روايات منها:

أ)- عن عبادة بن الصّامت قال: قال رسول الله ﷺ «**أيكم يبايعني على هذه الآيات الثّلاث ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُم﴾. ثم قال: فمن وفّى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئا فأدركه الله في الدّنيا كانت عقوبته، ومن أخّره إلى الآخرة كان أمره إلى الله، إن شاء آخذه وإن شاء عفا عنه**».[1]

ب)- وعن ابن مسعود أنه قال: «من سرّه أن ينظر إلى وصية محمد التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُم...﴾ إلى قوله: ﴿...لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

ويلاحظ في أسلوبها التّنوّع بين صيغتي الأمر والنّهي، في حين أن الله تعالى يذكر أنها كلها محرّمات، ولا شك أن لذلك التّنوّع ما يبرّره من النّكت البلاغية التي تفنّن بعض المفسّرين في بيانها. ثم نلاحظ ذلك التّرفّق والتّلطّف في دعوة المخاطبين إلى الاستماع إلى ما يتلى، منزلا من الرّبّ تعالى -وهو الرّؤوف بعباده- حين دعا رسوله أن يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يخفض جناحه للمؤمنين، وذلك لاستئناس النّافر وائتلاف القلوب.

وعن الأحكام التي تضمّنتها الوصايا يقول الإمام الشّيخ محمود شلتوت في تفسيره للأجزاء العشرة الأولى: "رسمت هذه الآيات للإنسان طريق علاقته بربّه الذي يرجع إليه الإحسان والفضل في كل شيء، ﴿أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً﴾

١- رواه الحاكم في المستدرك من حديث عبادة، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأنعام، حديث ٣١٩٨، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ووضعت الأساس المتين الذي يبنى عليه صرح الأسر التي تكوّن الأمة القويّة النّاجحة في الحياة ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وسدّت منافذ الشّرّ الذي يصيب الإنسان من الإنسان في الأنفس والأعراض والأموال، وهي عناصر لا بدّ لسلامة الأمّة من سلامتها: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم﴾، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾. ثم ذكرت أهمّ المبادئ التي تسمو بالتزامها والمحافظة عليها الحياة الاجتماعية الفاضلة: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾، ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾. وختمت بأن هذه التّكاليف وتلك المبادئ هي الصّراط المستقيم، بعث به محمد يبيّنه ويدعو إليه، كما بعث به جميع الرّسل السّابقين".[1]

أ)- **الوصية الأولى**: النّهي عن الشّرك بالله.

قال تعالى: ﴿**أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾، بدأ تعالى بأشنع المحرّمات وأفدحها ظلما وهي الشّرك بالله، والشّرك بالله منه جليّ وخفيّ، فالجليّ مثل اتخاذ الأصنام أو عبادة الشّمس والقمر وما إليهما من عظيم المخلوقات اعتقادا بأن لها تأثيرا على السّلطة الغيبية المهيمنة وراء الأسباب والسّنن؛ ذلك الاعتقاد الذي عبّر عنه القرآن على لسان المشركين عندما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(الزمر:٣) وهذا الشّرك لا يخصّ الجانب العقائدي بل يتعداه إلى الجانب التّشريعي حين يرضى المشركون بما يشرّع لهم شركاؤهم من الجنّ والأنس كما فصّلته الآيات السّابقة.

ب)- **الوصية الثّانية**:الإحسان إلى الوالدين.

﴿**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾: وهنا يقدر فعل أمر أحسنوا إليهم إحسانا، جاء التّعبير بالمصدر المفيد للتأكيد والمبالغة، وهو يتعدّى بحرفي "الباء" "وإلى" فيقال: أحسن به، وأحسن إليه. وتدلّ "الباء" على الإلصاق، و"إلى" تدلّ على الغائية.

١- محمود شلتوت، تفسير القرآن، ص ٣٩٣.

والإلصاق أبلغ في التّأكيد على الإحسان.

والإحسان ضدّه الإساءة، ولم ترد الوصية بالنّهي عنها، لأن ترك الإساءة بالنّسبة للوالدين مما تدعو إليه الفطرة السّليمة غير أنها موقف سلبي أزاء إحسان الوالدين بولدهما، إذ الإحسان لا يتحقق جزاؤه إلا بإحسان مثله كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ (الرحمن:٦٠). والمطلوب من الولد في هذا المقام هو السّعي لإرضاء والديه بما يحقق لهما من الخير والنّفع سيما في حالة عجزهما كما ترشد إليه آية سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوۤاْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً امَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ (٢٣-٢٤).

وحسب الوالدين قدرا ومنزلة عند الله وتأكيدا لحقهم على الأولاد أن يرد أمر الله بالإحسان إليهما مقرونا بطاعته وعدم الإشراك به، وأن يجيء مكرّرا بتلك الصّيغ المختلفة، سيما في حقّ الأمّ، ذلك لأنهما عماد الأسرة التي بصلاحها وتماسكها يكون تماسك المجتمع وصلاحه.

ج)- **الوصية الثّالثة:** النّهي عن قتل الأولاد.

﴿وَلاَ تَقْتُلُوۤاْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ امْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾: قتل الأولاد جريمة شنعاء تنمّ عن اعتلال في الفطرة وقساوة في الطّبع، وكان العرب في جاهليتهم يمارسون ذلك لدوافع كثيرة سيما وأد البنات، وقد جاءت نصوص القرآن منددّة بتلك الجريمة ومتوعدة بأشدّ العقاب.

وهنا قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوۤاْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ امْلاقٍ﴾، عطفت الجملة على ما قبلها في الأمر بالإحسان إلى الوالدين، والله تعالى في معرض الإحسان لم يأمر به للأولاد كما فعل بالوالدين، بل نهى عن قتل الأولاد لعلة الفقر الحاصل: ﴿مِنْ

إمْلاق﴾، ذلك لأن إحسان الوالدين إلى الأولاد أمر فطريّ في طبيعة الإنسان السّويّة، فهو لا يحتاج إلى من يذكّره بذلك، غير أن الظّروف القاسية التي قد يتعرّض لها الإنسان من جهة، وضغوط التّقاليد والأعراف الفاسدة من جهة أخرى، تفسد تلك الطّبيعة وتدفع الإنسان أحيانا إلى تصرّفات حمقاء، لا يتحاشاها حتى مع أعزّ النّاس لديه.

والإسلام -وهو دين العدل والرّحمة- جاء لينقذ البشرية من وهدة الظّلم والفساد، ومن خلال التّعبير القرآني في سورتي الأنعام والإسراء في النّهي عن قتل الأولاد بصفة عامّة ووأد البنات بصفة خاصّة كما ورد في سورة التّكوير تتلخّص أسباب هذه الظّاهرة الفاسدة في ما يلي:

أ)- الخوف من الفقر الواقع أو المتوقع، ولذلك جاء النّهي وعلّته على صورتين مختلفتين، ففي الواقع قال في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، وقال في الفقر المتوقّع في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ (٣١).

ب)- خوف العار بفاحشة أو سبي، أو تزوّج البنت بغير كفئها في الشّرف والحسب.

ج)- قتل الأولاد تديّنا ووفاء بنذر ذبح أحدهم للآلهة كما تفيده آية: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ (الأنعام:١٣٧).

ولا يزال الفقر هو الغول الذي يخيف النّاس ويدفعهم إلى ارتكاب أبشع الجرائم، وهو المشكل العويص الذي تحتار فيه الشّعوب والحكومات، وللإسلام طرقه العملية الحكيمة في معالجته تتمثل في تحريضه على التّكافل الاجتماعي برعاية الطّبقات المحرومة، وضمان القدر الضّروريّ من العيش الكريم بما شرعه من الزّكاة

وأنواع الصّدقات ومن توفير تكافئ الفرص للجميع في مجال العمل والكسب وضمان العدالة الاجتماعية في الإدارة والتّسيير.

د)- **الوصية الرّابعة**: النّهي عن قرب الفواحش.

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾: الجملة معطوفة على النّهي السّابق: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم﴾، فهي الله تعالى عن الاقتراب من الفواحش سدًا للذريعة، وأطلق الكلمة: ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ لتشمل كل أنواعها مما هو مستهجن في نظر العقول السّليمة، وحتى ما هو مستقبح عرفيا، صيانة للأخلاق العامّة في المجتمعات المسلمة وحفاظا على كرامة الإنسان من كل ما يفسد عليه دينه وعقله وعرضه.

وقوله تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، يعني ما يرتكب من هذه الفواحش خفية أو علانية، وقد تعدّدت آراء العلماء في تحديد المقصود من الفاحشة الظاهرة والباطنة، ومهما كانت تلك التّحديدات فإن أمثلتهم لا تؤخذ على أنها هي المعنى المقصود، بل هي أمثلة لهذه الدّلالة العمومية، ذلك لأن الأوضاع الاجتماعية تختلف وتتغيّر باعتبار المجتمع الواحد، أو ما بين مجتمع وآخر حسب الأعراف والتّقاليد، وحسب النّظم والإيديولوجيات، ويبقى تحديد المثال مرهونا بمدى تقدير الضّرر الفرديّ أو الاجتماعي النّاتج عن كل تصرّف.

هـ)-**الوصية الخامسة**: النّهي عن القتل.

﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: القتل في مصطلح الفقهاء هو إزهاق روح إنسان متحقق الحياة قارّها بفعل من شأنه عادة أن يزهق الرّوح يقوم به إنسان مؤاخذ بعمله، وعرّفت النّفس بـــ"أل" الجنسية لإفادة الاستغراق والنّهي فيها للتّحريم، ولقد تكرّر النّهي عن القتل في القرآن وفي السّنة، وهو من الفواحش الكبرى المنهي عنها سابقا، خصّصها الله

بالذّكر لما فيها من فساد عظيم، ولإهراق الدّماء عواقبه الوخيمة في زرع الإحن والبغضاء بين الأفراد والجماعات، قد لا يعفّي عليها الزّمن، ولا ينسيها الصّلح وأداء الدّيات.

وهذه الجريمة المنكرة صحبت البشرية منذ نشأتها الأولى بدافع الحيوانية في الإنسان عندما تتغلب على العقل والحكمة، وفي قصة ابني آدم قابيل وهابيل المذكورة في سورة المائدة ما يدلّ على ذلك، غير أن النّظم الإنسانية في مختلف الحضارات المتعاقبة منذ بدء الخليقة كلها متّفقة على أن القتل العمد بغير حق جريمة شنعاء لا يستسيغها عقل ولا يقرّها دين، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾، أي في الدّيانات السّابقة، ذلك لأن الحياة حق مقدّس هو أغلى منحة من الله لخلقه، فلا يملك انتزاعها إلا هو، لأن الذي يملك الإيجاد يملك الإعدام.

والشّريعة الإسلامية -إذ شنّعت بهذه الجريمة- فقد عنيت كل العناية ببيان أحكامها الدّنيوية، إن بالطّرق الوقائية لتفادي وقوعها، أو بالطّرق العلاجية متى وقعت، وهي مترفقة حكيمة في القتل الخطأ، وصارمة متشددة في القتل العمد، وقد تولّى الفقهاء تفاصيل تلك الأحكام في موسوعاتهم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ بيان للحالات التي يسقط عن النّفس البشرية حقها في الحياة، فيصبح قتلها أمرا مشروعا وحقا غير منهيّ عنه، والأحوال التي يثبت فيها ذلك الحق منها ما ذكره القرآن، ومنها ما ورد في السّنة، غير أن العلماء أزاء تلك النّصوص قد يتفقون أو يختلفون في إباحة القتل بها. قال رسول الله ﷺ: **«لا يحلّ دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثّيب الزّاني، والنّفس بالنّفس، والتّارك لدينه المفارق للجماعة»**.[1] وأما تارك الصّلاة ومانع الزّكاة ومرتكب

١- رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمر، كتاب القسامة والمحاربين، باب ما يحل به دم المسلم، حديث ٣٢٧٧.

الشّذوذ الجنسي والسّحر...إلخ، فهو مجال لاختلاف العلماء تطلب آراؤهم من مظانّها.

﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: الإشارة إلى كل المحرّمات السّابقة هي مما وصّاكم الله به لتعقلوها وتعوا حكمتها، لأن ما كنتم عليه في جاهليتكم غير معقول ولا محمود.

و)- **الوصية السّادسة**: النّهي عن أكل مال اليتيم.

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّه﴾: هذه هي الآية الثّانية من الوصايا العشر، وهي معطوفة على ما قبلها، واليتم هو الإنفراد، واليتيم من فقد والديه أو أحدهما.

وتشتمل هذه الآية على وصايا أربع تندرج كلها في مراعاة الحقوق المتبادلة بين النّاس وتنظيم قواعد التّعامل معهم تحقيقا للعدالة الاجتماعية وصونا لحقوق الضّعيف العاجز، ومن في مجتمع النّاس أضعف من اليتيم؟ وإذا ترك له والده مالا فقد يصبح بذلك عرضة للطامعين، لأن للمال شهوة عارمة في نفوس البشر لا تقلّ إلحاحا وإغراء عن شهوة الجنس، ولذلك نجد في التّعبير القرآني في كل الشّهوات التي تميل إليها النّفوس يأتي بالنّهي عن القرب منها كما في هذه الآية: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ﴾.

ولما كان هذا التّحذير الشّديد من قرب مال اليتيم يمنع حق التّصرّف فيه سواء في حفظه أو استثماره وذلك يوقع الأوصياء على اليتامى في حرج جاء هذا الاستثناء: ﴿إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلى غاية بلوغ الأشدّ: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّه﴾، أي لا تقربوا ذلك المال إلا بالكيفية التي هي أحسن بما يضمن حفظه وإنماءه إلى غاية بلوغ أولئك الأيتام القوة البدنية والعقلية التي تؤهلهم لحسن التّصرّف في أموالهم بجدارة واستحقاق.

وقد عرف المجتمع الجاهليّ هذا النّوع المسلّط على المستضعفين من الرّجال والنّساء والولدان، ولذلك جاء حشد من الآيات في كل من القرآن المدني والمكيّ توصي باليتيم تربية وتنشئة صالحة لشخصه وصونا وإنماء لماله.

ز)- **الوصية السّابعة**: إيفاء الكيل والميزان.

﴿وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾: الكيل والوزن وسيلتان للتعامل وتبادل المنافع بين النّاس وهما المعياران اللّذان تمّ تحديدهما عالميا بتقدير وحدة كل منهما مع جزئياتها ومضاعفاتها، وهما أنجع وسيلة للعدل وإيفاء الحق في البيع والشّراء، ولذلك ركّز القرآن على القسط فيهما وتوعّد المطففين بالحساب العسير، وجعل من أصحاب "مدين" وقصّتهم مع رسولهم شعيب عليه السلام جعل من عذابهم عبرة لأولي الألباب.

والتّطفيف في الكيل والميزان أكل لأموال النّاس بالباطل لا يقلّ خطورة عن أكل مال اليتيم، ويلاحظ أن الله تعالى هنا أمر بالإيفاء، بينما في قصة قوم شعيب ينهى عن الإنقاص كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ (هود: ٨٤). ذلك لأن الإيفاء هو أدلّ على السّماحة والكرم في التّعامل، وأدنى درجة العدل أن لا يكون النّقص، وهو الحق الذي ينبغي أن لا يبخس.

وقوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل، و"الباء" فيه للملابسة، كما أن الإيفاء يكون بين الطّرفين المتعاملين.

﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾: تعقيب على الأمر بالإيفاء تستدعيه قاعدة اليسر ورفع الحرج في ما لا يكون بمقدور الإنسان أن يأتي به، لأن الكيل والميزان بدقة بالغة وبأدوات بالغة الحساسية لا يمكن إلا في نفيس كالذّهب وما إليه مما لا يتسامح فيه النّاس، أما المواد المتداولة كالحبوب والخضار فحسب المتعاملين أن يتحريا الإيفاء بما هو متعارف لدى النّاس بحيث يرتاحون أن المكيل أو الموزون

مضبوطان بدون زيادة ولا نقصان.

ج)- **الوصية الثامنة**: الأمر بالعدل.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾: توالت الوصايا الإلهية السّابعة والثّامنة والتّاسعة بصيغة الأمر معطوفا بعضها على بعض، والتّناسب بينها واضح جليّ لكونها تتصل بالمعاملات بين النّاس في أقوالهم وأفعالهم وتعهّداتهم، وهنا جاء الأمر بالعدل في القول بصفة عامّة ليشمل كلّ ما من شأنه أن ينصف حقا أو يجلب نفعا ويدفع ضرّا، والنّاس يتعاملون بمنطقهم لأنه تعبير عما يجول في النّفس من معان تتبلور إلى أعمال في واقع النّاس تأخذ منحى الحق والعدل أو الجور والظّلم وفق ما استقرّ في نفس الإنسان من نوايا وإرادات.

والتّعليق بأداة الشّرط: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ فيه إشارة إلى هذا المعنى لأن سكوت الإنسان لا ينبني عليه حكم بعدل أو ظلم، والله وحده هو العليم بذات الصّدور.

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾: ولهذا الوصل معناه المناسب في هذا المقام، لأن القرابة مظنة للعصبية قد تحمل القائل على أن لا يكون عادلا في قوله ميلا لنفع قريبه، فنبهت الآية إلى وجوب الالتزام بالصّدق والعدل ولو كان الذي نقول عنه قريبا لنا، كما فصّل الله ذلك في سورتي المائدة والنّساء.

ط)- **الوصية التاسعة**: الوفاء بعهد الله.

﴿وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: جاءت الوصية التّاسعة بعد أمر الله تعالى لنا بالعدل في الأقوال والأفعال، فهو يأمرنا أن نوفّي بعهده، وأضيف إلى اسم الجلالة ليقتضي كل عهد فيه معنى الانتساب إلى الله.

ولله مع عباده عهود كثيرة ورد ذكرها في القرآن الكريم، منها ما عهد الله به إلينا، ومنها ما عاهدناه نحن عليه، ويندرج فيه أيضا الوفاء بكل العهود التي تنعقد

بين النّاس في تدبير شؤونهم وفي معاملتهم الخاصّة والعامّة والتي أمر الله تعالى بالمحافظة عليها والوفاء بها في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (المائدة:١).

والوفاء بعهد الله هو أساس كل الفضائل، وضدّه الخيانة وقد ندّد الله بها وحرم المتّصفين بها من محبته فقال تعالى في سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال:٢٧).

وقال في نفس السّورة: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (الأنفال:٥٨).

ومن الفضائل التي يتمادح بها العرب في جاهليتهم الوفاء بالعهد إذ يعتبرون الغدر والخيانة خساسة لا يتصف بها الكرماء الأحرار، والوفاء من صفات الخالق يتصف بها المصطفون الأخيار من الرّسل والأنبياء ومن عباد الله الأولياء الصّلحاء.

وقوله تعالى بعد الإشارة إلى وصيته: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لأن المقام يقتضي من المؤمنين تذكير بعضهم لبعض بهذه الوصايا والنّصح بها في كل حين، حتى لا تتغلّب عليهم متع الحياة وزخارفها طبقا لقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر:٣).

ي)- **الوصية العاشرة:** اتّباع صراط الله المستقيم.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾:

هذه هي الوصية الجامعة العامّة المتضمنة لجميع أحكام الله في دينه الحنيف عقيدة وشريعة، والجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾. والإشارة "هَذَا" هي لدين الإسلام، وتشبيه الإسلام بالطّريق المستقيم هو

تشبيه لشيء معنويّ بشيء محسوس مشاهد، ذلك لأن أحكام الدّين واضحة جلية في أصوله وفروعه، وأن الله أكمل دينه بالتّمام، وبيّنه الرّسول أتمّ بيان، ويؤيد المقصود من الصّراط المستقيم بأنه دين الإسلام قوله تعالى في الآيات اللاحقة: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:١٦١). والسير على الصّراط المستقيم مضمون العواقب لأنه مأمون السّير، لأن مخططه ومعبّده هو الله تعالى العليم بما يصلح لعباده.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾: إنها سبل الباطل المتشعّبة، وتسمّى "بنيّات الطّريق" يتيه سالكها في التواءاتها، ثم هي سبب التّفرّق والتّيه، فهى الله عن اتباعها وحذّر المسلمين مما أصاب الذين تفرّقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات، وكفى من ذلك التّحذير الشّديد ما جاء في آخر السّورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ (الأنعام:١٥٩).

وقد جاء التّحذير بصرامة أشدّ لرسول الله وأصحابه حين قال له تعالى في سورة هود: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (١١٢-١١٣).

ولوقع هذا التّحذير في نفس رسول الله كان يقول لأصحابه: «**شيّبتني هود وأخواتها**».[1] فما بال غيره من هذا التّحذير؟.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: وبما أن الوصايا العشر قد جمعت بين

١- رواه الطبراني في المعجم الكبير بهذا اللفظ من حديث عقبة بن عامر، حديث ١١٤٨٨٩. ورواه الحاكم في المستدرك بلفظ قريب من حديث ابن عباس، كتاب التفسير، باب تفسير سورة هود، حديث ٣٢٧٢، وقال: صحيح على شرط البخاري و لم يخرجاه.

أساس العقيدة وبين أصول الشّريعة في تحديد الحقوق والواجبات فإن صمّام ذلك وضمان تنفيذه إنما هي تقوى الله الجامعة لكل خير، فجاءت خاتمتها بهذه الوصية الشّاملة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ جعلنا الله من المتقين الأبرار.

والله أعلم

وجه الشّبه بين القرآن والتّوراة،

والغرض من إنزالهما

أ)- النص:

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾: أي التوراة، وهو كتاب معهود معروف لدى العرب لاحتكاكهم باليهود. ﴿مُبَارَكٌ﴾: كثير البركة والنّماء. ﴿تَمَاماً عَلَى الذي أَحْسَنَ﴾: أي تماما للنعمة والكرامة على الذي يحسن اتباعه، أو بمعنى كتابا تامّا

كاملا في تشريعاته وتوجيهاته. ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾: أي لتجنّب أن تقولوا، فهي في موضع التّعليل لفعل: ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾. ﴿طَآئِفَتَيْنِ﴾: الطّائفة: الجماعة من النّاس. ﴿عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾: الدّراسة: معاودة قراءة النّصّ لتأمّل معناه. ﴿لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾: أي في الفطنة والذّكاء. ﴿صَدَفَ عَنْهَا﴾: أعرض ومنع النّاس عنها، فهو يأتي لازما ومتعدّيا. ﴿سُوٓءَ الْعَذَابِ﴾: أي أشدّه وأقساه.

ج)- البيان والتّفسير:

الوصايا العشر -كما تقدم- هي من أصول العقائد ومكارم الأخلاق التي تتفق فيها جميع الشّرائع السّماوية على ألسنة الرّسل كما يدلّ عليه قوله تعالى في الشّورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ (١٣). وقد عطف الله على ذكرها إخباره تعالى عن الغاية من إنزال التّوراة على موسى عليه السلام ليمهّد بذلك إلى الإشادة بمكانة القرآن، وأنه هو الآخر كتاب هداية وأنه مبارك عميم الخير والنّفع لمن اتبعه. جاء العطف بـ"ثم" عطفا لجملة على جملة، فيكون في الكلام تقدير لفعل "قل" أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين بعد تلاوة الوصايا عليهم أننا آتينا موسى الكتاب.

وهذا الرّبط بين إنزال القرآن وإنزال التّوراة يرد كثيرا في القرآن الكريم، ذلك لأن العرب قد اشتهرت عندهم التّوراة، وبينهم أهل الكتاب من اليهود يقصّون عليهم من أخبارها متعالين مفاخرين، حتى تمنّى عقلاؤهم لو يتنزل عليهم كتابٌ مثل التّوراة لكانوا أهدى الأمم وأبرزها إيمانا وعلما، كما ذكر الله ذلك على لسانهم في سورة فاطر فقال: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ (٤٢).

وقد تقدّم في أول السّورة قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ (الأنعام:٩١).

وبهذا الرّبط المحكم تتمّ المناسبة بين محاور السّياق فالوصايا العشر جاءت بها التّوراة والقرآن، وكلاهما كتاب مبارك منزّل من عند الله، كما أن الصّلة محكمة بين قوله تعالى في آخر الوصايا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً﴾ وبين إشادته تعالى ببركة القرآن والأمر باتباعه في قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾، لأن القرآن هو صراط الله المستقيم كما وصفه رسول الله.

والقدر المشترك بين التّوراة والقرآن أن في كليهما هدى ونورا، وفيهما التّفصيل للأحكام التّشريعية والبيان لكلّ الأخبار الغيبية، وما يحتاجه الأتباع لتدبير شؤون دينهم ودنياهم فقال تعالى في شأن القرآن: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام:٣٨). وقال مخاطبا الرّسول في سورة النّحل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل:٨٩).

وقال هنا في شأن التّوراة: **﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾**: فالضّمير يرجع إلى معلوم لدى العرب وهم بنو إسرائيل، وفائدة التّركيز على مبدأ من مبادئ العقيدة، وهو الإيمان باليوم الآخر: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾، لأنه العنصر الفعّال في تقويم سلوك المؤمن، فقد يكون مؤمنا بالله ورسوله حق الإيمان، ولكن تعتريه ظروف قاسية من فقر وجهل تنسيه حتى في نفسه أحيانا وقد تأخذه زينة الدّنيا ومتعتها فيطغى ويستبعد ما ينتظره من الحساب والجزاء، وكل من أسلاف العرب واليهود قد ترعرعوا في حظيرة الإيمان والحنيفية من عهد إبراهيم عليه السلام غير أن الأخلاف بدّلوا وغيّروا فتاهوا وضلّوا.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: ومن فضل

الله على أمة العرب واليهود أن أرسل إلى كل منهما رسولا، وأنزل عليه كتابا يتصف بالبركة والخير.

وهنا يتجه الخطاب لمشركي العرب بالأمر باتباع الكتاب واتقاء عذاب الله إن هم تمادوا على كفرهم وعنادهم، لأن رجاء رحمة الله منوطة باتباع هدي الكتاب الذي أنزله الله وتبيّنت آياته وبراهينه وأصبحت حجة عليهم.

﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ، أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾: وكان المشركون يعتذرون بأميّتهم وانعدام بعثة الرّسل فيهم، ثم هم يعتزون ويفخرون بأنهم أوفر الأمم ذكاء وأفصح لسانا وأمضى عزيمة، وناهيك بقريش سادة العرب، فلو تنزّل عليهم كتاب كاليهود والنّصارى لأصبحوا من أعظم الأمم إيمانا وهداية.

﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾: أي جاءكم ما يبيّن لكم طريق الصّواب، ويدفع عنكم كل حيرة وارتياب أو انتقاص من شأنكم أمام أهل الكتاب، أي جاءكم ذلك في القرآن المشار إليه في الآية السّابقة، فهو هدى وهو رحمة بما يشتمل عليه من أنواع الأحكام والحكم والإرشادات، لا إعنات لكم فيها ولا إحراج.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾: "الفاء" للتفريع عن الإعذار السّابق، والاستفهام إنكاريّ لم يذكر متعلق الظّلم ليشمل كل أنواعه، وأعظمه إنكار ما ثبت بالدّليل الحق، تكذيبا وعنادا ثم إعراضا عنها وصرفا للناس عن الإيمان بها، كما تقدم هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ (الأنعام: ٢٦).

﴿سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾

تهديد ووعيد لأولئك الذين ضلّوا وأضلّوا بأنهم يجزون يوم القيامة أقسى العذاب وأعظمه بسبب ظلمهم لأنفسهم ولغيرهم، وقد يعجّل لهم ذلك العذاب في الدّنيا خزيا وذلاً بالقتل والأسر كما حدث لكثيرهم قال تعالى: ﴿الذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ (النحل:٨٨).

والله أعلم

يوم لا ينفعُ إيمانٌ ولا عملٌ

أ)- النص:

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يَنظُرُونَ﴾: من نظر ينظُر بالعين إذا أبصر الشّيء، وبمعنى الانتظار للشيء أن يقع، ومنه قوله تعالى: ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (الأعراف:١٤). ﴿تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾: أي ملائكة الموت لقبض الأرواح أو ملائكة العذاب. ﴿يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾: الإتيان هنا مجازي أي إتيان أمره بالعذاب أو بحساب النّاس يوم القيامة، والتّقدير: أمر ربّك. كما في قوله في سورة النّحل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (النحل:٣٣). ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾: المقصود بها ما طلبه الكفار من الرّسول تحدّيا وتعجيزا كإنزال الكتاب في قرطاس، وتفجير العيون في الصّحراء، أو هي بعض أشراط السّاعة كطلوع الشّمس من مغربها كما في التّفسير المأثور. ﴿كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾: أي قرنت

إيمانها الاعتقادي بالطّاعة والعمل الصّالح.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد إبطال الأعذار وما يتعلل به الكفّار، وبعد إنذارهم بسوء العذاب، يجيء هذا الاستفهام الإنكاريّ بـــ"هل" لبيان أن لا أمل في إيمانهم إذا ما كان إيمانا اضطراريا عند مجيء ما كانوا يطلبونه من رسول الله على وجه التّحدّي والتّعجيز بمثل قولهم في أول السّورة: ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ (الأنعام:٨). فقال جلّ من قائل: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَاتِيَهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَاتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَاتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَاتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ**﴾:

لقد درج الكفار في المطالبة بذلك، لا ليؤمنوا ويصدّقوا بما دعاهم إليه رسول الله، لأن الله قال في شأنهم: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُومِنُواْ إِلاَّ أَنْ يَشَآءَ اللَّهُ﴾ (الأنعام:١١١)، ولكنهم يفعلون ذلك ليتمادوا في الصدود والتّكذيب، فهم إذ صدفوا عن آيات الله المبسوطة بين أيديهم ولا يؤمنون بها عن اختيار واهتداء، فكيف يؤمنون إذا قضي الأمر وجاء ما ينتظرون؟، وهو أحد أمور ثلاثة:

أ)- **مجيء الملائكة**: إما ملائكة الموت أو ملائكة العذاب لاستئصال شأفتهم كما فعلوا بالأمم المكذبة.

ب)- **إتيان الرّبّ تعالى**: أي إتيان أمره بنصر أوليائه ودحر أعدائه، وكل ذلك في واقع الدّنيا، أما في الأمور الغيبية من الحياة الأخرى فله تأويل آخر كإذنه تعالى بالحساب يوم القيامة.

وللمفسرين تأويلات في توجيه معنى هذه الآية الكريمة ما بين إسقاطها على واقع الكفار مع رسول الله وأصحابه في مسار الدّعوة الإسلامية، وهو الأوفق

لمضمون السّورة ما بين مبتداها ومنتهاها، أو هي إخبار بأمور غيبية تكون عند قيام السّاعة الكبرى.

وفي التوجيه الأول يقول صاحب المنار: "وجوّز بعض المفسّرين أن يكون هذا الانتظار بحسب ما في أذهانهم (أي الكفار) لا بحسب الواقع، فإنهم اقترحوا إنزال الملائكة عليهم ورؤية ربهم".[1]

أقول: وذلك ما رجّحه العلامة سيد قطب في ظلاله إذ قال: "ولقد ورد في روايات متعددة أن المقصود بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَاتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ﴾ هو أشراط السّاعة وعلاماتها التي لا ينفع بعدها إيمان ولا عمل، وعَدُّوا بذلك أشراطا بعينها، ولكن تأويل الآية على وفق السّنة الجارية أولى، فقد سبق مثله في أول السّورة وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ﴾ (الأنعام:٨).

والملاحظ أن السّياق يكرّر وهو بصدد الكلام عن الشّريعة والحاكمية ما جاء مثله من قبل وهو بصدد الكلام عن الإيمان والعقيدة، وأن هذا ملحوظ ومقصود".[2]

﴿يَوْمَ يَاتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾:

آيات الله الملجئة للإيمان الاضطراري الذي لا ينفع صاحبه قد يراها كل فرد وحده، وذلك عند الغرغرة وهي ما يسمّيه العلماء "السّاعة الصّغرى" إذ ينكشف الغطاء للمحتضر في تلك السّاعة العصيبة لخروج الرّوح فيرى أشياء من عالم الغيب

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٨/٢٠٩.

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن، ٨/٩٧.

لا يراها الأحياء من حوله، وهم لم تسلب منهم إرادتهم بعدُ، وهذه اللّحظات العصيبة يفصح عنها قوله تعالى في سورة ق: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ، وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ، لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (١٩-٢٢).

وبالنّسبة لقيام السّاعة الكبرى فقد جاء في صحيح البخاري في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم السّاعة حتى تطلع الشّمس من مغربها، فإذا رآها النّاس آمن من عليها فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل»**.[1]

ونرى أن لا تعارض بين التّأويلين ما دام القرآن يخاطب النّاس أفرادا وجماعات، وقد ذكر الله إيمان فرعون حين أدركه الغرق فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (يونس:٩٠).

وكان جواب الله له في عدم اعتبار ذلك الإيمان: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس:٩١).

﴿**قُلِ انتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ**﴾: الخطاب للرسول ليقول للمشركين يتحداهم كما تحدّوه بأي يدوموا على انتظارهم لما يتمنّون حدوثه للرسول ولدينه من موت أو زوال، وذلك في معرض التّهديد والوعيد، بينما ينتظر المسلمون في ثبات ويقين وعد الله بالنّصر والتّمكين، ولقد صدق الله وعده وخسر هنالك الكافرون.

والله أعلم

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب التفسير، باب "لا ينفع نفس إيمانها"، حديث ٤٣٨٣.

موقف الرّسول من المختلفين في الدّين،

وجزاء الحسنة والسّيئة

أ)- النص:

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾: من التّفريق أي الفصل في أجزاء الشيء الواحد، وجعله فرقا وأبعاضا ويكون ذلك بالاختلاف في أصول الدّين كما قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾(البقرة:٨٥) كما فعل اليهود والنّصارى. ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾: أي فِرَقا متناحرة. تتشيّع كل فرقة إلى مذهبها. ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾: أي لا صلة بينك وبينهم إطلاقا، أي يكون الرّسول بريئا منهم. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أي الله وحده يتولى جزاءهم، وليس ذلك إلى الرّسول ولا إلى غيره. ﴿جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾: أي اكتسب الحسنة بعمله، و"الباء" للمصاحبة والكلام تمثيل، ويجوز حمل المجيء على حقيقته، أي تكون الحسنة مكتوبة في صحيفة أعماله جيء بها للحساب. ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾: أي فله ثواب أمثالها، والأمثال جمع مثل، وهو المماثل المساوي.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَرَّقُوا۟﴾: قرأ الجمهور "فَرَّقُوا" بتشديد الرّاء. وقرأه حمزة والكسائي

"فَارَقُوا" بألف بعد الفاء بمعنى: تركوا دينهم. ومآل القراءتين واحد. ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ﴾: قرأ الجمهور بإضافة "عَشْر" إلى "أمثالها"، وهو من إضافة الصّفة إلى الموصوف. وقرأه يعقوب بتنوين "عَشْرٌ" ورفع "أَمْثَالُهَا" على أنه صفة لـــ"عشر".

د)- البيان والتّفسير:

بعد الإنذار الشّديد للكفار وقوله تعالى لرسوله: ﴿قُلِ انتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ في معرض التّحدّي للكفار في ما ينتظرهم من الأهوال وسوء المآل، وما ينتظر المؤمنين من النّصر والتّمكين، حذّر الله تعالى من التّفرّق في الدّين بالمذاهب والأهواء والبدع، لأن من شأن الدّين أنه يجمع ويوحّد فقال جلّ من قائل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ**﴾:

اختلف المفسرون في شأن من نزلت هذه الآية، فرأى البعض أنها في شأن اليهود والنّصارى، إذ تفرّقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات، وقد قال تعالى محذّرا المسلمين من اتّباع سننهم: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:١٠٥).

وذهب آخرون أنها نزلت في شأن أهل البدع والأهواء، كما حدث في الواقع التّاريخي من نشوء الفرق الإسلامية والمدارس الكلامية، بحيث أصبحت كل فرقة ترى الحق إلى جانبها، وتخطّئ من خالفها في الرأي، بل تصل أحيانا إلى حدّ التّكفير.

وقال ابن عباس: المراد بها هم المشركون، لأنهم عبدوا أصناما متعددة، كما عبد البعض منهم الشّمس والقمر والملائكة، فتشيعت كل قبيلة لصنمها.

غير أن الآية الكريمة عامّة في مدلولها، فهي تتناول جميع من فرقوا دينهم ممن

كان أو سيكون، لأن الدّين عند الله يهدف إلى الوحدة والتّجميع، فهو واحد في أصوله ومبادئه العامّة، وإن اختلف في بعض الجزئيات والفروع. قال تعالى في شأن وحدة الدّين: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى:١٣).

والتّفرّق في الدّين من أخطر ما يصيب الأمّة في وحدتها، لما يقع فيه من اللّبس بين الحق والباطل، فيكتسي طابع القداسة عند العامّة من النّاس، وهم يعظّمون أئمّتهم، إذ لا يعرفون الحق إلا من خلالهم كما يعتقدون، بينما يجب أن يعرف الرّجال بالحق الذي يحوزهم لا العكس، ورسول الله يبرأ من الذين فرّقوا دينهم: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، أي لا ملّة بينه وبين هؤلاء إطلاقا.

فمهما ادّعى هؤلاء انتماءهم للإسلام وهم يرفضون بعض أحكامه في واقع حياتهم لأيّ سبب من الأسباب فقد ثبتت في حقهم براءة رسول الله، وأما جزاؤهم على أعمالهم فهو إلى الله الواحد، لأن الخلائق كلها تنتهي إليه، فينبّئهم بما كانوا يفعلون أي يعاقبهم.

وفي بيان معنى التّفريق في الدّين الذي يترتب عليه ذلك الوعيد الشّديد يقول الإمام ابن عاشور: "وتفريق دين الإسلام هو تفريق أصوله بعد اجتماعها، كما فعل بعض العرب من منعهم الزّكاة بعد رسول ﷺ فقال أبو بكر ﷺ: "لأقاتلن من فرّق بين الصّلاة والزّكاة".

وأما تفريق الآراء في التّعليلات والتبيينات فلا بأس به وهو من النّظر في الدّين، مثل الاختلاف في أدلة الصّفات، وفي تحقيق معانيها مع الاتفاق على إثباتها، وكذلك تفريق الفروع، كتفريق فروع الفقه بالخلاف بين الفقهاء، مع الاتفاق على صفة العمل وعلى ما به صحة الأعمال وفسادها، كالاختلاف في حقيقة الفرض والواجب.

والحاصل أن كل تفريق لا يكفّر به بعض الفرق بعضا، ولا يفضي إلى تقاتل وفتن فهو تفريق نظر واستدلال وتطلّب للحق بقدر الطّاقة، وكل تفريق يفضي بأصحابه إلى تكفير بعضهم بعضا، ومقاتلة بعضهم بعضا في أمر الدّين فهو مما حذّر الله منه. وأما ما كان بين المسلمين نزاعا على الملك والدّنيا فليس تفريقا في الدّين، ولكنه من الأحوال التي لا تسلم منها الجماعات".[1]

قلت: إن الواقع التّاريخي للمسلمين قديما وحديثا يدل على انزلاقات خطيرة بخلط السّياسة بأمور الدّين، وزجّ قداسة الدّين في النّزاع والصّراع على الملك والدّنيا بدءا بالفتنة الكبرى إلى ما نعيشه اليوم من التّطرّف الدّيني وما نتج عنه من التّقتيل والتّخريب لأجل الحظّوظ الدّنيوية باسم الدّين وادّعاء الأخذ بأحكامه ومبادئه.

﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾:

وعلى ذكر الجزاء والحساب، وبعد ذلك الإنذار الشّديد من عاقبة التّفريق في الدّين، تجيء هذه البشارة الإلهية بمضاعفة أجر المحسنين.

وتتجلّى رحمة الله وعدله في حساب عباده إذ جعل للحسنة الواحدة ثواب عشر أمثالها، وقد يضاعف لمن يشاء بأزيد من ذلك إلى سبعمائة حيث يتمّ الإنفاق في سبيل الله لإعلاء كلمته بالجهاد المقدّس إن بالنّفس أو بالمال أو بكليهما معا، فقال جلّ من قائل: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦١). وتقدير ذلك الأجر والثّواب موكول إلى علم الله لأنه تعالى أعلم

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٩٢/٨.

بالنّوايا والمقاصد.

واستعملت صيغة الحصر في جانب السّيئة: ﴿وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ للاهتمام بجانب نفي الزّيادة على المماثلة، لأن مقتضى العدل في العقوبة بالجناية أن تكون بالمثل لا أكثر والله يقول وله المثل الأعلى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ (النحل:١٢٦). ويتحقق الفضل بالصّبر والعفو: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ (النحل:١٢٦).

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: وهذا التّعقيب لتأكيد عدم الزّيادة في جزاء السّيئة، لأن أصحاب الحسنات لا يتصوّر الظّلم في حقهم لأنهم حصلوا من فيض رحمة الله ما كانوا به من المكرمين في ذلك الموقف الرّهيب.

وقد رويت أحاديث عن رسول الله تحدّد معيار التّفاضل في جزاء الحسنات وتقدير جزاء السّيّئات.

قال رسول الله في ما يرويه عن ربّه: «**يقول الله: إذا همّ عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة وإن لم يعملها، وإن عملها فعشر أمثالها، وإن همّ بسيّئة فلا تكتبوها، وإن عملها فسيّئة واحدة**».[1] والأمر للملائكة الكرام الحافظين الكاتبين.

وفقنا الله لصالح الأقوال والأعمال.

والله أعلم

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ قريب، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، حديث ٢١٣. ورواه الترمذي من حديث أبي هريرة أيضا بهذا اللفظ، أبواب تفسير القرآن، باب "ومن سورة الأنعام"، حديث ٣١٤٦، وقال: حديث حسن صحيح.

اتّباع ملة إبراهيم وإخلاص العبادة لله،
والمسؤولية الشّخصية أمام الله

أ)- النص:

قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿هَدَانِي﴾: الهداية في حقيقتها هي التّعريف بالطّريق. ﴿صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: والصّراط المستقيم الطّريق الواسعة التي لا عوج فيها. ﴿دِينًا قِيَمًا﴾: قِيَم: وصف مبالغة لقائم بمعنى معتدل، أو بمعنى القيام بالأمر كوصفه تعالى بالقيّوم، أي دين يقوم به أمر النّاس ونظامهم في الحياة. ﴿مِّلَّةَ﴾: جمع ملل، وهي هنا بمعنى الدّين. ﴿حَنِيفًا﴾: المجانب للباطل والمائل إلى الحق. ﴿نُسُكِي﴾: أي العبادة، ويكثر استعماله في عبادة الحج والتّقربّ إلى الله بالذّبائح والقرابين. ﴿لَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾: أي ما تكسبه من ذنوب إنما يرجع عليها بالوبال، فلا ينال شركهم من الله شيئا. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: الوزر: الحمل الثّقيل، أي لا تحمل نفس عن نفس أخرى شيئا، وكل امرئ رهين بما كسبت يداه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿قِيَماً﴾: قرأ عاصم وحمزة وابن عامر والكسائي وخلف: "قِيَماً" بكسر القاف وفتح الياء مخففة وهو من جمع مصادر "قام"، فهو وصف للدين بمصدر القيام المقصود به كفاية المصلحة للمبالغة. وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب: "قَيِّماً" بفتح القاف وتشديد الياء وصف مبالغة لـ "قائم". ﴿مَحْيَايْ﴾: قرأ نافع: "مَحْيَايِ" بسكون الياء الثّانية إجراء للوصل مجرى الوقف وهو نادر في النّثر، والرّواية عن نافع أثبتته في هذه الآية. ومعلوم أن النّدرة لا تناكد الفصاحة. وقرأ البقية بفتح الياء، وروي ذلك عن ورش. ﴿وَأَنَا أَوَّلُ﴾: قرأ نافع وأبو جعفر بإثبات ألف "أنا" إذا وقعت بعدها همزة ويجري مدّها على قاعدة المدّ. وحذفها الباقون قبل الهمزة. واتفق الجميع على حذفها قبل غير الهمزة، تخفيف جرى عليه العرب في الفصيح من كلامهم نحو: ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾، واختلفوا فيه قبل الهمزة، والأفصح إثباتها نحو: "أنا أفعل".

د)- البيان والتّفسير:

جاءت هذه الاستئنافات الثّلاثة، وقد تكرّر فيها الأمر الإلهي لرسوله بـ"قل" ليعلن بصرامة وعزيمة أمام المشركين بعد تمام محاجتهم ومجادلتهم في أصول العقيدة وبيان دلائل التّوحيد كما فصلته السّورة الكريمة، يعلن الرّسول أنه قد اختار لنفسه ما كان يدعوهم إليه، وأنه ثابت على ما جاءهم به، وأن الإنسان مرهون بما كسبت يداه، وأن الجزاء عند الله والرّجوع إليه وحده فقال: **﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**: تبيّن من الواقع الاجتماعي في حياة البشر أن نجاح الدّعوات للإصلاح والتّغيير يرتكز أساساً على القدوة الصّالحة في شخصية الدّاعية قولا وعملا وسلوكا،

ورسول الله ﷺ هو النّموذج الأعلى للدعاة إلى الله، فقد أمره ربه أن يعلن عن أمور ثلاثة هي في صميم الدّعوة لتيئيس المشركين من كل مساومة أو مداهنة في أمر الدّين:

أ)- ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: بالتّأكيد على أن الهداية من الله، وبوصف الرّبوبية التي تنضح بمعاني العطف والرّعاية. والصّراط المستقيم هو المنهج الرّبّاني الذي دعي الخلق إلى اتباعه، وهو هذا الدّين القويم الذي يضمن لكم سعادة الدّارين، وهو الاعتصام بحبل الله، وحبل الله هو هذا القرآن المجيد بكل ما تضمّنه من عقيدة وشريعة: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران:١٠١).

والهداية إليه تتمّ لمن شاء الله من عباده، وهي أعظم نعمة منه تعالى بعد نعمة الخلق والإيجاد، وقد علّمنا الله أن ندعوه إلى طلبها في مناجاتنا إياه عند كل صلاة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة:٦)، وهو الدّين القيّم في فطرة الله التي فطر النّاس عليها، مؤسس على ملّة إبراهيم عليه السلام، هذا الرّسول الكريم الذي كثيرا ما وصفه الله تعالى بالحنيفية، وهي تنافي الشّرك، وتكذّب دعوى المشركين بأنهم حنفاء، كما تكذّب دعوى اليهود والنّصارى بأنهم على ملّته.

وقد أبدعوا في دينهم ما أبدعوه من ضروب التّصوّرات الفاسدة بعقيدة التّثليث، أو باتخاذهم الأحبار والرّهبان أربابا من دون الله فقال جلّ من قائل في سورة آل عمران: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٧-٦٨).

وقد بيّنا سابقا أن الإسلام هو الدين المرتضى لخلقه إلى قيام السّاعة، وهو ملتقى جميع الدّعوات السّماوية من الرّسل أجمعين، وإن كانت تختلف في بعض

الأحكام التطبيقية حسب ظروف كل أمة، كما قال تعالى في شأن القرآن بعد ذكر الكتب السّابقة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة:٤٨).

ب)- **﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾:**

استئناف ثان، أمر الله الرّسول أن يعلن به في إصرار وثبات، فافتتحت الجملة بحرف التّوكيد "إن"، وهذا الإعلان يتضمّن الإخلاص في العبادة لله وحده، وخصّصت الصّلاة والنّسك بالذّكر للتعريض بالمشركين الذين يتخذون الوسطاء بينهم وبين الله في قيامهم بتلك العبادة، وذلك مناف للإخلاص الذي يقتضيه الدّين الحق، بل حتى الرّياء عند القيام بالعبادة يعتبر من الشّرك الأصغر كما جاء في الحديث الشّريف.

وتجرّد المؤمن لله في كل حركة وسكنة مما يترتب عن حياته أو موته يمثل حقيقة العبودية للخالق التي هي المقصد الأعلى للخليقة كما أرادها الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦).

وما كان ضلال المشركين أو انحراف الموحّدين من أهل الكتاب أو من بعض المسلمين إلا من فساد تصوّرهم لحقيقة الألوهية عندما تتغلّب التّقاليد الفاسدة ويستهويهم شياطين الجنّ والإنس فيخلطون بين العبادات والعادات الفاسدة التي تؤلّه بعض المخلوقات، وتعظّم غير الله، وإن كانوا من عباده المكرمين.

والعبادة الحقة لا تتحقق إلا بالتّوجّه الخالص لله وحده بخلجات القلب وحركات الجوارح، بل يطلب ذلك التّوجّه الخالص بالنّية والقصد حتى في ما يكون في ظاهره مسعى دنيويا، فإن للمؤمن فيه أجرا ومثوبة إذا جعل حركته في

حياته وسيلة لابتغاء مرضاة الله.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾: في هذا النّفي للشرك تعريض بالمشركين في عبادتهم، وأنها مشوبة بالشّرك مردودة عليهم: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾، الآمر هو الله تعالى وأمره يقتضي من المؤمن السّمع والطّاعة: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (النور:٥١).

والرّسول الدّاعي إلى الله هو أوّل المستجيبين لما يدعو إليه في قناعة وثبات وحبّ واغتباط.

ج)- ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾: إنه الإقرار بتوحيد الرّبوبية في صيغة الاستفهام الإنكاريّ أن يعبد غير الرّبّ الخالق لكل شيء، وفيه الرّدّ القاطع للمشركين في محاولتهم مع الرّسول أن يعترف بربوبية آلهتهم، وقد تقدم في السّورة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ (الأنعام:١٤).

والتّعبير بأن الله هو ربّ كل شيء لإفادة أن تلك الأرباب المعبودة من دون الله هي نفسها مخلوقة ومربوبة لله.

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾: هاتان الجملتان من القول المأمور به لتقرير التّبعة الشّخصية لكل فرد، وأن مسعى المشركين في مشاقّة رسول الله لا يرجع بالوبال إلا عليهم، لأن كل نفس رهينة بما كسبت إن خيرا أو شرّا، ولفظ "على" يفيد معنى الشّر والإثم، بينما "اللام" يفيد العكس، قال تعالى في الجمع بينهما في سورة البقرة: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (٢٨٦)، أي من خير أو شرّ.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾: تكملة للمعنى السّابق، والوزر هو الحمل

الثّقيل، يستعار لكثرة الذّنوب والآثام، أي لا تحمل نفس ذنوب نفس أخرى، بل لا يحاسب أحد من الخلق إلا بما اقترفت يداه، فلا تغني نفس عن نفس شيئا، ذلك لأن الكفار يغرون السّفهاء بأنهم يتحمّلون عنهم أوزارهم إذا كان هناك يوم للحساب كما ينذرهم به رسول الله. قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٢).

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾: هذه الجملة يحتمل أن تكون من جملة القول فيكون الخطاب فيها للمشركين تهديدا ووعيدا، ويحتمل أن تكون مستأنفة منفصلة عمّا قبلها فيكون الخطاب للفريقين: الرّسول والمشركين.

وإنباء الله النّاس عند رجوعهم إليه هو تجسيد لآثار الإيمان أو الكفر عند كل فريق كما كان مقدرا في علم الله، بحيث تتضح أحوال الخلق بعد أن سلبوا الحرية والاختيار، وزالت بينهم وبين الله وساطة رسله في الإنباء والإبلاغ، فلا شكّ ولا ارتياب ولا تكذيب.

والملاحظ في التّبعة الشّخصية التي لا يتحمّل فيها الإنسان إثم غيره، أن ذلك يتضح في ما إذا ظلم نفسه، أما إذا نصب نفسه إماما للشرّ والضّلال فإنه يتحمل إثم أتباعه في الضّلالة مصداقا لقوله تعالى في سورة النّحل: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ (النحل:٢٥). ولكل إمام مأمومون وأتباع. فاللّهم اجعلنا هداة مهتدين، لا ضالين ولا مضلين، آمين.

والله أعلم

حكمة استخلاف الإنسان في الأرض

أ)- النص:

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾: جمع خليفة وهو من يخلف أحدا كان قبله في مكان أو عمل أو ملك، ولإضافته إلى الأرض هي على معنى "في الأرض" كقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿هُوَ الذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ (فاطر:٣٩). ﴿دَرَجَاتٍ﴾: جمع درجة، وهي مستعارة لتفاوت النّاس في القدرات والحظوظ، الإيتاء الإعطاء. البَلوْ والابتلاء: الاختبار. ﴿سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾: استعيرت السّرعة في العقاب لتمام مقدرته تعالى على ذلك وعدم التّردّد في إنزال العقاب لسبب من الأسباب.

ج)- البيان والتفسير:

الجملة معطوفة على ما قبلها في سياق ذكر البعث والجزاء لبيان حكمة الله في خلقة الإنسان، وأنه تعالى لم يخلقه عبثا، بل وضع لحياته سننا لا تتخلّف في حياته الفردية أو الاجتماعية، فقال حلّ من قائل: **﴿وَهُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَاكُمْ﴾**.

والمناسبة واضحة بين الجملتين، وهو ذلك الامتداد والتواصل بين الحياتين

بتعاقب الأجيال في الحياة الدّنيا بحيث يخلف بعضها بعضا إلى ما يشاء الله، ثم يكون المصير المحتوم عند انتهاء الآجال بالنّسبة للأفراد والجماعات حتى قيام السّاعة الكبرى بالنّسبة للكون كله.

ولهذه الحقيقة الكونية التي جاءت في ختام هذه السّورة الكريمة ارتباط مكين بحقيقة الألوهية والرّبوبية التي عالجتها السّورة بإسهاب، فالله الخالق المدبّر والمتفرّد بالوحدانية في ألوهيته وربوبيته كما أقرّته الآية: ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ هو الذي قضى بحكمته استخلاف هذا الإنسان في الأرض، وركّب فيه من غرائز حبّ البقاء ما يدفعه للمجاهدة والمثابرة متنافسا مع بني جنسه، وقد تفاوتت درجاتهم في القدرات والحظوظ، وعلّل الله ذلك بالابتلاء ليميز الله الخبيث من الطّيب، فيظهر النّاس في عالم الواقع كلّ على ميزته وفق اختياره الحرّ، لأن الله تعالى يعلم مراتب النّاس كما قدّرها في علمه الأزليّ.

وقد تكرّرت حكمة هذا الاستخلاف للإنسان في كثير من آي القرآن لتركيز تلك الحقيقة الكونية في الحياة والإنسان، ولبيان القاعدة الاجتماعية التي تنتظم حياة النّاس وهم يتدافعون ويتنافسون:

أ)- منها قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف:٧).

ب)- وقال في سورة الزّخرف: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٣٢).

ج)- وقال رسول الله في ما رواه أبو سعيد الخدريّ ﷺ: «**إن الدّنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدّنيا واتقوا**

النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».[1]

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: عملية الاختبار والإمتحان تفرز الفائز من الخاسر ولكلّ جزاؤه عند الله، إما مغفرة وثوابٌ، وإمّا لعنة وعقاب. وكثيرا ما تقترن هاتان الصّفتان ترغيبا وترهيبا ووعدا ووعيدا حتى يعيش المؤمن الوفيّ بين الخوف والرّجاء، لا يتمنى على الله الأماني الكاذبة، ولا يقنط من رحمة الله.

ولما كان من طبيعة النّاس سيما الفجّار والكفار أنهم يستبطئون عذاب الله وتغرّهم الأماني، فقد جاء وصف العقاب بالسّرعة لدفع ذلك الوهم، وأنه تعالى قادر على إنزال ذلك متى شاء وكيفما شاء، ولو أن رحمته سبقت غضبه، فقد جاء في القرآن الكريم في شأن عقاب المجرمين: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (القلم:٤٤-٤٥). وجاء في الأثر: «**إن الله يمهل ولا يهمل**». ومع سرعة عقابه تعالى للمجرمين، فهو غفور رحيم بالتّائبين المنيبين، وقد أكد هذا الوصف بمؤكدات ثلاثة تطمينا للمتقين المحسنين، واستمالة لأهل المعاصي والآثام عساهم ينتهون.

جعلنا الله من المحسنين التّائبين، ومحبانا مغفرته ورضوانه آمين، والحمد لله ربّ العالمين.

وللّه الحمد

تمّ بحمد الله الجزء الرابع،

ويليه بإذن الله تعالى الجزء الخامس، من بداية سورة الأعراف

١- رواه مسلم من حديث أبي سعيد، كتاب الرّقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، حديث ٥٠٥٤.

الفهارس

فهرس الآيات والعناوين الرّئيسيّة 458
فهرس الأحاديث..... 464
فهرس الآثار..... 469
فهرس الحكم والأقوال 472
فهرس الأبيات الشّعرية..... 473

فهرس الآيات والعناوين الرّئيسيّة

تفسير سورة المائدة

الآية	العنوان	الصّفحة
32-27	أول جريمة قتل بين البشر	5
34-33	حكم الحرابة وقطع الطّرق	16
37-35	التّقوى والجهاد أساس الفلاح، ولا فدية للكفار من عذاب النار	21
40-38	حد السّرقة، ومشيئة الله في العذاب والمغفرة	25
42-41	توافق المنافقين واليهود في المسارعة إلى الكفر وموقف الرسول منهم	29
44-43	التّوراة هدى ونور يجب الإذعان لحكم الله فيها	35
47-45	أحكام القصاص في التّوراة وإلزام النّصارى بالحكم بها	39
48	القرآن مصدق للكتب السّابقة ومهيمن عليها	44
50-49	الحكم بشريعة القرآن	49
53-51	نهي المؤمنين في موالاة اليهود والنّصارى	53
56-54	المرتد لا يضر إلا نفسه، ولدين الله نصراؤه	59
60-57	النهي عن موالاة الكفار، لما لهم من نقمة على المسلمين	67
63-61	بعض المواقف المخزية في منافقي اليهود	72
66-64	إلقاء العداوة بين اليهود جزاء افتياتهم على الله	76

69-67	واجب الرّسول في التّبليغ وأن لا يخشى مكر النّاس	82
71-70	معاملة اليهود لرسلهم بالتّكذيب والقتل	87
74-72	الحكم بكفر من اعتقد ألوهية المسيح أو التّثليث	91
77-75	بيان الحقيقة الشّخصية والنّوعية لكل من المسيح وأمه	94
81-78	إثبات اللّعن لبني إسرائيل وسبب ذلك	98
86-82	علاقة كل من اليهود والمشركين والنّصارى بالمؤمنين	101
88-87	إباحة الطّيبات والتزام الاعتدال وتقوى الله	106
89	حكم أيمان اللّغو والأيمان المغلظة وكفارتها	109
93-90	التّحريم النّهائي للخمر والميسر	114
94	التّمهيد لحكم قتل الصّيد في حالة الإحرام	119
95	الصّيد في حالة الإحرام، وجزاء صيد البر	123
96	حلّية صيد البحر	127
97	مكانة البيت الحرام	130
100-98	الله بالمرصاد لأنواع العباد	135
102-101	النّهي عن الفضول فيما لم يترل على الرّسول	138
105-103	افتراء الكفار على الله في بعض العادات، مسؤولية المسلمين في حق الدّعوة لأنفسهم ولغيرهم	142
108-106	توثيق الوصية حين الموت	149
110-109	إجابة الرّسل عن موقف أقوامهم، والتّذكير بنعم الله على عيسى بن مريم	157

113-111	دعوة الحواريين إلى الإيمان وطلبهم إنزال المائدة	164
115-114	إنزال المائدة	168
118-116	تنزيه عيسى لربه وتبرئته لنفسه.....	172
120-119	الجزاء الأوفى للصادقين، وبراعة الختام للسورة.....	176

تفسير سورة الأنعام

الآية	العنوان	الصفحة
-	المدخل إلى السورة	181
3-1	استحقاق الله الحمد وأدلة وحدانيته.....	183
6-5	طبيعة البشر في التكذيب والإعراض وإنذارهم بالعقاب .	187
11-7	شبهات الكفار على الرسالة، والاعتبار بعاقبة المكذبين..	192
16-12	التدليل على وحدانية الله والبعث والجزاء	197
19-17	عناية الله برسوله وشهادته له بالصدق	203
24-20	معرفة أهل الكتاب للنبي وموقفهم منه وإنكار المشركين لشركهم	208
26-25	إعراض المشركين وابتعادهم عن تدبر القرآن.....	213
30-27	أماني الكفار في موقفهم أمام النار	216
32-31	خسران الكافرين وحسرتهم يوم القيامة	221
34-33	تسلية الرسول في حزنه لإعراض قومه	225

37-35 عجز الرّسول عن الإتيان بآية، وأصناف النّاس في الاستجابة 229
39-38 تمام علم الله وقدرته في كفالة أرزاق المخلوقات، وتقدير خصائصها للبشر 233
45-40 اللّجوء إلى الله في الشدائد دليل على غريزة التّوحيد الفطرية 237
49-46 تسخير الخواص لنا وإرسال الرّسل من مظاهر القدرة الإلهية 243
53-50 بشرية الرّسول وأخلاقيات الدّعوة 246
55-54 من أخلاقيات الدّعوة في معاملة أصناف النّاس 252
58-56 الرّسول قدوة في ما يدعو إليه وهو يؤكد بشريته 257
62-59 الأدلة على علم الله وقدرته في الأنفس والآفاق..... 261
67-63 قدرته تعالى في التنجية من الشّدة وفي إنزال العذاب على العصاة 272
70-68 المفاصلة بين الرّسول والمؤمنين وبين المستهزئين بآيات الله إلا للتذكير بالقرآن 277
73-71 دعاء غير الله ضلال وتخبط، وهدي الله هو الإسلام..... 283
79-74 مجادلة إبراهيم لأبيه وقومه، واستدلاله على عدم ربوبية الكواكب بأفولها،وتصريحه بعقيدته وبراءته من الشرك... 290
82-80 محاجة إبراهيم لقومه، ويقينه بالله أمام تهديدهم..... 297
87-83 إبراهيم أبو الأنبياء، وهم عنصر الهداية 302

90-88 وجوب الإقتداء بهدي رسل الله، وهل شرع من قبلنا شرع لنا؟ 307
92-91 نفي إرسال الرّسل وإنزال الكتب انتقاص من قدر الله... 313
94-93 الافتراء على الله ظلم وجزاء الظّالمين يوم القيامة..... 322
99-95 مجالي قدرة الله في الأرض والسّماء..... 327
103-100 أصناف من شرك العرب، وتنزهه تعالى عن ذلك 337
107-104 موقف النّاس من تصريف آيات القرآن وتقرير حرية الدين يمنع سيطرة المبلغين له على النّاس..... 342
110-108 من أخلاقيات الدّعوة الكَفّ من سبّ آلهة الخصم 346
113-111 الإياس من إيمان المشركين، وسنة الله في فتنة الشّياطين .. 351
115-114 احتكام الرّسول لله، وآياته في التّدليل على صدق نبوءته 357
119-116 ضلالات المشركين وحكم الله في ذبائحهم 361
121-120 النّهي عن ذبائح المشركين 366
123-122 لا يستوي المؤمن والكافر، وسنة الله في عاقبة الماكرين .. 369
125-124 الرّسالة فضل من الله، وقابلية الإيمان جهاد وعدمها 373
128-126 الإسلام صراط الله المستقيم، جزاء المهتدين والضّالين من الجن والإنس 380
132-129 ولاية الظّالمين لبعضهم بعض هي من حكمة الله وتقديره وعدله في الجزاء 385
135-133 تهديد المشركين بعذاب الاستئصال، ونصر الله لأهل الحق والعدل..... 390

140-136 حكم الله في بعض العادات الجاهلية كما يتعلق بالحرث والأنعام 396
144-141 قدرة الله تعالى في توفير الأرزاق 403
147-145 بيان ما حرّمه الله على المسلين وعلى اليهود من الأطعمة 411
150-148 نفي حجج المشركين في نسبتهم شركهم وتحريمهم إلى الله417
153-151 الوصايا العشر 422
157-154 وجه الشّبه بين القرآن والتّوراة والغرض من إنزالهما..... 435
158 يوم لا ينفع إيمان ولا عمل..... 439
160-159 موقف الرّسول من المختلفين في الدّين وجزاء الحسنة والسيئة..... 433
164-161 إتباع ملة إبراهيم، وإخلاص العبادة لله والمسؤولية الشخصية أمام الله 448
165 حكمة استخلاف الإنسان في الأرض..... 454

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الصفحة
أتشفع في حد من حدود الله	26
اتق دعوة المظلوم	387
أحلت لكم ميتتان	413
إذا تغولت الغيلان	286
إذا رأيت الله يعطي العبد من الدّنيا	242
إذا صلحت صلح الجسد كله	23
إسرافيل هو الملك الموكل بالنّفخ	289
الإثم ما حاك في صدرك	150
أمن قلة نحن يا رسول الله	137
إن أبا سفيان والوليد بن المغيرة	214
إن أعظم المسلمين جرمًا	141
إن الدّنيا حلوة خضرة	455
إن الشّيطان يجري من ابن آدم	355
إن الله يؤيد هذا الدّين	311
إن الله بعثني برسالته	83
إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها	141
إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم	112
إن اليهود أتوا النبي	31

إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل..... 91
أن رسول الله رأى شاتين تنتطحان..... 235
إن لم يكن لك علي غضب فلا أبالي..... 179
إنّ لي عشرًا من الولد..... 08
إنّ اليهود أتوا النبي..... 31
إنما أنا بشر مثلكم 280
إنها كائنة و لم يأت تأويلها بعد..... 275
إنها نفحات ثلاث 289
إنهم آمنوا بي و لم يروني 121
إني لم أومر بذلك..... 108
أيكم يبايعني على هذه الآيات..... 425
أيكون المؤمن كذابا..... 34
بل ائتمروا بالمعروف 148
التّقوى هاهنا 24
جعل الله الرحمة مئة جزء..... 393-200
حبّ الدّنيا رأس كل خطيئة 104
خرج رسول الله وهو غضبان..... 139
الخمر أم الخبائث..... 117
خير القرون قرني..... 188
دعا رسول الله قومه إلى الإسلام 194
ذروني ما تركتم 141

رأيت عمرو بن عامر الخزاعي 144
السّلطان ظل الله في الأرض 18
سلوا الله لي الوسيلة 21
شيبتني هود وأخواتها 434
صيد البر لكم حلال 130
عجبًا لأمر المؤمن 242
الغراب والحداء والعقرب 125
القطع في ربع دينار 26
القلوب بين إصبعين من أصابع الرّحمن 351
كلا والله، لتأمرن بالمعروف 99
كان تميم الدّاري وعدي بن بدّاء 152
اللّهم ربّ هذه الدّعوة التّامة 21
اللّهم لا ترسل على أمتي عذابًا 276
اللّهم لا مانع لما أعطيت 205
اللّهم يا مقلب القلوب 286-50
لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس 424
لا عدوى ولا طيرة ولا غول 285
لا يحل دم امرئ مسلم 429
لا يدخل الجنة أحدكم منكم بعمله 203
لا يزني الزّاني حين يزني وهو مؤمن 23
لتؤدّن الحقوق إلى أهلها 236

لتتبعن سنن الذين من قبلكم 75-33
لتنقض عرى الإسلام عروة عروة 322
لو قلت نعم لوجبت 140
ليؤيدن الله هذا الدين بقوم 62
ليس كما تظنون 301
ما تقرب عبدي بشيء أحب 119-62-24
ما سقط من السنبل 406
ما فضلكم أبو بكر بكرة صلاة ولا صيام 62
ما من نفس تقتل ظلمًا 11
المدينة حرم من ما بين عير إلى ثور 124
مفاتح الغيب خمسة 264
من بلغه القرآن فكأنما شافهته به 207
من حافظ عليها كانت له نورًا 321
من حاول شيئا معصية الله 57
من رأى منكم منكرًا 149
من استحيا من الله حق الحياء 367
من مات فقد قامت قيامته 223
نزلت علي سورة الأنعام 181
هم فرطكم على الحوض 233
هو الطّهور ماؤه الحل ميتته 129
هو نور يقذفه الله في القلب 378

والله يا عم لو وضعوا الشمس عن يميني 284
يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا 118
يا رسول الله كيف تصنع بأيماننا 110
يا عبادي لو أن أولكم وآخركم 392
يا محمد أخبرنا عن الشّاة إذا ماتت 363
يتعاقبون فيكم ملائكة باللّيل 270
يتمثل لي الملك رجلاً 195
يقول الله: إذا هم عبدي 447

فهرس الآثار

طرف الأثر	الصَفحة
إدرأوا الحدود بالشبهات (عمر بن الخطاب)	28
إذا رضي الله على قوم	387
إذا سرّك أن تعلم جهل العرب (ابن عباس)	402
الأعمال القبيحة اعمال الظالم (السدي).....	224
إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثا (ابن عباس)	398
إنّ قوما من المشركين واليهود (ابن عباس).....	68
إن المشركين كانوا يعينون من أنعامهم (جابر بن زيد)	400
إن المقصود بالشّهادة هو (ابن عباس)	105
إن الآية نزلت في عمرة الحديبية.....	120
إنّ الله يمهل ولا يهمل	456
إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد (ابن عباس)	384
إنّ هذه الآية نزلت في حياة أبي طالب (الواحدي)	250
انتهينا انتهينا يا ربنا (عمر).....	117
إنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام (ابن عباس)	212
البحيرة التي يمنع درها للطواغيت (سعيد بن المسيب).....	144
البعير والنعامة (ابن عباس)	412
تتمثل الأعمال الصّالحة بصورة رجل حسن (عمرو بن قيس) ...	224
حشر البهائم هو موتها (ابن عباس)	235

كان المسلمون يسبّون أوثان الكفار (قتادة) 348
كان النّاس يسألون رسول الله عن أنواع الخير (حذيفة) 257
لأقاتلنّ من فرق بين الصّلاة والزّكاة (أبو بكر)..... 495
لأن أعطل الحدود بالشبهات (عمر) 29
اللّهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا (عمر)..... 115
لا يأتيني أحد إلاّ أطعمته (ثابت بن قيس) 407
لا والله، لا أفرق بين شيء (أبو بكر) 61
لما نزل تحريم الخمر 118
لما نزلت ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ 280
ما في القرآن آية أخوف عندي منها(الضّحاك) 75
ما ليس منفرج الأصابع (ابن عباس- مجاهد) 415
المراد بـــ"من فوقكم" أي من أمرائكم (ابن عباس)..... 275
المراد بها هم المشركون (ابن عباس) 444
المستقر الكون فوق الأرض (ابن مسعود) 334
المستقر هو رحم الأمهات (ابن عباس - ابن مسعود) 334
المستهزئين بالقرآن خمسة (ابن عباس)..... 353
من سرّه أن ينظر إلى وصية محمد (ابن مسعود) 424
من عسرهم ويسرهم (ابن عباس)..... 112
نزل القرآن بالعمد (الزّهري) 126
نزلت في أهل الأهواء (ابن عباس- ابن سيرين)..... 279
نزلت في شأن الزّنادقة (ابن عباس)..... 337

نزلت في قبيلتين من الأنصار 115
نزلت في النجاشي وقومه 102
هم القوم يتدارءون في الأمر (عائشة) 111
هي أشد آية في القرآن (ابن عباس) 74
يا ابن أختي إنما هي عشر ليال (عائشة) 129
يا عمر: لقد عرفته فيكم (عبد الله بن سلام) 210
يخرج المؤمن من الكافر (ابن عباس) 331
يدفع لكل مسكين ما يصح أن يصلى فيه (مالك) 112
يغلّلون في الدّنيا أسارى (الحسن البصري) 78

فهرس الحكم والأقوال

طرف القول	الصفحة
إياك أعني واسمعي يا جارة	421
الراضي بالشيء كفاعله	317
طويته على غرّة	352
العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب	103
كل رسول نبي وليس كل نبي رسول	88
لا خير في سرف، ولا سرف في خير	407
من تدخل فيما لا يعنيه لقي ما لا يرضيه	139
نعق فيهم غراب البين	12
يزع الله بالسلطان ما لا يزعه بالقرآن	22-13
يعرف السّمّ ليُتّقى	256

فهرس الأبيات الشّعرية

صدر البيت	الصّفحة
إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه	89
أرى خلل الرّماد وميض نار	80
أقول من التّحسر ليت شعري	80
إن الطّيور على أمثالها تقع	386
سوف ترى إذا انجلى الغبار	58
عرفنا كما عرفتم اهيولى	267
عز الأمانة أغلاها، وأرخصها	28
عيد بأية حال عدت يا عيد	08
فإن النّار بالعودين تذكى	80
فإن كانوا لحينهم نياما	80
فإن لم يطفها عقلاء قوم	80
ليس من مات فاستراح بميت	369-191
ماذا لقيت من الدّنيا وأعجبها	08
من يهن يسهل اهوان عليه	383-70
وإذا أتى الإرشاد من سبب الهوى	411
وإذا المنية أشبت أظفارها	271
والظّلم من شيم النّفوس فإن تجد	10

وعين الرّضا عن كل عيب كليلة 137
ولست بزاجر عنسا بكورا 70
ولست بقائم كالعير أدعو 70
ولست بصائم رمضان يوما 70
ولكني سأشربها شمولا 70
ولو عرف الطّبيب دواء داءٍ 271
وما من يد إلا ويد الله فوقها 387
ومن البلية عذل من لا يرعوي 189
ومن يعدل يجبّ الله شيئا 418
ووضع النّدى في موضع السّيف بالعلا 28
يد بخمس مئين مسجدًا وُدِيت 27

تعريف مختصر بالمؤلف

هـــو محمد بن ابراهيم سعيد المعروف بـــ(كعباش)، من مواليد بلدية العطـــف ولايـــة غرداية، من الجمهورية الجزائرية، وآل سعيد فرع أصيل من عشيرة أولاد بكّة في بلدة العطف(تاجنينت).

أبصر نور الحياة خلال 1929م في حضن أبوين كريمين:سعيد ابراهيم بن باحمد، وبهون شيخة بنت الحاج محمد. تركه والده فقيراً يتيماً لا يزيد عمره عن سنتين، وليس معه إلا أختان، توفّيت إحداهما فأصبح وحيد أمّه وقرّة عين لها، فاعتنت بتربيته على حبِّ الله ورسوله وعلى حفظ كتاب الله في سنٍّ مبكّرة، وقد وهبه الله ذاكرة قويّة وذكاءً لامعاً، ولم يكن كتّاب قريته ليُقْنِع طموحه في التّعلم، فارتحل إلى معهد القرارة عند الإمام الشيخ بيّوض الحاج ابراهيم بن عمر، ثم إلى تونس الخضراء حيث درس العلوم العربية والشرعية في الجامع الزيتوني ودرس العلوم التطبيقية في المعهد الخلدوني.

بدأ العمل في مجال التربية والتعليم أستاذاً ومديراً في القطاع الدّيني الحرّ في فترة الإستعمار، ثم في القطاع العمومي بعد الإستقلال الوطني حتى تقاعده عن العمل سنة 1990م.

انتسب إلى الجامعة الجزائرية في أوائل السبعينيات فحصل على شهادة الليسانس في الأدب العربي، وانخرط عضوا رسميّاً في حلقة العزابة للمسجد الجامع بالعطف في سنة 1958م، ثم عيّنته الحلقة إماماً ومرشداً في سنة 1970م، وهو ما يزال يقوم بمهمّته النّبيلة في الإصلاح الديني والاجتماعي نصحاً وإرشاداً وتجليةً لمعاني كتاب الله وسنّة رسوله على منبر المسجد، بعد أن حدا بصفوف الأجيال على مقاعد الدّراسة لما يقرب من أربعين سنة في مسيرة

مهنية متواصلة لم تنقطع بفترة مرض أوانحراف عن الخط لوجهة أخرى، وذلك بفضل الله تعالى

وقد أسهم المؤلف بقسط وافر من التضحية والجهد في صفوف جبهة التحرير الوطني ويتشرّف بعضوية منظمة المجاهدين دون منّ ولا غرور، وهو متزوّج وأب لتسعة أولاد، وفّقه الله تعالى إلى مواصلة مسيرته في نصرة دينه وخدمة كتابه، وجعل عمله خالصاً مخلصاً لوجهه الكريم، آمين.

- **الجزء الأول:** من بداية سورة الفاتحة إلى الآية **203** من سورة البقرة.
- **الجزء الثاني:** من الآية **204** من سورة البقرة إلى الآية **175** من سورة آل عمران.
- **الجزء الثالث:** من الآية **176** من سورة آل عمران إلى الآية **26** من سورة المائدة.
- **الجزء الرابع:** من الآية **27** من سورة المائدة، إلى آخر سورة الأنعام.

أيها الأخ المسلم:

لاشك أنك تتعرض لنفحات الرحمن وأنت تناجيه في صلاتك، أو تهيم في جلاله وأنت في خلواتك، أو تتلو كتابه في تدبر وإمعان، فتزيد إيمانا على إيمان...

لقد من الله علي بتلك النفحات، وأنا أرتع في رياض كتابه، وأستجلي مكنونات أسراره وعجائبه تحقيقا وتسجيلا على صفحات الدفتر ووعظا وإرشادا على خشبات المنبر، فها أنذا أُهديكها "أيها الأخ المسلم" خالصة نقية، وأنت الأخ الوفي، فتقبل مني هذه الهدية.

المؤلف

ردمك 4 -71- 787-9961 I.S.B.N